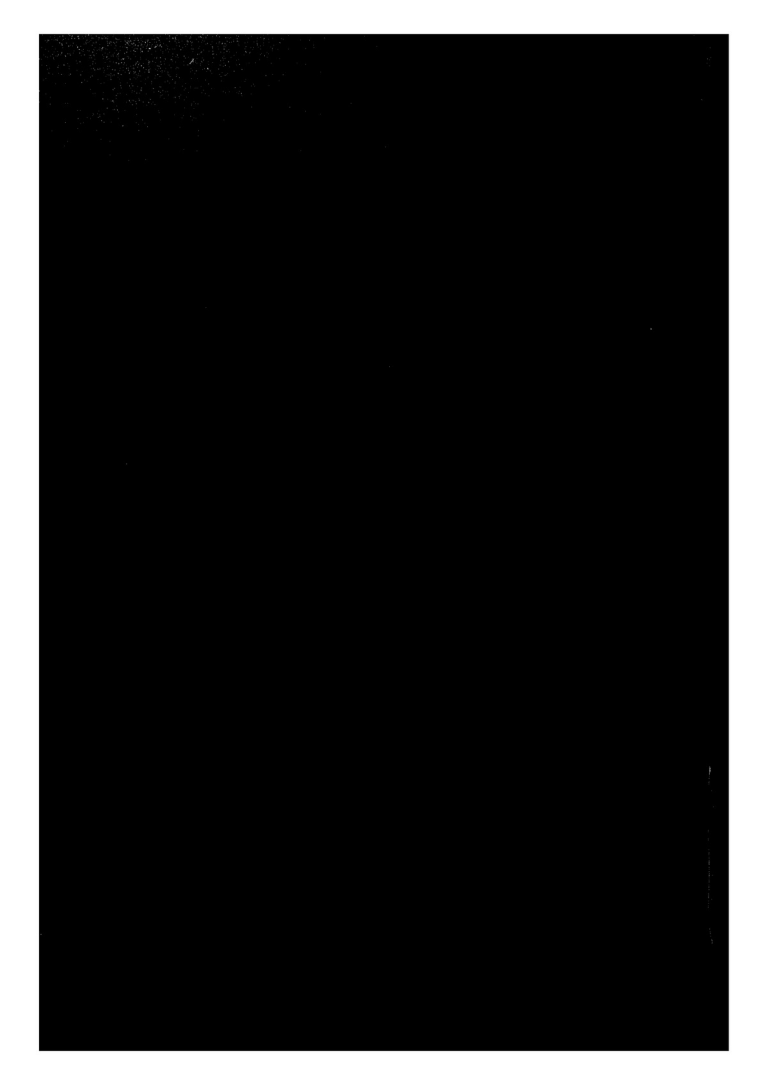


اهداءات ٢٠٠٢
أ/ رشاد كامل الكيلانى
القاهرة



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء
بإشراف
مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب التاسع عشر

الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(* وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم
بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ
ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ
وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ
وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ
ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ
فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ
يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ
لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾)

المفـردات :

(غَنِمْتُمْ) : الغَنِيمَةُ ؛ من الغنم وهو الفوز ، والمراد بها هنا ما أُخذ من أموال الكفار بالقتال .

(الجَمْعَان) : جمع المؤمنين وجمع الكفار .

(العُدْوَة) : طرف الوادى وحافته .

(الدُّنْيَا) : أى القريبة من المدينة .

(الْقُصْوَى) : البعيدة من المدينة .

(الرَّكْبُ) : العير وراكبوها وهم أبو سفيان ومن معه .

(عَنْ بَيِّنَة) : أى عن حُجَّةٍ واضحة .

(لَفَشِلْتُمْ) : لجبنتم وتهيبتم لقاء العدو : من الفشل وهو ضعف مع جبن .

(بِذَاتِ الصُّدُور) : أى بما تنطوى عليه القلوب .

التفسير

٤١ - (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ .....) الآية .

أمر الله رسوله بقتال الكفار حتى تنقطع فتنتهم ، بقوله قبل هذه الآية :

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) الآية .

وجاءت هذه الآية تبين حكم الغنائم المتخلفة من قتالهم ، وطريق قسمها .

والمعنى : واعلموا أيها المقاتلون فى سبيل الله أن ما أخذتموه من الكفار قهرا فواجب أن لله تعالى وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل خُمُسَهُ ، أما أخماسه الأربعة ، فهى للمقاتلين .

وذِكرُ الله تعالى مع الرسول وذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل مع أنه تعالى لا يأخذ من الغنائم شيئا ، لتعظيم حق هذه الجهات فى الخمس ، ولهذا كان الخمس فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يُخَمَّسُ خمسةَ أسهم تُوَزَّعُ على هذه الجهات الخمس وأما بعده صلى الله عليه وسلم فيسقط سهمه ، أما سهم ذوى القربى فقد اختلف فيه ، فقيل إنه باق بعده ، فيعطى منه للغنى والفقير منهم ، وقيل إنه لا يعطى منه لغنيهم ، بل يدخلون فى سهم اليتامى والمساكين ويسقط سهمهم ، فيعطون لفقرهم ، وقيل إن الأمر مفوض فى شأنهم إلى اجتهاد الإمام ، وقيل غير ذلك .

ورأى بعض الفقهاء أن سهم الرسول صلى الله عليه وسلم ينفق فى مصالح المسلمين ، كشراء السلاح ، وتحصين الحدود ، وبناء المدارس والمستشفيات وغير ذلك ، والمراد بذوى القربى بنو هاشم وبنو المطلب دون من عداهم ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد وشبّك بين أصابعه » . ولاقتصاره صلى الله عليه وسلم فى القسم عليهم دون غيرهم من بنى نوفل وعبد شمس قال صلى الله عليه وسلم : « إنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام » كما فى البخارى .

واليتامى : هم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم .

والمساكين : أهل الفاقة والحاجة من المسلمين .

وابن السبيل : هو المسافر المحتاج ، بشرط أن يكون سفره فى غير معصية .

وقد اختلف العلماء فى قسمة الأربعة الأخماس التى يستحقها المقاتلون ، فالذى عليه عامة أهل العلم ، فيما ذكره ابن المنذر أنه للفارس منهم سهمان ، وللراجل سهم ، وممن قال بذلك الإمام مالك والشافعى وأبو حنيفة ، ويرى الصاحبان أن للفارس ثلاثة أسهم وهو رأى ابن عمر ، وقد رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم وأخرجه البخارى .

ثم أكد الله تعالى قسمة الغنائم على هذا النحو بقوله تعالى :

(إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ) :

أى إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا الأمر لله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة: بأن يكون خمسها لله وللرسول وذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وأربعة أخماسها للمقاتلين ، فاقنعوا بذلك ونفذوا أمر الله فى شأن الخمس .

(وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ) :

أى إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلناه على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات والملائكة والنصر فى يوم بدر ، الذى جعله الله فرقانا بين الحق والباطل، يوم التقى الجمعان من المؤمنين والكافرين ، وكان أول مَشْهَدٍ شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ،وكان فيه رؤوس المشركين ، التقوا يوم الجمعة لسبع عشرة من

رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون ما بين ألف وتسعمائة فهزم الله المشركين وقُتل منهم سبعون وأُسر منهم مثل ذلك ، وانتصر الإسلام على الشرك وأصبحت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى : ومن هنا سمى يوم الفرقان ، والإضافة فى (عبدنا) لتشريف رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث نسبه إليه تعالى بالعبودية له ، ثم ختمت الآية بقوله سبحانه :

(وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

ليعلموا أن نصرهم على أعدائهم ، ما كان يمكن تحقيقه إلا بمعونة الله الذى هو على كل شىء قدير ، فقد كانوا قليلى العدد ، ولم تكن معهم أسلحة كافية ، ولا مراكب ، كما أنهم لم يخرجوا للقتال ، بل لتلقى العير ، فلذا يعتبر نصرهم على المشركين من خوارق العادات ، التى لا يقدر عليها إلا الله القادر على كل شىء .

ولما علَّم سبحانه عباده المؤمنين كيفية قسم الغنائم وتوزيعها وبيان المستحقين لها ، ذكر شيئا من نعمه تعالى عليهم فى غزوة بدر ليبين أن عونه تعالى وتأييده لهم كان ظاهرا فى هذه الغزوة حيث خرجوا إلى هذا المكان لأخذ العير واجتمعوا على غير ميعاد ولم يكونوا مستعدين للقتال ، فقال سبحانه :

٤٢ ـ (إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ) :

والمعنى : اذكروا نعمة الله عليكم معشر المسلمين إذ كنتم بشط الوادى القريب من المدينة ، والمشركون بطرف الوادى المقابل البعيد عن المدينة ، وركب أبى سفيان وأصحابه أسفل منكم أيها المؤمنون ، حيث كانوا ناحية الساحل ومعهم عيرهم على بعد ثلاثة أميال من بدر .

(وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ) :

أى ولو تواعدتم مع المشركين على القتال ، ثم علمتم ضعفكم وقوتهم ، لاختلفتم أنتم فى الميعاد ، هيبة منهم ، ويأسا من الظفر عليهم ،

(وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) :

ولكن جمع الله بينكم على غير ميعاد ، ليبرز أمرا كان لابد من وقوعه طبقا لعلم الله تعالى وقضائه ، وهو نصر أوليائه ، وإعزاز دينه .

قال الزمخشرى : فإن قلت - ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين : وأن العير كانت أسفل منهم - قلت - الفائدة فيه : الإخبار عن الحالى الدالة على قوة شأن العدو وشوكته وتكامل عدته وتمهيد أسباب الغلبة له وضعف شأن المسلمين والتباس أمرهم [1] وأن غلبتهم فى مثل هذه الحال ليست إلا صنعا من الله سبحانه ودليلا على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته .

وذلك أن العدوة القصوى التى أناخ بها المشركون . كان فيها الماء . وكانت أرضا لا بأس بها للحرب . ولا ماء بالعدوة الدنيا وهى رملية سبخة تسوخ فيها الأرجل ولا يمشى فيها أحد إلا بتعب ومشقة وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم ، فكانت الحماية دونها [2] تضاعف حميتهم ، وتشحذ فى المقاتلة عنها ثباتهم .

وفى ذلك تصوير ما دبر الله سبحانه من أمر وقعة بدر ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا من إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة ، حتى خرجوا ليأخذوا العير راغبين فى الخروج وشخص [3] بقريش مرعوبين مما بلغهم ، من تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأموالهم ، حتى نفروا ليمنعوا عيرهم ، فأناخ المسلمون بالعدوة الدنيا وأناخ المشركون بالعدوة القصوى ووراءهم العير . يحامون عليها حتى قامت الحرب على ساق وكان ما كان . اهـ من الكشاف باختصار .

---

(١) التباس الأمر اختلاطه والتفافه على صاحبه ، ويطلق الالتباس أيضا على الضعف .

(٢) أي الدفاع عنها .

(٣) أى أتى الله بهم إلى المعركة بأشخاصهم .

وإنما فعل الله ذلك :

٤٢ - (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

أى فعل الله لقاءكم من غير ميعاد ، ليموت من يموت عن بيِّنة وعبرة شاهدها ، وحجة قامت عليه بأن الله ينصر أولياءه على أعدائهم ، وليعيش من يعيش عن بينة كذلك .

وقال محمد بن إسحاق فى معنى الآية : ليصدر كُفر من كفر وإيمان ، من آمن عن وضوح وبينة ، فقد فسر ابن إسحاق الهلاك بالكفر ، والحياة بالإيمان ، إذ الكفر طريق الهلاك ، والإيمان طريق الحياة الأبدية . فإن واقعة بدر من الآيات البينات التى من كفر بعدها كان مكابرًا للحق ، ظالماً لنفسه وهالكا ، ومن أسلم فقد أسلم عن يقين وعلم بأن الإسلام دين الحق الذى يجب التمسك به ، للتأييد الواضح له من الله -تعالى- فى هذه الغزوة فأحيا بهذا الإسلام نفسه (وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) : أى وإن الله لعظيم السمع لكل مسموع ، محيط علمه بكل معلوم ، ومن ذلك كفر الكافرين ، وإيمان المؤمنين ، فيجزى كلا حسب حاله .

٤٣ - (إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَكِنَّ ٱللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

واذكر لهم يا محمد عظيم صنع الله وبالغ علمه بمصالح من اتبعك من المسلمين ، وقت أن أراك الله المشركين فى منامك قليلا ، فأدركت بذلك قلّة شأنهم عند الله ، لتخبر بذلك أصحابك تَثْبِيتًا لهم ، وتشجيعًا على عدوهم . ولو أراكهم كثيرًا كواقع أمرهم لفشل أصحابك وهابوهم وجَبُنوا عن لقائهم ، وتنازعوا فى الرأى وتفرقت كلمتهم فيما عساهم أن يصنعوهُ مع عدوهم .

(وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ) :

أى سلّمكم من القتل والتنازع وعصمكم من الاختلاف ، وأنعم عليكم بما أراه لنبيه ليخبركم به .

(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

يعنى أنه يعلم بكل ما سيكون فى قلوبكم من الجراءة والجبن والصبر والجزع ، فلذا لطف الله بكم ، فأرى النبى صلى الله عليه وسلم أعداءكم فى منامه قليلا ، لتثبتوا ولا تجزعوا .

٤٤ـ (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ) :

أى : واذكر يا محمد ومن معك من المؤمنين وقت أن أراكم الله إياهم عند لقائكم بهم فى المعركة عددًا قليلا فى رؤيا العين ، ليتحقق لكم صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبركم به مما رآه فى النوم فيزداد يقينكم فتجدّوا وتثبتوا فى لقاء عدوكم .
قال ابن مسعود رضى الله عنه :لقد "قُلِّلوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبى أتراهم سبعين . قال : أراهم مائة فأَسَرْنا رجلًا منهم فقلت له كم كنتم ؟ قال : ألفًا .

فعل الله ذلك مع المسلمين عند اللقاء ليزدادوا ثباتًا ، كما قلل المسلمين فى أعين الكافرين قبل القتال ليجترئوا عليهم ، ولا يستعدوا لهم ، ثم كثرهم عند اللقاء حتى رأوهم مثليهم ، لتفاجئهم الكثرة فتبهتهم وتكسر قلوبهم .

روى أن أبا جهل حين رأى المسلمين قبل القتال ، استقلَّهم وقال : إنما هم أَكَلة جزور خذوهم أخذًا ، واربطوهم بالحبال ، فلما أخذوا فى القتال عظم المسلمون فى أعينهم فكثروا كما قال تعالى : « يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ »[1] .

وفى هذا المعنى يقول الزمخشرى : فإن قلت : الغرض من تقليل الكفار فى أعين المؤمنين ظاهر ، فما الغرض من تقليل المؤمنين فى أعين الكفار ؟

قلت : قد قللهم فى أعينهم قبل اللقاء ليجترىء الكفار على المؤمنين لقلة عددهم وعدم المبالاة بهم ثم كثركم فى أعينهم عند اللقاء لتفجأهم الكثرة فَيُبْهتُوا ويهابوهم وتقل شوكتهم

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٣

حين يرون ما لم يكن فى حسبانهم وتقديرهم وذلك قوله : « يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ » . ولئلا يستعدوا لهم . وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البيِّنة من قلتهم أولا — وكثرتهم آخرًا .

(لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) :

أى قلل الله المؤمنين فى نظر الكافرين أولا ثم كثَّرهم عند اللقاء لِيُنَفِّذَ الله قضاءه بهزيمة الكافرين ونصر المؤمنين ، وقد كرَّر قوله تعالى : (لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) . لأنَّ ما عَلَّل له أوَّلًا هو اجتماعهم على غير ميعاد ، وما عَلَّلَ له ثانيًا ، هو رؤية المؤمنين قلة فى أعين الكافرين أولا وتكثيرهم ثانيًا ، فاختلفت الجهتان فلزم التكرار .

والأمر المفعول الذى قضاه الله هو أن يَنْصر المؤمنين فكان ما قضى وحكم.

(وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) :

أى وإلى الله — وحده — ترجع أمور الناس لا إلى غيره ، فيدبرها كما يشاءُ ويحاسب عليها يوم القيامة حسبما يشاءُ .

ولما انتهى الحديث عن المدد المعنوىِّ الذى قوَّى به نفوسهم وقت التقاء الجمعين استعداد كلٍّ منهما للقتال أخذ يعلِّمهم فنون الحرب فقال جل شأنه :

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ
كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ
فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾
وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ
وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ
لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ
وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ
إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾
وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾)

المفردات :

(فِئَةً) : جماعة .

(وَلَا تَنَازَعُوا) : ولا تختلفوا .

(تَفْشَلُوا) : تجبنوا وتضعفوا والفشل فى الأصل : الخيبة والنكول عن إمضاء الأمر وأكثر أسبابه : الضعف والجبن ولذلك فسروه هنا بهما .

(تَذْهَبَ رِيحُكُمْ) : تذهب قوتكم .

(بَطَرًا) : طغيانًا وتجبرًا ــ والبطر فى اللغة : الفخر والاستعلاء بنعمة الغنى أو الرياسة أو غيرهما ، يعرف فى الحركات المتكلفة والكلام الشاذ .

(رِئَاءَ النَّاسِ) : مرائين الناس . والرياء والمراءاة : إظهار العمل رغبة فى ثناء الناس والإعجاب به وهو محبط للأعمال الأخروية .

(نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ) : رجع القهقرى ، أى تولى إلى الوراء جهة العقبين ، والمراد كف الشيطان عن وسوسته وذهب ما خيله من المعونة لهم .

(جَارٌ لَّكُمْ) : أى مجير وناصر ، والجار الذى يجير غيره أى يؤمنه مما يخاف .

(غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ) : أى خدع هؤلاء المسلمين دينهم ، فظنوا أنهم ينصرون به فأقدموا على ما أقدموا عليه مما لا طاقة لهم به .

التفسير

٤٥ - (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا) :

ينادى الله ــ تعالى ــ المؤمنين مبيِّنًا لهم آداب الحروب فى الإسلام فيقول سبحانه : (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) : بالله وبرسوله وبكتابه إذا جاهدتم جماعة من الكفار فاثبتوا لقتالهم ولا تفروا أمامهم ، أمَّا قتال المسلمين بعضهم لبعض فله حكم آخر مذكور فى قوله تعالى : « وإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا »(١)

(وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) :

(١) سورة الحجرات الآيتان : ٩ ، ١٠

أى واذكروا الله -تعالى- عند لقاء العدو ، بأن تتذكروا نصرته للمؤمنين ، فتتضرعوا إليه كثيرًا ، مع اليقين بأنه لايعجزه شىء وذلك أن تقولوا كما قال مَنْ قبلكم : « رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ »[1].

ثم ذكر الغاية من ذكره -سبحانه- فقال : (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) أى رجاء أن تظفروا بمرادكم من النصرة والمعونة على أعدائكم .

وكان رسول الله وأصحابه يكثرون من الدعاء خصوصًا عند اللقاء . رجاء النصر من الله -تعالى- ولما أمرهم الله تعالى بذكره ودعائه عند اللقاء ، أتبعه الأمر بطاعة الله ورسوله وعدم التنازع لتتوفر لهم أسباب النصر ، فقال -سبحانه- :

٤٦ - (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) :

أى واستجيبوا لأمر الله ورسوله واعملوا به ، فإن طاعة القائد من أهم أسباب النصر . والاختلاف عليه يُفضى إلى الهزيمة ، فما ظنُّكم إذا كان القائد رسول الله المنفذ لأوامر الله فلا تختلفوا عليه ولا تتنازعوا فيما بينكم ، فتتفرق كلمتكم وتذهب قوتكم ودولتكم ، وتجرى الأمور على غير ما تريدون من النصر .

(وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) :

أى واصبروا على ما تكرهون وما تلاقون من بأس العدو ، إن الله مع الصابرين بالعون والنصر .

قال -تعالى- يمدح الصابرين فى الشدائد : « وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ »[2].

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٠

(٢) سورة البقرة (١٧٧)

٤٧ ـ (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) :

أى امتثلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه ، ولا تكونوا كأعدائكم المشركين الذين خرجوا يوم بدر لنصرة العير ومعهم القيان والمغنيات ، فأتاهم رسول أبى سفيان وهم بالجحفة أن ارجعوا فقد سَلِمَتْ عِيرُكم . فأبى أبو جهل وقال : « والله لانرجع عن قتال محمد حتى نَرِدَ بَدْرًا ، فنشرب فيها الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وننحر الجُزُر ونطعم بها من حضرنا من العرب » فذلك بطرهم ورئاؤهم الناس بإطعامهم . قال الزمخشرى : فوافوها فسُقُوا كؤوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان . فنهاهم الله أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرائين الناس بأعمالهم ، وأمرهم أن يكونوا من أهل التقوى مخلصين أعمالهم لله .

ثم ختمت الآية الكريمة بقوله :

(وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) :

أى والله ـ وحده ـ محيط علمًا بجميع ما يعمله هؤلاء المشركون ، من البطر والمراءاة والصدّ عن سبيل الله ، والمكر والتدبير لإحباط دعوة الرسول فيجازيهم عليه ، وقد جازاهم فى الدنيا بالقتل والأسر وأخذهم أخذًا شديدًا بالهزيمة يوم بدر ولهم فى الآخرة عذاب أليم لانهاية له .

وقد أتبع الله تعالى هذه الآية ، بيان ما أصاب المشركين من الهزيمة ، بعد تزيين الشيطان لهم بالنصر ، واغترارهم بذلك فقال :

٤٨ ـ (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ) :

أى واذكر لهم يا محمد وقت أن حسن الشيطان للمشركين أعمالهم فى معاداة الرسول ، وبلغ به التزيين أن قال : لا غالب لكم اليوم من المؤمنين وإنى معين لكم وناصر .

(فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ) :

العقِب : مؤخر القدم ، ونكوصه على عقبيه ، رجوعه إلى الوراء ، والمراد به بطلان كيده .

والمعنى : فلمّا أبصر كلٌّ من الفريقين الآخر ، وقد رجحت كفة المؤمنين بإمداد الملائكة لهم ، بطل كيد الشيطان وتزيينه ، بظهور عجزه عن نصرتهم وتبرئه منهم ، وانتحاله العذر لنفسه فى خلف وعده ، وذلك مايحكيه الله بقوله :

(إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ) :

أى إنى برىءٌ من نصرتكم لأننى أرى من أسباب نصرة المسلمين مالا ترون .

(إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :

أى إنى أخشى عقاب الله ، والله شديد العقاب ، ذكر الكشاف عن الحسن ـ رحمه الله ـ : كان ذلك على سبيل الوسوسة ولم يتمثل لهم .

وقيل : لما اجتمعت قريش على السير ذكرت الذى بينها وبين كنانة من الحرب فكاد ذلك يثنيهم فتمثل لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن جشعم الشاعر الكنانى ـ وكان من أشرافهم ـ فى جند من الشياطين معه راية . وقال : لا غالب لكم اليوم إنى مجيركم من بنى كنانة فلما رأى الملائكة تَنْزل نكص .

وفى موطأ مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما رأى الشيطان نفسه يومًا هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أَغْيَظَ منه فى يوم عرفة ، وما ذاك إلا لِما رأى من تنزل رحمة الله ، وتجاوزه عن الذنوب العظام ، إلا ما رأى يوم بدر ـ قيل وما رأى يوم بدر يا رسول الله ؟ قال : أما إنه رأى جبريل يَزَع[1] الملائكة » .

ثم ذكّر الله المؤمنين بموقف المنافقين ليحذروهم فقال :

(١) يزع الملائكة : أى يصفهم ويفرقهم ، والوازع فى الأصل الذى يتقدم الصف فيصلحه ويقدم ويؤخر ويطلق أيضا على الرادع الذى يزجر غيره .

٤٩ - (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ) :

المنافقون: هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر. والذين فى قلوبهم مرض: إما المنافقون والعطف للتفسير، وإما أنهم قوم أسلموا حديثًا، ولم تطمئن قلوبهم بالإيمان، وإما أنهم المشركون لمرض قلوبهم.

والمعنى: واذكر يا محمد حين يقول المنافقون ومرضى القلوب من هؤلاء أو أولئك، خدع هؤلاء المؤمنين دينهم، فخرجوا مع قلتهم وضعف استعدادهم لقتال المشركين مع كثرتهم وقوة استعدادهم، إذ كان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، ولم تكن معهم أسلحة كافية ولا إبل ولا خيل إلا قليلا فقد خرجوا للقاء عير قريش، ولم يخرجوا لقتالهم كما تقدم بيانه، وكان عدد المشركين ثلاثة أمثالهم. وقد جاءوا مستعدين تمام الاستعداد لقتال المسلمين، فزعم المنافقون كما زعم مرضى القلوب أن المسلمين خرجوا مغترين بدينهم ظانين أنهم ينصرون به فيرد الله -تعالى- عليهم قائلا:

(وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) :

أى ومن يكل أمره إلى الله مؤمنًا بأنه ناصره، ينصره الله فهو -سبحانه- يكفى المؤمنين ما أهمهم، وينصرهم على أعدائهم وإن كثروا وعظم استعدادهم، وهو كذلك حكيم يضع كل أمر فى موضعه، على ما جرى عليه النظام والتقدير فى سننه، ومنه نصر الحق على الباطل، وكثيرًا ما تدخل عنايته بالمتوكلين فى باب الآيات وخوارق العادات.

وكم لله من لطفٍ خفىٍّ يدق خفاه عن فهم الذكىِّ

٥٠ - (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) :

أى ولو عاينت يا محمد وشاهدت حال هؤلاء الكفار حين تتوفاهم الملائكة ببدر وتنتزع أرواحهم، وهم يضربون وجوههم عند اللقاء وظهورهم عند الفرار، لشاهدت أمرًا فظيعًا يدل على شدة ما أصابهم من الخزى والعار والهزيمة.

(وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) :

أى تضرب وجوههم وظهورهم، وتقول لهم: ذوقوا عذاب اللهيب المحرق، والمراد بضرب وجوههم وأدبارهم، ضربهم من كل ناحية.

٥١ - (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) :

ويقولون لهم أيضا : ذلك العذاب الذى حلّ بكم بسبب ما فعلتموه من الآثام ، وأن الله عادل فى جزائه ، وليس بظالم لعبيده ، حين يعاقبهم على معاصيهم الّتى حذّرتهم منها رسلهم.

جاء فى الحديث القدسى : « ياعِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتَ الظُّلْمَ عَلَىَ نَفْسِى ، وَجَعَلْتُه بيْنكُم مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا . . إنّما هى أَعْمالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ فَمَنْ وَجَد خَيْرًا فَمِنَ الله ،وَمَنْ وَجَد غَيْرَ ذَلكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَه » أخرجه مسلم .

(كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ
وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ
وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾)

المفـردات :

(كَدَأْب) الدأْب : العادة التى يدأب عليها الإنسان ويعتادها .

التفسـير

٥٢ - (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :

المعنى : شأن هؤلاء فى عنادهم المستمر ومقاومتهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - كشأن آل فرعون والأمم التى كانت قبلهم ، فى استمرارهم على كفرهم بالله ورسوله

إذْ كذبوهم وعاندوهم وكفروا بآيات الله وعظيم الدلائل على قدرته ووحدانيته ، فأخذهم الله بسبب ذنوبهم وكفرهم ، أخذا شديدا ، ثم أكد ذلك وقواه وعلَّله فقال :

(إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ) : غالب لا يغلبه أحد .

(شَدِيدُ الْعِقَابِ) : لمن خرج عن طاعته وأصر على كفره وعناده .

٥٣ ـ (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

المعنى : ذلك العذاب الذى نزل وينزل بهم ، بسبب أنهم غيَّروا وبدَّلوا نعمة الله عليهم كفرا ، فقابلوا الأمن والعافية والسَّعة بالكفر والصدِّ عن سبيل الله ، فبدَّل الله نعيمهم عذابا ، والله لا يغيِّر نعمةً أنعمها على قوم بنقمة ، إلَّا لأنهم بدَّلوا نعمة الله عليهم كفرا ، فوضعوه مكان الشكر .

(وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) : أى ذلك الجزاءُ على كفرهم بسبب تبديلهم نعمة الله كفرا ، وبسبب أنَّ الله قوى السَّمع لِمَا يقولون محيط علما بما يعملون .

٥٤ ـ (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ) :

قارئُ هذه الآية يظن أنها مكررة مع مثيلتها السابقة ، والذى يبدو لنا أنها لا تكرار فيها ، فقد جاءت الآية السابقة لبيان أن عادة هؤلاءِ وأُولئك الكفر ، أما هذه الآية فقد أفادت أن الله تعالى غيَّر نعمته عليهم لأنهم لم يغيِّروا ما هم فيه من التكذيب ، بدليل قوله تعالى قبل هذه الآية : (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) . فكأنه قال عقبها : كدأب آل فرعون . غير الله نعمته عليهم لمداومتهم التكذيب بآيات الله فأهلكهم وانتقم منهم ، فقوله تعالى فى الآية الأُولى : (كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ) تفسير لدأبهم الذى فعلوه من تغييرهم لحالهم ، وقوله سبحانه فى الآية الثانية : (فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ) تفسير لدأبهم الذى فُعِل بهم ، من تغييره ـ تعالى ـ ما بهم من نعمته بإهلاكهم ، وأما دأب قريش فى العقوبة ، فمستفاد من تشبيههم بآل فرعون ، والمقصود جنس العقوبة لا نوعها ، فإن آل فرعون أُهلكوا بالإغراق ، أما قريش فقد أُنذروا بعقوبة مطلقة ؛ ويرى بعض المفسرين : أنها مؤكدة ومقررة لما أفادته مثيلتها السابقة .

والمعنى : أن أمر كفار قريش ، مثل ما اعتاده قوم فرعون والذين من قبلهم من الكفار ، كذبوا بآيات ربهم المنزلة على رسلهم وبآياته الكونية ، واستمروا على ذلك فأهلكهم الله جميعا بذنوبهم ، وكان عقاب آل فرعون الإغراق ، وكل من هؤلاء الكفار المكذبين كانوا ظالمين : (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

ولسوف يعاقب الله أشباههم من قريش إن استمرُّوا على تكذيبهم ، كما عاقب آل فرعون ، فليسوا أشد منهم قوة ، ولا أكثر جمعا .

(إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(الدَّوَابِّ) : جمع دابة وهى كل ما يدب على وجه الأرض .

(يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ) : أى يفكُّونه ، والمراد أنهم لا يوفون به .

(تَثْقَفَنَّهُمْ) : تلقاهم وتجدهم .

(فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ) : فافعـل بهم فعلا يخيف مَنْ وراءهم ويُشرِّدُهم . والتشريد : التبديد والتفريق .

(تَخَافَنَّ من قَوْمٍ خِيانَةً) : أى تتوقع من قوم خيانة بنقض العهد ونكثه .

(فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ) : فاطرح إليهم عهدهم على طريق سوى من العدل بأن تخبرهم بذلك .

(سَبَقُوا) : فاتوا وأفلتوا من عقابنا .

(لَا يُعْجِزُونَ) : لا يفوتون ولا يفلتون من عقاب الله بل هو قادر عليهم .

(مِنْ قُوَّةٍ) : من كل ما يتقوى به فى الحرب .

(رِبَاطِ الْخَيْلِ) : المكان الذى ترابط فيه الخيل المعدَّة للقتال .

(تُرْهِبُونَ) : تُخَوِّفون .

(لَا تَعْلَمُونَهُم) : لا تعرفونهم بأعيانهم أولا تعلمونهم كما هم عليه من العداوة .

التفسـير

٥٥ ـ (إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِنْدَ ٱللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

نزلت الآيات فى بنى قريظة . عاهدهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن لا يمالئوا عليه أعداءه فنكثوا بأن أعانوا مشركى مكة بالسلاح وقالوا نسينا وأخطأنا ، ثم عاهدهم فنكثوا ومالوا مع الكفار يوم الخندق ، وكان كعب بن الأشرف قد انطلق إلى أهل مكة قبل غزوة الخندق فحالفهم على محاربة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وغزو المدينة ، فأنزل الله هذه الآيات ، ليبين أنهم شرٌّ من دب على وجه الأرض فى حكم الله وقضائه ، لا شرُّ الناس فقط ، وفى ذلك إشارة إلى أنهم بمعزل عن الناس ، فهم من جنس الدَّواب ومع ذلك فهم شرٌّ من جميع أفرادها ، ومثله : « إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا » .

والمعنى : إن شر جميع ما يدب على وجه الأرض ، هم اليهود الذين كفروا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما جاء به ، فهم مستمرُّون على عدم إيمانهم به ، مع قيام الحجة عليهم

وثبوت أماراته فى كتبهم ، ثم استمر فى بيان قبائح هؤلاء الكفار الموصوفين بأنهم شرٌّ الدواب فقال :

٥٦ـ (ٱلَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ) :

بيَّنت هذه الآية الكريمة أن هؤلاء اليهود الذين هم شر الدواب عاهدهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فغدروا ، ثم عاهدهم فغدروا ، وتكرَّر منهم نقض العهد فى كل مرة ، وهم لايتقون الله ، ولا يخشون عقابه لهم على نكث العهد ، وما يجره عليهم من نكبات تحلُّ بهم .

٥٧ـ (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) :

المراد من (ما) فى قوله تعالى : (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ) التأكيد ، والمعنى : إذا كان حالهم ما ذكر من نقض العهود ؛ ففى أى وقت أو مكان تصادفهم وتظفر بهم فى الحرب فشتِّت بقتالهم والتنكيل بهم مَنْ خلفهم من الناكثين للعهود ، والمتربصين لقتال المسلمين ، لعل الأعداء من ورائهم يتعظون بما فعلت مع هؤلاء من حرب ونكاية وتشريد .

٥٨ـ (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ) :

المراد من لفظ (ما) فى قوله : (وَإِمَّا تَخَافَنَّ) التأكيد كسابقتها .

والمعنى : وإن خفت فى أى وقت ، من قوم خيانة فى عهد بينك وبينهم ، بأمارة تلوح لك كما ظهر من بنى قريظة وبنى النضير ، فاطرح إليهم عهدهم وأعلمهم بذلك وأنه لا عهد بعد اليوم ، ولتكن أنت وهم فى ذلك العلم وطرح العهد على سواءٍ ، أى مستويًا أنت وهم فى ذلك ، لئلاَّ يتهموك بالغدر إن أخذتهم بغتة قبل أن تبلغهم . ثم علل هذا الأمر بقوله :

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ) :

أى لا يرضى عن الغادرين الذين يغدرون بمن كان فى أمانٍ وعهدٍ ، هذا إذا لم يتحقق نقضهم للعهد ، وإلاَّ حاربهم كما فعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقريش ، حينما

نقضوا عهد الحديبية ،حيث لم يوجه إليهم من يعلمهم بنقض العهد ، بل توجه بجيشه إلى مكة حتى فتحها ، دون سابق إنذار بذلك ، بل أخفى قصده إليها .

ثم أخبر أن من أفلت يوم بدر من القتل أو الأسر لن يعجز الله أن يوقع به فقال :

٥٩ ـ (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ) :

أى : ولايظنَّن الذين كفروا من قريش أنهم سبقوا عقاب الله بأن أفلتوا ونجوا منه ؛ كلَّا إنهم لايعجزون الله فى الدنيا والآخرة ، فلسوف يذيقهم الله ذلّ الهزيمة والقتل والأسر فى الدنيا ، وعذاب النار فى الآخرة ، خالدين فيها أبدا ، وفى الآية بشرى للنبى – صلى الله عليه وسلم – بما يطمئن قلبه على مستقبل الدعوة الإسلامية ، وأنها إلى نصر وأن أعداءه إلى هزيمة ، ثم أمر الله – تعالى – بإعداد العدة للقاء أعداء الإسلام حتى لايؤخذ المسلمون على غرَّة وضعف فقال :

٦٠ ـ (وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ) :

أى وأعدوا لهؤلاء الكفار الناقضين للعهد ، كل ما تستطيعون إعداده لقتالهم ، من أنواع السلاح وأدوات الدفاع ، حسب التقدم العلمى فى جميع ما يتقوى به على العدو فى الحرب ، فكل ما يستعان به فى الجهاد فهو من جملة القوة المأمور بإعدادها .

ومن ذلك إحكام التدبير ، وتدريب الجنود على استعمال الأسلحة ، وتقوية الروح المعنوية ، ببيان فضل الثبات والاستشهاد فى سبيل الله .

(وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ) :

رباط الخيل : هو المكان الذى ترابط فيه الخيل عند الحدود ، ليحرس فرسانه الثغور ، ويراقبوا العدو ، وقد كان رباط الخيل فى عهد نزول الآية الكريمة ، أهم الأسباب لتحقيق ذلك ، فلذا نص عليه فيها ، ولكن الحروب تطورت ، ورباط الخيل لايكفى فلذا يعتبر ضربَ مثل لكيفية حراسة الثغور ، والمناسب فى عصرنا هذا هو إقامة حصون

ثابتة ، مزودة بأحدث الأسلحة والمناظير القوية البعيدة المدى ، لإحكام مراقبة تصرفات العدو عن بُعد ، وتنبيه قيادة الجيش إلى خططه ، والمسارعة إلى ردِّه إن باغتهم ، وأمَّا تفسير الرسول – صلى الله عليه وسلم – للقوة بقوله : « أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْى » كما رواه مسلم . فالمقصود به مايعم الرمى بالسهام والنبال – كما كان ذلك فى عهده – صلى الله عليه وسلم – والرمى بالقنابل والصواريخ وغير ذلك مما يرمى به العدو لكسب المعركة منه .

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) :

أى تُرهِبُون وتخيفون بما أعددتم من أسباب القوة ، عدوَّ الله وعدوَّكم من الكافرين الذين يجاهرونكم بالعداوة ، وترهبون به أيضًا أعداءً آخرين من وراء أولئك المجاهرين ، لا تعلمونهم لتستّرهم فى عداوتهم ، والله – تعالى – يعلمهم ، ويعلم ما انطوت عليه جوانحهم ، ولا شك أن العدو المجاهر والمستخفى إذا عرف قوة استعدادنا الحربى فإنه يجبن عن قتالنا ، وأن يجرب حظه فى الهزيمة منا .

(وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ) :

أى وأى شىء تقدمونه من مال قل أو كثر فى إعداد الجيوش ومراعاة أسرهم بما يحتاجون إليه .

(يُوَفَّ إِلَيْكُمْ) : أى تعطون جزاءه وافيًا من الله – تعالى – :

(وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) :

أى وأنتم لا تنتقصون شيئًا من ثواب أعمالكم مهما قلت وقد جاء فى فضل تجهيز الغزاة فى سبيل الله أحاديث كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم : « من جهَّز غازيا فقد غزا ، ومن خَلَفَ غازيا فى أهله بخير فقد غزا » رواه البخارى أى أن تجهيز الغازى أو رعاية أهله من ورائه يعتبر فى الثواب كالجهاد فى سبيل الله تعالى ، وثواب الجهاد شىءٌ عظيم .

(* وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ
هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ
لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾)

المفردات :

(جَنَحُوا لِلسَّلْمِ)	: مالوا إلى المسالمة والصلح .
(فَاجْنَحْ لَهَا)	: فمل إليها .
(يَخْدَعُوكَ)	: يظهروا لك السلم ويبطنوا الغدر والخيانة .
(حَسْبُكَ ٱللَّهُ)	: كافيك الله .
(أَيَّدَكَ)	: قواك .
(أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ)	: جمع بين قلوب الأوس والخزرج .

التفسير

٦١ - (وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ) :

يقول الله سبحانه وتعالى : وإن مال الذين يحاربونك من الكفار إلى المسالمة ونبذ الحرب ، بالدخول فى الإسلام أو المهادنة أو المصالحة ، فاجنح لما جنحوا إليه من السلام ، وعاهدهم عليه ، وتوكل على الله وفوض أمرك إليه فهو وحده الذى يستطيع أن ينصرك ويحفظك من خياناتهم ، على أن يقترن ذلك بالحذر منهم .

(إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ) :

أى إنه تعالى هو العظيم السمْع لكل مسموع ، الواسع العلم لكل معلوم ، ومن ذلك أقوالكم وأقوالهم وأعمالكم وأعمالهم من وفاء وغَدْر ، والآية أصل عظيم من أصول الإسلام فهو دين سلام لا حرب ، سلام لمن سالمنا حرب لمن حاربنا أو مكر بنا .

٦٢ ـ (وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ) :

يقول الله سبحانه وإن يريدوا أن يخدعوك بجنوحهم إلى السلم ظَاهرًا ، فلا تخف من إبطانهم المكر والخديعة ، فإن الله كافيك وعاصمك من مكرهم وخديعتهم ، ومن تولى الله كفايته وحفظه لا يضره شيء .

(هُوَ ٱلَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ) :

أى هو الذى قضى بأن يؤيدك بنصره فى حربك معهم ، ويؤيدك بالمؤمنين من الأنصار والمهاجرين ونفَّذَ ما قضى به وحقَّقَه .

٦٣ ـ (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) :

إذ ألف بين قلوب الأوس والخزرج من الأنصار ، وقد كانت الحرب سجالا بينهما فكان تأليف قلوبهم وجمعها من آيات الله الكبرى . كما ألف بالإيمان بين قلوب المؤمنين من الأنصار والمهاجرين ، وجعلهم حرباً على أعدائك ، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين ، ثم بين عظم هذه الآية فقال :

(لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) :

أى : لو جمعت يامحمد ما فى الأرض من مال وأنفقته فى سبيل جمع قلوبهم على كلمة واحدة ، ما ألفت بينهم ولكن الله ألف بينهم بفضله وكرمه ، لأن قلوبهم بين يديه يقلبها كيف يشاء ، فلذا نزع ما فى قلوبهم من غل وحقد ، وملأها حبًّا ورحمة ومودة وعطفًا ، فأصبحوا بنعمة الله إخوانًا .

(إِنَّهُ عَزِيزٌ) غالب لا يعجزه أمرٌ أراده .

(حَكِيمٌ) لا يخرج شىء عن حكمته ، وإذا كان الله تعالى قد أكرمك ؛ بالنصر فى بدر وتأليف قلوب المؤمنين ، فلا تخف من خديعتهم لك إن جنحت لمسالمتهم بعد أن يجنحوا لها ، فإنه تعالى سيحفظك من مكرهم وخداعهم .

ثم نزل فى بدر بالبيداء قبل بدء القتال فى غزوة بدر .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾) .

المفـردات :

(حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ) : حثهم وحضهم .

(لَا يَفْقَهُونَ) : لا يدركون ولا يفهمون .

التفسير

٦٤ - (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) :

المعنى : يأيها النبي كافيك الله تعالى ومن معك من المؤمنين فى تحقيق النصر الذى وعدك به على أعدائك المخادعين .

والآية ومابعدها رفع لروح المؤمنين المعنوية بالوعد بتأييد الله لرسوله عند الجهاد .

٦٥ - (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ) :

بعد مابين الله كفايته إياهم بالنصر ، أمر نَبِيَّه صلى الله عليه وسلم بترتيب مبادئ نصره وإمداده .

والمعنى : يأيها النبي رغِّب المؤمنين فى القتال وسهل لهم مشقته ببيان فائدته وعظيم أثره من الفوز أو الشهادة . ثم قال تعالى :

(إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) :

يعنى : أن الله معكم بنصره وعونه ولو قل عددكم وضعفت عدتكم : فإن وجد منكم عشرون صابرون عند لقاء العدو فيهم قوة وشجاعة يغلبوا مائتين من الكفار ، لأنهم وإن كثروا فلا قوّة لهم ، لأنهم يحاربون للدنيا لا للآخرة ، وللطاغوت لا لمالك الملك والملكوت .

(وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) :

وهذا وما قبله خبر بمعنى الأمر أى ليقاتل العشرون منكم مائتين والمائة الألف ثم علل هذا الأمر بقوله :

(بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ) :

أى ما ذكر من كفاية الواحد منكم لعشرة منهم ، بسبب أنهم جهلة بالله واليوم الآخر ، فهم لا يقاتلون احتسابًا وامتثالا لأمر الله تعالى وإعلاءً لكلمته وابتغاء رضوانه كما يفعله المؤمنون طالبين الفوز أو الشهادة ، وإنما يقاتل أولئك الكفار لحمية الجاهلية ، واتباع خطوات الشيطان فلا تثبت أقدامهم فى القتال أمامكم - مع قلتكم وكثرتهم - ثم لما شق ذلك على المسلمين خفف الله عنهم فقال :

٦٦ - (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) :

بين الله فى الآية السابقة أنه أوجب على المسلمين أن يثبت الواحد منهم لعشرة ، لقوة الواحد بالإيمان ، وضعف العشرة بالكفر ، ولما شق ذلك عليهم خفف عنهم بما جاء فى هذه الآية من وجوب ثبات الواحد لاثنين .

والمعنى : الآن خفف الله عنكم إيجاب ثبات الواحد لعشرة ، وقد علم أن فيكم ضعفا يستوجب التخفيف ، فإن يكن منكم مائة صابرة عند اللقاء ثابتة فى محاربة الأعداء مطمئنة إلى نصر الله للصابرين ، فإنهم يغلبون مائتين من الأعداء ، وإن يكن منكم ألف صابرون يغلبوا ألفين ، بالنصر والمعونة الإلهية .

فإن قلت : قد علم الله ضعف المؤمنين فى الحالين ، فلماذا أوجب الله عليهم أولا الثبات لعشرة أمثال من الكفار ، ثم عاد فخفف عنهم بإيجاب الثبات لمثلين .

فالجواب : أن الضعف وإن كان موجودًا فى الحالين ، لكن الأعداء كانوا شديدى الطمع – أولا – فى المسلمين لقلتهم ، فلما ثبتوا لهم وهم عشرة أمثالهم ، وقهروهم وظهرت قوتهم عليهم مع قلتهم ، تفضل الله فخفف عنهم ، فقد نصروا بالرعب وآن أوان التخفيف عنهم ؛ ومع هذا يجب على القائد أن يقدر الموقف ، ويفعل ما فيه المصلحة ، فإن كانت فى الثبات وجب الثبات ، وإن كانت فى الانسحاب لترقب فرصة أفضل فله أن يتخذ القرار الملائم .

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾) .

المفردات :

(أَسْرَى) : جمع أسير وهو من يؤخذ فى الحرب حيًّا ، وتُشَدُّ يده بالإسار وهو القيد .

(يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْض) : أى يبالغ فيها بالقتل والجرح حتى تظهر شوكة المسلمين وقوتهم .

(عَرَضَ ٱلدُّنْيَا) : حطامها – سمى عرضا لسرعة زواله .

(لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ) : أى لأصابكم بسبب ما أخذتموه من الفدية .

(خِيَانَتَكَ) : أى الغدر بك بنقض العهد .

(لأَمْكَنَ مِنْهُمْ) : لأقدرك عليهم قتلًا وأسرًا .

التفسير

٦٧ – (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ . . . .) الآية .

سبب نزول هذه الآية : أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، استشار أصحابه فى أسارى بدر بعد انتهاء وقعتها ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يارسول الله : أهلك وعشيرتك فَمُنَّ عليهم بالفداء ، وقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله : لقد آذوك وأخرجوك فاقتلهم فإنهم أئمة الكفر ، فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم برأى أبى بكر وأطلق سراحهم فى مقابل فدية من كل واحد منهم ، فنزلت الآية ، وظاهرها أنها عتاب للنبى صلى الله عليه وسلم وللمسلمين الذين وافقوا على قبول الفدية ، ولكن المقصود بها الإيذان باستحقاق أولئك الأسرى أن يقتلوا بسبب موقفهم من الدعوة الإسلامية ومن النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين بمكة وبعد الهجرة ، وأنهم ليسوا أهلا لهذه المنَّة التى مَنَّ بها عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : ما ينبغى لنبى ومن معه من المؤمنين ، أن يستبقوا الأسرى أحياء ، قبل أن يثخنوا فى الأرض ويغلظوا فيها بقتل الأعداء ، حتى تتربى المهابة فى نفوس المشركين وكان هذا مشروعًا فى أول فرض الجهاد ، ثم أنزل الله تعالى بعد ذلك :

« فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » .

وبهذه الآية شرع الفداء للأسرى بعد أن ذاق المشركون بأس المؤمنين وعرفوا قوتهم ، ووقر فى قلوبهم الرعب منهم .

(تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) :

أى : تريدون أيها المؤمنون عرض الدنيا وحطامها بأخذ الفداء والرضا به ، والله يرضى لكم الآخرة أى ثوابها بقتلهم ، إعزازًا لدين الله بتخويف المشركين وإذلالهم بالقتل ، والله غالب عظيم الحكمة ، ولذلك دعاكم إلى مافيه عزتكم وذل أعدائكم .

٦٨ - (لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) :

لولا قضاء مكتوب من الله سبق بأنه لا يعذب قومًا حتى يبين لهم ما يتقون من المحاذير ، لأصابكم بسبب ما أخذتم من فداء الأسرى عذاب عظيم .

٦٩ - (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

روى أنهم أمسكوا عن الغنائم ، ولم يمدوا أيديهم إليها حتى نزلت الآية لتبيح لهم الغنائم ، وقد كانت الغنائم لا يحل أخذها لأحد قبل هذه الآية . فلما نزلت أباحت لهم أخذ الغنائم ، والانتفاع بها أكلا وغير أكل ، وإنما عبر بلفظ الأكل لأنه المقصود المهم .

(وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى وخافوا الله فى أمركم كله ، فإنكم إذا اتقيتموه بعد ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يؤذن لكم فيه غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم .

٧٠ - (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى : يأيها النبى قل لمن وقع فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرًا وحبًّا للدين وخلوص إيمانٍ ونيَّة . يؤتكم فى الدنيا والآخرة خيرًا مما أخذ منكم من الفداء ويغفر لكم ما فرط منكم من الذنوب ، والله تعالى عظيم الغفران والرحمة .

٧١ - (وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

أى : وإن يُرِدِ الأَسرى خيانتك حينما وعدوا أن لا يحاربوك ولا يعاونوا عليك أحدًا من المشركين ، فقد خانوا الله من قبل بدر بالكفر ، فأَمكنك منهم فى بدر فليتوقعوا مثل ذلك إن عادوا إلى خيانتهم لله ورسوله ، والله عليم بخلقه ، حكيم فى صُنعه ، ثم تحدث القرآن عن الروابط بين المهاجرين والأَنصار ومن تصح موالاتهم ومن لا تصح فقال :

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)) .

المفـردات :

(آوَوْا) : أى آووا المهاجرين فى المدينة وأسكنوهم .

(مَالَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا) : أى ما لكم من توليهم فى الميراث وإن كانوا من أقرب أقاربكم حتى يهاجروا .

(تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ) : تحصل فتنة بظهور الشرك .

(وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) : فى الجنة .

(فَأُولَئِكَ مِنكُمْ) : أى من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار .

(أُولُو الْأَرْحَامِ) : أصحاب القرابات .

التفسير

٧٢ - (إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا) الآية .

المعنى : إن الذين آمنوا بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وهاجروا من مكة إلى المدينة فرارًا بدينهم ، وبذلوا أموالهم ونفوسهم فى سبيل الله دفاعًا عن الدين بقتال أعدائه . والذين آوَوْا النبى صلى الله عليه وسلم والمهاجرين من أهل المدينة ، فأسكنوهم منازلهم ، وبذلوا لهم أموالهم ، وآثروهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ونصروا دين الله بنصرة نبيه صلى الله عليه وسلم .

(أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) :

أى أولئك المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض فى الميراث ، وكان المهاجرون والأنصار ، يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب[1] ، حتى نزل قوله تعالى : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ » فتوارثوا بالقرابة مع الإسلام ، ونسخ التوارث بالهجرة والمؤاخاة ، وكان الأنصار يؤثرون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، كما كانوا يتعاونون معهم فى نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شك فى أن ذلك كله كان فيه عز الإسلام ومجد المسلمين .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُم مِّنْ وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا) :

---

(١) أى دون الأقارب الذين لم يهاجروا أو كانوا مشركين .

والذين آمنوا بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وأقاموا بمكة فلم يهاجروا إلى المدينة ولم يلحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليشتركوا مع المؤمنين المهاجرين والأنصار فى نصر الدين وحرب الكافرين مالكم شيء من توليهم، فلا إرث بينكم وبينهم - أيها المهاجرون والأنصار - وإن كان بينكم وبينهم قرابة حتى يهاجروا ، والحكمة فى عدم التوارث بينهم مع قرابتهم . إيثار المؤاخاة التى تمت بين المهاجرين والأنصار عليها ، لما كان لها من أثر بعيد فى عز الإسلام والمسلمين .

(وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ) :

المعنى : أن المؤمنين الذين لم يهاجروا من أهل مكة إن استنصروكم فى الدين يجب عليكم أن تنصروهم على أعدائهم ، مالم يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم معاهدة سلام ، فلا تعينوهم حتى لا تنقضوا العهد الذى بينكم وبين الكفار ، وهذا ماحدث فى صلح الحديبية ، فقد حافظ النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون على عهدهم معهم ، وردوا من لجأ إليهم من المسلمين الذين كانوا بمكة قبل صلح الحديبية .

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

فلا تخالفوا أمره حتى لا يحل بكم عقابه .

٧٣ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ) :

المعنى : والذين كفروا بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم بعضهم أولياء بعض فى الميراث ، فلا يرثهم المسلمون ، ولا يرثون المسلمين ، كما أنهم أولياء بعض فى المؤازرة والنصرة ، فلا تستعينوا بهم - أيها المؤمنون - فإنهم لا يوالونكم ولا يحبون الخير لكم ، وإنما يوالى بعضهم بعضا ، فكونوا على حذر منهم .

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ) :

أى : إلا تفعلوا ما أمرتكم به من التناصر والتوارث والتواصل والتعاون ، وقطع الصلات بينكم وبين الكفار حتى تجعلوا قرابتهم كلا قرابة ، إلا تفعلوا ذلك كله ، تحصل

فتنة فى الأرض وفساد كبير ، لظهور الشرك وغلبته ، لأن المسلمين ما لم يصيروا يدا واحدة على أعدائهم ، طمع فيهم أولئك الأعداء واستولوا على ديارهم ، كما حدث فى الحقبة التى غفل فيها المسلمون عن موالاة بعضهم لبعض ، واتخذوا أعداءهم أولياء لهم .

٧٤ـ (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آووا وَّنَصَرُوا أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) :

المعنى : والذين آمنوا بالله ورسوله وهاجروا من وطنهم وجاهدوا أعداء الإسلام فى سبيل طاعة الله ونصرة دينه ، والذين آووا رسول الله والمهاجرين وأنزلوهم فى ديارهم ، ونصروهم على من أخرجوهم من وطنهم ،أولئك هم المؤمنون المستكملون لعناصر الإيمان حقا لأنهم حققوا من إيمانهم مقتضاه ، من هجرة الوطن ومفارقة الأهل ، والانسلاخ عن الأموال لأجل الدين ، كما حقق الأنصار نصرة النبى وإيواءه والمهاجرين فى بيوتهم .

وقد ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى : (لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) وعدا سخيًّا من الله لهم على ما تقدم من صفاتهم ، والمراد من الرزق الكريم ، الثواب الجزيل الذى ينعمون به فى رياض الجنة ، أكلا وتفكها من غير منة ولا تبعة ولامسئولية ، ويلاحظ أن هذه الآية ليست متكررة مع ما قبلها ، فإن هذه للثناء عليهم والشهادة بفضائلهم ، مقترنة بالوعد الكريم بالمغفرة والرزق الكريم ، أما تلك فهى للأمر بالتواصل والتوارث والنصرة بينهم .

٧٥ـ (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَـٰئِكَ مِنْكُمْ) :

أى : والذين آمنوا وهاجروا من بعد هجرة الرسول إلى المدينة ، كالذين هاجروا بعد بيعة الرضوان فى الحديبية ، ثم جاهدوا معكم فهؤلاء من جملتكم أيها المهاجرون ، فلهم مثلكم حق النصر والموالاة ، وقد رفع عنهم إثم التأخر فى الهجرة .

وبقى وجوب الهجرة على المسلمين حتى فتحت مكة ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » وهذا عندما يكون المسلم آمنا على عقيدته ، فإن خاف الفتنة وجبت عليه الهجرة إلى مكان يأمن فيه على نفسه وأهله ودينه وماله .

(وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ) :

أى : وأصحاب القرابات ، بعضهم أحق ببعض فى التوارث بالقرابة ، وبذلك النص انتهى حكم التوارث بالمؤاخاة والحلف والمعاهدة والتبنى وثبت حكم التوارث بالقرابة .

(إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

أى أن علمه تعالى محيط بكل شىء وفى جملة ذلك امتثال المؤمنين وتنفيذهم أمر الله ، بالتوريث بالقرابة ، أو مخالفتهم له ، فيثيب الأولين ويعاقب الآخرين .

سورة التوبة

مقـــدمة

سورة التوبة من السور المدنية ، إلا الآيتين الأخيرتين منها فهما مكيتان على الراجح وتشتمل على تسع وعشرين ومائة آية .

قال ابن كثير : هذه السورة من أواخر ما نزل من القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخرجه البخارى عن أبى إسحق قال : سمعت البراء يقول آخر آية نزلت : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ » . وآخر سورة نزلت « براءة » وقد جاء ترتيبها فى المصحف بعد الأنفال لما يلى :

١ ــ أن فى سورة الأنفال حثا على الوفاء بالعهود وفى سورة التوبة دعوة إلى نبذها مع الكفار الناكثين لها .

٢ ــ أن الأنفال قد اختتمت بفرض الموالاة بين المؤمنين وأن التوبة قد بدئت بوجوب قطعها بينهم وبين الكفار .

٣ ــ أن التوبة تشتمل على تفصيل كثير للإجمال الذى جاءت به الأنفال .

٤ ــ أن كلتا السورتين نزلتا فى القتال ، وأنهما دعامتا النظام العسكرى فى الإسلام ، وفيهما تقرير لأصول إسلامية كثيرة . ودعوة إلى تكوين المجتمع الإسلامى المعتمد على القوة ، والاستعداد العسكرى القائم على الإيمان والعلم والطاعة ، والحرص على تحمل

المسئولية ، والمحافظة على الأمانة والإخلاص ، وبذل المال فى سبيل الله ، ومحاربة النفاق والمنافقين .

وسميت هذه السورة « سورة التوبة » : لما فيها من توبة الله على النبى صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا فى غزوة تبوك – وسيأتى بيان ذلك .

وفى التوبة تحديد لعلاقة المسلمين بأعدائهم فى آخر عهد النبوة وكانوا ثلاث طوائف :

١ – طائفة مشركى العرب ، وقد دعت السورة إلى نبذ عهود الذين لم يوفوا عهودهم منهم وأمهلوا فيها أربعة أشهر يسيحون فى الأرض .

كما دعت إلى الوفاء بالعهد إلى مدته مع الذين لم ينقضوا عهودهم ، لتخلص جزيرة العرب للمسلمين وحدهم ، حتى تكون كلمة الله هى العليا فى مشرق الإسلام .

٢ – أهل الكتاب الناكثين لعهودهم فعلا ، ومن قامت الأمارات القوية على أنهم بصدد خيانتها ونكثها ، وقد أمر الرسول بقتالهم حتى يخضعوا ويدفعوا الجزية .

٣ – المنافقين وقد فضحوا فى هذه السورة وكشفت أسرارهم ، وأمر النبى – صلى الله عليه وسلم – والمسلمون بجهادهم والحذر منهم والإعراض عنهم .

وجملة القول : أن الله – تعالى – أعلن فى سورة التوبة وجوب انتهاء الشرك من الجزيرة العربية ، وحرب أهل الكتاب وقتالهم إن لم يؤمنوا أو يدفعوا الجزية .

وتحدث عن الذين جاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، ومنزلتهم فى الدنيا والآخرة ، وعن الذين تخلَّفوا عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعظم جريمتهم ، ثم توبة الله على ثلاثة منهم اعترفوا بزلتهم وأحسنوا التوبة منها .

وحارب النفاق حربا شديدة تماثل حربه للشرك أو تزيد ، كما بين الله فيها منزلة الشهداء ومكانتهم عند الله ، ودعا إلى تعلم العلم وجعل طلبه فريضة .

وقد ختم الله سورة التوبة ببيان حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على المؤمنين ، ووجوب الإقبال على الإسلام وعدم التولى عنه .

وتسمى هذه السورة بأسماءٍ أخرى . منها : سورة براءة . وسورة العذاب . وسورة الفاضحة لأنها فضحت المنافقين ، وكشفت نفاقهم الذى أجهدوا أنفسهم فى إخفائه ، إلى غير ذلك من أسمائها .

(بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ
وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ
يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ
فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ
ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ
عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾) .

المفردات :

(بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِه) : المراد من البراءة قطع العهد بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين الناكثين للعهد من المشركين .

(عَاهَدتُّم) : عاقدتم .

(فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ) : فسيروا فيها أحرارا .

(غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ) : أى غير مفلتين من انتقامه .

(مُخْزِي الْكَافِرِينَ) : مذلهم فى الدنيا والآخرة .

(وَأَذَانٌ) : الأذان ، الإعلام بأمر مهم ، وشاع إطلاق الأذان على النداء للصلاة .

(يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ) : المراد به يوم عيد النحر وقيل ؛ يوم عرفة .

(وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) : أى وأنذرهم بعذابه فإن التبشير كما يستعمل كثيرًا فى الإخبار بما يسر ، يستعمل قليلا فى الإخبار بما يسوء ، لغرض الإهانة والتحقير .

(وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ) : أى ولم يعينوا عليكم . . .

التفسير

١ - (بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) :

انفردت سورة التوبة بترك البسملة فى أولها ، دون باقى سور القرآن ، لأنها بدئت بالبراءة من المشركين الناقضين لعهودهم وإنذارهم ، والبسملة فيها رحمة لاتلتقى مع هذا الإنذار .

روى أنه لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، جعل المشركون ينقضون العهود التى كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا بعض القبائل ، منهم بنو ضَمْرة وبنو كنانة ، فأمره الله بنبذ عهود الناكثين ، وأُمهلوا أربعة أشهر يسيرون فى الأرض أحرارًا كيف شاءوا .

والمعنى : براءة صادرة من الله أمرًا ، ومن رسوله صلى الله عليه وسلم تبليغًا إلى المشركين ، الذين خانوا عهودهم ونقضوها .

والمقصود من هذه البراءة ، إنهاء حكم الأمان الذى تتضمنه هذه العهود بسبب سبق المشركين إلى نكثها .

٢ - (فَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللهِ وَأَنَّ ٱللهَ مُخْزِي ٱلْكَافِرِينَ) :

أى فسيروا فى الأرض آمنين على أنفسكم من قتال المسلمين مدَّة أربعة أشهر ، لاتتعرضون للإيذاء فيها ، واعلموا أنكم غير معجزى الله بسياحتكم فى الأرض أو قتالكم المسلمين ، وأن الله مخزى الكافرين فى الدنيا بالهزيمة ، وفى الآخرة بسوء العذاب .

وقد عُلِم من الآية الكريمة أن الناكثين لعهودهم يمهلون أربعة أشهر ، سواء أكانت مدتهم كذلك ، أم أقل منها أم أكثر ، وابتداء هذا الأجل من يوم الحج الأكبر ، وانقضاؤه بعد تمام أربعة أشهر كوامل .

٣ ـ (وَآذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ) :

أى وإعلام من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة مسلمهم وكافرهم فى يوم الحج الأكبر ، أن الله برىءٌ من عهود المشركين الناكثين ، وأن رسوله صلى الله عليه وسلم برىءٌ منهم كذلك [1] ، والمراد بيوم الحج الأكبر يوم النحر ، أما العمرة فهى الحج الأصغر ، وقد تولى إبلاغ هذا الإعلام أبو بكر وعلى رضى الله عنهما ، كما رواه البخارى وغيره ، وخلاصة تلك الروايات أنه صلى الله عليه وسلم أمَّر أبا بكر رضى الله عنه على موسم الحج سنة تسع ، ثم أتبعه عليا رضى الله عنه على ناقته العضباء ، ليقرأ صدر سورة التوبة على أهل الموسم ، فقيل له عليه الصلاة والسلام : لو بعثت بها إلى أبى بكر فقال صلى الله عليه وسلم : « لا يُؤَدِّى عَنِّى إِلَّا رَجُلٌ مِنِّى » وذلك لأن عادة العرب أن لايتولى أمر العهد والنقض على القبيلة إلا رجل منها ، فلما قَرُبَ عَلِىٌّ سمع أبو بكر صوت ناقة مقبلة فقال هذا رغاءُ [2] ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما لحقه علىٌّ قال له أبو بكر : أمير أم مأمور ، قال بل مأمور ، ومضيا ، فلمَّا كان قبل يوم التروية خطب أبو بكر رضى الله عنه وحدثهم عن مناسك الحج ، وقام على رضى الله عنه يوم النحر عند جَمْرَة العقبة فقال :

يـأيها الناس إنى رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إليكم فقالوا بماذا ؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية من أول سورة التوبة ثم قال : أُمرت بأربع : أن لايقرب

(١) ولا تكرار بين ما جاء فى هذه الآية ، وما جاء فى الآية الأولى ، فإن الأولى فيها إخبار بثبوت البراءة من الناكثين لعهدهم وأما هذه ففيها وجوب إعلام جميع الناس بذلك ، ولم يخصه بالمعاهدين .

(٢) الرغاء : صوت الإبل .

البيت بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة ، وأن يُتَمَّ إلى كل ذى عهد عَهْدُه .

والمقصود من براءة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من المشركين الناكثين لعهودهم ، هو مقابلتهم بمثل ما فعلوا ، وذلك بقطع عهودهم بعد مهلة أربعة أشهر ، يتدبرون فيها أمرهم ، حتى لا يؤخذوا على غِرَّة ، ولكى يكون لديهم وقت كاف فى التدبر فى قبول الإسلام — وترك الشرك .

(فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ) :

أى فإن رجعتم خلال هذه المهلة عمَّا أنتم فيه من الشرك وسائر المعاصى ، فرجوعكم هذا أنفع لكم فى دنياكم وأخراكم ، وإن أعرضتم عن الإيمان ، وآثرتم البقاء على ما أنتم عليه من الشرك وآثامه ، فاعلموا أنكم لاتعجزون الله عن الانتقام منكم ، فهو قادر عليكم وقاهر لكم .

(وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) :

أى وأنذر يا محمد أولئك الذين كفروا بالإسلام وعادَوْه ووقفوا له بالمرصاد ، أنذرهم بعذاب شديد الإيلام فى الدنيا بالقتل والخزى والنكال ، وفى الآخرة بالمقامع والأغلال .

والتعبير بالتبشير عن الإنذار ، لغرض التهكم والسخرية بمن يتولى عن الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم مع وضوح الحق فى جانبه .

كما أن العدول عن خطابهم بالوعيد ، إلى تكليف الرسول صلى الله عليه وسلم بتبليغه إياهم ، يشعر أولئك المنذَرين بأن الوعيد أمر تقرر نزوله بهم ولابد منه ، إلى جانب إيلامهم بالإعراض عنهم .

٤ — (إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا . . .) الآية .

أمر الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أن ينبذ المسلمون عهود المشركين ، وجاءت هذه الآية ، لتبين أن هذا النبذ ليس عامًّا لهم جميعًا ، بل هو خاص بأولئك الذين تلاعبوا بعهودهم ، وظاهروا على المسلمين .

والمعنى : ولا تمهلوا الناكثين لعهودهم فوق أربعة أشهر ، لكن الذين عاهدتموهم ، ثم لم ينقصوكم شيئًا مما عاهدوكم عليه ، ولم يعينوا عليكم أحدًا من أعدائكم ، فلا تعاملوهم معاملة الناكثين لعهودهم ، بالمسارعة إلى قتالهم بعد هذه المهلة المضروبة للناكثين ، بل أتموا إليهم عهدهم مهما كانت مدتهم ، وقد ختم الله الآية بقوله :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) : للتنبيه على أنَّ عدم مراعاة حقوق العهد مع الوفى ولو كان مشركًا ليست من التقوى فى شىء .

والآية تدل على أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام ، مادام العهد معقودًا ، وعلى أن العَهْدَ المؤقت لايجوز نقضه إلا بانتهاء وقته ، وأنَّ شرط وجوب الوفاء به علينا أن يحافظ العدو عليه بحذافيره فإن أخل بشىء منه أو عاون أحدًا من الأعداء ضدنا وجب نبذ عهده .

(فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾) .

المفـردات :

(انسَلَخَ) : انقضى .

(وَخُذُوهُمْ) : وأسِرُوهم ، والأخيذ ؛ الأسير .

(وَاحْصُرُوهُمْ) : وضيقوا عليهم وامنعوهم من الإفلات .

(وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) : وراقبوهم فى كل مكان يرى فيه تحركهم ، حتى تمنعوهم من التجمع ضدكم ، أو الفكاك منكم .

(فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ) : أى فاتركوهم أحرارًا .

(اسْتَجَارَكَ) : أى سأل جوارك ليكون فى حماك وأمانك .

(فَأَجِرْهُ) : أى فأمّنه .

التفسير

٥ ــ (فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ . . .) الآية .

المراد بالأشهر الحرم ؛ الأشهر الأربعة التى أبيح للمشركين الناكثين لعهدهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسيحوا فيها فى الأرض آمنين ، وجعلت حُرُمًا لأن الله حرم قتالهم فيها ، وقد علمت من قبل أنها بدأت من يوم النحر .

والمعنى : فإذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرم فيها قتال المشركين الناكثين لعهودهم ــ لعلهم يثوبون فيها إلى رشدهم ــ فاقتلوهم حيث وجدتموهم فى حل أو حرم ، لإصرارهم على الخيانة والشرك .

(وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) :

وَأسروهم وضيقوا عليهم ، وترصدوا لهم فى كل مكان لئلا ينتشروا فى البلاد .

ويستثنى من هؤلاء النساءُ والرهبان والشيوخ والصبيان والضعفاءُ ، فهؤلاء لايتعرض لهم بقتل ولا تضييق إلا إذا عاونوا أولئك الناكثين .

(فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى فإن رجعوا عن الشرك فأسلموا وأقاموا الصلاة بشروطها فى أوقاتها ، وأدّوا الزكاة لمستحقيها ، برهانًا على صدق توبتهم وإيمانهم ، فخلوا سبيلهم ولا تتعرضوا لهم بشىء مما تقدم ، إن الله عظيم الغفران والرحمة ، فلهذا يقبل توبتهم من الغدر والكفر .

وقد جاء بمعنى هذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أَن أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ محمدًا رَسُولُ اللهِ وَيُقِيمُوا الصَّلاة ويُؤْتوا الزَّكاة » الحديث . أخرجه الشيخان .

وقد استند أبو بكر رضى الله عنه إلى الآية والحديث فحارب مانعى الزكاة .

٦ - (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ . . .) الآية .

أى وإن أحد من المشركين طلب جوارك ليكون فى حماك وأمانك ، فأجبه إلى طلبه حتى يسمع كلام الله ، أى القرآن تقرؤه عليه ، وتذكر له شيئًا من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله ، ثم أبلغه مكان أمنه إن لم يسلم .

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّايَعْلَمُونَ) :

أى أنَّ تأمينهم وإسماعهم كلام الله بسبب أنهم قوم يجهلون حقيقة الإيمان وما تدعوهم إليه ، فلابد من تمكينهم من ذلك ببذل الأمان لهم ، حتى يزول عذرهم وتقوم لك الحجة عليهم ، « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ » . . . الآية .

والآية تظهر سماحة الإسلام وحرصه على السلام وتهيئة أسباب الوصول إلى الحق فى غير إكراه ولا إعْنَاتٍ ، قال تعالى : « لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » .

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾) .

المفـردات :

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُم) : فما وفوا بعهدهم لكم .

(يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ) : يغلبوكم .

(لَايَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَاذِمَّةً) : لايراعوا فيكم قرابة ولا عهدًا .

التفسير

٧- (كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ . . .) الآية .

هذه الآية الكريمة شروع فى بيان الحكمة فى البراءة من عهود المشركين بعد أن نكث بعضهم عهودهم ، والغرض من الاستفهام (بكيف) استبعاد أن يكون لهم عهد مع الله ورسوله ولا ينقضوه مع أن صدورهم مليئة بكراهية المسلمين ، أو استبعاد أن يفى الله ورسوله بالعهد وهم ناكثوه .

والمعنى على هذا : كيف يوجد لهؤلاء المشركين عهد معتد به عند الله وعند رسوله يستحق أن تراعى حقوقه ، ويحافظ عليه إلى إتمام المدة؟ لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فتربصوا بهم ، وانظروا أحوالهم ، وعاملوهم حسب تصرفهم ، والتعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام ، لزيادة بيان أصحابها[1] ، والإشعار بسبب توكيد احترامها وتنفيذها .

(فَمَا ٱسْتَقَامُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ) :

فَأَىَّ وَقْتٍ استقام أولئك المشركون الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام ، وكانوا أوفياء بمعاهدتهم ، فاستقيموا لهم بإتمام عهدهم إلى مدتهم ، فإن هذا من التقوى ، والله يحب المتقين .

٨- (كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً . . .) الآية .

فى تكرار الاستفهام بكيف ، تكرار وتأكيد لاستبعاد ثباتهم على العهد أو بقاء حكمه مع التنبيه على السبب .

والمعنى على الثانى : كيف يكون للمشركين عهد مُعْتَدٌّ به ، ومراعاةٌ لأحكامه عند الله وعند رسوله صلى الله عليه وسلم ، وحالهم أنهم إن يظفروا بكم أيها المؤمنون ويظهروا عليكم ويغلبوكم ، لايراعوا فى شأنكم قرابة ولا عهداً ، فإذا كانوا لايراعون عهودهم وقرابتهم معكم ، فكيف تحافظون على عهود ضيعوها ونكثوها ، وشرط وجوب مراعاة حقوق العهد ، أن تكون محترمة من المتعاقدين ، فإن ضيعها أحدهما ، حلَّ للآخر معاملته بالمثل .

(١) وهم بنو بكر - كما قال محمد بن إسحاق - أى ليس العهد إلا لهؤلاء الذين لم ينقضوا عهدهم بعد .

(يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ) :

يرضيكم أولئك المشركون بإظهار الوفاء والمصافاة بأفواههم ، ويؤكدون ذلك بالأيمان لفاجرة ، ويتعللون عند ظهور خلافه بالمعاذير الكاذبة ، وتمتنع قلوبهم عن إقرار ما نطقت به ألسنتهم ، وأكثرهم متمردون على الفضائل ، فلا عقيدة تكفهم ولا مروءة تردعهم .

وتخصيص الأكثر بوصف الفِسْق والغدر لما فى بعض الكفرة من البعد عن الغَدْر ، والتعفف عما يؤدى إلى سوء الأُحدوثة وقبح السيرة .

(ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾) .

المفردات :

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ) : استبدلوا بالقرآن .

(فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) : فأعرضوا عن دينه الموصل إليه .

التفسير

٩ ـ (اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ...) الآية .

استبدل المشركون بالقرآن الذى هو أعظم آيات الله التنزيلية ، استبدلوا به شيئا حقيرا من حطام الدنيا هو اتباع أهوائهم وشهواتهم ، فأعرضوا عن دين الله الموصل إلى مرضاته ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا إليها ، إنهم بئس الذى كانوا يعملونه من إعراضهم عن الحق وإقبالهم على الباطل .

١٠ - (لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَاذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ) :

هذه الآية الكريمة نعت على المشركين عدم مراعاتهم لحقوق المؤمنين على الإطلاق ، أما مثيلتها السابقة ، فقد نعت عليهم ذلك عندما يظهرون عليهم ، كما أن فى هذه الآية توكيدًا لما جاء فى الآية السابقة .

والمعنى : لا يراعى المشركون فى مؤمن قرابة ولا عهدًا فى أى حال ، فقلوبهم مفعمة بكراهيتهم ، وأولئك هم المغالون فى الاعتداء ، بعدم مراعاة حقوق أهل الدين الحق .

(فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾) .

التفسير

١١ - (فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ ...) الآية .

فإن رجعوا عما هم عليه من الكفر ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، والتزموا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى مواقيتهما ، وفق ما شرعه الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهم إخوانكم فى الدين ، لهم مالكم وعليهم ما عليكم ، ونبيِّن الآيات المتعلقة بأحوال المشركين من الناكثين وغيرهم ، الموضحة لأحكامهم حالَى الكفر والإيمان ، نبيِّنها لقوم يعلمون ويفهمون ما فيها من الأحكام فيطبقونها عند مقتضياتها .

(وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾) .

التفسير

١٢ - (وإن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْد عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ...) .

بينت الآية السابقة كيف نعامل المشركين إن تابوا عن الشرك وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وجاءت هذه الآية لتبين كيف نعاملهم إن ظلوا على شركهم ونقضوا العهد بيننا وبينهم.

والمعنى : وإن نقض هؤلاء المشركون ماوثقوه من العهود بالأيمان ولم يوفوا بها وطعنوا فى دينكم وعابوه بصريح التكذيب وتقبيح الأحكام ، فقاتلوا أئمة الكفر وأصحاب القدوة فيه ، لنقضهم عهدهم وحنثهم فى أيمانهم ، إنهم لا يقصدون بأيمانهم توثيق عهدهم حقيقة بل يقصدون بها الخداع والمكر مع تبييت نية الشر ، فهم لا أيمان لهم يوثق بها ويركن إليها ، وليكن غرضكم من قتالكم لهم أن ينتهوا عما هم فيه من الشرك والطعن فى الدين ، لا إيصال الإيذاء لهم كما هى طريقة أهل الإيذاء والشر .

(أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾)

التفسير

١٣ - (أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ....) الآية .

فى هذه الآية تحريض على قتال أولئك الناكثين لعهودهم ، مؤكد للأمر السابق بقتالهم .

والمعنى : لا ينبغى أن تتأخروا عن قتالهم ، بل تقبلون عليه : ألا تقاتلون قوما نقضوا عهودكم وطعنوا فى دينكم وظاهروا عليكم أعداءكم ،وهموا بإخراج الرسول حين تشاوروا فى دار الندوة على التخلص منه .

ونسب إليهم الهمُّ بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم ولم ينسب إليهم إخراجه ، لأن الله تعالى هو الذى أمره بالخروج ، بعد أن أعلمه بما دبروه من قتله .

(وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) : بالقتال فى بدر . (أَتَخْشَوْنَهُمْ) : أتخافونهم أيها المؤمنون فتتركوا قتالهم خوفا على أنفسكم لا ينبغى ذلك منكم .

(فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ) : أى فالله أجدر بأن تخافوا عقابه إذا تركتم قتالهم : وأن تحذروا سخطه عليكم فإن هؤلاء المشركين لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا والله تعالى وحده هو الذى بيده النفع والضر .

(إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) : فاخشوه وحده ، فإن شأن الإيمان أن يدفع أصحابه ، إلى عدم الخوف إلا من الله تعالى .

(قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾) .

التفسير

١٤ ـ (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ) :

بعد أن بين الله فيما سبق ما يستوجب قتال المشركين ،ووبخ على التراخى فيه ، وتوعد على تركه ، أتبعه الأمر بقتالهم والتبشير بالنصر عليهم فى هذه الآية .

والمعنى : قاتلوا المشركين ، ولا تخافوهم واحرصوا على النصر ، فإنكم إن صدقتم فى القتال : (يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ) : قتلا . (وَيُخْزِهِمْ) : أسرًا (وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ) : عاقبة (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ) : موتورين من هؤلاء المشركين .

وقيل المراد من القوم المؤمنين هنا ؛ بطون من اليمن وسبإ . قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيرا ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون إليه فقال صلى الله عليه وسلم « أبشروا فإن الفرج قريب » وعزى هذا القول لابن عباس .

وقيل هم خزاعة فإن قريشًا أعانت بنى بكر عليهم ، وكانت خزاعة حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنشد رجل من بنى بكر هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رجل من خزاعة لئن أعدته لأكسرن فمك ،فأعاده فكسر فاه وثار بينهم قتال : فقتلوا من الخزاعيين أقوامًا ، فخرج عمرو بن سالم الخزاعى فى نفر إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بما حدث ، فدخل منزل ميمونة وقال : « اسكبوا إلىَّ ماءً » فجعل يغتسل وهو يقول : « لا نُصِرت إن لم أنْصُر بنى كعب » ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتجهز والخروج إلى مكة فكان الفتح .

ونسب هذا القول إلى مجاهد – ولكن العبرة بعموم اللفظ ، فقد فعل المشركون مع المؤمنين بمكة منذ أول الدعوة الإسلامية حتى الفتح ، ما يقتضى الثأر منهم للمؤمنين .

١٥ – (وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ) : أى ويذهب الله بنصركم على المشركين غيظ قلوبكم أيها المؤمنون بسبب ما نالكم منهم من متاعب ومشاق ،وقد أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به على أحسن الوجوه ، فكان إخبار النبى صلى الله عليه وسلم بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة له .

(وَيَتُوبُ اللهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ) : هذا كلام مستأنف يُنبِىءُ عما سيكون من إيمان بعض

المشركين ، حسب مشيئته تعالى المبنية على الحكم البالغة ، وقد تحقق ذلك حيث أسلم كثير منهم .

(وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) : والله شامل العلم فيعلم تحول قلوب هؤلاء من الكفر إلى الإيمان فيعينهم على توبتهم وإيمانهم ، والله عظيم الحكمة فى إقامة دينه وإظهاره على الدين كله ، وإعانة التائبين على متابهم .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾) .

المفـردات :

(وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ) : لما حرف يفيد نفى وقوع الفعل إلى زمن التكلم مع توقع وقوعه فى المستقبل ، والمراد أنه إلى الآن لم يتحقق وقوع الجهاد منكم ، لعدم حصوله وقت نزول الآية ، ولكنه ينتظر وقوعه وفق ما فى علم الله .

(وَلِيجَةً) : الوليجة الصديق الذى تطلعه على سرك وخفايا أمرك من الولوج وهو الدخول ، ويطلق عليه لفظ بطانة أيضًا ، لأنك تباطنُهُ بأسرارك .

التفسـير

١٦ - (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ . . .) الآية .

هذه الآية إلى خاتمة السياق فى الآيات التالية ، جاءت كسابقتها للحث على جهاد المشركين لتطهير جزيرة العرب من الشرك حتى يسلم المسلمون ودينهم من أذى أهله .

وفى الآية توبيخ للمسلمين ولوم لهم على ظنهم أن يتركوا دون أن يبلوهم الله بجهاد المشركين ، ليتبين المخلص فى إيمانه وجهاده من غيره ، إثر توبيخهم فى الآية السابقة على تراخيهم فى الجهاد .

والمعنى : بل أظننتم أن تتركوا على ما أنتم عليه من القعود عن الجهاد دون اختبار منا بتكليفكم به ، ولما يتحقق بعد الذين جاهدوا فى سبيل الله بإخلاص وهمة ، غير متخذين لهم أولياء من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين يباطنونهم بأسراركم الخفية ، ويطلعونهم على عوراتكم .

(وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ) : أى والله عظيم العلم بما يعمله عباده ، فلا تخفى عليه منهم خافية ، فإن هم جاهدوا - بإخلاص ؛ أحسن مثوبتهم ، وإن هم قعدوا عنه أو قصَّروا فيه أو أبلغوا أسراره وخططه إلى أعداء الإسلام أغلظ عقوبتهم .

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾) .

المفردات :

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ) : أى ما صح ولا استقام لهم .

(شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ) : المراد من شهادتهم على أنفسهم إظهارهم آثاره ، من نصب الأوثان حول البيت وعبادتها - وإن أبوا أن يعترفوا بكونهم كفارًا .

(حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) : أى بطلت فلا ينتفعون بها .

(مَسَاجِدَ ٱللَّهِ) : أى أماكن عبادته .

التفسير

١٧ - (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ) :

أمر الله تعالى قبل هذه الآية بقتال المشركين الذين أخرجوهم من ديارهم وألا يتخذوا منهم بطانة ، وفى هذه الآية يبين الله تعالى أن هؤلاء المشركين ليسوا أهلا لعمارة المسجد الحرام ولا للإقامة حوله ، وإنما أهل ذلك هم المؤمنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويخشون الله تعالى فلذا ينبغى أن يبعدوا المشركين عن جوار البيت وشرف عمارته ، بقتالهم ما لم يهتدوا إلى دين ربهم .

والمعنى : ما صح ولا استقام فى دين الله وشرعه أن يتولى المشركون عمارة الأماكن المعدة لعبادة الله المبنية على اسمه وحده لاشريك له ، فضلًا عن عمارتهم المسجد الحرام الذى هو أشرفها وأعزها ، إذ كيف تستقيم عمارتهم له وهم معترفون بكفرهم شاهدون به على أنفسهم ، بما قدّسوه من أوثان ، وما قدموه لها من قربان ، وإن زعموا أنهم بذلك غير كافرين .

(أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَالِدُونَ) :

أولئك الذين يفخرون بعمارة المسجد الحرام والقيام على خدمته ، بطلت أعمالهم البارّة جميعًا فصارت هباءً منثورًا ، لاقترانها بالشرك وكبائر الذنوب ، فلاهم عليها يثابون بل هم فى النار خالدون .

روى أن المهاجرين والأنصار أقبلوا على أسارى «بدر» يعيرونهم بالشرك ، وطفق على -رضى الله عنه- يوبّخ عمه العباس بقتال النبى صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم ، وأغلظ له فى القول ، فقال العباس : تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا ، فقال : ولكم محاسن ؟ قالوا نعم : إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ، ونسقى الحجيج ونفك العانى[1] فنزلت هذه الآية وما بعدها ردًّا عليهم .

(١) العانى : بمعنى الأسير .

١٨ – (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ . . .) الآية .

المعنى : إنما الجدير بأن يعمر مساجد الله ويثاب على عمارتها ، من آمن بالله –وحده– ربًّا ومعبودًا ، وصدَّق باليوم الآخر موعدًا ومصيرًا ، وحسابًا وجزاءً ، وأدى الصلاة على وجهها المشروع فى مواقيتها ، وأعطى الزكاة بأنواعها ومقاديرها لمستحقيها ، وفقًا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وامتثالا لأمره وإيمانًا به ، ولم يخف فى الحق غير الله تعالى ، فهؤلاء الجديرون وحدهم بعمارة مساجد الله دون من أشرك بالله وكفر برسول الله صلى الله عليه وسلم .

(فَعَسَىٰٓ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) :

كلمة (عَسَى) من الله تفيد وقوع ما بعدها حتمًا ، قال ابن عباس وغيره : «عسى» من الله واجبة ، وقال محمد بن إسحق : عسى من الله حق .

نقول : ومن ذلك قوله تعالى : « عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا » .

أى أنه تعالى سيبعث نبيَّنا يوم القيامة ذا مقام يحمده له الأولون والآخرون ، وهو مقام الشفاعة العظمى وأن ذلك حاصل بفضل الله ولابد من حصوله .

والمعنى : فعسى أولئك المؤمنون بالله واليوم الآخر المقيمون الصلاة المؤتون الزكاة الخائفون من الله –وحده– عسى هؤلاء أن يكونوا من المهتدين إلى ما يحبون ، من الجنة وما فيها من المطالب العلية .

وإنما عبر عما ينتظر هؤلاء الكرماء على الله ، من الاهتداء إلى مطالبهم العليَّة ، بعبارة تفيد التوقع دون القطع ، لتنحسم أطماع المشركين فى الانتفاع بأعمالهم التى حسبوا أنها نافعة لهم ، ولتوبيخهم بقطعهم أنهم مهتدون ، فإن المؤمنين – على ما بهم من الكمالات – إذا كان أمرهم دائرًا بين « لعل وعسى » فما بال الكفرة ، كما أن فيه ترغيبًا للمؤمنين فى أن يكون لهم مع الرجاء فى فضل الله خوفٌ من عقابه على ماعسى أن يكون لهم من تقصير فى العمل أو النية .

والآية شاهد على فضل عمارة المساجد بالبناء أو العبادة ، وفى ذلك يروى الترمذى بسنده عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إِذَا رأَيْتُم الرَّجُلَ يعتادُ المسْجدَ فاشْهدُوا لَهُ بالإِيمان » .

(* أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾) .

المفردات :

(سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ) : المراد من الحاج جنس الحجاج ومن سقايتهم إعطاؤهم ما يَشْرَبون .

التفسير

١٩ ــ (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللهِ) :

لما زعم المشركون أن لهم محاسن تقتضى فضلهم على المؤمنين ، أنكر الله عليهم حتى مجرد المساواة بهم فضلا عن سبقهم ، ووبّخهم على زعمهم الفاسد الذى خدعوا به أنفسهم ، روى أن المشركين سألوا اليهود قائلين : نحن سقاة الحاج وعمّار المسجد الحرام ، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه ، فقالت اليهود عنادًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتم أفضل ــ فردّ الله على الجميع مُنْزِلًا هذه الآية الكريمة.

والمعنى : أجعلتم أصحاب سقاية الحجاج فى طريقهم إلى مناسكهم أو عند عودتهم منها وهم مشركون بالله ، أجعلتموهم مشابهين لمن آمن بالله ورسوله وآمن باليوم الآخر ومافيه من حساب وجزاء ، وجاهد الكفار فى سبيل الله وطلبًا لمرضاته .

وبعد أن أنكر الله على المشركين زعمهم أفضليتهم على المؤمنين ، عن طريق إنكاره لما هو أخف منه من المشابهة ، حكم الله تعالى بعدم تساويهما عنده ، وتوعَّد المشركين فقال :

(لَا يَسْتَوُونَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ) :

أى : لا يستوى المشركون – وإن تقربوا إلى الله بالسقاية وعمارة المسجد الحرام – مع المؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر المجاهدين فى سبيل الله ، فالأولون خالدون فى النار أبدًا ، والآخرون خالدون فى الجنة أبدًا ، والله –تعالى– لا يهدى إلى الرشد من ظلم نفسه ، وظلم الحق بإصراره على الشرك بالله ، والكفر برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء فى سبب نزول هذه الآية رواية أخرى فى صحيح مسلم عن النعمان بن بشير قال :

« كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رجل ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ، وقال آخر : ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعْمُرَ المسجد الحرام وقال آخر : الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم ، فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت واستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله عز وجل : (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . . .)الآية .

وهذا المساق يقتضى أن الآية نزلت عند اختلاف المسلمين فى الأفضل من هذه الأعمال ، وأن الآية نزلت بتمامها إلى قوله تعالى : (وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ) فى شأن خلافهم ، وهذا مشكل بالنسبة إليهم . فإنهم مهديون وليسوا بظالمين .

وأجيب عن هذا الإشكال بأنه لما قرأ النبى صلى الله عليه وسلم الآية ظن الراوى أنها نزلت حينئذ فقال إنها نزلت بهذا السبب فى حين أن النبى صلى الله عليه وسلم لمَّا استفتاه عمر فيما اختلفوا فيه قرأ النبى صلى الله عليه وسلم الآية التى نزلت من قبل بشأن المشركين ، مستدلًا بها على أن الجهاد أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد

الحرام ، ليعلم المختلفون الحكم ، فالآية فى الحقيقة لم تنزل بسبب هذا الخلاف ، والراوى أخطأ فى ظنه نزولها بسببه أو تسامح فى التعبير .

قال القرطبي : نقلا عن غيره : لا يستبعد أن ينتزع ممَّا أُنزل فى المشركين أحكام تليق بالمسلمين ، قال عمر : إنا لو شئنا لا تخذنا سلائق وشواءً وتُوضَعُ صَحْفَةٌ ، وتُرْفَعُ أخرى ، ولكنَّا سمعنا قول الله تعالى : «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا »(١)

وهذه الآية نص فى الكفار ولكن عمر – رضى الله عنه – فهم منها زجر المسلمين أيضًا عمَّا يناسب أحوال الكافرين بعض المناسبة ، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة فهذه الآية من هذا النوع – قال القرطبىّ : وهذا تأويل نفيس وبه يزول الإشكال ا هـ .

(ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾) .

المفردات :

(وَهَاجَرُوا) : تركوا مكة إلى المدينة خوفًا على دينهم وأمنا على أنفسهم من أذى المشركين .

(يُبَشِّرُهُمْ) : البشارة الإعلام بالخبر السَّار ، وسمِّيت بذلك لظهور أثرها على البشرة .

---

(١) سورة الأحقاف من الآية: ٢٠

التفسير

٢٠ - (ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ . . .) الآية .

لما أنكرت الآية السابقة استواء الذين يسقون الحجاج ويعمرون المسجد الحرام - وهم مشركون - مع المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله ، جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان عظيم درجاتهم عند الله ، بسبب ما اتصفوا به من الكمالات :

والمعنى : الذين آمنوا بالله تعالى ربًّا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًّا ، وهجروا وطنهم مكة إلى المدينة ، حماية لدينهم وأمنا على أنفسهم وعقيدتهم ، وجاهدوا الكفار بأموالهم وأنفسهم ، فى طريق مرضاة الله وإعزاز دينه ، لا طلبًا للشهرة والاتسام بالشجاعة والفتوة ، ولا تهافتًا على نيل الغنيمة من غير تطلع إلى جانب الله ، أولئك (أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللهِ) . أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم يتصف بها من هؤلاء الذين أشركوا بالله ، وخلطوا بشركهم سقاية الحجاج وعمارة المسجد الحرام .

وأفعل التفضيل فى قوله تعالى : (أَعْظَمُ دَرَجَةً) على غير بابه ، فليس للمشركين أى درجة من الفضل والثواب بسبب شركهم ، ولذلك عقبه بقوله :

(وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ) :

وأولئك المنعوتون بهذه الكمالات هم المختصون بالفوز العظيم والظفر بالبغية دون سواهم ، فكيف يزعم أولئك المشركون علوهم فى الفضل على المؤمنين، من أجل سقايتهم الحجاج وعمارتهم المسجد الحرام وهم بربهم يشركون :

ثم يبين الله عظيم درجاتهم وفوزهم ويبشرهم فيقول :

٢١ - (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ) :

يخبرهم الله مُبَشِّرًا برحمة عظيمة منه فى دنياهم وأخراهم ، ورضوان كريم عن فضائلهم ، وجنات يقصر الوصف عن بيان عظمتها ، لهم فيها نعيم لا يقادر قدره ، دائم لا نفاذ له ولاشك فى أن الإخبار بذلك يسرهم ويرضى قلوبهم ويَغيظ عدوهم .

٢٢ ـ (خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ) :

أى أن الله تعالى يبشرهم بدخولهم تلك الجنات خالدين فيها لا يخرجون منها أبدًا ، فإن الله لديه أجر عظيم ، فلا يبخل به على أوليائه .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾) .

المفردات :

(أَوْلِيَاءَ) : أحباء وأصفياء .

(وَعَشِيرَتُكُمْ) : أى أقرباؤكم ، من العشرة وهى الصحبة .

(فَتَرَبَّصُوا) : فانتظروا .

(لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ) : أى لا يعينهم على الهدى لخروجهم عن طاعة الله بموالاة أعدائه .

التفسير

٢٣ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ) :

بعد أن بين الله فيما تقدم أن المشركين لا يستوون عند الله مع المؤمنين مهما قدَّموا من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وغيرهما ،- وأن المؤمنين أعلى منزلة وأعظم كرامة لديه منهم ، فهم الفائزون دونهم برحمة الله ورضوانه ونعيمه المقيم .

بعد أن بيَّن الله ذلك أتبعه فى هذه الآية نهى المؤمنين عن موالاة أقاربهم إن هم استمروا على كفرهم وشركهم ، وهذه الآية نزلت فى المهاجرين ، فإنهم لما أُمروا بالهجرة قالوا إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا ، وذهبت تجارتنا وهلكت أموالنا ، وخربت ديارنا وبقينا ضائعين ، فنزلت : فهاجروا ، فجعل الرجل يأْتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه ، ولا ينزله ولا ينفق عليه ، ثم رخص لهم فى ذلك : والآية عامة الحكم وإن كان السبب خاصًّا .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا يَتَّخذ أحد منكم أباه أو أخاه حبيبًا يصافيه ويخلص له الودَّ إن استحب الكفر وآثره على الإيمان ، وأصرَّ عليه إصرارًا لا يرجى منه الإقلاع عنه . والنهى عن موالاتهم فى تلك الحالة يقتضى جواز موالاتهم قبلها ، على أمل أن تؤدى بهم إلى الإسلام ، بسبب شعورهم بسماحته .

(وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) :

ومن يحبهم ويخلص لهم الودَّ ، وهم على ماهم عليه من الإصرار على الكفر بالله ورسوله ، فأُولئك هم الظالمون -وحدهم- دون سواهم فإن ظلم غيرهم يتلاشى أمام ظلمهم ، لأنهم أحبُّوا من كفر بالله ورسوله ، وليس بعد الكفر ذنب ، فكيف يحبون من يتصف به .

٢٤ - (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ . .) الآية .

تضمنت هذه الآية أمرًا للنبى صلى الله عليه وسلم أن يقوّى عزائم المؤمنين على الانتهاء عما نهوا عنه، من موالاة الأقربين من المشركين ومن يجرى مجراهم .

والمعنى : قل أيها الرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وأقرباؤكم الذين نهيتم عن موالاتهم لكفرهم ، وأموالكم التى اكتسبتموها بسعيكم، وبضاعتكم التى اشتريتموها لتجارتكم وتخشون كسادها بهجرتكم أو بجهادكم ، ومنازل تعجبكم الإقامة فيها ، وتودون أن لا تبرحوها . إن كان كل ذلك أو بعضه أحب إليكم من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ومن الجهاد فى سبيله .

(فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ) : فانتظروا حتى يأتى الله بما يأمر به من عقوبة عاجلة أو آجلة لكم .

(وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) :

والله لا يوفق إلى الرشد القوم الخارجين عن طاعته فيما أمرهم به ، من ترك موالاة أقاربهم الكافرين ، والهجرة لإعزاز الدين ، والجهاد لحماية الإسلام والمسلمين ، وقد استفيد من الآية الكريمة ، وجوب أن يكون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أحب إلى المسلم مما سواهما ، وأن يكون لهذا الحبّ أثره من طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما أمر به الله أو نهى عنه ، أخرج الإمام أحمد بسنده عن زهرة بن معد عن جده قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب ، قال : والله لأنت يارسول الله أحب إلىَّ من كل شىء إلا من نفسى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ، فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إلىَّ من نفسى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الآن ياعمر » .

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ
كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا
رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ
وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ
وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ
مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾) .

المفردات :

(حُنَيْنٍ) : وادٍ بين مكّة والطائف ، حدثت فيه المعركة التى نسبت إليه وكانت عقب فتح مكة .

(بِمَا رَحُبَتْ) : أى برحبها وسعتها ، والباءُ فيه بمعنى « مع » .

(سَكِينَتَهُ) : رحمته التى تسكن عندها النفوس .

التفسير

٢٥ - (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ . . .) الآية .

بيّن الله فى الآيات السابقة فضل الجهاد ، وأنذر المؤمنين عاقبة التقصير فيه وفى حبِّ الله ورسوله بقوله : (فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ) وبيّن فى هذه الآية أنه تعالى عودهم النصر حين يخلصون فى جهادهم ، ويعتمدون فيه على ربهم ، وأن كثرة الجنود لا تنفع بغير معونة الله وإخلاص النية لله .

والمعنى : لقد نصركم الله - أيها المؤمنون - فى مواقع كثيرة خضتم فيها معارك مع أهل الشرك ، كبدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر ومكة ، وذلك لأنكم نصرتموه بصدق

جهادكم فهيأ لكم ثمار النصر ، وفاءً بوعده الكريم فى قوله تعالى : « إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ » وقوله تعالى : « إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » .

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا) :

أى ونصركم يوم حنين مع أنكم قصَّرْتُم فيه ، إذ أعجبتكم كثرتكم ، فتراخَيْتَم فى القتال اعتمادا عليها ، فلم تفدكم هذه الكثرة شيئا فى دفع العدو .

(وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ) :

وضاقت عليكم الأرض مع رحبها واتساعها من شدَّة الرُّعب والفزع ، فقد خيِّل إليكم أن رحابها أغلقت فى وجوهكم ، فلا تجدون فيها موضعا تطمئنون فيه وتثبتون ، فصرتم بذلك كمن ضاقت عليهم الأرض مع اتساعها ، فلا يجدون فيها مكانا يسعهم ثم انصرفتم من وجه العدو متقهقرين .

وكانت هذه الغزوة بعد فتح مكة مباشرة ، وسببها : أن أشراف هوازن وثقيف اجتمعوا وتشاوروا قائلين : إن محمدا قد فَرَغَ من قتال قومه ولا ناهِيَةَ له عنَّا ، فلنبدأه بالغزو قبل أن يغزونا ، وأجمعوا أمرهم على ذلك ، واجتمعت إليهم عدة قبائل ، منهم قبيلة سعد بن بكر الذى كان الرسول صلى الله عليه وسلم مسترضعا فيهم ، وجعلوا قيادتهم لمالك بن عوف النصرى [1] ، وكانوا عددًا كثيرًا ، فلما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ، أزمع المسير إليهم ، وخرج معه اثنا عشر ألفا ، منهم عشرة آلاف ممن شهد فتح مكة من المهاجرين والأنصار ، والباقون من الطلقاء ، أى من أهل مكة الذين أسلم كثير منهم ، وعفا عنهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وكان فيهم بعض المشركين .

فلما التقوا قال رجل من المسلمين اسمه سلمة بن سلامة الأنصارى : لن نغلب اليوم من قلة ، فساءت هذه الكلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاقتتلوا قتالا شديدًا ، فانهزم المشركون وتركوا ذرياتهم ونساءهم وأموالهم ، وكانوا قد جعلوهم خلفهم فى المعركة

(١) من بنى نصر بن مالك .

ليقاتلوا مستبسلين دفاعًا عنهم فأكبَّ المسلمون على الغنائم ، فنادى المشركون يا حماة السوء : اذكروا الفضائح ، فتراجعوا يحملون على المسلمين فانكشف المسلمون منهزمين ، فقد أدركهم شؤم إعجابهم بكثرتهم وتراخيهم بسبب ذلك فى القتال إلى جانب اشتغالهم بجمع الغنائم والسبايا ، ووجود عناصر مشركة وأخرى حديثة العهد بالإسلام من أهل مكة ، لم يزل للشرك أثر فى نفوسهم ، حتى قال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر وقال أخ لصفوان بن أمية : الآن بطل السحر ، فقال له صفوان وهو على شركه : اسكت فَضَّ الله فَاكَ ، والله لأن يَرُبَّنِى رجل من قريش خير من أن يَرُبَّنِى رجل من هوازن .

٢٦ - ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ :

ثم بعد أن ضاقت عليكم الأرض بما رحبت ووليتم مدبرين منهزمين ، أنزل الله رحمته التى تسكن بها القلوب ، أنزلها على رسوله وعلى المؤمنين ، فأما سكينته التى أنزلها على رسوله ، فقد كان من أثرها ثباته فى أرض المعركة ، وأمره العباس أن ينادى المنهزمين ليعودوا إلى لقاء العدو ، وأمَّا سكينته التى أنزلها على المؤمنين فقد كان من أثرها بقاء عدد منهم حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعودة المنهزمين إلى أرض المعركة ، حين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال فيها يُنَازل العدو ، وحوله نحو مائة من أصحابه وقد سمعوا العباس بن عبد المطلب يناديهم بأعلى صوته - وكان جَهْوَرِىَّ الصوت - ليعودوا إلى أرض المعركة ، وكان الرجل من المهزومين ، إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع ، لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ، ورجع بنفسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رجعت شرذمة منهم ، أمرهم النبى صلى الله عليه وسلم ، أن يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضة من التراب ودعا ربه واستنصره قائلا : «اللهم أنجز لى ما وعدتنى» ، ثم رمى بها القوم ، فما بقى إنسان إلا أصابه منها فى عينه وفمه ما شغله عن القتال ، ثم انهزموا فتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، ثم جاءوا بالأسارى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك هى خلاصة القصة مستقاة من مصادرها من السنّة[1] .

---

(١) راجعها مفصلة فى ابن كثير والقرطبى وأبى السعود وسيرة الخضرى .

ومما جاء عنها فى الصحيحين : أن البراء بن عازب قال له رجل : يا أبا عمارة : أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فقال : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر ، إن هوازن كانوا قوما رماة ، فلمَّا لقيناهم وحَمَلْنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهام ، فانهزم الناس ، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان بن الحرث آخِذٌ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء وهو يقول : « أنا النبى لاكذب ، أنا ابن عبد المطلب »[1] .

وأخرج مسلم عن أنس قال : « قال العباس : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أَكُفُّهَا إرادةَ ألاَّ تسرع ، وأبو سفيان[2] آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى عباس : ناد أصحاب السَّمُرةِ[3] — وكان رجلا صَيِّتًا — فقلت بأعلى صوتى : أين أصحاب السَّمُرة ، قال : فو الله لكأن عَطْفَتَهُمْ حين سمعوا صوتى ، عطفةُ البقر على أولادها ، فقالوا : « يالبيك يالبيك : قال : فاقتتلوا والكفار » . . الحديث — وفيه قال — ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ، ثم قال : انهزَمُوا وربِّ محمد ، قال : فذهبت أنظر ، فإذا القتال على هيئته فيما أرى ، قال : فو الله ما هو إلا أن رماهم بحصياته ، فما زلت أرى جَدَّهم — أى حظَّهم — كليلا وأمرَهُم مُدْبِراً قال أبو عمر : روينا من وجوه عن بعض من أسلم من المشركين ممن شهد حنينا أنه قال : وقد سئل عن يوم حنين : « لقينا المسلمين فما لبثنا أن هزمناهم واتبعناهم حتى انتهينا إلى رجل راكب على بغلة بيضاء ، فلمَّا رآنا زجرنا زجرة وانتهرنا وأخذ بكفه حصى وترابا فرمى به وقال : شاهت الوجوه فلم تبق عين إلا دخلها من ذلك ، وما ملكنا أنفسنا أن رجعنا على أعقابنا »[4]

---

(١) ابن كثير ج ٤ ص ٧٠ طبعة الشعب .

(٢) هو أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب وليس أبا سفيان بن حرب والد معاوية .

(٣) واحدة من شجر السمر ، وكانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية .

(٤) أنظر القرطبى — ٨ ص ٩٨ مطبعة دار الكتب .

(وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا) :

المراد بهؤلاء الجنود الملائكة ، أنزلهم الله تعالى ليُقَوّوا المؤمنين بما يُلقون فى قلوبهم من الخواطر والتثبيت ، ويضعفوا الكافرين بالتجبين لهم من حيث لا يرونهم ومن غير قتال ، أخرج البيهقى عن مصعب بن شيبة عن أبيه قال : « خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، والله ما أخرجنى إسلام ولا معرفة به ولكنى أبيت أن تظهر هوازن على قريش فقلت وأنا واقف معه : يا رسول الله : إنى أرى خَيلا بُلْقًا ، فقَال : ياشيبة إنه لا يراها إلا كافر ، فضرب بيده فى صدرى ، ثم قال : اللهم اهدِ شيبة ، ثم ضربها الثانية ثم قال : اللهم اهد شيبة ، ثم ضربها الثالثة ثم قال : اللهم اهد شيبة ، قال : فو الله ما رفع يده عن صدرى فى الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحبّ إلىَّ منه » الحديث .

وهو يدل على أن الملائكة نزلت على خيل بلق ، وأن المسلمين لم يروها مصداقا لقوله تعالى : (وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا) بل كان يراها الكافرون ، ولذا رآها - شيبة راوى هذا الحديث - رآها قبل أن يسلم فضربه النبى صلى الله عليه وسلم على صدره ودعا له فاهتدى ، وكان الغرض من إنزالها إلقاء الرعب فى قلوب الكافرين ، حين يرونهم فى صفوف المؤمنين ، قال سعيد بن السائب بن يسار عن أبيه قال : « سمعت يزيد بن عامر السوائى وكان شهد حنينا مع المشركين يوم حنين ، فكان يأخذ الحصاة فيرمى بها فى الطست فَيَطِنُّ [1] ، فيقول : كنا نجد فى أجوافنا مثل هذا » يقصد بذلك تصوير أثر الرعب فى قلوبهم .

(وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَافِرِينَ) :

المراد بتعذيبهم ما حدث لهم من القتل والجرح ، والسبى وغنيمة الأموال ، والهزيمة بعد الانتصار ، روى أن عليًّا رضى الله عنه قتل بيده أربعين رجلا فى هذه الغزوة وذلك غير ما فعله سواه من المقاتلين ، وكان قتلاهم عددًا كبيرًا ، وسبى أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف نفس وغنموا اثنى عشرة ألف ناقة ، سوى مالا يحصى

(١) أى فيحدث طنينا ، والطنين الصوت كالرنين .

من الغنائم كما روته السنن ، وفى هذه الغزوة قال النبي صلى الله عليه وسلم « من قتل قتيلا له عليه بيِّنة فله سلَبهُ » وجرح خالد بن الوليد فى هذه الغزوة جراحات بالغة ، وأسلم ناس كثيرون من مشركى مكة ، لما رأوه من عناية الله بالمسلمين .

والذى حدث فى هذه الغزوة كان درسا استفاد منه المسلمون ، فإن الأخلاط من حديثى العهد بالإسلام والمشركين والأعراب ، كانوا من أسباب الهزيمة فيها أول الأمر ، فلذا ينبغى أن لا يكون فى جيش المسلمين مَنْ لم يخالط الإسلام دمه ، ويثبت فى أعماق نفسه .

٢٧ ـ (ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ . . . . . .) الآية .

أى ثم يوفق الله من بعد تلك الغزوة من يشاءُ من هؤلاءِ ومن غيرهم ، ليتوب من شركه ويؤمن بالله ورسوله .

(وَٱللَّهُ غَفُورٌ) : يتجاوز عما سلف من الكفر والمعاصى بقبول توبتهم .

(رَّحِيمٌ) : فيتفضل بقبول توبتهم .

لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم حنين بالجعرانة ، أتاه وفد هوازن مسلمين ، راغبين فى عطفه عليهم ، وقالوا : يارسول الله إنك خير الناس وأبَرُّ النَّاس ، قد أخذت أبناءنا ونساءنا وأموالنا ، فقال لهم : إنى قد استأْنيت بكم ، وقد وَقَعت الْمَقَاسِمُ وعندى من ترون ، وإنَّ خَيْرَ القول أصدقُه ، فاختاروا إمَّا ذراريكم وإمَّا أموالكم فقالوا : لا نعدل بالأنساب شيئا ، فقام خطيبا وقال : « هؤلاءِ جاءُونا مسلمين وخيَّرناهم ، فلم يعدلوا بالأنساب ، فَرَضُوا بِرَدِّ الذرية ، وما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لهم ، وقال المهاجرون والأنصار ، أمَّا ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم وامتنع الأقرع ابن حابس وعيينة بن حصن فى قومهما من أن يردُّوا عليهم شيئا ممَّا وقع لهم فى سهامهم ، وامتنع العباس بن مِرداس السُّلَمىُّ كذلك ، وطمع أن يساعده قومه ، كما ساعد الأقرعَ وعُيينةَ قومُهُمَا ، فقالوا ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يؤيدوه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من ضَنَّ منكم بما فى يديه فإنا نعوضه منه » فرد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءهم وأولادهم ، و عوَّض مَنْ لم تَطِبْ نفسُه بترك نصيبه أَعْوَاضًا رضوا بها .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾) .

المفـردات :

(نَجَسٌ) : المراد بنجاستهم خبث باطنهم : فكأنهم عين النجاسة ، لشدة خبثهم وكراهتهم للإسلام والمسلمين .

(عَيْلَةً) : فقرًا .

التفسـير

٢٨ – (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا) :

المقصود من خطاب المؤمنين بذلك أن لا يمكنوا المشركين من دخول المسجد الحرام بعد العام الذى نزلت فيه هذه الآية ، وهو العام الهجرى التاسع الذى كان أبو بكر رضى الله عنه يحج فيه بالناس ، واختلف فى المراد من نجاستهم ، فقيل هى خبث طويتهم وشركهم – وهو الراجح – وقيل هو عدم تطهرهم من النجاسات العينية .

والمراد من عدم قربهم من المسجد الحرام بعد هذا العام ألا يحجوا ولا يعتمروا بعده ، وأن تختص شعائر الحج والعمرة بالمسلمين ، ولهذا نادى على بن أبى طالب بعد قراءته التوبة فى موسم الحج المذكور بأمر النبى صلى الله عليه وسلم قائلا : ألا لا يحج البيت بعد عامنا هذا مشرك [1] .

---

(١) والتعبير عن ذلك بالنهى عن قربهم من المسجد الحرام للمبالغة فى منعهم من أداء المناسك .

أما دخول الكفار الحرم والمسجد الحرام لغير الحج والعمرة فجائز عند الحنفية كسائر المساجد أما الشافعية فيمنعونهم من المسجد الحرام خاصة ، وعند مالك يمنعون من جميع المساجد[1] .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا لا تمكنوا المشركين من أداء مناسك الحج والعمرة بعد عامهم هذا ، حتى لا يحج البيت إلا من يوحد الله ويمجده وحده دون سواه .

ولما كان هذا المنع سيترتب عليه حرمانهم من الأرزاق التى تأتى مع هؤلاء المشركين ، طمأنهم الله وبشرهم بالغنى من فضله فقال سبحانه وتعالى :

(وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

أى وإن خفتم فقرا بسبب انقطاع المشركين عن الحج والعمرة ، وفقدان ما كانوا يجلبونه من الأرزاق والمكاسب ، فاطمئنوا فسوف يغنيكم الله من فضله بوجوه أخرى — إن شاء — إن الله محيط العلم ، بليغ الحكمة ، فلهذا شرع لكم ما شرع ودبر لكم من الأرزاق ، أوسع مما فاتكم .

ولقد برَّ الله تعالى بوعده ، فأرسل السماء عليهم مدرارا ، ووفق أهل تبالة وجرش فأسلموا وجاءوهم بالأرزاق والنعم وكانت أرضهم مخصبة . ثم فتح الله عليهم البلاد والغنائم ، وتوجه إليهم الناس من أطراف الأرض قاصيها ودانيها .

---

(١) ذكر ذلك العلامة أبو السعود : والصحيح أن الشافعية كالمالكية يحرمون دخول الكفار جميع المساجد إلا بإذن لمجرد المرور ، وذكر القرطبى أنه يحرم تمكين المشرك من دخول الحرم كله ، فإذا جاء رسول منهم خرج الإمام إلى الحل ليسمع ما يقول ولو دخل مشرك الحرم مستورا ومات ، نبش قبره وأخرجت عظامه ، وهذا هو المفهوم من مذهب عطاء وفى المسألة آراء نفيسة تراجع فى الموسوعات .. ويلاحظ أن المراد بالمشرك فيما تقدم كل كافر .

(قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾) .

المفردات :

(الْجِزْيَةَ) : هى ضريبة لنا على أهل الكتاب جزاء حمايتهم وحقن دمائهم .

(عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) : أى عن يد مواتية منقادة وهم خاضعون .

(يُضَاهِئُونَ) : المضاهأة والمضاهات المشابهة .

(أَنَّى يُؤْفَكُونَ) : كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل .

التفسير

٢٩ - (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ...) الآية .

يأمر الله المؤمنين فى هذه الآية الكريمة بقتال أهل الكتاب، بعد ما أمرهم من قبل بقتال المشركين، ومنعهم من قرب المسجد الحرام بحج أو عمرة .

والتعبير عن أهل الكتاب بالذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، لأن إيمانهم بهما كالعدم ، فاليهود قالوا عزير ابن الله وأنكروا أن يعذبهم الله فى الآخرة بذنوبهم ،

والنصارى قالوا المسيح ابن الله ، وإن الله ثالث ثلاثة ، وإن قتل المسيح وصلبه سبب لغفران ذنوبهم يوم القيامة ، فضلا عن قولهم جميعا نحن أبناءُ الله وأحباؤه ، وغير ذلك من العقائد الفاسدة .

والمعنى : قاتلوا أيها المؤمنون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أولئك الذين لا يصدقون بالله ولا باليوم الآخر ، على الوجه الذى يعتبره الله إيمانا وتصديقا ، ولا يلتزمون تحريم ما حرم الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، أو رسوله الذى يزعمون أنهم أتباعه وأنهم يعملون بشرعه ، مع أنهم يخالفونه اعتقادا وعملا ، فأقوا لهم مناقضة لعقائدهم وأفعالهم ، ولا يدينون دين الإسلام الحق الناسخ لدينهم ، قاتلوا هؤلاء الذين اجتمعت فيهم كل هذه النقائص من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم يهودا أو نصارى .

(حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) :

أفاد هذا النص الكريم أننا لا نكف عن قتالهم إلا إذا استسلموا وأعطوا الجزية وهم أذلاءُ مغلوبون ، حتى لا تكون لهم شوكة ضد المسلمين فيفتنوهم عن دينهم .

والجزية مأخوذة من جزى دينه إذا قضاه ، والمقصود أنها جزاء مقابل للعفو عن القتل وحمايتهم من الأذى وتوفير الحرية لهم فى دينهم ودنياهم ، ويقابلها فى الإسلام الزكاة على المسلمين .

والمراد من إعطاء الجزية عن يد ، دفعها بانقياد وطاعة وأنهم يسلمونها بأيديهم مباشرة بغير توكيل ، أو اليد بمعنى الغنى ، ولذلك لم تجب على الفقير العاجز ، أو عن يد من المسلمين أى إنعام منهم عليهم ، فإن إبقاءهم بالجزية نعمة من المسلمين على أهل الكتاب .

المعنى : قاتلوا أهل الكتاب إلى أن يستسلموا ويدفعوا الجزية منقادين أو منعما عليهم منكم وهم أذلاءُ لا شوكة لهم .

ويرى الشافعية أن الجزية لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب والمجوس ، أما أهل الكتاب فمن هذه الآية ، وأما المجوس فمن السنة قال صلى الله عليه وسلم : « سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب » أخرجه مالك فى الموطأ [1] فلا تقبل عندهم من المشركين لقوله تعالى :

« فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » [2] ورأى الحنفية رأيهم .

أما المالكية فإنهم يرون أخذ الجزية من جميع أصناف الشرك والجحد عربا كانوا أو عجما إلا المرتد ، وقال الأوزاعى مثل قولهم فقد قال : تؤخذ الجزية من كل عابد وثن أو نار أو جاحد أو مكذب .

وقال ابن القاسم وأشهب وسحنون ، تؤخذ الجزية من مجوس العرب والأمم كلها ، وأما عبدة الأوثان من العرب فلم يستن الله فيهم جزية ، ولا يبقى على الأرض منهم أحد وإنما لهم القتال أو الإسلام ، ولابن القاسم رأى آخر بأخذ الجزية منهم كمالك ، ونقل القرطبى عن الشافعى أنه يؤخذ من الغنى والفقير من الأحرار البالغين دينار لا ينقص منه شيء ، وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز .

ولأهل المذاهب فيما تقدم آراء مفيدة يرجع إليها فى الموسوعات .

٣٠ - (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ) :

بعد أن شرع الله فى الآية السابقة قتال أهل الكتاب إلى أن يستسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، أتبعه بيانا لبغض ما كفروا به واستوجبوا بسببه القتال وفرض الجزية .

وقد أفادت الآية ، أن كلا من اليهود والنصارى كفروا بادعاء البُنُوَّة لله تعالى ، فأما اليهود فقد زعموا أن عزيرا ابن الله ، وأما النصارى فقد زعموا أن المسيح ابن الله ، وسبب قول اليهود مقالتهم ، أن بختنصر أخذ جميع نسخ التوارة منهم وأعدمها لمَّا غزاهم ، ولم يوجد فيهم بعد حين من يحفظها ، حتى ظهر عزير فأملاها عليهم حفظا كما

(١) وذلك لأن لهم شبهة كتاب : قال ابن عطية : روى أنه قد كان بعث فيهم نبى اسمه زرادشت والله أعلم .

(٢) سورة التوبة من الآية : ٥

زعموا ، فتعجبوا من ذلك وقالوا : ما ذاك إلا أنه ابن الله ، والدليل على أن هذا القول كان فيهم ؛ أن الآية قرئت عليهم فلم يكذبوا مع تهالكهم على التكذيب ، فإن كانوا ينكرون ذلك اليوم ويدعون أنهم أهل التوحيد ، فذلك رجوع منهم عما كانوا يقولونه من قبل .

والمحققون من المؤرخين يقولون إن عزيرا (عزرا) جمع محفوظات من صدور القوم ومن أوراق متناثرة ، وسماها التوراة ، ولا يوجد دليل على أنها طبق الأصل ، فإن الأصل مفقود ، كما أن فيها وصف الله بما لايليق به كالندم والضعف أمام إسرائيل وغير ذلك مما يقطع بوضعها .

وسبب قول النصارى ذلك ، ادعاؤهم أن عيسى عليه السلام ما كان يستطيع إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى إلا لأنه ابن الله ، لأن ذلك من خصائص الألوهية ، ولهذا ملأوا كتبهم المقدسة لديهم بدعوى البنوة ، وقد شاء الله أن يكذبهم ويكشف جهلهم وزيفهم بما تضمنته أناجيلهم من التصريح بأنه ابن الإنسان ، وتكرار هذا التصريح عشرات المرات فى كل إنجيل من أناجيلهم .

(ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ) :

يريد الله بهذه الجملة الإشعار بأنه قول مجرد عن البرهان وخال عن الدليل ، فإن مجيء عزير بالتوراة – على فرض صحته – لا يقتضى بنوته لله ، فلم لا يكون بإلهام أو بوحى ، وقد علمت أنه لم يصح ، وإحياء عيسى للميت وإبراؤه الأكمه والأبرص ، معجزة لتأييد نبوته – كشأن معجزات الأنبياء ، فكلها بفعل الله وخلقه ، وليس جريانها على يديه بفعله لأنه ابن الله ، كما ادعى النصارى ولذا كانت حوادثها محدودة على قدر قيام المعجزة المؤيدة لرسالته ، وشأنه فى ذلك كشأن (موسى) فى أمر عصاه ، بل هى أعظم إعجازا ، فإن جعل الحياة فى العصا حتى تبتلع السحر ، أبلغ من إحياء الميت ، لأن العصا ليست أهلا للحياة بخلاف الميت فإنه أهل لها ، كما أنها أعظم من إبراء الأكمه والأبرص بالأولى .

(يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ) :

أى يشابه أهل الكتاب المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم فيما قالوه فى عزير

وعيسى من سبقهم من أهل ملتهم ، فالكفر قديم فيهم ، أو يشابهون المشركين الذين قالوا الملائكة بنات الله .

(قَاتَلَهُمُ اللهُ) :

هذا التعبير ظاهره الدعاء عليهم بالإهلاك ، فإن من قاتله الله هلك ، والمقصود منه التعجب من شناعة قولهم ، حكى النقاش أن أصل (قاتله الله) الدعاء ، ثم كثر فى استعمالهم حتى قالوه فى التعجب فى الخير والشر ، وهم لا يريدون الدعاء ،وأنشد الأصمعى :

ياقاتَلَ اللهُ ليلى كيف تعجبنى وأُخبر الناس أنى لا أباليها

(أَنَّى يُؤْفَكُونَ) :

كيف يصرفون عن الحق مع قيام الدليل عليه ، والغرض من الاستفهام هنا التعجيب والتوبيخ .

(ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾) .

المفردات :

(أَحْبَارَهُمْ) :جمع حبر بكسر الحاء وفتحها لغتان كما قال الفراء — ويطلق على العالم مطلقا وغلب فى عالم اليهود .

(وَرُهْبَانَهُمْ) : جمع راهب مأخوذ من الرهبة وهى الخوف ، والمراد به هنا عابد النصارى الذى اعتزل ملذات الحياة .

التفسير

٣١ — (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِن دُونِ اللهِ ...) الآية .

لا يزال الكلام متصلا فى عقائد أهل الكتاب التى كفروا بسببها فقد بينت هذه الآية أنهم تجاوزوا زعم البنوة لعزير والمسيح إلى ما هو أشد وهو اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم والمسيح ابن مريم أربابا .

والمعنى : اتخذ اليهود علماء دينهم أربابا من دون الله فأطاعوهم فى تحريم ما أحلّ الله وتحليل ما حرّم الله وجعلوهم بطاعتهم لهم كأنهم آلهة لهم يطاعون فيما يشرعون ، ظانين أنهم مقدسون ، مع أن كثيرا منهم آثمون ، كما سيبينه الله تعالى ، قال الربيع : قلت لأبى العالية كيف كانت تلك الربوبية فى بنى إسرائيل قال : ربما وجدوا فى كتاب الله — يعنى التوراة — ما يخالف قول الأحبار ، فكانوا يأخذون بأقوالهم ، ويتركون حكم كتاب الله : اهـ. واتخذ النصارى رهبانهم — أى علماءهم المتعبدين — اتخذوهم آلهة من دون الله بأن أطاعوهم فيما لم يحل ، كما يطاع الله فيما شرعه لعباده مع أنهم آثمون .

روى الترمذى عن عدى بن حاتم قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب (وكان نصرانيا وقتئذ) فقال : ما هذا ياعدى اطرح عنك هذا الوثن ، وسمعته يقرأ فى سورة براءة (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِن دُونِ اللهِ) ثم قال : « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه » وقد أسلم عدى بعد ذلك وكان من خيرة الصحابة .

(وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ) :

أى واتخذ النصارى المسيح ، ابن مريم إلٰها[1] ، وكان ذلك على صور شتى فمرة عبدوه على أنه ابن الله ، وأخرى عبدوه على أنه إله ، وثالثة على أنه ثالث آلهة ثلاثة ، وكل ما فعله هؤلاء لم يأمر به الله ولذا قال سبحانه وتعالى :

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

أى وما أمرهم الله فى كتبه التى أنزلها إليهم ، إلا ليطيعوا إلها واحدا فيما أمرهم به أو نهاهم عنه ، هو الله لا إله إلا هو ، فلا يصلح أن يطاع أو يعبد غيره ـ سبحانه ـ وتنزيها له عن أن يكون له شريك بأية صورة مما يفعلون .

٣٢ـ (يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ) :

المقصود بنور الله ، إما حجته النيرة الدالة على وحدانيته ، وتنزهه عن الشركاء والأولاد ، أو القرآن العظيم الناطق بذلك ، فهو الذى أنار العقول والقلوب بالحق كما تنير الشمس وجه الأرض .

والمعنى : أن أهل الكتابين يريدون أن يطفئوا نور القرآن الذى أوضح الله به وجه الحق ، وكذبهم فى دعاوى بنوة عزير وعيسى لله وربوبية الأحبار والرهبان والمسيح ابن مريم ، وبين شرائع الله على وجهها الحق ، حيث يحاربونه بألسنتهم وأقاويلهم الباطلة الخارجة من أفواههم ، وأنى لهم إطفاؤه وهو نور الله تعالى .

ويجوز أن يكون المقصود تشبيه حالهم فى محاربة النبى صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم ، بحال من يريد طمس نور عظيم نشره الله فى الآفاق وإطفاءه بنفخة بالفم ، والمقصود بهذا التشبيه إقناطهم من نيلهم ما يبتغون من هدم الإسلام ورسالته الهادية ، ولهذا قال سبحانه عقب ذلك :

---

(١) راجع ما كتبناه عن السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فى ربع (إن الله اصطفى) وما بعده من سورة آل عمران ، وفى ربع (إنا أوحينا إليك) فى آخر سورة النساء ، وفى الربع الأخير من سورة المائدة .

(وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ) :

أى ولا يريد الله إلا أن يتم نوره بإعلاء كلمة الإسلام ، وإتمام مجده ولو كره الكافرون ذلك ، فسواء رضى أهل الكتاب أم كرهوا ، فنور الإسلام سيتم ويعم المشارق والمغارب فهذا ما يريده الله ويأبى نقيضه .

٣٣ ـ (هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) :

هذه الآية جاءت لتؤكد ما تضمنه قوله تعالى فى الآية السابقة :(وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ) مع بيان ظهوره على جميع الأديان .

والمعنى : هو الله الذى بعث رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالقرآن الذى يهدى الناس إلى معرفة ربهم ، وبدين الإسلام المشتمل على الحق الواضح الذى لا يعتريه شك، أرسل الله رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك ليظهر دين الحق على الأديان كلها ولو كره المشركون ، وإظهاره عليها إما بالنسخ ، وإما بالحجة والبرهان إلى جانب النسخ وإما بالغلبة والقهر لأهلها ، وقد حدث كل هذا وسيحدث بعون الله تعالى :

« فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ » .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
محمد حمدى السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩ / ١٩٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٢٥٠٠٠٤-١٩٧٩-١٠٤٨



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب العشرون

الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٠

(* يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥))

المفـردات :

(لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ) : المراد بأكلها بالباطل : أخذها بغير حق .

(يَكنِزُونَ) : أى يجمعون ، والكنز لغة : الضم والجمع ، ويطلق أيضا على كل شىء مجموع بعضه إلى بعض فى بطن الأرض أو على ظهرها .

(فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) : أى فأنذرهم ، والتعبير بالتبشير عن الإنذار للتهكم وتشديد الوعيد.

(جِبَاهُهُم) : جمع جبهة ، وهى من الوجه ما بين الحاجبين إلى منابت شعر الناصية .

التفسـير

٣٤ ـ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ . . .) الآية .

بعد أن عاب الله على أهل الكتاب اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أولياء ، وتقديسهم كأنهم أرباب ، وكراهيتهم الإسلام الذى هو نور الله ، بَيَّن سوء أخلاق أولئك الأحبار والرهبان ، حتى يعلم أهل الكتاب أنهم غير جديرين بتقديسهم لهم والأخذ عنهم .

والمعنى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِن أحبار اليهود ورهبان النصارى ليأخذون أموال الناس بالباطل ، حيث يرتشون بها للتخفيف والمسامحة فى تنفيذ شرع الله .

وتغيير الأحكام والشرائع إرضاءً لمن يرشونهم ، كما كانوا يأخذون من أتباعهم ضرائب وفروضا باسم الكنائس والبيع وشئون الدين ، ويستولون عليها أو على بعضها لشهواتهم وأغراضهم ، ولا يكتفون بذلك بل يصدون أتباعهم ويمنعونهم عن الدخول فى دين الإسلام واتباع محمد صلى الله عليه وسلم .

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) :

المقصود بهم أولئك الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، مبالغة فى وصفهم بالحرص على المال ، والاهتمام بكنزه وجمعه بأى صورة . ويجوز أن يراد بهم أهل الكتاب والمسلمون الذين لا يزكون ، فالمراد بعدم إنفاقهم لها فى سبيل الله أنهم لايخرجون زكاتها .

ولما نزلت هذه الآية ظن المسلمون أنه لايحل كنز المال وأنه يجب إنفاقه كله فى سبيل الله ، فكبر ذلك على المسلمين فقال صلى الله عليه وسلم : « مَا أُدِّى زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنزٍ » (١) أى فليس بكنز معاقب عليه بما جاء فى الآية .

وروى البخارى من حديث الزهرى عن خالد بن أسلم قال : «خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال : هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت جعلها الله طهرًا للأموال » .

وقال عمر بن عبد العزيز وعراك بن مالك : نسخها قوله تعالى : «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » .

وكان أبو ذر الغفارى يرى أن الكنز ما فضل عن الحاجة ، وقد حدث خلاف بين معاوية وبينه فى تفسير الآية ، رواه البخارى فى حديثه عن زيد بن وهب قال : «مررت

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة .

بالربذة[١] فإذا أنا بأبى ذر فقلت له : ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال : كنت بالشام ، فاختلفت أنا ومعاوية فى : «الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ » فقال معاوية : نزلت فى أهل الكتاب ، فقلت : نزلت فينا وفيهم ، وكان بينى وبينه فى ذلك ، فكتب إلى عثمان يشكونى ، فكتب إلىَّ عثمان أن اقْدَمِ المدينة فقدمتُها ، فكثر علىَّ الناس حتى كأنهم لم يرونى قبل ذلك ، فذكرت ذلك لعثمان ، فقال : إن شئت تنحَّيت فكنتَ قريبا ، فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل ، ولو أمَّروا علىَّ حبشيًّا لسمعتُ وأطعتُ » .

وقد علمتَ ممَّا تقدم مذهبه الذى اختلف بموجبه مع معاوية وهو أن الكنز ما فضل عن الحاجة وأن الآية فى المسلمين وأهل الكتاب ، وتفسير الكنز بذلك انفرد به أبو ذر ، وهو من شدائده المنقولة عنه كما قال القرطبى ، وقد عرفت آراء غيره فى الآية قبل الحديث عن مذهبه . وقيل : الكنز مَا لَمْ تُؤَدَّ منه الحقوق العارضة ، كفك الأسير وإطعام الجائع وغير ذلك من الحقوق ، والله تعالى أعلم .

والمعنى : والذين يجمعون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ،وهو ما تشتد حاجة المسلمين إليه من زكاة وفك أسير وإطعام جائع وتفريج ضائقة ، وغير ذلك من الحقوق التى أوجبها الشرع فى المال ، فأنذرهم بعذاب أليم ، وهو مابينه الله بقوله :

٣٥ـ (يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ . . .) الآية .

أى يعذب الكانزون يوم يوقد على أموالهم من الذهب والفضة ، فى نار جهنم ، فتكوى بها بعد إحمائها واتقادها جباههم التى يترفعون بها على الناس ، وجنوبهم التى يعرضون بها عن الفقراء وظهورهم التى أداروها لهم ، ويقال لهم تأنيبا وتوبيخا :

(هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ) : أى هذا جزاء كنزكم المال لأنفسكم ، دون أن تؤدوا حق الله فيه .

(فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ) : فذوقوا وبال كنزكم للمال وتألموا بعذاب حرمانكم للمستحقين فيه .

ولما كان الكى فى الوجوه أشنع ، وفى الجنوب والظهور أوجع ، خصت من بين سائر الأعضاء ، وقال بعض العلماء : إنما خصت هذه الأعضاء ؛ لأن الغنى إذا رأى الفقير جمع

(١) الربذة : موضع قريب من المدينة .

ما بين عينيه وقبض وجهه ، وإذا سأله طوى كشحه - أى جنبه - فأعرض عنه ، وإذا زاده فى السؤال وأكثر عليه ولاه ظهره ، فرتب الله العقوبة على حسب حال المعصية ، والله تعالى أعلم .

(إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٦))

المفردات :

(عِدَّةَ الشُّهُورِ) : أى عددها . (فِى كِتَابِ اللهِ) : المراد به ، إمَّا علمه تعالى ، أو اللوح المحفوظ ، أو ما كتبه وأوجبه . (حُرُم) : جمع حرام ، والمراد من كون الشهر حراما أن القتال محرم فيه . (الدِّينُ الْقَيِّمُ) : الدين المستقيم السليم من العوج (كَافَّة) : جميعا .

التفسير

٣٦ - (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ . . . .) الآية .

بعد أن أوجب الله تعالى قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، وبيَّن أنهم يريدون أن يطفئوا نور الله وهو الإسلام ، بدعايتهم المسمومة الخارجة من أفواههم ، وأنهم مشركون باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، عقب ذلك بذكر آثام المشركين تمهيدا للأمر بقتالهم .

والمعنى : إن عدد الشهور المعتبر عند الله تعالى اثنا عشر شهرا فيما كتبه الله وقدَّره يوم أبدعَ السموات والأرض ، وأوجد الليل والنهار ، وأضاءَ الليل بالقمر ، ونوَّر النهار

بالشمس ، فلا يصح أن يزاد عليها كما كان يفعله المشركون ، والمراد منها الشهور القمرية التى يعرفها العرب ، وعليها يدور كثير من الأحكام الشرعية.

(مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) :

من هذه الشهور الإثنى عشر ، أربعة حرم ، حرم الله فيها القتال منذ شريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وهى ثلاثة متتالية : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد فرد هو رجب الذى بين جمادى وشعبان ، قال صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع : « ألا إنَّ الزمانَ قَدِ استَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » إلى آخر الحديث - وقد أخرجته كتب الصحاح .

ومعنى : استدارة الزمان كهيئته ، رجوع الأشهر إلى ماكانت عليه من الحل والحرمة كل منها فى موضعه من الزمان ، وعاد الحج إلى ذى الحجة فى حجة الوداع سنة عشر وكانت حجة أبى بكر فى ذى القعدة سنة تسع قبل حجة النبى صلى الله عليه وسلم مباشرة.

(ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) :

الإشارة هنا راجعة إلى تحريم الشهور الأربعة المحرمة فى مواضعها .

والمعنى : ذلك التحريم لهذه الشهور فى مواضعها التى بينها النبى صلى الله عليه وسلم هو الدين القويم الذى دان به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وتوارثه العرب منهما .

(فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ) :

المراد من عدم ظلمهم أنفسهم فيها : أن لايهتكوا حرمتها بارتكاب ماحرم فيها من القتال ومحرمات الإحرام ، مالم يعتد العدو على بلادنا أو يكون وشيك الاعتداء عليها فيحل قتاله.

عن عطاء : أنه لايحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم ، إلا أن يُقاتَلوا ، لقوله تعالى : « الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ » ، « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ

كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً » أى وقاتلوا المشركين مجتمعين غير متفرقين ، كما يقاتلونكم كذلك .

ومن العلماء من قال : إن الآية أوجبت القتال على كل قادر ، ثم نسخ ذلك فجعل فرض كفاية ، وقد أنكر ذلك ابن عطية قائلا : لم يعلم قط عن شرع النبى صلى الله عليه وسلم أنه ألزم الأمة جميعا النفر ، وإنما معنى هذه الآية الحض على قتال المشركين وجمع الكلمة .

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) : هذه بشارة وضمان لنصر المؤمنين بسبب تقواهم ، أى واعلموا أيها المؤمنون أن الله تعالى مع أهل التقوى بالنصر والمعونة على الأعداء .

(إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(النَّسِىءُ) : تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر . (لِيُوَاطِئُوا) ليوافقوا : (عِدَّةَ) . عدد

التفسير

٣٧ - (إِنَّمَا النَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ...) الآية .

كان العرب إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه واستمروا فى القتال ، وحرموا شهرا آخر مكانه ، حتى رفضوا خصوص الأشهر الأربعة ، واعتبروا مجرد العدد ، وربما

زادوا فى عدد الشهور ، بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ، ليتسع لهم الوقت ويجعلوا أربعة أشهر من السنة حرماكما يريدون ، ولذلك نص على العدد المعين فى كتاب الله حتى يتركوا ماهم عليه .

والمعنى : إنما تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر زيادة فى الكفر ، لما فيه من تحليل ماحرمه الله وتحريم ما أحله الله ، فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم ، يُضَلُّ به المرءوسون الذين كفروا من رؤسائهم ، حيث يأتمرون فى التحريم والتحليل بأمرهم . فيزدادون بذلك ضلالا فوق ضلالهم .

(يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَاحَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَاحَرَّمَ اللهُ) :

أى : يحلون الشهر الحرام عاما ويجعلون مكانه فى التحريم شهرا حلالا ، ويحافظون على حرمته كما كان فى شرع إبراهيم عاما آخر ، إذا لم يتعلق بتغييره غرض من أغراضهم ، يفعلون ذلك لكى يوافقوا عدد ماحرَّم الله من الأشهر الحرم ، وهو أربعة أشهر ، فينتهى أمرهم فيما فعلوا إلى أن يحلوا ماحرم الله ، وهو تغيير حكم الشهور من حرمة إلى حل ، ومن حل إلى حرمة .

(زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) :

أى جُعِلت لهم أعمالهُم السيئة حسنة ، بأن زينها لهم رؤساؤهم وشياطينهم ، فعدوها حسنة مع أنها قبيحة ، لمخالفتها أحكام الله تعالى والله لايهدى القوم المصرين على كفرهم .

قيل أول من أحدث النسىء جنادة بن عوف الكنانى ، وكان مطاعا فى الجاهلية كان يقوم على جبل فى الموسم فينادى بأعلى صوته : إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ، ثم يقوم فى العام القابل فيقول : إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه ، وقيل غير ذلك .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(انفِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ) : اخرجوا للجهاد فى سبيله . (اثَّاقَلْتُمْ) : تباطأتم

(مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا): المراد من متاعها التمتع بلذائذها .

التفسير

٣٨ ـ(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ . . . . .) الآية .

لما ندب الله المؤمنين قبل هذه الآية لقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، وقتال المشركين كافة ، جاءت هذه الآية وما بعدها لحث المؤمنين وتقوية عزائمهم على قتال هؤلاء وأولئك .

وسبب نزول هذه الآية وما بعدها : أن النبى صلى الله عليه وسلم استنفر أصحابه ليخرجوا معه فى غزوة تبوك ، وكان الحر شديدا وبالناس عسر وقحط ، وقد أدركت ثمار المدينة وطلبت ظلالها ، وكانت تبوك تبعد عن المدينة ، والعدو قوى وكثير فشق عليهم ذلك وتباطأوا فى الاستجابة .

ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يخرج فى غزوة غزاها إلا ورَّى بغيرها ، ماعدا تبوك ، فإنه صلى الله عليه وسلم بين المقصود فيها ؛ ليستعدوا لها ، والخطاب لعموم المؤمنين ، وإن كان التثاقل فى طائفة منهم ليشعر من تثاقل منهم بالتقصير ، وليزداد حرص من نفروا للقتال على دوام الاستجابة للجهاد مهما كانت الأحوال ، حتى لا يقعوا تحت طائلة اللوم والتوبيخ كهؤلاء المقصرين ، وليجتهدوا فى أن لا يكون بينهم من يتكاسَل فى تلبية نداء الجهاد فى سبيل الله .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا ، أى شىء حصل لكم فثبطكم عن النهوض للجهاد ، حين قال لكم النبى صلى الله عليه وسلم انفروا واخرجوا للقتال فى سبيل الله فى غزوة تبوك ، تثاقلتم وتباطأتم وحرصتم على البقاء فى الأرض التى أنتم بها ، مائلين إلى لذائذ الدينا وشهواتها السريعة الفناء ، وكرهتم مشاق الغزو ومتاعبه ، وتعللتم للتخلف بأعذار ليس من شأنها أن تمنعكم من شرف الجهاد .

(أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) :

أرضيتم بمتاع الحياة الدنيا ولذائذها الزائلة ، بدلا من متاع الآخرة ونعيمها الدائم ، إن ذلك فساد فى الرأى والاختيار ، فما متاع الحياة الدنيا فى جنب متاع الآخرة إلا قليل لا ينبغى أن يحرص عليه .

٣٩ - (إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ...) الآية.

أى إلا تخرجوا للقتال فى سبيل الله حين يطلب منكم الخروج إليه ، يعذبكم الله عذابًا شديدا بما يصيبكم به فى الدنيا من البلايا والمحن ، ويأت بقوم آخرين بدلا منكم ، يسارعون إلى نصرة الحق وتأييد رسوله ويؤثرون الآخرة على الدنيا .

(وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

أى ولا تضروا الله شيئا بتخلفكم وتثاقلكم ، فهو الغنى عنكم وعن جهادكم والله على كل شىء قدير ، فلا يصعب عليه أن يؤيد دينه بغيركم ، كما لا يشق عليه أى شى يريده فى ملكه

(إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ) : أى أحد اثنين ، هما الرسول صلى الله عليه وسلم : وأبو بكر رضى الله عنه . (الْغَار) :هو فى اللغة فجوة فى الجبل تشبه البيت ، كالمغارة والكهف ، والمراد به هنا غار جبل ثور الواقع على بعد ساعة سيرا من مكة ، وقد مكثا فيه ثلاثة أيام .
(سَكِينَتَهُ) : طمأنينته التى تسكن عندها القلوب .

التفسير

٤٠ ـ (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْن إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ...) الآية .

أى إلا تنصروا الرسول صلى الله عليه وسلم حين يطلب منكم الجهاد معه فسينصره الله بغيركم ، فقد نصره فى وقت أشد وأقسى مما هو فيه ، وذلك حين أخرجه الذين كفروا من مشركى مكة ، حيث حملوه بمؤامرتهم وتوالى إيذائهم له على الهجرة ، وهو واحد من اثنين فحسب ، إذ كان معه أبو بكر رضى الله عنه فقد حماهما الله تعالى وهما يسيران وحدهما نحو الغار للاختفاء فيه حتى ينقطع الطلب عنهما ، ثم حماهما وحرسهما بينما كانا فى الغار ثلاث ليال ، حين كان يقول الرسول لصاحبه أبى بكر الصديق وهو مشفق عليه من أن يصل إليه المشركون :(لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا) بالعون والحماية من المكاره ، فلن تصل إلينا أيديهم بسوء .

روى أن المشركين طلعوا فوق الغار ، فأشفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » فأعماهم الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله فلم يروه .

وفى ذلك أخرج البخارى ومسلم عن أنس أن أبا بكر حدثه قال : « قلت للنبى - صلى الله عليه وسلم - ونحن فى الغار - لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، قال : فقال : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » .

(فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا) :

أى فأنزل الله طمأنينته على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال لصاحبه ما قال ، وأيده بجنود خفية لم تقع عليها أبصاركم ، فلم يستطع أعداؤه بسبب هذه الحراسة الربانية ، أن يصلوا إلى مأربهم فيه ، وإن وصلوا إلى الغار الذى يؤويه وعادوا خائبين .

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) :

أى وكان من تمام نصره لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه تعالى جعل كلمة الشرك التى يتمسك بها المشركون ويحرصون عليها ، جعلها هى السفلى ، حيث غلبت على أمرها ، وكلمة الله التى ينادى بها الإسلام هى العليا ، التى تغلب ولا تُغلب .

وذلك بتمكينه من الهجرة إلى المدينة ونصره على أهل الشرك ، فى المعارك التى حدثت بينه وبينهم قبل غزوة تبوك ، والله عزيز يقهر كل جبار عنيد ، حكيم فى أمره وتدبيره ، فلا تخالفوا أمره وأمر رسوله .

(ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا
وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ
بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا) :أى اخرجوا للجهاد على أى حال ، سواءٌ سهل على نفوسكم فخفت ونشطت ، أو شق عليها فثقلت . (عَرَضًا قَرِيبًا) :نفعًا سهل المأخذ.

(سَفَرًا قَاصِدًا) : سفرًا قريبًا سهلًا .(الشُّقَّةُ) :المسافة التى تقطع بمشقة .

التفسير

٤١ ـ (انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ . . .) الآية .

قيل : المراد من الخفاف والثقال الشباب والشيوخ ، روى ابن عباس عن أبى طلحة فى قوله تعالى : (خِفَافًا وَثِقَالًا) قال : شبانًا وكهولا ، ما سمع الله عذر أحد[1] ، فخرج إلى الشام فجاهد حتى مات .

ويروى بعض المفسرين أن ذلك إنما يجب إذا غلب العدو على بلد من بلاد الإسلام أو كاد ، فيتعين الجهاد على الشباب والشيوخ من أهله جميعًا كل على حسب طاقته ، كما يتعين مثل ذلك على من قارب هذا البلد ، إذا عجز أهله عن دفعه .

أما فى غير هذه الحالة ، فالجهاد قد يكون فرض كفاية ، وقد يكون سنة ، وتفصيل ذلك فى الموسوعات .

(١) أى ما قبل الله عذر أحد فى التخلف عن القتال .

وفسر بعض العلماء الخفة بالغنى والثقل بالفقر وقيل : إن الخفاف هم الذين يسبقون إلى الحرب كالطليعة وهم مقدمة الجيش ، والثقال الجيش بأسره .

والمعنى : اخرجوا للجهاد فى سبيل الله على أى حال كنتم شبانًا أو شيوخًا ، أغنياء أو فقراء ، نفوسكم خالية مما يشغلها ، أو لديها من الشواغل ما يثقلها ، وارضوا بمواقعكم فى الجيش كيف كانت ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ولا تدخروا وسعًا فى تجريد نياتكم لله والحصول على النصر ، ذلكم الذى أمرناكم به خير لكم وأنفع من تركه ، إن كنتم تعلمون مصلحتكم فاعملوا به ونفذوه ، ففيه عز الإسلام ومجد المسلمين .

٤٢ ـ (لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ...)الآية .

أى لو كان مادعوا إليه نفعًا دنيويًا قريب المنال سهل المأخذ ، وسفرًا متوسطًا لامشقة فيه ، لاتَّبعوك طمعًا فى الحصول على المغانم السهلة القريبة ، ولكن بعدت عليهم المسافة الشاقة من المدينة إلى تبوك ، فلهذا تخلفوا عن أتباعك ، وآثروا الراحة والدعة .

(وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

وسيحلف بالله أولئك المتخلفون عن تبوك ، بعد رجوعك منها ، قائلين على سبيل الاعتذار عن تخلفهم : لو كنا نستطيع الخروج معك إلى تبوك لخرجنا إليها ، يريدون بذلك أنهم لم تكن لهم قدرة على الجهاد لضعف الصحة ، أو عدم وجود المال أو الراحلة ، أو غير ذلك من الأعذار ، يهلكون أنفسهم بهذه اليمين الفاجرة يقسمون بها على الادعاء الكاذب ، والله يعلم إنهم لكاذبون فى أيمانهم واعتذارهم ، فقد كانوا يستطيعون الخروج ولم يكن لهم عذر فى التخلف ، فكيف يجرءون على الكذب على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم

قال صلى الله عليه وسلم : « اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع »[(١)] .

(عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(عَفَا اللهُ عَنْك) :لم يؤاخذك بالإذن لهم فى التخلف .(ارْتَابَتْ) :وقعت فى الريب وهو الشك . (يَتَرَدَّدُونَ) : يتحيرون .

التفسير

٤٣ - (عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) :

قال مجاهد أُنزلت هذه الآية فى أُناس قالوا : استأْذنوا رسول الله فإِن أَذن لكم فاقعدوا وإِن لم يأْذن لكم فاقعدوا .

وهؤلاءِ المعتذرون كانوا منافقين ولذا قال الله فى شأْنهم :

(إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَايؤمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...) الآية. وسيأْتى الحديث عنها .

(١) وفى مجمع الزوائد للهيثمى حديث طويل عن أبى هريرة جاء فى آخره «اليمين الغموس تذهب المال وتثقل فى الرحم وتذر الديار بلاقع»،وفى المتفق والمفترق للخطيب عن على – رضى الله عنه – إياكم واليمين الفاجرة فإنها تدع الديار بلاقع والكذب كله إثم .

. وتصدير الآية بقوله تعالى : (عَفَا اللهُ عَنكَ) قَبْل عتاب النبى صلى الله عليه وسلم على الإذن لهم بالتخلف ، من باب التلطف فى العتاب ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أذن لهؤلاء المنافقين بالتخلف من غير وحى نزل فيه ، قال قتادة وعمرو بن ميمون : ثنتان فعلهما النبى صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بهما ، إذنه لطائفة من المنافقين فى التخلف عنه ، ولم يكن له أن يمضى شيئا إلا بوحى ، وأخذه من أسارى بدر الفدية ، فعاتبه الله كما تسمعون

قال المحققون : وهذا ترك للأولى ، وليس من باب ارتكاب المحرم ؛ لأنه لم يكن هناك أمر خالفه الرسول صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : عفا الله عنك أيها النبى فلم يؤاخذك فى الإذن لبعض المنافقين فى التخلف عن الغزو ، لماذا أذنت لهم بذلك بعد اعتذارهم ، ولم تنتظر حتى يظهر لك الصادقون فيما أبدوه من المعاذير ، وتعلم الكاذبين فيها منهم ، ثم شاء الله تعالى أن يفضحهم بعد أن تستروا بمعاذيرهم الكاذبة فقال سبحانه :

٤٤ - (لَايَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ ..) :
أى ليس من عادة المؤمنين الصادقين أن يستأذنوك فى الجهاد بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، بل يبادروا إليه من غير إذن ، إذا سمعوا النداء العام إلى الجهاد ، فضلا عن أنهم لا يستأذنونك فى التخلف ، وحيث استأذنك هؤلاء فى التخلف كان ذلك دليلا على نفاقهم ، فكان الأولى أن لا تأذن لهم فيه حتى يتخلفوا دون إذن فينكشف حالهم لك وللمؤمنين ، ويتجلى للجميع أنهم غير صادقين فى إيمانهم لتخلفهم عن الجهاد بدون عذر .

(وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ) :

أى أنه تعالى محيط علمه بالمتقين وما اشتملت عليه قلوبهم من الإخلاص فى سبيل الله والاستجابة لداعى الجهاد بنشاط وهمة ، فيجزيهم على ذلك الجزاء الأوفى .

٤٥ - (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) :

أى إنما يطلب منك الإذن بالتخلف عن الجهاد ، الذين لايصدقون فى قرارة نفوسهم بالله ولا باليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فيما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم فهم فى شكهم يترددون بين الإقدام على الجهاد والإحجام عنه ، ويتحيرون فى قبول الحق الذى جاء به القرآن أو رده ، ولهذا تخلصوا من حيرتهم بطلب الإذن بالتخلف عن الجهاد ، محافظة منهم على الشكل الظاهرى وقلوبهم لاتستقر على حال .

(۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(انبِعَاثَهُمْ) : نهوضهم للخروج . (فَثَبَّطَهُمْ) : فحبسهم وعوقهم . (خَبَالاً) : فسادًا وشرًّا .

(وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ) : ولسعوا فيما بينكم بالنميمة والوشاية ، وهو مأخوذ من أوضعتُ البعير أى حملته على السرعة ، يقال : وضع البعير أى أسرع ، وأوضعته أنا ، أى جعلته يسرع .

(يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ) : يطلبون لكم الفتنة والشر بإيقاع الخلاف بينكم .

التفسير

٤٦ - (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ . .) الآية .

لايزال الكلام متصلا بشأن المنافقين الذين اعتذروا عن الخروج فى غزوة تبوك ، زاعمين أنهم كانوا يريدون الخروج ولكن منعهم أن أسبابه لم تتيسر لهم .

والمعنى : ولو أراد هؤلاء المعتذرون أن يخرجوا معكم فى غزوة تبوك لأعدوا له مبكرين ما ينبغى من الزاد والراحلة والسلاح ، وغير ذلك مما لابد منه للسفر ، وهو مقدور لهم ،

ولكنهم لم يريدوه لأن الله ـ تعالى ـ كره انبعاثهم ونهوضهم للخروج معكم ، لما فيه من المفاسد التى سيأتى بيانها ، فلذلك ثبطهم وحبسهم عن الخروج ، بما استقر فى نفوسهم من الجبن والكسل وكراهة الغزو فى سبيل الله .

(وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) :

يحتمل أن يكون هذا القول من رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله لهم للإذن بالتخلف بعد اعتذارهم ، وهو يحمل فى طيات عبارته اللوم والذم ، وكأنه يقول لهم : اقعدوا مع القاعدين بعذر أو بغير عذر ، فأنتم لاتستحقون شرف الجهاد فى سبيل الله والثواب المترتب عليه .

ويحتمل أن تكون العبارة من قول بعضهم لبعض متأثرين بجبنهم الكامن فى نفوسهم ، وكراهيتهم للدفاع عن الإسلام قالوها تنفيذًا لتثبيط الله لهم .

والمعنى على هذا : وقال بعضهم لبعض : اقعدوا عن الخروج فى هذه الغزوة مع القاعدين ، فلا مصلحة لنا فيها ، ولا يهمنا الغرض الذى خرج الغزاة من أجله ، وقيل : غير ذلك وحسب القارئ ما تقدم .

٤٧ ـ (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَّازَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا) :

أى لو خرج هؤلاء المنافقون فيكم وأنتم ذاهبون إلى تبوك ، مازادوكم بخروجهم إلا شرًّا وفسادًا ، ولم يزيدوكم قوة وتأييدًا ، فهم دعاة فتنة وليسوا أسباب قوة .

(وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) : هذا تصوير للخبال والفساد الذى كان ينتظر من المنافقين لو خرجوا فى غزوة تبوك . بجعلهم كالذين يسرعون بركائبهم خلالهم ، مبالغة فى إسراعهم بالنميمة والوشاية بينهم .

والمعنى : لو خرجوا فيكم لأسرعوا بركائبهم بينكم ، يسعون بالنمائم والوشايات وإفساد الصلات ، رغبة فى توهين عزائمكم ، وصرفكم عن الجهاد أو هزيمتكم ، وفيكم ضعاف خفاف يتأثرون ويهتمون بسماعهم ونقل نمائمهم ، والله عليم بهؤلاء الظالمين فهو محيط ـ بضمائرهم وظواهرهم ، وبما فعلوه فيما مضى وما سيفعلونه فيما سيأتى .

وقد تضمنت هذه الآية أمرين : (أحدهما) أن من أذن لهم النبى صلى الله عليه وسلم بعدم الخروج من المنافقين كانوا دعاة فتنة ، وأنهم لو خرجوا فيهم زادوهم خبالا ، وإذا كان أمرهم كذلك فلماذا عاتب الله رسوله على الإذن لهم بالتخلف مع أن تخلفهم فيه مصلحة للجيش ، والجواب : أنهم كانوا سيتخلفون عن الغزوة قطعًا ، وقد تآمروا على ذلك ، إذ قال بعضهم لبعض :(اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) وكان الأَولى أن لا يأْذن النبى صلى الله عليه وسلم لهم ليكون قعودهم بغير إذن ، حتى يظهر نفاقهم بين المسلمين من أول الأَمر ، فلا يقدروا على مخالطتهم والسعى فيما بينهم بالأَراجيف ، ولا يتسنى لهم التمتع بالعيش إلى أن يظهر حالهم بنزول الآيات التى كشفتهم .

(والأَمر الثانى) الذى تضمنته الآية : أن الجيش الذى سافر لغزوة تبوك كان فيه بعض ضعاف الإيمان بدليل وصفهم بقوله تعالى :(وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) فلماذا أخذهم النبى صلى الله عليه وسلم معه مع خطورتهم على الجنود .

والجواب : أنهم لم يكونوا فى كيفية الفساد وكمية العدد بحيث يخل مكانهم بين المؤمنين بأمر الجهاد ، وكأن وجودهم فيه منفعة تكثير سواد المسلمين ، على أن الرسول صلى الله عليه وسلم معذور فى استصحابهم فإنه لم يكن يعلم بحالهم قبل أن يكشفهم الله تعالى له فهو الذى يعلم أسرار القلوب .

(لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ) :طلبوا تفريق المسلمين .(وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ) :اجتهدوا فى استعراضها لتدبير المكايد من أجلك .(وَلَا تَفْتِنِّى) : ولا توقعنى فى المعصية بتخلفى من غير إذن .

التفسـير

٤٨ - (لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ) :

أى لقد رغبوا فى فتنة المسلمين من قبل هذه الغزوة ، فقد أرادوا تشتيت أصحابك أيها الرسول وتفريقهم من حولك ، وكان ذلك يوم أحد حين انصرف رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول من الطريق ، بعد أن خرج مع الجيش للمشاركة فى غزوة أحد يريد بذلك أن تضعف قلوب المجاهدين ، وتتحلل عزائمهم برجوعه ومن تبعه من المنافقين ، وقد كرروا هذه المأساة فى غزوة تبوك ، فقد تخلف ابن سلول بمن معه بعد خروج النبى صلى الله عليه وسلم إليها مع أصحابه ، ووصولهم إلى ذى جُدَّةٍ أسفل من ثنية الوداع ، وقد كانت لهم فى الفتنة صفحات سوداء يطول الحديث عنها ، وحسبنا ما ذكرنا .

(وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ) :

أى : وقلبوا من أجلك الأمور ورددوها ، ليدبروا لك الحيل والمكايد ، وعرضوا الآراء المختلفة لإبطال أمرك ، حتى ظهر الحق على الباطل وانتصر عليه ، على الرغم منهم وهم لذلك كارهون .

وهذه الآية والتى قبلها لتسلية الرسول والمؤمنين عن تخلف المتخلفين وبيان ماثبطهم الله لأجله ، وهتك أستارهم وإزاحة أعذارهم .

٤٩ - (وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّى أَلَا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا) :

أى ومن هؤلاء المنافقين من يقول لك أيها الرسول : ائذن لى فى التخلف عن الغزوة ولا توقعنى فى الفتنة - أى المعصية - إذا تخلفتُ بدون إذنك[1] ، متظاهرًا بالحرص على رضاه ، وهو خبيث النية سيِّئ الطوية - ألا فليعلم هو وأمثاله أنهم فى الفتنة الكاملة المهلكة سقطوا ، وذلك بعقدهم العزيمة على التخلف بلا عذر ، والجراءة على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعة والتماسهم الأعذار الكاذبة ، ونفاقهم وعدم إخلاصهم .

---

(١) ومن العلماء من فسر «ولاتفتنى» بمعنى ولا تلقنى فى الهلكة فإنى إن خرجت هلك مالى وعيالى لعدم من يقوم بمصالحهم. وقيل : ان الجد بن قيس قال للرسول : قد علمت الأنصار أنى مشتهر بالنساء فلا تفتنى ببنات الأصفر -يعنى الروم- ولكن أعينك بمالى فاتركنى : فنزلت الآية .

(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) :

هذا وعيد لهم على مافعلوا ، أى : وإن جهنم لجامعة لهؤلاء المنافقين يوم القيامة محيطة بهم من كل جانب لكفرهم ، ويجوز أن يكون المعنى : وإن جهنم لمحيطة بهم الآن ، تنزيلا للعذاب المحقق وقوعه مستقبلا منزلة الواقع ، أو وضعًا لأسباب التعذيب بجهنم موضع جهنم ، فإن مبادىء إحاطة النار بهم من الكفر والمعاصى محيطة بهم من كل جانب وقت نزول الآية ـ وقيل غير ذلك .

(إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢))

المفردات :

(حَسَنَةٌ) : نعمة ، والمراد بها هنا : النصر والغنيمة .

(مُصِيبَةٌ) :شدة ، كهزيمة أحد . (كَتَبَ اللهُ) :أثبت فى علمه أو فى اللوح المحفوظ.

(مَوْلَانَا) :متولى أمورنا . (تَرَبَّصُونَ) :أصله تتربصون فخفف بحذف إحدى التاءين ، ومعناه تنتظرون . (الْحُسْنَيَيْنِ) : الغايتين المستحسنتين النصر والشهادة فى سبيل الله .

التفسير

٥٠ ـ (إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ...) :

هؤلاء المنافقون الذين استأذنوك فى التخلف عن الجهاد ليس عندهم شىء من الميل نحوك ، ولا الرغبة فى مرضاتك كما يزعمون ، ذلك أنه إن تصبك نعمة من الله بنصر وغنيمة تسؤهم وتحزنهم ، لفرط حسدهم وكراهتهم لك ، وإن تُصِبْكَ مصيبة تؤلمك كالذى أصابك يوم أُحد من الجراح والهزيمة ، يقولوا مغتبطين لتخلفهم ، حامدين لرأيهم وسياستهم ، قد احتطنا وأخذنا أمرنا من قبل المصيبة بتلافى ما يهمنا ، حيث اعتزلنا المقاتلين ، وقعدنا عن الحرب ، وداربنا الكفرة بذلك ، حيث اعتزلنا المسلمين وهم فى قوتهم قبل أن يهزموا ، وسلمنا مما أصاب المقاتلين من قتل وجرح .

(وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ) :

أى وينصرفوا عن المجلس الذى كانوا يتحدثون فيه حديثهم هذا ، وهم كثيرو الفرح بهزيمة المسلمين ، ونجاة أنفسهم بأخذهم حذرهم واحتياطهم بالتخلف عنهم ، ...... وقيل : المراد بتوليهم إعراضهم عن النبى صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة .

٥١ - (قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) :

قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين الشامتين ردًّا على شماتتهم : لن يحدث لنا إلا ماقدره الله علينا ، لا يتغير بموافقتكم ولا بمخالفتكم ، فإن نصرنا فلا أثر لكم فى النصر إن وجدتم معنا ، وإن هزمنا فلا أثر لكم فى الهزيمة إن تخلفتم عنا ، والله وحده هو ناصرنا ، وعليه لا على غيره فليعتمد المؤمنون .

٥٢ - (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ)

قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين الشامتين إمعانًا فى الرد عليهم ، وبيانًا لحسن عاقبة المؤمنين المجاهدين : ما تنتظرون بنا إلا إحدى العاقبتين الحسنيين - وهما النصر والشهادة- وما تتمنونه لنا وتفرحون به من القتل لتتخلصوا منا ، هو أنفع لنا من النصر والغنيمة اللذين تعدونهما منفعة لنا ، وتتألمون من حصول المجاهدين عليهما .

(وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ) :

ونحن ننتظر بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ، كما أصاب من قبلكم من الأمم المهلكة كعاد وثمود ، أو بعذاب بأيدينا هو القتل ، وهذا أو ذاك بسبب كفركم الذى انطوت عليه قلوبكم ، وتربصكم بنا الموت والهزيمة ، وكراهتكم للإسلام والمسلمين ، وإذا كان أمرنا وأمركم ما تقدم فانتظروا بنا ما ترونه شرًّا ونراه خيرًا ـ وهو الشهادة فى سبيل الله ـ ، إنا معكم منتظرون ما تستحقونه من عذاب الله أو العذاب بأيدينا .

(قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(طَوْعًا أَوْ كَرْهًا) : أى طائعين أو كارهين . (فَاسِقِينَ) : متمردين خارجين على حدود الله بإبطان الكفر مع إظهار الإيمان وبغير ذلك من المعاصى .

(وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ) : وتخرج بصعوبة ، والزهوق الخروج بمشقة .

التفسير

٥٣ ـ (قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ) :

لا يزال الكلام متصلا بشأن المنافقين .

والمعنى : قل أيها النبى لهؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وعرضوا المساهمة فى نفقاتها بأموالهم : أنفقوا أموالكم فى سبيل الله طائعين راضين ، أو متورطين كارهين ، فلن يتقبل الله منكم ما تنفقون ، ولن يثيبكم عليه ، ولن يشفع لكم فى تخلفكم عن تبوك لأغراض خبيثة فى نفوسكم ، إنكم كنتم وما زلتم قومًا عتاة متمردين ، فقد أبطنتم الكفر ونافقتم الإسلام ، فكيف يتقبل الله من الكافرين المرائين ، وقد بين الله فسقهم الذى كان سببًا فى عدم قبول إنفاقهم بقوله :

٥٤ ـ (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ) . الآية .

أى : وما منعهم شىءٌ من قَبُول نفقاتهم إلا كفرهم القلبى بالله وبرسوله ، وأنهم لا يؤدون الصلاة فى نشاط وإقبال بل يؤدونها وهم كسالى متثاقلون ، ولا ينفقون من أموالهم فى سبيل الله عن رضا وراحة نفس ، بل يفعلون ذلك وهم كارهون ، لأنهم لا يرجون بها ثوابا ، ولا يخافون على تركها عقابا .

٥٥ ـ (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) :

فلا تستحسن أموالهم ولاأولادهم يأيها المتأمل ولا تكن مغتبطا مسرورا بحالهم ، فكل ذلك وبال عليهم واستدراج لهم ، فما يريد الله بتلك النعم إلا تعذيبهم بها فى الحياة الدنيا ، بما يكابدون من المشقة فى تحصيل الأموال وحفظها ، ومن المتاعب فى تربية الأولاد ، وما يريد الله بها أيضا إلا أن تخرج أنفسهم وأرواحهم من أجسادهم بعد ذلك بمشقة شديدة ، وهم كافرون بالله ورسوله ، حيث شغلتهم دنياهم عن أخراهم ، وغفلوا عما أعد لهم فيها من عذاب مقيم .

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾)

المفردات :

(يَفْرَقُونَ) : يخافون .(مَلْجَأً) : مكانا حصينًا يلجأون إليه .

(مَغَارَاتٍ) :كهوفاً فى الجبال .(مُدَّخَلًا) :[1] نفقا فى الأرض .

(لَوَلَّوْا إِلَيْهِ) :لا نصرفوا نحوه.

(وَهُمْ يَجْمَحُونَ) : وهم يسرعون أشد الإسراع .

التفسير

٥٦ – (وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ) :

ويحلف هؤلاء المنافقون بالله تعالى إنهم من جملتكم فى الدين والعمل ، يريدون بذلك أن يدلسوا على المؤمنين بعد افتضاح أمرهم ، والحقيقة أنهم ليسوا منكم أيها المؤمنون ، فقلوبهم خالية من الإيمان الذى امتلأت به قلوبكم ، ولكنهم قوم يخافون خوفا شديدا من أن يفعل بهم ما يفعل بالمشركين ، فلهذا يظهرون الإسلام ويشاركونكم فى شعائره ويؤيدون ذلك بالأيمان الفاجرة ، ولو استطاعوا لهربوا منكم وفى ذلك يقول الله تعالى :

٥٧ – (لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ) :

هذه الآية مقررة لما جاء فى الآية التى قبلها من أن المنافقين ليسوا من المؤمنين ، وأن نسبتهم أنفسهم إلى المسلمين أرادوا بها أن يحموا أنفسهم من القتل .

والمعنى : لو يجد أولئك المنافقون مكانا حصينا فى جبل أو قلعة أو نحوهما يلجأون إليه ، أو كهوفا خفية يخفون فيها أنفسهم ، أو نفقا فى الأرض يدخلون فيه ويندسون ،

(١) على وزن مفتعل من الدخول .

لا نصرفوا إليه عنكم ، وهم يسرعون إسراع الفرس الجموح الذى لا يثنيه اللجام ، إيثارا للإقامة فى هذه الأماكن على الإقامة مع المؤمنين ، حتى يكونوا فيها على سجيتهم من الكفر ، ولا يخشون من المؤمنين انتقاما .

(وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(يَلْمِزُكَ) : يعيبك سرا . (فِى الصَّدَقَاتِ) : فى شأن قسمة أموال الزكاة .

(يَسْخَطُونَ) : يغضبون . (حَسْبُنَا اللهُ) : أى كافينا .

التفسير

٥٨ ـ (وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا ...) الآية .

نزلت هذه الآية فى أبى الجواظ المنافق قال : ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل .

وقال أبو سعيد الخدرى : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم مالا إذ جاءه حُرْقُوص بن زهير ـ أصل الخوارج ـ ويقال له : ذُو الخُوَيْصِرة التميمى ، فقال : أعدل يارسول الله ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل » ؟ فنزلت الآية ـ حديث صحيح أخرجه مسلم بمعناه ـ وعندها قال عمر رضى الله عنه : دعنى يارسول الله فأقتلَ هذا المنافق ، فقال : « معاذ الله أن يتحدث الناس أنى

أقتل أصحابى ، إن هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية » .

المعنى: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك فى قسم الصدقات زاعمين أنك تركت بعض من يستحقون وأنهم منهم ، وأعطيت بعض من لا يستحقون ، وهذا زور وبهتان ، فإن هؤلاء الكاذبين لو أعطوا منها كما يشتهون رضوا ولم يلمزوا ولم يعترضوا ، وإن لم يعطوا منها كما يحبون يفاجئون الناس بالسخط والغضب ، ويعيبون على النبى صلى الله عليه وسلم فى تقسيمها ، فرضاهم وسخطهم ليسا لوجه الحق والدين ، بل لحظوظ أنفسهم ، وإيثارهم لها على أهل الاستحقاق .

٥٩ - (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ) :

ولو أن هؤلاء اللامزين المعترضين أخذوا ما أعطاهم الله ورسوله من الصدقات ونفوسهم راضية بما أخذوه وإن قل ، وقالوا : كافينا فضل الله وما قسمه لنا فى هذه المرة ، سيعطينا الله من فضله ورسوله بعدها من صدقات أو مغانم أخرى حسبما نرجو ونأمل ، إنا إلى الله راغبون فى زيادة الخير والفضل ، لو أن ذلك كله حدث منهم ، لكان خيرا لهم وأزكى مما قالوه ، واستحقوا غضب الله من أجله .

(* إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(لِلْفُقَرَاءِ) : جمع فقير وهو من لا مال له ، أوله مال لا يقع موقعا من كفايته .

(وَالْمَسَاكِين) : جمع مسكين ، وهو من لا مال له ، أو له مال يقع موقعاً من كفايته ، فالفقير أسوأ حالا من المسكين وقيل بالعكس .

التفسـير

لما عاب المنافقون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قسم الصدقات بقولهم : أترون إلى صاحبكم يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل ، جاء القرآن الكريم يقرر صواب طريقته وأنه أعطاها لمن يستحقونها ، ولم يأخذ لنفسه شيئًا منها فقال تعالى :

٦٠ـ (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ) الآية .

أى إنما تصرف الصدقات للفقراء والمساكين ، والمراد بالصدقات ما يشمل أنواع البر المختلفة من زكاة مفروضة ، أو صدقة متطوع بها ، والفقير والمسكين كلاهما لا يجد ما يكفيه ، وهل الفقير أسوأ حالا من المسكين أو العكس خلاف بين الفقهاء .

(وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا) :أى وتصرف الصدقات أيضا للذين يعملون فى جمعها وتحصيلها ، ويقومون بكتابة ما أعطاه أرباب الأموال ، وجمع المستحقين لها وتوزيعها عليهم.

(وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ) :وهم أصناف ، فمنهم قوم أسلموا ولم يستقر الإسلام بعد فى قلوبهم ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤلف قلوبهم بإجزال العطاء لهم ، ومنهم أشراف من العرب كان الرسول يتألفهم ليسلموا ، ومنهم آخرون أقوياء الإيمان كانوا يُعطون أملا فى إسلام نظرائهم ، فينتصر ، بهم الإسلام.

(وَفِي الرِّقَابِ) : أى ويصرف منها فى فك الرقاب وذلك بإعانة المكاتبين بشىء منها على أداء مال الكتابة وتخليص الأسارى من أيدى الكفار ، وشراء الأرقاء وعتقهم ؛ لتحرير رقاب الجميع من ربقة الرق والعبودية . (وَالْغَارِمِينَ) : وهم الذين استدانوا فى غير معصية ، فيعطون منها ليتمكنوا من أداء ديونهم إذا لم يكن لهم مال يفى بديونهم ، أو هم الذين غرموا فى سبيل الإصلاح بين الناس وإن كانوا أغنياء.

(وَفِي سَبِيلِ اللهِ) : أى ويصرف منها للغزاة القائمين بالجهاد ، ليستعينوا بها على القتال فى سبيل نصرة الدين .

(وَابْنِ السَّبِيلِ) : وهو المسافر الذى قطعه السفر عن أهله وماله ، فيأخذ منها ما يستعين به على الوصول إلى غرضه .

هؤلاء الثمانية تصرف لهم الصدقات وتختص بهم وحدهم ، لا يعطى منها أحد سواهم ، وإذا كانت الصدقات لا تعطى لغيرهم ، فما لهؤلاء الذين لا يستحقون شيئا منها يعيبون قاسمها ويتكلمون فى شأنه وشأنها بما لا يليق .

(فَرِيضَةً مِنَ اللهِ) : أى فرض الله لهؤلاء المذكورين الصدقات فريضة محكمة ثابتة لإصلاح شئونهم ، فلا يعطى منها غيرهم ولا يمنع منها من وجد منهم .

(وَاللهُ عَلِيمٌ) :أى والله محيط علمه بكل شىء فيعلم أحوال الناس وما يصلح شئونهم .

(حَكِيمٌ) :يفعل كل شىء بحكمة بالغة ومنها وضع الصدقات فى مواضعها النافعة .

(وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾)

المفردات :

(أُذُنٌ) :يسمع كل مايقال ويصدقه ، كأنه من فرط استماعه صار آلة للسماع .

(يُحَادِدِ) : يجانب ويخالف ويعادى . (الْخِزْىُ) : الذل والهوان .

التفسير

كان جماعة من المنافقين يعيبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتكلمون فى شأنه بما لا ينبغى ، فقال بعضهم لا تفعلوه خشية أن يبلغه ذلك فيعاقبنا ، وقال بعضهم : قولوا ماشئتم ثم إذا بلغه ذلك ذهبنا إليه وأنكرناه وحلفنا فيصدقنا ، فإنه أذن يسمع كل مايقال له فيصدقه ، فأنزل الله قوله تعالى :

٦١ - (وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ...) الآية .

أى ومن المنافقين جماعة يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم بتعييبه والطعن فى رسالته فيما بينهم ، ويزيدون فى تعييبه وتنقيصه أن يسموه فيما بينهم أذنًا ، يريدون بذلك أنه يسمع كل كلام يلقى إليه ويقتنع به ويصدقه .

فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : (هُوَ أُذُن) كما تقولون ولكن لا من الجهة التى تذمونه بها وهى سماعه كل ما يقال ، بل من حيث إنه كثير الاستماع إلى الخير والحق يقبله ويعمل به .

ثم بين القرآن الكريم كونه أذن خير بقوله :

(يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) : أى يصدق بالله الذى لا يشك فيه عاقل ، ويصدق المؤمنين ويُسَلِّمُ لَهُمْ ، لظهور إخلاص نياتهم واطمئنان قلوبهم .

وكان إيمانه صلى الله عليه وسلم بالله واطمئنانه إلى المؤمنين خيرًا للمخاطبين ولسائر العالمين ، لأنه الإمام الداعى إلى التوحيد وإلى كل خير .

(وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ) : أى وهو صلى الله عليه وسلم رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم ، إذ قبله لا تصديقًا لهم ، بل رفقا بهم ، فلم يهتك لهم سترا ، ولم يكشف لهم سرًّا ، بل أحسن إليهم وتجاوز عن سيئاتهم ، رجاء أن يتوبوا من نفاقهم ، ويخلصوا الإيمان لربهم .

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ) صلى الله عليه وسلم بتهوين شأنه والانتقاص من قدره بما قالوا . (لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) : شديد الإيلام بسبب إيذائه .

والإخبار فى نهاية الآية عن شدة عذاب الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم للتهديد والوعيد على إيذائه ، وفى ذكره ـ صلى الله عليه وسلم بوصف كونه رسول الله ـ تعالى إعظام لشأنه وإجلال لقدره ، وتنبيه على أن إيذاءه موجب لسخط الله تعالى .

وكان المنافقون يتحدثون بما يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعيبه وينتقص من قدره ، ثم يجيئون إلى المؤمنين وينكرون ذلك ويؤكدون إنكارهم بالإيمان ليرضوا عنهم ، فبين القرآن الكريم أنهم كاذبون فى إنكارهم بقوله تعالى :

٦٢ - (يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ) :

أى يقسم هؤلاء المنافقون بالله لكم أيها المؤمنون ، أنهم ما أساءوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، بكلام يعيبه وينتقص من قدره ، يريدون بذلك أن ترضوا عنهم ، بتصديقهم فى نفى ما نقل عنهم من قالة السوء فى حقه صلى الله عليه وسلم ، ولايعنيهم إرضاءُ الله ورسوله باتباع سبيل المؤمنين ، مع أنه هو الواجب كما قال الله تعالى :

(وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ) :

أى والله أحق أن يرضوه بإرضاء رسوله إن كانوا صادقين فى إيمانهم ، وذلك باتباعه فيما جاء به عن ربه ، والقيام بما يجب له من الإجلال والإكبار حاضرا وغائبًا ، فطاعته طاعة لله تعالى : « وَمَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ » .

٦٣ - (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ) :

أى أغاب عن هؤلاء المنافقين ولم يصل إلى علمهم ، أنه من يعادى الله ورسوله فإن له نار جهنم ، يعذبه الله بها ماكثًا فيها لا يخرج منها ، ذلك العذابُ الدائمُ الذى بلغ الغاية فى الهول والشدة ، هو العار الفاضح والذل الدائم ، والهوان الشديد ، حين يفتضح أمرهم وينكشف حالهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد .

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(يَحْذَرُ): يخاف . (اسْتَهْزِئُوا) : استخفوا واسخروا . (مُخْرِجٌ): مظهر .

(نَخُوضُ): ندخل ونمضى فى الكلام نشغل به أنفسنا . (وَنَلْعَبُ): ونعبث .

(لاَتَعْتَذِرُوا) :لا تطلبوا وتقبول المعذرة والحجة التى تبرئون بها أنفسكم .

(مُجْرِمِينَ) : مرتكبين للجرم وهو الذنب العظيم .

التفسير

٦٤ - (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ...) الآية .

أى : يخشى المنافقون ويفزعون أن ينزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فى شأنهم سورة تتلى عليهم وتخبرهم بما أخفوه فى قلوبهم ، وبما كانوا يتحدثون به فيما بينهم من سخرية واستهزاء بالرسول ، وبما أنزل الله عليه من كتاب ، واستخفاف بالمؤمنين ، وفى إنزالها على الرسول وتلاوتها عليهم ، إعلام للناس تنكشف به أستارهم ، وتفتضح به أحوالهم ، فهم لذلك يخافون نزولها ولا ينفعهم حذرهم هذا بشىء .

(قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَاتَحْذَرُونَ) :

أى قل لهم أيها الرسول : استهزئوا واسخروا من النبى والمؤمنين ما شئتم ، وبالغوا فى حذركم وتخفيكم ما أردتم إن الله معلن ومظهر ما تخافون إظهاره ، وتخشون انكشافه ، من مخازيكم التى تضمرونها فى قلوبكم وتخفونها فى صدوركم .

أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوته إلى تبوك ، إذ نظر إلى أناس بين يديه من المنافقين يقولون : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيه عليه السلام على ذلك ، فقال : احبسوا علىَّ الركبَ ، فأتاهم، فقال صلى الله عليه وسلم : قلتم كذا وكذا ، قالوا يا نبى الله : إنما كنا نخوض ونلعب فنزلت .

وفى رواية : قالوا : يانبى الله - لا - والله ماكنا فى شىء من أمرك ولا من أمر أصحابك ، ولكن كنا فى شىء مما يخوض فيه الركب ليُقَصِّر بعضنا على بعض السفر فكشف الله أحوالهم فى قوله تعالى :

٦٥ - (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ...) الآية .

أى : والله لَئِنْ سألتهم يا محمد عما كانوا يتحدثون به استهزاء وهم سائرون معك إلى تبوك ، بعد أن فضح الله أمرهم بما أوحاه الله إليك .

(لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) : أى ليقولن معتذرين كذبًا ، إنما كنا ندخل ونمضى فى أحاديث مختلفة للتسلية وتقصير السفر ، ولم نكن جادين فيما تحدثنا به ، بل كنا لاهين ولاعبين ، لانقصد بذلك سخرية ولا استهزاء ، فلما قالوا ذلك أمر الله تعالى ، رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يقول لهم ردًّا لاعتذارهم :

(أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ) : أى قل أيها النبى لهؤلاء المنافقين ، غير ملتفت إلى اعتذارهم فليسوا فيه بصادقين ، - قل لهم - تقريعا : أبالله القادر على كشف أسراركم ، وآياته المجيدة ورسوله الصادق ، كنتم تلهون وتعبثون وتسخرون ، إنّ هذا منكم لمنكر وعجيب لايصدر إلا عن كفر عميق وعقل مريض .

٦٦ - (لَاتَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ...) الآية .

أى : لاتشغلوا أنفسكم بتلمس المعاذير وانتحالها ، رغبة فى دفع اللوم والعتاب عنكم ، لتحقق كذبها وظهور بطلانها ، فإنكم قد كفرتم بالاجتراء على الله والاستهزاء به وبآياته وبرسوله ، بعد أن أعلنتم الإيمان وأظهرتم الإسلام .

(إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِنكُمْ) : أى إن نتجاوز عن ذنوب جماعة منكم - فلا نعاقبهم بها - لصدق توبتهم وإخلاص إيمانهم ، وابتعادهم عن الإيذاء والاستهزاء ، بعد أن خاضوا فى ذلك مع الخائضين .

(نُعَذِّب طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) :

أى نعاقب جماعة أخرى بالعذاب الشديد لإصرارهم على الكفر والنفاق ومضيهم فى السخرية والاستهزاء .

(ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ
بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ
فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ) : هم الذين يظهرون غير ما يضمرون .

(بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ) : أى متشابهون فى النفاق والبعد عن الإيمان .

(يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) كناية عن شدة بخلهم . (نَسُو اللهَ فَنَسِيَهُمْ) : أى تركوا حق الله عليهم فحرمهم فضله . (الفَاسِقُونَ) : الخارجون عن دين الله .

التفسير

٦٧ ـ (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهم مِّن بَعْضٍ . .) الآية .

بعد أن بينت الآية السابقة عدم قبول أعذار المنافقين لبطلانها وكذبها واجترائهم على الله واستهزائهم بآياته ورسوله ، بيَّن سبحانه هنا صفات المنافقين وشرح طريقتهم وأخلاقهم مع الله ورسوله كاشفًا سبب عقابهم فقال :

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهمُ مِّن بَعْضٍ) : أى متشابهون فى أخلاقهم وسلوكهم ، وشرح تشابههم فى ذلك بقوله سبحانه : (يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ) : أى يأمرون بالمعاصى وكل ماهو قبيح فى الشرع والطبع السليم وينهون عما عرف حسنه من الإيمان والطاعة . (وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) : على المال ضنا به وحرصًا عليه وشُحًّا به ، فقبض اليد كناية عن شدة بخلهم بالإنفاق فى أى وجه من وجوه البر والخير والطاعات ، وأنهم لايخرجون من أموالهم واجبًا ولا مندوبًا (نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ) : أى تركوا حق الله عليهم وأغفلوا أمره حتى لم يعد يخطر لهم على بال فتركهم الله تعالى ولم يُقم لهم وزنًا ، فهم بمعزل عن فضله ورحمته .

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) : أى إن المنافقين الذين تقدم شرح حالهم ، هم الذين بلغوا الغاية فى الخروج عن دين الله وطاعته والتمرد عليه .

(وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾
كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا
فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾) .

المفردات :

(حَسْبُهُمْ) : كافيهم . (وَلَعَنَهُم) : وطردهم من رحمته . (مُقِيمٌ) : دائم لايزول ولا يتحول .

(فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ) فتمتعوا بنصيبهم الذى قدر لهم من الملاذ والشهوات .

(وَخُضْتُم) : ومضيتم فى أحاديث الاستهزاء والسخرية . (حَبِطَتْ) : بطلت وضاع ثوابها .

التفسير

٦٨ - (وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ والْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ . . .) الآية .

بعد أن بين القرآن الكريم طائفة من جرائم المنافقين والمنافقات جاءت هذه الآية ببيان جزائهم وعقابهم فى الآخرة وكذلك عقاب الكفار الصرحاء فى الكفر فقال تعالى :

(وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ ...) :

والمعنى : وعد الله المرائين بالإيمان والمبطنين للكفر ، من الرجال والنساء ، كما وعد الكفار الصرحاء (نَارَ جَهَنَّمَ) يصلون سعيرها ، (خَالِدِينَ فِيهَا) لايبرحونها ، ولا ينقطع عنهم عذابها (هِيَ حَسْبُهُمْ) أى جهنم وحدها تكفيهم عقابًا وعذابًا على نفاقهم وكفرهم ، (وَلَعَنَهُمُ اللهُ) أى وأبعدهم عن رحمته وطردهم منها (وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ) أى ولهؤلاء نوع شديد من العذاب فى النار دائم لايفارقهم ، جزاء ما اقترفوا من جرائم وآثام .

٦٩ ـ (كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وأَكْثَرَ أَمْوالًا وَأَوْلادًا ...) الآية .

أى : أنتم أيها المنافقون وكفار مكة حالكم مثل حال الذين مضوا من المنافقين والكفار من الأمم المهلكة قبلكم ، فى الاستمتاع بالحياة الدنيا والغفلة عن الآخرة ، والجرأة على الحق ، واستحقاق العقاب ، وذلك أنهم كانوا أعظم منكم قوة أيها المخاطبون ، وأكثر أموالًا وأولادًا ، فتمتعوا بنصيبهم الذى قدر لهم من حظوظ الدنيا وطيباتها ، وأفرغوا كل جهد لهم فى التمتع بالملذات والشهوات ، ونسوا حق الله عليهم ولم يلتزموا بطاعته ، واستخفوا بأنبيائهم وسخروا منهم ، فكذلك كنتم بعدهم مثلهم انتفعتم بنصيبكم الذى قدر لكم من متاع الدنيا وزينتها ، وحرصتم عليه وجعلتم الاشتغال به غاية الغايات ، كما تمتع الذين من قبلكم . (وخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا) :أى ودخلتم أيها المنافقون والكافرون فى الباطل وانغمستم فيه كانغماس الذين مضوا قبلكم من الأمم .

(أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) : أى أولئك الذين انغمسوا فى الباطل إلى الأذقان من الفريقين،وجعلوا كل همهم التمتع بالشهوات ـ أولئك المذكورون ـ بطلت أعمالهم المشتملة على الخير ، فلم تنفعهم فى الدنيا والآخرة ،إذ لا اعتبار للعمل الطيب بغير إيمان وتصديق .

(وَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ) : أى وأولئك هم الذين خسروا خسرانًا مبينا لا خسران بعده ، إذ قضوا حياتهم فيما يضرهم ولا ينفعهم .

(أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾)

المفـردات :

(نَبَأُ) : خبر له شأن . (الْمُؤْتَفِكَاتُ) : المنقلبات وهى قرى قوم لوط .

(بِالْبَيِّنَاتِ) : بالحجج الواضحات .

التفسير

٧٠ - (أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوم نُوح ...) الآية .

بعد أن حكى القرآن الكريم طائفة من جرائم المنافقين ووعيد الله لهم بالعذاب بالنار وحكى مشابهتهم لمن قبلهم فى النفاق وتوعدهم بالعقاب انتقل فى هذه الآية إلى توبيخهم على عدم اعتبارهم بإهلاك من قبلهم حين كذبوا برسلهم فقال تعالى : .

(أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ) :

والمعنى : ألم يصل إلى علم هؤلاء المنافقين والكافرين خبر الذين كفروا من قبلهم ، الجدير بأن يكون عبرة لهم ولغيرهم كما يتضح مما يأتى : وهؤلاء هم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات .

(أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) :أى جاء كل رسول قومه بالآيات الظاهرة والحجج الواضحة ، الدالة على وحدانية الله ، الشاهدة بصدق رسالته ، فلم يؤمنوا ، وكذبت كل أمة برسولها وآذته ، فأهلكهم الله بذنوبهم ، وماكان الله ليعذب أحدًا بغير ذنب .

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) :

أى فما صَحَّ وما استقام فى سنة الله فى خلقه أن يعاقبهم بغير ذنب فيظلمهم بذلك ، ولكن هؤلاء الطغاة ظلموا أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان ، حيث عرضوها بذلك لأشد العقاب ، وظلمُ النفس أشدُّ أنواعِ الحمق والقبح .

وقد أهلك الله قوم نوح بالطوفان ، وعاد- وهم قوم هود - بالريح العقيم ، وثمود -وهم قوم صالح - بالرجفة ، وعاقب قوم إبراهيم بنصره عليهم والانتقام منهم ، وأصحاب مدين - وهم قوم شعيب - بالنار يوم الظلمة .

(والمؤتفكات) : أى المنقلبات هى قرى قوم لوط التى قلبها الله عليهم ، فجعل الله عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ؛ والأمم المعاقبة أكثر من هذه الست ، ولكنه تعالى اقتصر عليها لأن آثارهم وبلادهم بالشام والعراق واليمن وهى قريبة من أرض العرب فكانوا يمرون عليها ويعرفون أهلها .

(وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ
وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾)

المفـردات :

(أَوْلِيَاءُ) : جمع ولى وهو المحب .(خَالِدِينَ فِيهَا) : ما كثين فيها مكثًا دائمًا .

(جَنَّاتُ عَدْنٍ) : أى جنات إقامة وخلود ، يقال عدن بالمكان عدنا وعدونا أقام به .

التفسـير

بعد أن بين القرآن الكريم سوء حال المنافقين والكفار فى الدنيا والآخرة أتبعه بيان حسن حال المؤمنين فى الدارين تنفيرًا من اتباع أولئك وترغيبًا فى التأسى بهؤلاء ، فقال ـ تعالى :

٧١ ـ (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ..) الآية .

أى : والمؤمنون والمؤمنات بعضهم محب لبعض ، يجمعهم الإيمان وحسن الصحبة والتناصر ، ويتولى بعضهم بعضًا بما يعود عليه بصلاح الحال فى الدنيا والآخرة ،ومن مظاهر ولاية بعضهم لبعض أنهم يأمرون بما عرف من الشرع والطبع السليم أنه حَسَنٌ مباح ، وينهون عما عرف من الشرع والطبع السليم أنه مُنْكَر وقبيح ، ويؤدون الصلاة قويمة

سليمة مستوفية الشروط والأركان ، ويعطون الزكاة لمستحقيها ، ويطيعون الله ورسوله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

(أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ) : أى أولئك الموصوفون بتلك الفضائل العظيمة سيفيض الله عليهم من آثار رحمته ما به ينصرهم على أعدائهم ، ويؤيدهم فى كفاحهم وجميع أحوالهم ، ويسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة .

(إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

أى إنّ الله غالب قوى لا يمتنع عليه شىء ، فهو قادر على إعزاز أوليائه وقهر أعدائه .

(حَكِيمٌ) : يضع كل شىء فى موضعه بحكمة بالغة ، فينعم على المؤمنين بسعادة الأولى والآخرة ويعاقب الكافرين والمنافقين بخسران الدارين .

٧٢ - (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) الآية :

أى : وعد الله المصدقين والمصدقات بالله ورسوله وبما أنزله من شرع وأحكام ، أن يجزيهم على إيمانهم الصادق وعملهم الصالح جنات تجرى من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ، إتماما لنعيمها وتكريما لأصحابها ، وقدر لهم الخلود فيها ووعدهم - سبحانه - مساكن طيبة فى جنات خلود وإقامة ، يسرون بجمالها وسعتها ومافيها من نعيم مقيم .

وأعظم من ذلك كله رضوان الله تعالى عنهم ، فإن الشعور بلذة رضوان الله أكبر من الشعور بلذة نعيم الجنة .

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) : أى ذلك الذى وعدهم الله إياه من النعيم المقيم فى دار الخلود الدائم ، وماتفضل به عليهم من رضاه هو الفوز الذى بلغ الغاية فى العظم فينبغى الحرص عليه والعمل له والتنافس فيه .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ
قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ
وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟
يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾)

المفـردات :

(وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) : واشدد عليهم ولا تأْخذك بهم رأْفة ورحمة .(وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ) : أى ومكانهم ومقرهم الذى يأْوون إليه وينزلون فيه جهنم .(الْمَصِيرُ) : المآل والمرجع .

(قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ) : أى نطقوا بما يدل عليه من الألفاظ .(وَهَمُّوا) :المراد من الهم هنا العزم - أى عزموا . (بِمَا لَمْ يَنَالُوا) : بما لم يستطيعوا الوصول إليه .

(نَقَمُوا) : كرهوا وأنكروا .(وَلِىٍّ) : صديق ينفعهم، أو سيد متولى أمرهم .

التفسـير

٧٣ - (يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ...) الآية .

يا أيها النبي جاهد الكفار الصرحاء الذين يجهرون بالكفر ، وجاهد المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، أولئك الكفار بالسيف والسلاح ، وهؤلاء المنافقين بالحجة والبرهان وإقامة الحدود (وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) : أى وكن أيها النبي شديدًا عليهم فى جهادك فلا تلاينهم ولا تأْخذك بهم رأفة ولا رحمة ، هذا جزاؤهم فى الدنيا .

(وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : ومقرهم الذى يأْوونَ إليه فى الآخرة جهنم يعذبون فيها بالنار ، وبئس المرجع الذى سيصيرون إليه والنهاية التى سينتهون إليها - نار جهنم .

ثم انتقل القرآن الكريم يحكى ما ارتكبوه من جرائم استوجبوا بها ما مر ، من الأمر بجهادهم والغلظة عليهم فيه ، ودخول جهنم فى الآخرة فقال تعالى :

٧٤ - (يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَاقَالُوا ...) الآية .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أقام فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ، ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمعه من كان منهم معه ، فقال الجلاس بن سويد لئن كان مايقول محمد حقا لإخواننا الذين خلّفناهم - وهم ساداتنا وأشرافنا - لنحن شر من الحمير ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضره فحلف بالله ماقاله ، فنزلت الآية فتاب الجلاس وحسنت توبته .

والمعنى : يقسم هؤلاء المنافقون بالله أنه ماصدر عنهم مانسب إليهم من القول السيئ والنطق بكلمة الكفر ، وهُمْ كاذبون فى دعواهم حانثون فى يمينهم ، ولهذا كذبهم الله قائلا :

(وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ) :

أى : ولقد صرحوا بكلمة تدل على كفرهم الذى كتموه وتفضح نفاقهم ، إذ قالوا لو كان مايقوله محمد فى حق إخواننا حقا لنحن شر من الحمير ، وأعلنوا ماخبأوه فى قلوبهم من الكفر بعد أن قالوا كلمة الإسلام بأفواههم .

(وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا) :

أى وهموا بفعل مالم يصلوا إليه ولم يقدروا عليه من قَتْلِ النبى صلى الله عليه وسلم وذلك أن خمسة عشر منهم توافقوا عند مرجعه من تبوك أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادى إذا تَسنّم العَقبَة بالليل ، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها وحذيفة يسوقها فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وقعقعة السلاح ، فقال : إليكم يا أعداء الله ، فهربوا . وقيل هموا بإخراج الرسول والمؤمنين من المدينة ، أو بأن يُتَوِّجوا عبد الله ابن أُبَىٍّ ملكا عليها فأحبط الله مُؤَامرتهم .

(وَمَانَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ) :

أى وماحَمَل هؤلاء المنافقين والكفار على بغض الرسول والذين آمنوا معه وكراهتهم لهم - ماحملهم على ذلك - شىء يستوجب البغض والكفر ، بل المحبة والإيمان ، فقد كانوا قبل قدوم النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فى غاية من ضنك العيش وشدة الحياة

فأغناهم الله تعالى من خيره الوفير بمقدم نبى الرحمة ، ووسع عليهم أرزاقهم من الغنائم وغيرها ، وقتل للجلاس مولى ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشر ألف درهم فاستغنى ، وعرفهم بآياته على لسان رسوله فأسلموا فحملهم لؤم الطبع وظلام القلب على البغض والحقد والكراهية ، بدل أن يشكروا هذا الإنعام بطاعة الرسول والدخول فى دين الإسلام .

(فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ) :

أى ومع ذلك فإن يرجع هؤلاء الكفار عما هم عليه من الكفر إلى الإيمان ويتوبوا إلى الله من جرائمهم يقبل توبتهم ويكن ذلك خيرا لهم فى الدنيا والآخرة .

(وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) : أى وإن يعرض هؤلاء عن الإيمان والتوبة ، ويستمروا على ماهم عليه من الكفر والنفاق ، يعذبهم الله عذابا شديد الإيلام فى الدنيا بالقتل والأسر والإذلال ، وفى الآخرة بأشد العذاب فى النار

(وَمَالَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) : أى وليس لهم فى الأرض على سعتها وكثرة أهلها صديق ولا ناصر يدفع عنهم عذاب الله .

(وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(مِن فَضْلِهِ) : زيادة خيره وإنعامه .(فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا) :أى جعل الله عاقبة بخلهم نفاقا ، أو أورثهم البخلُ نفاقا.(أَخْلَفُوا اللهَ مَاوَعَدُوهُ) : جعلوا وعدهم لله بالتَّصدُّق خلفهم ،

والمراد أنهم لم يوفوا بما وعدوا الله به من الصدق والصلاح. (سِرَّهُمْ) :أى ما انطوت عليه قلوبهم من النفاق. (نَجْوَاهُمْ) :أى ماتحدثوا به علنا فيما بينهم بعيدا عن المؤمنين.

التفسير

بعدَ أن بين القرآن الكريم فيما سبق طائفة من جرائم جماعات من المنافقين جاءت هذه الآيات تحكى قبائح خاصة بفريق منهم. روى أن ثعلبة بن حاطب أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « يَا ثَعْلَبَةُ قَلِيلٌ تؤدِّى حَقَّهُ ، خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَاتُطِيقُهُ » فراجعه وقال : والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالاً لأُعطين كل ذى حق حقه ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتخذ غنما فنمت وكثرت حتى ضاقت بها المدينة ، فنزل واديا وانقطع عن الجماعة والجمعة فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل : كثر ماله حتى لايسعه وادٍ فقال : ياويح ثعلبة ، ثم بعث اثنين ممن يعملون فى جمع الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فيه الفرائض فقال : ماهذه إلا جزية ماهذه إلا أخت الجزية ، فارجعا حتى أرى رأيى ، فنزلت فيه وفى أمثاله من المنافقين تلك الآيات.

٧٥ - (وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ...) الآية.

أى ومن المنافقين من أقسم وأعطى العهد لله قائلا : والله لئن أعطانا الله من واسع رزقه ومزيد خيره ، لنتصدقن على الفقراء وعلى من يستحقون الصدقة ، ولنكونن فى عداد الصالحين الذين يقيمون حدود الله ، فنعمل فى أموالنا مايعمله أهل الصلاح فى أموالهم من الإنفاق فى سبيل الله وسائر وجوه البر والخير وصلة الأرحام.

٧٦ - (فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ) :

أى فلما حقق الله لهم ماسألوه وأعطاهم من واسع فضله ما كثرت به أرزاقهم ضنوا بما أنعم الله به عليهم ، ومنعوا حق الله فيه. فلم يعطوا منه لأهل الاستحقاق شيئا.

(وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ) : أى وأعرض هؤلاء مدبرين عن طاعة الله ، وشأنهم دائما التولى والإعراض عما يجب الاتجاه إليه من مقاصد الخير ، والإقبال على صنائع المعروف .

٧٧ - (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُو يَكْذِبُونَ) :

أى فجعل الله عقب بخلهم بما رزقهم الله إياه من واسع فضله ، نفاقا متمكنا فى قلوبهم كالداء العضال ، يظل فيها إلى يوم يموتون ويلقون الله وهذا النفاق المتمكن :

(بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَاوَعَدُوهُ) : أى بسبب أنهم لم يوفوا بما وعدوا الله به من التصدق على المستحقين حتى كأنهم جعلوه خلف ظهورهم .

(وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) : وكذلك بسبب استمرارهم على الكذب فى جميع أقوالهم ، ومنها كذبهم فيما عاهدوا الله عليه .

٧٨ - (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ ونَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهُ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) :

أى أغاب عن علم هؤلاء المنافقين الذين حنثوا فى أيمانهم ، ونقضوا ماعاهدوا الله عليه ، أن الله يعلم مايخفونه فى صدورهم من النفاق ، ومايجهر به بعضهم لبعض بعيدا عن المسلمين من الطعن فيما شرعه الله للناس ، ومن ذلك طعنهم فى الزكاة والصدقات بتسميتها جزية أو أختها .

(وَأَنَّ اللهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) :

أى وهل غاب عنهم أيضا أن الله محيط علمه بكل مايغيب عنهم وعن غيرهم فلا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فكيف يتوهمون أنه تعالى يغيب عنه نفاقهم وسرهم ونجواهم .

(ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾).

المفـردات :

(يَلْمِزُونَ) : يعيبون بالكلام الواضح أو بالإشارة بالعين أو الرأس، مع كلام خفى.

(سَبْعِينَ مَرَّةً) : المراد به المبالغة فى العدد (الْمُطَّوِّعِينَ) : المتصدقين تطوعا .

التفسير

٧٩ - (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . .) الآية .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حَثَّ الناس على الصدقة ودعاهم إلى إخراجها فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال : كان لى ثمانية آلاف فأقرضت ربى أربعة ، وأمسكت لعيالى أربعة ، فقال صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت ، فبارك له حتى صولحت تماضر رابعة نسائه عن رُبْع الثُّمُن على ثمانين ألفا ، وتصدق عاصم بن عدى بمائة وسق من تمر ، وجاء أبو عقيل الأنصارى بصاع تمر فقال : بِتُّ ليلتى أَجُرُّ بالجَرير[1] على صاعين ، فتركت صاعا لعيالى وجئت بصاع ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره على الصدقات ، فلمزهم المنافقون ، أى عابوهم ، وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وإن الله ورسوله لغنيان عن صاع أبى عقيل ولكنه أحب أن يُذَكَر بنفسه ليعطى من الصدقات ، فنزلت هذه الآية .

---

(١) الجرير : حبل يجعل للبعير ليجر به ، فهو كالزمام للدابة .

والمعنى : هؤلاء المنافقون البخلاء ، الحانثون فى أيمانهم ، الناقضون لعهودهم مع الله بالتصدق والصلاح والاستقامة ، هم الذين يعيبون المتبرعين الأغنياء ، فيتهمونهم بالرياء فيما بذلوه بسخاء ، ويعيبون الفقراء فيما تبرعوا به من طعام قليل حصلوا عليه بجهد ومشقة وعيالهم بحاجة إليه ، فيسخرون منهم ومن تبرعهم القليل ، زاعمين أنهم يذكرون بأنفسهم ليعطوا من الصدقة .

(سَخِرَ اللَّهُ مِنهُمْ) : أى جزاهم على سخريتهم بالإذلال والإهانة فى الدنيا ، ليكونوا موضع سخرية الناس واستهزائهم جزاءً لهم من جنس عملهم .

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) : أى ولهم يوم القيامة عذاب شديد الإيلام

٨٠ـ (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَاتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَاللَّهُ لَهُمْ) :

روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبىٍّ وكان من المخلصين الصادقين، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لأبيه فى مرض موته ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم إكراما لهذا الصحابى الجليل . وذلك قبل النهى عن ذلك فنزلت الآية :

(اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَاتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ) : أى سواءٌ طلبت المغفرة يامحمد لهؤلاء المنافقين أولم تطلبها لهم فإن الله لايغفر لهم، حتى إن بالغت فى الاستغفار لهم بأكثر من هذا العدد فلن يغفر الله لهم .

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) : أى ذلك الوعيد بعدم المغفرة لهم ، بسبب أنهم كفروا بالله ورسوله ، حين أشركوا مع الله غيره وكذبوا رسوله ولم يؤمنوا بالدين الذى جاء به هدى للناس ، وكان أمرهم معه نفاقا فى الظاهر وفسوقا وخروجا عليه فى الباطن .

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) : والله لايهدى القوم المتمردين الذين تجاوزوا الحدود ، بل يتخلى عن معونتهم وتوفيقهم لإصرارهم على الضلالة مع وضوح الحجة .

والتعبير بسبعين مرة يراد به الكثرة لاخصوص العدد ، فلو زاد على السبعين فى الاستغفار فلن يغفر الله لهم ، لقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَايَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ » .

(فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(الْمُخَلَّفُونَ) : الذين تخلفوا عن الجهاد بأعذار كاذبة . (بِمَقْعَدِهِمْ) : بقعودهم . (خِلَافَ رَسُولِ اللهِ) : أى بعده أو مخالفة له .

التفسير

٨١ - (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ . .) الآية .

أى فرح المنافقون الذين حملهم الكسل والنفاق على الاعتذار الكاذب عن الخروج إلى غزوة تبوك ، فرح هؤلاء بقعودهم عن الغزو بعد خروجه صلى الله عليه وسلم وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله لا إيثارًا للراحة والسلامة فحسب ، بل استجابة أيضا لما استقر فى قلوبهم من النفاق الذى أورثهم بغض الجهاد الذى تتحقق به أشرف الغايات ، ولم يكتفوا بتخلفهم عن الجهاد وفرحهم بهذا القبح ، بل كانوا يثبطون غيرهم عن الخروج بقولهم لاتخرجوا فى الحر وتتركوا بيوتكم ، فإنكم لاتطيقون شدته ، فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد على جهلهم بقوله تعالى :

(قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا) : أى قل لهم أيها النبى : نار جهنم التى سيدخلونها بسبب نفاقهم وتخلفهم عن الجهاد هى أشد حرا من الصيف الذى تخافونه وتحذرون الناس منه .

(لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ) : أى لو كان هؤلاء المنافقون يدركون أن نار الآخرة أشد حرا ، لما فعلوا مايستوجب العقاب بها ، من تخلفهم عن الجهاد والاعتذار عنه بالأباطيل ، وحث غيرهم على عدم الجهاد فى الحر .

٨٢ - (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) : أى فليضحك هؤلاء المنافقون سرورا بقعودهم وتثبيطهم غيرهم وسخرية من المؤمنين فليضحكوا ضحكا قليلا مهما طال وكثر ، لقصر زمنه بفنائهم (وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا) : أى وليبك هؤلاء بعد انتهاء حياتهم بكاء كثيرًا فى الآخرة ، حينما ينزل بهم عذاب الله ويقاسون شدائده أبدًا .

(فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾)

المفـردات :

(رَجَعَكَ اللهُ) : ردك ، والمراد هنا الرجوع من تبوك إلى المدينة ، حيث بقيت فيها جماعة من المتخلفين .

(فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ) : طلبوا منك أن تأذن لهم فى الخروج إلى غزوة أخرى .

(فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ) : فاقعدوا مع المتخلفين ، لعدم لياقتهم للجهاد ، كالنساء والأطفال والعجزة .

التفسـير

٨٣ - (فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ...) الآية .

أى فإن ردك الله أيها النبى إلى المدينة ، حيث تقيم جماعة من هؤلاء المتخلفين المنافقين ، ثم أردت الخروج إلى غزوة أخرى ، فاستأذنك الذين أقعدهم النفاق عن غزوة تبوك ، لتسمح لهم بالخروج معك ، فقل لهم أيها الرسول : لن تنالوا شرف الخروج معى أبدا ، ولن تقاتلوا معى عدوا ، فلستم أهلاً لنيل هذا الشرف ، ولأنكم رضيتم بالقعود عن الغزو وفرحتم بذلك فى غزوة تبوك (فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ) : أى فاقعدوا عقوبة لكم مع الذين لايصلحون للقتال من الشيوخ العاجزين والنساء والأطفال .

(وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(أُولُو الطَّوْلِ) : أصحاب الغنى والسعة . (ذَرْنَا) . اتركنا .

(وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) : أى ختم عليها بطابع ، والمقصود أنها لما لم تقبل هدى الله .

التفسير

٨٤ - (وَلَاتُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَاتَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ...) الآية .

روى أنه لما مرض رأس المنافقين عبد الله بن أُبَىٍّ بن سلول ، أرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتيه ، فلما دخل عليه قال عليه الصلاة والسلام : « أهلكك حب يهود » فقال يارسول الله : أرسلت إليك لتستغفر لى لا لتُؤَنِّبَنِى ، وسأله أن يكفنه فى شعاره الذى يلى جسده ويصلى عليه ، فلما مات دعاه ابنه عبد الله - وكان مؤمنا صالحا - فأجابه عليه السلام تسلية له ، ومراعاة لجانبه ، وأرسل إليه قميصه فكفن فيه ، فلما هم بالصلاة عليه نزلت الآية .

والمعنى : ولاتصل أيها النبي أبدًا على من مات من المنافقين ولاتدع له فى أى وقت كان .

(وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) : أى ولاتقف عند قبره لدفنه ، ولاتذهب لزيارته والدعاء له ، لأنهم جحدوا وحدانية الله تعالى وكذبوا رسوله ، وأنكروا شريعته وانتهت حياتهم بالموت ، وهم خارجون عن الإيمان وطاعة الرحمن.

٨٥ – (وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ...) الآية .

أى لاتنل إعجابك وتقديرك أيها العاقل أموالُ المنافقين الكثيرة ، ولا أولادهم الذين يعتزون بهم ، ولا تحسبن ذلكِ إكراما لهم ، فقد جعله الله استدراجا لهم ووبالا عليهم .

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا) :أى إنما قدر تعذيبهم بهذه الأموال والأولاد فى الدنيا ، بسبب مايقاسونه فى جمعها وحفظها من المتاعب ، وفى رعاية الأولاد من المشاق والصعاب .

(وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) : أى وتخرج أرواحهم من أبدانهم عند انتهاء آجالهم بشدة وصعوبة ، والحال أنهم كارهون للموت ، لتعلقهم بالدنيا وزينتها ، والاشتغال بذلك عن الإيمان بالله والعمل للدار الآخرة ، فكان ذلك نقمة لانعمة .

وقدمت الأموال على الأولاد فى هذه الآية وفى آيات أخرى مع أن الأولاد أعزّ لحاجة كل فرد إلى المال فى كل وقت وزمان ، بخلاف الولد فلا يطلب إلا بعد بلوغ مبلغ الأبوّة .

٨٦ – (وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ . . .) الآية .

أى وإذا أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم سورة من القرآن ، يأمرهم فيها بالإيمان بالله والتصديق بوحدانيته ، ويدعوهم إلى الجهاد مع رسوله صلى الله عليه وسلم إعزازا لدين الله وإعلاء لكلمته .

(اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ القَاعِدِينَ) : أى طلب منك أيها النبي أصحاب الغنى والسعة والقدرة على الجهاد بأنفسهم وأموالهم ، – طلب منك هؤلاء – أن تأذن لهم فى التخلف عنه وقالوا اتركنا يامحمد نقعد مع الذين قعدوا فى المدينة ، لأعذار تخلفوا بسببها

ثم بين القرآن الكريم سوء صنيعهم وعدم امتثالهم لما أمروا به فى قوله تعالى :

٨٧ - (رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ . . .) الآية .

أى اختار هؤلاء المنافقون القادرون ، وقبلوا أن تنحط أقدارهم ، بقعودهم فى المدينة مع العجزة والضعفاء من الرجال والنساء والأطفال .

(وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ) : أى وختم الله على قلوبهم بخاتم أغلقها دون الخير لسوء اختيارهم ، فهم بسبب ذلك لا يدركون ما فى الإيمان بالله تعالى واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم من خير وسعادة ، وما فى الجهاد من رفعة وشرف ، وما فى التخلف عنه من هوان وهلاك .

(لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(لَهُمُ الْخَيْرَاتُ) : لهم أنواع خيرة من نعم الدنيا وثواب الآخرة . (الْمُفْلِحُونَ) : الفائزون .

التفسير

٨٨ - (لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ . . .) الآية .

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ارتباطا واضحا لا يحتاج إلى بيان

والمعنى : أن ذاك الذى تقدم حديث عن الذين انحطت أقدارهم ورضوا بالخسارة والدناءة ، لكن الرسول والذين آمنوا معه بالله وبما جاء به من شرائع وأحكام كان لهم شأن آخر يعلى أقدارهم ، ويعظم الخير لهم ، إذ جاهدوا ببذل أموالهم وأنفسهم رخيصة فى سبيل الله ، فنالوا الشرف والرفعة ، وأولئك الموصوفون بتلك الصفات العظيمة لهم الخيرات ، من النصر والغنيمة وغير

ذلك فى الدنيا ، والتمتع فى الآخرة بأنواع من النعيم لا تحصى ، وأولئك هم الفائزون حقا بما يقصده ويطلبه أصحاب الفطر السليمة ، دون من رضوا بمتاع الدنيا غرضا ومقصدا .

ويستفاد من الآية الكريمة أنه وإنْ تخلف هؤلاءِ المنافقون عن الجهاد ، فقد نهض به وأخلص فيه مَنْ هم خير منهم وأصدق نيَّة ، ومن كانوا فيه كأعظم مايكون المجاهدون ، حين بذلوا أموالهم وأنفسهم، ثم خصَّ القرآن الكريم فوزهم وفلاحهم فى الآخرة بالبيان فى قوله تعالى :

٨٩ـ (أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) : هؤُلاءِ المؤمنون مع مايفوزون به فى الدنيا من النصر والغنيمة ، هيأَ الله لهم فى الآخرة جنات من نعيمها أَن الأَنهار تجرى من تحت قصورها وأشجارها (خَالِدِينَ فِيهَا) : أى ماكثين فيها أبدا فلا ينقطع عنهم نعيمها بالموت أو الخروج منها (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) : أى ذلك الجزاءُ المذكور من إعزازهم فى الدنيا وإنعام الله عليهم فى الآخرة ، هو الفوز العظيم والذى أعلى الله به قدرهم ورفع ذكرهم .

(وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾)

المفـردات :

(الْمُعَذِّرُونَ) : المقصرون المعتذرون بالباطل . (الْأَعْرَابِ) : سكان البوادى .

التفسـير

بعد أن بين القرآن الكريم أحوال منافقى أهل المدينة ، جاء ببيان أحوال منافقى الأعراب فى قوله تعالى :

٩٠ـ (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِن الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ . . .) الآية .

جاء فيما روى أن أسدا وغطفان جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنون فى التخلف عن الخروج للجهاد معتذرين كذبا بالجهد وكثرة العيال ، فأذن لهم فنزلت الآية تكشف كذبهم .

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ) : أى وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المقصرون من سكان البادية ، الذين يظهرون أن لهم عذرا ولا عذر لهم ، جاءوا يطلبون منه صلى الله عليه وسلم ، أن يأذن لهم فى التخلف عن الجهاد ، ويعتذرون بكثرة عيالهم وبمابهم من جهد ومشقة (وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) : أى وقعد فريق آخر من منافقى الأعراب حيث كانوا فلم يجيئوا ليعتذروا ويطلبوا الإذن بالتخلف ، وقد ظهر بذلك أنهم كذبوا على الله ورسوله فى ادعاء الإيمان والطاعة .

ثم بين سبحانه عقاب من كفروا منهم بقلوبهم بقوله :

(سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) : أى سيقع على الذين كفروا بالله وكذبوا برسوله من هؤلاء الأعراب عذاب مؤلم شديد الإيلام ، فى الدنيا بالقتل والأسر والإذلال ، وفى الآخرة بعذاب السعير .

(لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾)

المفردات :

(حَرَجٌ) : المراد به الإثم والذنب ، ومعناه فى الأصل : الضيق ويطلق على الذنب لأنه

تضيق به صدور المؤمنين . (إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ) :أى إذا قاموا بما استطاعوا من قول وفعل يعود بصلاح الحال على الإسلام والمسلمين .

(مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ) : أى ما عليهم من طريق إلى عقابهم أو عتابهم (تَوَلَّوْا) : انصرفوا راجعين (وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) : أى تسيل عيونهم دمعا غزيرا فياضا .

التفسير

بعد أن بين القرآن الكريم أحوال الذين اعتذروا كذبا والذين لم يعتذروا من منافقى الأعراب جاءت هاتان الآيتان لبيان حال الذين أعفاهم الله من وجوب الجهاد لقيام أعذارهم فقال تعالى :

٩١ - (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ...) الآية .

أى : ليس على الضعفاء - كالشيوخ والنساء والصبيان - ولا على الذين طرأ عليهم المرض أوبهم مرض ملازم - كالعمى والعرج - ولا على الذين لا يجدون ما ينفقونه فى شراء أهبة السفر وعدة الجهاد ، ليس على هؤلاء جميعا إثم ولا عتاب فى التخلف .

(إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ) .

أى إذا أخلصوا النصح لله ورسوله ، بصدق الإيمان واتباع شريعة الإسلام ، وقاموا بما يستطيعون من قول وفعل يعود بصلاح الحال على المجاهدين ، وبهذا يكونون قد أحسنوا فى جميع أعمالهم وأقوالهم حسب طاقتهم ، فليس عليهم سبيل إلى عقاب أو عتاب ، لدخولهم فى عداد المحسنين .

(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

أى والله عظيم المغفرة واسع الرحمة يغفر للمسيء التائب وتسعه رحمته إن شاء فكيف بالمحسنين ؟

٩٢ - (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ...) الآية .

أى : وكذلك لاحرج ولا إثم فى التخلف عن الجهاد على المؤمنين الذين إذا ماجاءوك يطلبون منك أن تحملهم على ظهور الخيل والإبل والدواب ،أو تعينهم بمايمكنهم من الغزو معك وليس عندك ما يحقق رغبتهم ، فقلت لهم تطييبا لقلوبهم واعتذارا لهم :لا أجد من الدواب ما أحملكم عليه ، وعندما قلت ذلك انصرفوا وأعينهم تسيل دمعا غزيرا لحزنهم الشديد بسبب أنهم لايجدون من المال ما ينفقونه فى شراء سلاح الحرب وعدة القتال وأهبة الجهاد ومراكبه .

وهؤلاء الذين جاءوا النبى صلى الله عليه وسلم ليحملهم ، هم سبعة من الأنصار ، معقل بن يسار ، وصخر بن خنساء ، وعبد الله بن كعب ، وسالم بن عمير ، وثعلبة بن غنمة ، وعبد الله بن مغفل ، وعُلْبَةُ بن زيد ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا قد نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة تغز معك ، فقال عليه السلام : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وهم يبكون وكان يطلق عليهم (البكاءون) .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
محمد حمدى السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٩/١٦٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٢٥٠٠٠-١٩٧٩-٧٤٤١



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف
لجنة من العلماء
بإشراف
مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثاني

الحزب الحادي والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٩٨٠

(۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾)

المفـردات :

(السَّبِيلُ) : الطريق .

(الْخَوَالِفِ) : المتخلفين . ويطلق أيضا على النساء والصبيان . وهو جمع خالفة .

(وَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ) : ختم عليها حتى غفلوا عن وخامة العاقبة .

التفسـير

لما رفع الله تعالى الإثم والعقوبة فى الآيتين السابقتين ، عمن تخلفوا بأعذار ونصحوا لله ورسوله ، بين ـ سبحانه ـ من يستحق المؤاخذة بقوله :

٩٣ ـ (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِين يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ . . . .) الآية .

أى إنما سبيل المحاسبة والمؤاخذة على الذين يستأذنونك فى التخلف عن الجهاد وهم واجدون القدرة على الجهاد بأموالهم وأنفسهم ولا عذر لهم فى التخلف. ثم أنكر عليهم رضاهم بهذا التخلف بقوله :

(رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) : أى رضوا بالدناءة والضعة حين رضوا الانتظام فى جملة الخوالف من النساء والصبيان ومن لايقوى على الجهاد إيثاراً للسلامة والراحة والدعة.

(وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُون) : أى وأغلق الله قلوبهم عن الحق بسبب نفاقهم فهم لهذا لايعلمون ما فى الجهاد من منافع الدنيا والدين وما فى التخلف عنه من وخامة العاقبة وسوء الحساب .

وقد عرفنا من الآية الكريمة ، أن الأعمال تابعة لحالة القلوب ودرجات الإيمان ، فإن كان الإيمان واهنا ، والقلب مريضا ، كانت الأعمال منحرفة عن سواء السبيل ، وإن كان الإيمان والقلب فى عافية وسلامة ، كانت الأعمال فى طريق الاستقامة ، وكل إناء ينضح بما فيه .

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾)

التفسير

٩٤ ـ (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ...) الآية .

أى يعتذر إليكم هؤلاء المنافقون المتخلفون عن الجهاد . بالأعذار الباطلة إذا رجعتم إليهم من غزوة تبوك .

(قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ) :

قل لهم أيها الرسول : لا تعتذروا فليس لكم عذر صحيح حتى نستمع إليه ونتقبله منكم لن نصدّق معاذيركم الكاذبة ، لأن الله قد أعلمنا بالوحى بعض أخباركم المنافية للصدق مما باشرتموه من الشرّ والفساد ، وأضمرتموه فى أنفسكم من الأكاذيب ، فلن تخدع بعد ذلك بأعذاركم .

(وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ) :

هذه الجملة يحتمل أن تكون حثا لهم على التوبة ، والمعنى على هذا : وسيعلم الله ما سيقع منكم فى المستقبل من توبة أو إصرار ، ويسجله لكم عند وقوعه ويجزيكم عليه ، والمقصود أن حالهم سينكشف فى المستقبل ، وسيعاملون بمقتضاه : إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ .

ويحتمل أنهم وعدوا بـأن ينصروا المؤمنين فى المستقبل، وأن الله ينذرهم بالعقوبة إنْ هُمْ نكثوا وعدهم ، أى وسيعلم الله ما يحدث منكم من الوفاء أو الغدر ، ويجازيكم بمقتضاه .

(ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى ثم ترجعون إلى الله العالم بكل خفى وظاهر فيخبركم يوم القيامة بما كنتم تعملونه فى الدنيا ، ويجازيكم عليه .

(سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾)

المفـردات :

(انقَلَبْتُمْ) : رجعتم .

(لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ) : لتصفحوا عنهم .

(فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ) : فاتركوهم .

(رِجْسٌ) : أى نجس وقذر ، والرجس الخبيث من كل شىء .

(وَمَأْوَاهُمْ) : ومقرهم الذى يأوون إليه .

(الْفَاسِقِينَ) : الخارجين عن الطاعة .

التفسـير

٩٥ - (سَيَحْلِفُون بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ) :

أى أن هؤلاء المنافقين لا يكتفون بالاعتذار عن تخلفهم ، بل يؤكدونه بالقسم تمويهاً عليكم ، وتأكيدا لصدقهم المزعوم فى إعتذارهم .

والمعنى : سيحلفون بالله لكم أيها المؤمنون إذا رجعتم إليهم من الغزو بأنهم لم يتخلفوا عنكم إلا لعذر ، وغرضهم من ذلك أن تعرضوا عنهم وتصفحوا عن تخلفهم .

(فَأَعرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ....) الآية .

أى فاتركوهم أيها المؤمنون ، واجتنبوا مجالستهم والاطمئنان إليهم ، ودعوهم وما اختاروه لأنفسهم من النفاق وعدم الإخلاص فى الإيمان ، لأنهم نجس وقذر ، فبواطنهم خبيثة وأعمالهم قبيحة ، ومرجعهم ومقرهم جهنم جزاءً بما استمروا على اكتسابه من النفاق والعصيان .

٩٦ - (يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَايَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الفَاسِقِين) :

أفادت هذه الآية أنهم لايقصدون بحلفهم الإعراض عن لومهم والصفح عنهم فحسب بل يحلفون لكم لترضوا عنهم وتطمئنوا إليهم بعد الصفح عنهم . ولكن الله ينهاكم عن الرضا عنهم ، فإن ترضوا عنهم فقد خالفتم ربكم لأن الله تعالى لايرضى عن القوم الفاسقين فكيف ترضون عنهم .

(ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾)

المفردات :

(الْأَعْرَابُ) : سكان البادية . والعرب : أهل الحضر والبادية فهو أعم .

التفسير

٩٧ - (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا) :

لما تحدثت الآيات السابقة عن المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد ، عقبها الله سبحانه بهذه الآية وما تلاها ، لتضمنها الحديث عن نفاق الأعراب وكفرهم ، وزيادته عما عليه المنافقون بالمدينة .

والمعنى : أن أهل البادية من الأعراب ، أشد كفرًا ونفاقًا من كفار العرب ومنافقيهم المقيمين بالحواضر ، لجفائهم وقسوة قلوبهم ، وهذا هو الشأن الغالب فيهم ، إذ ليس كلهم بهذا الوصف ؛ كما يتبين ذلك مما يأتي :

(وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ) :

أى أن هؤلاء الأعراب هم أحق وأولى بأن يجهلوا حدود ما أنزله الله على رسوله من الفرائض والأحكام ، لجفاء طباعهم وقسوة قلوبهم ونفرتهم من كل ما يخالف ما ألفوه من عقائد وعادات .

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

والله تعالى عظيم العلم والحكمة ، فلا يخفى عليه منحرف عن طاعته ، ولا يفلت من عقابه من يستهين بشريعته ..

(وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾)

المفـردات :

(يَتَّخِذُ) : يعد ويعتبر .

(مَغْرَمًا) : غرما وخسارة .

(وَيَتَرَبَّصُ) : وينتظر .

(الدَّوَائِرَ) : جمع دائرة والمراد بها هنا تقلب الزمان من حسن إلى سيئ ومعناها فى الأصل ما يحيط بالشيء .

(السَّوْءِ) : ما يُسيءُ ويؤذى .

(قُرُباتٍ) : جمع قربة وهى ما يتقرب به العبد إلى ربه تعالى .

(صَلَوَاتِ الرَّسُولِ) : دعواته صلَّى اللهِ عليه وسلَّم .

التفسير

٩٨ - (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذ مَا يُنفِقُ مغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ) :

بعد أن بين الله سبحانه أن الأعراب فى جملتهم أشد كفرًا ونفاقًا ذكر فى هاتين الآيتين أنهما فريقان ، فريق يُضْمِرُ الشر للمسلمين ، وفريق آخر مخلص فى إيمانه .

والمعنى : وبعض الأعراب يعتقد أن المال الذى ينفقه فى سبيل الله غرم لا غنم ، ولهذا لا ينفقه إلا خوفًا من المسلمين أو مُرَاءاةً لهم ولم يرد به وجه الله تعالى ، وفاته أن الصدقات طهارة ونماءٌ للمال ، وكما يعتبر ماينفقه مغرمًا ينتظر بكم تقلب الزمان وتغيُّرَه ، فتتبدل حالكم من قوة إلى ضعف ومن نصر إلى هزيمة .

(عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) :

هذا وعيد من الله تعالى لهؤلاء الأعراب بأن تدور عليهم الدائرة وينزل بهم من البلاء ما تمنوه للرسول وأصحابه ، وأنهم لايرون فيهم إلا ما يسوءهم من نصر ورفعة شأن .

(وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

أى والله تعالى عظيم السمع واسع العلم فلا تخفى عليه خافية مما أضمروه من النفاق وإرادة السوء بالمؤمنين وهو محاسبهم ومجازيهم أشد الجزاء .

٩٩ - (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ) :

هذا هو الفريق الثانى وهو الذى يصدِّق بوجود الله تعالى وبصفاته وباليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب ، ويعتبر أن كل ما ينفقه فى سبيل الله هو وسيلة إلى رضا الله

والتقرب منه ، كما أنه سبب فى دعاء الرسول واستغفاره لهم حيث كان صلى الله عليه وسلم يدعو للمُصَّدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ، عند أخذه الزكاة الواجبة والصدقات المندوبة ليوزعها على مستحقيها ، ولذلك كان من السنة الدعاءُ للمتصدق بالخير والبركة ، لكن ليس له أن يدعو بلفظ الصلاة كما فعله عليه الصلاة والسلام مع بعض المتصدقين ، فقد ورد أنه قال : اللهم صلِّ على آل أبى أوفى فإن ذلك كان مختصًّا به ، يتفضل به على من يشاءُ ، ثم أخبر الله عن قبولها منهم بقوله :

(أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ) :

أى ألا إن إنفاقهم الصادر عن الإخلاص لله قربة عظيمة لهم عند الله تعالى .

وقد وعدهم الله عليها بإدخالهم الجنة فى قوله :

(سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ) :

أى يشملهم ويغمرهم برحمته وفضله جزاءَ إخلاصهم .

(إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

إنه تعالى عظيم المغفرة واسع الرحمة لايخلف وعده ، فيثيب هؤلاء على إخلاصهم فى عملهم لله تعالى .

(وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾)

التفسير

لما ذكر الله تعالى فضائل بعض الأعراب الذين يتخذون ما ينفقونه قربات عند الله وصلوات الرسول وما أعد لهم من الثواب ، أتبعه ذكر فضائل خيار المسلمين فقال تعالى :

١٠٠ ـ (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) :

فالسابقون الأولون من المهاجرين هم الذين بادروا بالإسلام فى فجر الدعوة ، ثم هاجروا فرارًا بدينهم ، أما السابقون الأولون من الأنصار فهم أهل بيعة العقبة الأولى والثانية والذين سارعوا إلى الإسلام عند قدوم مصعب بن عمير ، وكان الرسول قد أرسله بعد البيعة الثانية لينشر الدعوة الإسلامية بين أهل المدينة .وقيل السابقون من المهاجرين والأنصار هم الذين صلُّوا إلى القبلتين أو من حضر بيعة الرضوان .

(وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) :

أى والذين جاءوا بعدهم متصفين بالإخلاص وبكل خصلة حسنة . أو المراد والذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة من فريقى المهاجرين والأنصار وغيرهم إلى يوم القيامة .

وقرئَ الأنصار بالرفع فعلى هذا فالسابقون الأولون من المهاجرين فقط ، والتابعون عند علماء الحديث هم الذين جاءوا بعد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ثم أخبر الله عن الجميع بقوله :

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) : بقبول طاعتهم ، وارتضاء أعمالهم .

(وَرَضُوا عَنْهُ) : بما أنعم الله به عليهم من النصر والتمكين فى الأرض فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى الآخرة .

(وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) :

أى وهيأ لهم فى الآخرة جنات تجرى من تحت قصورها أو من تحت أشجارها الأنهار ، مع الإقامة الدائمة فيها ، كما قال تعالى : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » .

(ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

أى ذلك الجزاء الذى بلغ الغاية فى العظم هو الفوز الذى لا فوز يعدله أو يدانيه ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو سعيد الخدرى : « لاتسُبُّوا أصحابى فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكم أنفق مِثْلَ أُحُدٍ ذهَبًا مَا بَلغ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نصِيفَهُ » أخرجه الشيخان وغيرهما .

(وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾)

المفـردات :

(حَوْلَكُمْ) : أى حول المدينة بلدكم .

(مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ) : أى مرنوا عليه واعتادوه .

(لَا تَعْلَمُهُمْ) : لا تعرف حقيقة أمرهم لعراقتهم فى النفاق .

(سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ) : قبل الآخرة بالفضيحة وعذاب القبر .

(ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ) : ثم يردون فى الآخرة إلى عذاب بالنار عظيم .

التفسـير

١٠١ - (وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ) :

هذا شروع فى ذكر أحوال المنافقين النازلين حول المدينة والمقيمين بها .

والمعنى : ومن الأعراب النازلين حول المدينة أناس منافقون ومن أهل المدينة نفسها منافقون كذلك .

(مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ) :

أى مرن هؤلاء وأولئك على النفاق وبلغوا فيه مبلغًا جعلهم مَهَرَةً فيه ، حتى لان لهم أمره وسلس لهم قياده ولا تكاد تستعمل كلمة مَرَدوا إلا فى الشر .

(لَا تَعْلَمُهُمْ) :

أى لاتعرفهم أنت أيها الرسول بعنوان نفاقهم لأنهم بلغوا من المهارة فيه ، والبعد عن مواقع التهم مبلغا يُخفى حالتهم عنك ، مع كمال فطنتك وصدق فراستك .

(نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) :

أى أن الله تعالى هو الذى يعلم حالهم لأنه لايخفى عليه من سرائرهم شىء مهما بالغوا فى إخفاء أمرهم .

(سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ) :

هذا وعيد بأنه تعالى سيعذبهم مرتين قبل يوم القيامة ، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : « أن النبى صلى الله عليه وسلم قام خطيبًا يوم الجمعة فقال اخرج يا فلان فإنك منافق ، اخرج يافلان فإنك منافق فأخرج ناسًا وفضحهم » فهذا هو العذاب الأول ، والثانى إما القتل وإما عذاب القبر – وقيل غير ذلك .

(ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ) :

ثم يرجعون فى الآخرة إلى عذاب غليظ هو عذاب النار فى الآخرة ، وبهذا يعلم أنه تعالى يعذبهم ثلاث مرات مرتين قبل يوم القيامة كما تقدم ومرة يوم القيامة كما يفيده ختام الآية .

(وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾)

التفسير

١٠٢ – (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ) :

هذا بيان لحال طائفة أخرى من المسلمين ضعيفة الهمة فى أمور الدين .

والمعنى : ومن أهل المدينة قوم آخرون اعترفوا بتخلفهم عن الغزو إيثارًا للدعة مع إيمانهم وتصديقهم بما جاء به الرسول ، ولم يخفوا ما صدر منهم وندموا عليه ، ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة كغيرهم من المنافقين : وهم رهط من المتخلفين، منهم أبو لبابة وجماعة معه [١] أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد عندما بلغهم ما نزل في المتخلفين من القرآن فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين كعادته الكريمة ، ورآهم على تلك الحالة فسأل عن شأنهم فقيل له إنهم أقسموا ألا يحلوا أنفسهم حتى تحلهم أنت فلما أنزل الله هذه الآية أطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعفا عنهم .

(خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا) :

المراد بالعمل الصالح ماسبق أن عملوه من الطاعات ، ومنها خروجهم إلى المغازى السابقة وما لحق ذلك من الاعتراف بذنب التخلف وندمهم على ذلك ، والمراد بالعمل السيئ ما صدر منهم من المعاصى ، ومنها التخلف عن تبوك دون عذر .

(عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) :

أى يرجى أن يقبل الله توبتهم المفهومة من اعترافهم بذنوبهم ، وتقوية لهذا الرجاء قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى أنه تعالى واسع الغفران والرحمة ، فلهذا يرجى رجاء قويًا أن يتقبل بفضله توبتهم النابعة من إخلاصهم ، وصدق طويتهم .

---

(١) قال ابن عباس نزلت فى عشرة تخلفوا عن غزوة تبوك ، فأوثق سبعة منهم أنفسهم فى سوارى المسجد ، وقال بنحوه قتادة وقال : وفيهم نزل « خذ من أموالهم صدقة » ذكره المهدوى

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾)

التفسير

سبب النزول : أنه لما أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سراح المعتذرين قالوا يا رسول الله : هذه أموالنا التى خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا ، فقال ما أُمرت أن آخذ من أموالكم شيئًا ، فنزلت وأخذ منها الثلث وترك لهم الثلثين .

١٠٣ ــ (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً) :

هذه ليست الزكاة المفروضة وإنما هى كفارة لذنوبهم كما ينطق به قوله تعالى :

(تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا) : والمعنى أن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأْخذ هذا القدر ليكون تطهيرًا لهم مما لحق بهم من آثام التخلف ، وتزكية تنمى بها حسناتهم إلى مراتب المخلصين .

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ) :

المراد من الصلاة هنا الاستغفار لهم والدعاءِ بقبول توبتهم .

والمعنى : واستغفر لهم أيها الرسول ، واطلب الرحمة لهم فإن صلاتك ودعاءَك إقرار لنفوسهم المضطربة وطمأْنينة لقلوبهم الحائرة ، وإيذان بأَن الله سيقبل توبتهم .

(وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

أى والله تعالى عظيم السمع ، محيط العلم فسمع اعتراف هؤلاءِ بذنوبهم ، وعلم صدقهم فى توبتهم ، فتاب عليهم وعفا عنهم .

(أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾)

المفـردات :

(أَلَمْ يَعْلَمُوا) : استفهام يرادُ به التقرير أى قد علموا .

(يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) : يقبلها ويثيب عليها .

(وَسَتُرَدُّونَ) : وسترجعون .

(الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) : الخفى والظاهر .

التفسـير

١٠٤ ـ (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) :

أى ألم يعلم هؤلاء التائبون ، أن الله تعالى هو وحده الذى يقبل التوبة الصحيحة الخالصة من عباده المخلصين رحمة بهم ورأفة وكرمًا ، وأنه يقبل صدقاتهم التى يؤدونها ابتغاء مرضاته ، يطهرهم بها من آثامهم ، ويزيد من حسناتهم ، وأنه تعالى هو عظيم التوبة على عباده كثير الرحمة بهم ، فذلك شأنه الدائم وسنته المستمرة .

١٠٥ ـ (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُون وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

جاءت هذه الآية لزيادة ترغيبهم فى العمل الصالح ، وتخويفهم من اقتراف السيئات ، ومع هذا فهى عامة لجميع المكلفين ، فلا يختص حكمها بالمتخلفين عن تبوك .

والمعنى : وقل يا محمد تبليغًا لهؤلاء ولجميع المكلفين ، اعملوا وراقبوا الله تعالى فيما تعملون ، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون فى دنياكم ، مهما حاولتم إخفاءها فاجتهدوا فى أن تكون أعمالكم فى حدود البرّ والطاعة ، بعيدة عن الإثم والمعصية ، ليحمدها الله ورسوله والمؤمنون ، وستردون فى أخراكم إلى عالم كل غائب خفى ، وظاهر جلى ، فيخبركم بما كنتم تعملون فى دنياكم ، فيجزيكم عليه ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِى صَخْرَةٍ صَمَّاءَ ليْسَ لها بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ ، لخرَجَ عَمَلُه لِلنَّاسِ كائِنًا مَا كَانَ » أخرجه أحمد وأبو يعلى وغيرهما عن أبى سعيد .

(وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾)

التفسير

١٠٦ - (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ ...) الآية .

نزلت هذه الآية كما قال ابن عباس فى كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، فإنهم لم يسرعوا إلى التوبة والاعتذار عن تخلفهم فى غزوة تبوك ، كما اعتذر أبو لُبابة وأصحابه بعد أن ندموا على تخلفهم ، وحزنوا حزنًا شديدًا جعلهم يشدون أنفسهم على سوارى المسجد ، وقد وقف النبى صلى الله عليه وسلم هؤلاء الثلاثة ، ونهى الناس عن أن يسلموا عليهم ويكلموهم ، حتى يكون أمرهم عبرة لغيرهم فلا يحاول أحد أن يتخلف عن الجهاد وهو قادر عليه ، وكان هؤلاء الثلاثة من أصحاب بدر فهجرهم الناس وكانوا مختلفين فى شأنهم ، فمن قائل هلكوا ، ومن قائل عسى الله أن يغفر لهم ، فصاروا عندهم مرجئين لأمر الله تعالى ، وقد صح رأى هؤلاء فيهم ، وبه نزل القرآن الكريم .

والمعنى : ومن المتخلفين عن غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، قوم آخرون غير المعترفين المذكورين ، لم يحاولوا أن يختلقوا أعذارًا ، وأن يكذبوا بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فهؤلاء مرجئون ومؤخرون لأمر الله فى شأنهم ، إما أن يعذبهم لتخلفهم عن غزوة تبوك بدون عذر وقد دعوا إليها ، وكانت آخر مغازيه صلى الله عليه وسلم ، وإما أن يقبل توبتهم بعد أن تتمحص نفوسهم وتخلص قلوبهم من الإخلاد إلى الدعة ، وإيثار ذلك على الجهاد ، والله واسع العلم ، فيعلم أحوالهم ويعاملهم بمقتضاها ، حكيم فيما فعل بهم من الإرجاء وما بعده ، حتى يعودوا إلى مثل ذلك ، وليكون أمرهم عبرة لغيرهم .

(وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾)

المفـردات :

(ضِرَارًا) : مضارة للإسلام وأهله .

(وَتفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ) : أى فَصْلاً بينهم ، بصرف بعضهم عن مسجد قباء الذى يجمعهم ويوحد كلمتهم .

(وإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ) : وانتظارًا للراهب الفاسق الذى حارب الله ورسوله ليصلى فيه .

(الْحُسْنَى) : أى الخصلة الحسناء .

التفسـير

١٠٧ - (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ) الآية .

نزلت هذه الآية فى جماعة من المتخلفين عن تبوك ، بنوا مسجدًا غير مسجد قباء ، بقصد المضارة وتفريق المؤمنين .

وتفصيل ذلك أن بنى عمرو بن عوف ، لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فيصلى بهم فى مسجدهم فلما فعل النبى صلى الله عليه وسلم ماطلبوه منه ، حسدهم إخوتهم بنو غنم بن عوف . وقالوا نبنى مسجداً ونرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فيه . ويصلى فيه أبو عامر الراهب أيضًا إذا قدم من الشام ، وهو الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق . وكان قد قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : لا أجد قومًا يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فلم يزل يفعل ذلك إلى يوم حنين ، فلما انهزمت هوازن يومئذ ولى هاربًا إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح . فإنى ذاهب إلى قيصر وآت بجنود ، ومُخْرِجٌ محمداً وأصحابه من المدينة ، فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء ، وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية ، ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنى على جناح سفر وحال شغل ، وإذا قدمنا إن شاء الله تعالى صلينا فيه فلما قَفَل صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك ، سألوه إتيان المسجد فنزلت هذه الآية عليه ، فدعا بمالك بن الخشم ومَعْن بن عدى وعامر بن السكن ووحشيا قاتل حمزة وقال لهم : « انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا المسجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ فَاهْدِمُوهُ واحْرِقُوهُ ، ففعلوا » :

وأمر أن يتخذ مكانه موضعًا لإلقاء القمامة ، حتى لا تقوم له قائمة ، وهلك أبو عامر الفاسق بقِنَّسْرين .

والمعنى : ومن المتخلفين عن غزوة تبوك ، المنافقون الذين بنوا بجوار مسجد قباء ، مسجداً لمضارة الإسلام والمسلمين ، وللتفريق بين المؤمنين الذين كانوا يصلون فى مسجد قباء متجمعين تلبية لنداء ربهم ، يريدون ببنائه أن يجتذبوا بعضهم إلى مسجدهم ، وإلى صفوف نفاقهم ، كما بنوه أيضًا لغرض خفى خطير ، وهو انتظار وترقب الراهب الفاسق الذى حارب الله ورسوله من قبل ، لكى يصلى فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

وليحلفن بنو غنم الذين بنوا مسجد الضرار ، ما أردنا ببنائه إلا الخصلة الحسنى وهى الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين ، والله يشهد إنهم لكاذبون فى يمينهم ، فقد بنوه للمضارة وغيرها من الأغراض الفاسدة التى بينتها الآية الكريمة .

(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾)

المفـردات :

(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا) : لا تؤد فيه الصلاة وغيرها من الطاعات فى أى وقت دائمًا .

(لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ) : يعنى مسجد قباء .

(يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا) : أى يرغبون فى التطهر الحسى والمعنوى .

التفسـير

١٠٨ ـ (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ) :

لا تقم أيها الرسول للصلاة وغيرها من الطاعات فى مسجد الضرار فى أى وقت من الأوقات فقد بنى للإضرار بالإسلام وأهله ، والله لمسجد قباء الذى أسَّسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقامه على تقوى الله ورضوانه من أول أيام تأسيسه أحق وأولى أن تقوم فيه للصلاة و أداء الطاعات أنت وسائر المؤمنين .

وقيل المراد بالمسجد الذى أُسس على التقوى هو المسجد النبوى بالمدينة فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عن المَسْجِدِ الَّذِى أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ، فأَخَذَ حَصْباءَ ، فضرَبَ بِها الأَرْض وَقالَ : مَسْجِدُكُمْ هَذا مَسْجِدُ الْمَدِينَةِ » .

(فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّون أَن يتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ) :

أى فى هذا المسجد الذى بنى على تقوى الله رجال صادقون فى إيمانهم وتقواهم ، يحبون أن تتطهر نفوسهم وأبدانهم من الذنوب والأوزار طلبا لمرضاة الله ، والله يحب الحريصين على الطهارة ويرضى عنهم ويحسن ثوابهم .

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾)

المفردات :

(شَفَا جُرُفٍ) : الشفا : الحرف والحافة والطرف - (والجُرُف) بضمتين ما جرفه السيل أي استأصله وحفر ما تحته ، فبقى واهيًا .

(هَارٍ) : مشرف على السقوط وأصله (هائر) [١]

(فَانْهَارَ بِهِ) : فسقط به .

التفسير

١٠٩ - (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ...) الآية .

ضرب الله فى الآية مثلا للذين بنوا مسجدهم على تقوى الله ورضوانه ، بمن بنى بنيانه على أساس ثابت متين ، وضرب مثلا آخر للذين بنوا مسجدهم للإضرار بالإسلام ، بمن أقام بنيانه على أساس واه مهلك بين والغرض من المثلين أنهما لا يستويان فالأول معمر والثانى مدمر .

والمعنى : أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة ، وهى تقوى الله تعالى ، وطلب رضوانه خير عند الله تعالى ، أم من أسس بنيانه على قاعدة منهارة ، وهى الباطل والنفاق ، فكان ذلك سببا فى سقوطه فى النار : وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : «صَيَّرَهُمْ نِفَاقُهمْ إِلَى النَّارِ لِأَنَّهُمْ بَنَوا المَسْجِدَ ، قَاصِدِينَ بِهِ الكُفْرَ وَالنِّفَاقَ وإِضْرَارَ المُؤْمنينَ » لهذا كان أَرْدأ البناء وأحقره ، وأَمَّا الأَوَّلُونَ فَكَانَ بِنَاؤُهُمْ أَشْرف البنَاء وأَرضى لِلهِ تَعَالَى .

(١) اسم فاعل من هار يهور إذا أشرف على السقوط ، فقدمت لامه على عينه ، وأجرى فى الإعراب مجرى غاز ورام

(وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

أى لا يوفقهم لفعل الخير والطاعة ، لأنهم لا يريدون ولا يميلون إليه ، فالتوفيق للإيمان لا يكون إلا لمن علم الله فيهم إقبالا وإصرارا على السير فى طريقه والتزامه « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » .

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾)

المفـردات :

(رِيبَةً) : شكا ونفاقا . (إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ) : أى لا يزال المسجد الذى بنوه شاهدا على تمكن الريبة فى قلوبهم من جهة الإسلام ، حتى كأنَّهُ نفس الريبة والشك .

التفسـير

١١٠ - (لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ) :

أى لا يزال المسجد الذى بنوه شاهدا على تمكن الريبة فى قلوبهم من جهة الإسلام حتى كأنه نفس الريبة والشك .

أما أنه ريبة حال بنائه : فلكونه بنى لتفريق كلمة المؤمنين وتشتيت وحدتهم وَلِيُثَبِّتُوا ما فى قلوبهم من كفر وضلال ، وليدبروا فيه المكائد للمسلمين ، وأما أنه ريبة حال هدمه ، فلأنه ثَبَّتَ ما كان فى قلوبهم من الشر فتضاعفت آثاره ، وظهرت مفاسده غيظا وحنقا على المسلمين .

(إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ) :

أى إلا أن تتمزق قلوبهم قطعا وأجزاءً فحينئذ يذهب الشك والريبة ، والمراد أنهم لا يزالون كذلك ما داموا أحياء ، فإذا ماتوا انتهت تلك الريبة .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أى والله تعالى شامل العلم بجميع أحوال العباد، عظيم الحكمة، يضع الأشياء فى مواضعها فى كل ما حكم به ودبر، ومن جملتها أمره تعالى الوارد فى حقهم .

وفى الآية تحذير للمسلمين من خداع المنافقين، وتنبيه على اليقظة من الوقوع فى حبائلهم .

(* إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾)

المفردات :

(اشْتَرَى): استبدل . (وَمَنْ أَوْفَى) : لا أحد أعظم وفاء .

(فَاسْتَبْشِرُوا) : أى فافرحوا غاية الفرح .

١١١ - (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) :

هذا ترغيب من الله للمؤمنين فى الجهاد ببيان فضيلته وثوابه بعد بيان حال المتخلفين عنه .

وسبب النزول كما قال محمد بن كعب القرظى : « أنه لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة، قال عبد الله بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ... ؟ قال النبى صَلى الله عَليه وَسَلم : الجنة . قالوا ربح البيع لا نُقيل ولا نَسْتَقيل » فنزلت .

قال أهل المعانى :ـ لا يجوز أن يشترى الله شيئا هو له فى الحقيقة ، لأن المشترى إنما يشترى ما لا يملك ، والأشياء كلها ملك لله تعالى . ولهذا قال الحسن : أنفسنا هو خلقها وأموالنا هو رزقنا إياها ، لكن جرى ذلك مجرى التلطف فى الدعوة إلى الطاعة ، والجهاد وذلك لأن المؤمن إذا قاتل فى سبيل الله حتى يقتل ، أو أنفق ماله فى سبيل الله عوضه الجنة فى الآخرة جزاءً لما فعل فى الدنيا ، فجعل ذلك استبدالا واشتراءً ـ فهذا معنى أنه تعالى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ... الخ .

(يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ) :

أى يقاتلون أعداء الإسلام ، فى سبيل دين الله ورفع كلمته ، فيقتلون بعضهم تارة ، ويكفون أذاهم عن المسلمين وَيُقتَلُون منهم تارة أُخرى ، راضين ببذل النفس فى سبيل الله ربهم .

(وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ) :

يعنى أن وعد الله للمجاهدين بأن لهم الجنَّةَ ؛ هو وعد حق ثابت فى التوراة والإنجيل وفيه دليل على أن الجهاد موجود فى جميع الشرائع ؛ ومكتوب على جميع الملل السماوية

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ) :

أى لا أحد أعظم وفاءً بالعهد من الله تعالى ، لأن خلف الوعد لا يقدم عليه الكرام من الناس ، فكيف بالله الغنى الذى لا تفنى خزائنه ، وهو أكرم من كل كريم . وهو المتصف بالكمال المطلق ، « وَمن أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا » والمتأمل لا يرى توغيبا فى الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية الكريمة .

(فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

أى فليفرح غاية الفرح ، من قام بمقتضى هذا العقد ، ووفى بهذا العهد ـ فليفرح بالفوز العظيم والنعيم المقيم .

(ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾)

التفسير

١١٢ - (التَّائِبُونَ) : إلى آخر الأوصاف الآتية ، مدح للمؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة :

والمراد من توبتهم تركهم للشرك ، وبعدهم عن النفاق والمعاصى ، ويجوز أن يراد بالآية ، كل من تاب ، فيكون المعنى على هذا كل من تاب واتصف بهذه الصفات يكون من أهل الجنة أيضا : واعلم أنَّ التوبة المقبولة إنما تحصل بأمور أربعة :

أولها : الإقلاع عن الذنب .

ثانيها : الندم على فعل المعاصى فيما مضى .

ثالثها : العزم على تركها فى المستقبل .

رابعها : أن يكون الحامل عليها رضا الله تعالى .

فإن كانت من ذنب يتعلق بحقوق الآدميين ، زيد عليها شرط خامس ، وهو ردّ الحقوق إلى ذويها أو استعفاؤهم ، فإن كان الغرض منها تحصيل مدح الناس ودفع مذمتهم ، أو تحصيل أى غرض دنيوى ، فلا تكون توبة مقبولة .

(الْعَابِدُونَ) : أى الذين يأتون بالعبادة على وجهها الصحيح مخلصين لله تعالى مواظبين على أدائها فى أوقاتها .

(الْحَامِدُونَ) :أى الذين يحمدون الله تعالى فى السراء والضراء وفى كل حال .

(السَّائِحُونَ) : قال ابن مسعود هم الصائمون ، لأن الصائم مستمر فى طاعة الله والسائح مستمر فى سياحته قال النبى صلى الله عليه وسلم : « السائحون هم الصائمون »[(١)] .

وقيل : هم المهاجرون ، وقيل : هم طلبة العلم ، وقيل : هم السائحون فى الأرض المتنقلون فيها فإن للسياحة أثرا عظيما فى تهذيب النفوس ، لأنه قد يتعرض السائح للبؤس وللضراء ، فلابد له من الصبر ، وقد يلقى فى سياحته العلماء والصالحين فيستفيد علما وحسن سلوك ، ويرى عجائب وآثار قدرة الله تعالى ، فيصل من طريق ذلك إلى بذل الجهد فى طاعة الله تعالى ،

(الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ) : يعنى المصلين ، وعبر بالركوع والسجود عن الصلاة لأن بهما تتميز الصلاة عن غيرها ، ولأنهما من أهم أركانها .

(الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ) :

أى الذين يأمرون الناس بكل خير من إيمان وطاعة ينهون الناس عن الشرك والمعاصى .

والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، بهما صلاح الأمة واستقامتها ، فإن ضاعا التبس الحلو بالمر ، وضاعت أخلاق الأمة ، وفسدت معايير الاستقامة فيها .

(وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ) :

بالعمل بأحكام الشَّريعة والوقوف عند أوامر الله ، والبعد عن نواهيه ويَحْمِلُ الناس على طاعة الله تعالى وأدائها على الوجه الأكمل .

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) :

أى وأخبرهم يا محمد بما يسرهم مما وعد الله به من دخول الجنة فإنه تعالى واف لهم بما وعد . « وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ » .

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة ورمز له بالصحة

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ
كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾
وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾
وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾)

المفـردات :

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا) : أى ما صح وما استقام للنبى صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين .

(أَن يَسْتَغْفِرُوا) : أن يطلبوا الغفران .

(أُولِي قُرْبَىٰ) : أصحاب قرابة .

(مَوْعِدَة) : وَعْد .

(تَبَرَّأَ مِنْهُ) : بَعُد عنهُ وتنزه عن مصاحبته .

(أَوَّاهٌ) : أصل التأوه قول الرجل آه ، أى أتوجع وأواه للمبالغة والمراد : كثير التأوه من خوف الله .

(حَلِيمٌ) : صبور على الأذى ، صفوح عن الجناية ، يقابلها بالإحسان والعطف .

(مَا يَتَّقُونَ) : ما يجب اتقاؤه والبعد عنه .(وَلِيٌّ) : والٍ يلى أموركم ويدبر شئونكم .

(وَلَا نَصِيرٍ) : ينصركم على أعدائكم ويمنعكم من أذاهم .

التفسير

١١٣ - (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) :

هذه الآية نزلت فى شأن أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يستغفر له ، فنهاه الله عن ذلك ، فقد روى الزهرى قال حدثنى سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت الوفاة أبا طالب جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فقال :أى عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عندالله ،فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة :أترغب عن ملة عبد المطلب ... فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان لتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ماكلّمهم : أنا على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك ، فأنزل الله تعالى :

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى) :

وأنزل الله فى أبى طالب : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ »

هذا لفظ البخارى فى تفسير الآية .

والمعنى :

ما صح وما استقام فى حكم الله تعالى للنبى والذين آمنوا أن يطلبوا للمشركين المغفرة ، ولو كانوا أصحاب قرابة بعد ما ظهر لهم أنهم أصحاب النار ، بإصرارهم على الكفر وموتهم عليه ، أو بعلم الرسول بالوحى أنهم سيموتون على الكفر .

١١٤ - (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ) :

جاءت هذه الآية لدفع ما يتوهم من التعارض بين الآية السابقة عليها وبين ما جاء في سورة الشعراء من استغفار إبراهيم لأبيه حيث قال : « وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ».

والموعدة التي جاءت في الآية ، صدرت من آزر لإبراهيم عليه السلام ، قال ابن عباس : كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل ، أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد فلما مات علم أنه عدو الله ، فترك الدعاء له .

والمعنى : لا حجة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم لأبيه ، فإن ذلك كان عن موعدة من آزر لابنه إبراهيم بالإيمان ، فلما تبين له أنه مستمر على كفره ترك الدعاء له ، فلهذا يجب عليكم أن تعملوا بما صدر لكم من النهي عن الاستغفار للمصرين على الشرك ولو كانوا أولى قربى .

وقيل الواعد إبراهيم عليه السلام ، فقد وعد أباه أن يستغفر له ، فلما مات مشركا تبرأ منه ، ودل على هذا قوله : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي » قال القاضي أبو بكر بن العربي : تعلق النبي صلى الله عليه وسلم في الاستغفار لأبي طالب بقوله تعالى : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي » فأخبره الله تعالى أن استغفار إبراهيم كان وعدا قبل أن يتبين الكفر منه ، فلما تبين له الكفر منه تبرأ منه ، فكيف تستغفر أنت لعمك وقد شاهدت موته على الكفر .

والمراد : باستغفاره له طلبه من الله أن يوفقه للإيمان ويهديه إليه .

(فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ) :

أي فلما ظهر لإبراهيم بالوحي أن أباه مصر على الكفر غير مؤمن أبداً ، بَعُدَ عنه وتجنبه ونزه نفسه عن مصاحبته ، وترك الاستغفار له .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) :

أي إن إبراهيم عليه السلام كثير التأوه من خوف الله تعالى متضرع إليه ، كثير الدعاء والتوبة ، رحيم بعباد الله ، عظيم الحلم ، كثير الصفح ، والمراد وصفه برقة القلب ، وسعة الصدر وعظيم الرأفة والرحمة ، وأنه يقابل الإساءة بالإحسان واللطف .

---

(١) الآية (٨٦) من الشعراء .

١١٥ - (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ) :

والمعنى : ما صح وما استقام فى حكم الله تعالى وحكمته أن يقضى ويحكم على قوم بالضلال بعد أن هداهم للإسلام ، ووفقهم للإيمان به وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى يبين لهم ما يجب اتقاؤه والبعد عنه من محظورات الدين ، فلا ينزجروا عما نهوا عنه ، وأما قبل ذلك فلا يحكم عليهم بالضلال ولا يؤاخذون بفعله - وكأن هذه الآية تسلية للذين استغفروا للمشركين قبل ذلك ، وفيه دليل على أن الغافل الذى لم يبلغه الدليلُ السَّمْعِىُّ غير مكلف بما لا يستقل به العقل[1] .

١١٦ - (إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ) :

المعنى : أنه تعالى وحده هو مالك السموات والأرض وما فيهما ، خلقا وتدبيرا يحكم فيهما بما يشاء ، يحيى من يشاء على الإيمان ويميته عليه ، ويحيى من يشاء على الكفر ويميته عليه ، تبعا لحكمته وتطبيقا لسنته تعالى فى الهداية والضلال والإضلال .

(وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) :

والمعنى : وليس لكم أيها المكلفون من غير الله وال يلى أموركم ويدبر شئونكم ، ولانصير ينصركم على عدوكم ويعينكم عليه ، فهو وحده نعم المولى ونعم النصير .

(١) انظر الآلوسى فى تفسير هذه الآية .

(لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾)

التفسير

١١٧ - (لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) :

معنى توبته تعالى على النبى صلى الله عليه وسلم عدم مؤاخذته بإذنه للمنافقين بالتخلف فى غزرة تبوك وهى كقوله تعالى : « عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ »[١]. فإذنه لهم من باب ترك الأولى لا من باب فعل الذنب . لأنه لم يكن هناك أَمْرٌ خَالَفَهُ صلى الله عليه وسلم ؛ وأما معنى توبته على المهاجرين والأنصار فلأجل ماوقع فى قلوبهم من الميل إلى القعود عن غزوة تبوك ، لأنها كانت فى وقت شديد ، ثم أعانهم الله على التغلب على ما حدثتهم به نفوسهم من القعود ؛ فسافروا مع الرسول صلى الله عليه وسلم واتبعوه فى ساعة العسرة كما قال تعالى :

(الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ) :

أى الذين خرجوا معه لقتال الأعداء فى غزوة تبوك ، وكانت فى وقت شديد الحرارة وضيق فى الرواحل ، وبعد فى المسافة مع كثرة العدو ؛ ممايدعو إلى إيثار التخلف فاستعانوا بالله واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) راجع تفسير الآية (٤٣) من سورة التوبة .

(مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ) :

أى من بعد ما قرب أن تميل قلوب بعضهم من أجل الشدة والمشقة إلى التخلف والدعة والراحة ، ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقواهم .

وزيغُ القلب وانحرافُه إن كان فى أصل الدين كان كفرا ، وإن كان فى شريعته كان بحسب الحكم الذى مال عنه ، فإن زاغ عن مجمع عليه كفر ، وإن زاغ عن راجح عصى .

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ) : أى أنه تعالى علم إخلاص نيتهم ، وصدق توبتهم فتقبلها منهم .

(إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) :فلهذا منَّ عليهم بالتوبة وقبلها منهم وثبتهم عليها .

(وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾)

المفـردات :

(خُلِّفُوا) : أُخِّرَ أمرُ قبولِ توبتهم .

(بِمَا رَحُبَتْ) : أى مع رحابتها وسعتها ، والرحب سعة المكان .

(لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ) : لا مفر ولا منجى من سخطه وعقابه .

التفسـير

١١٨ ـ(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)الآية .

قصة هؤلاء الثلاثة يرويها ابن هشام فيقول : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة عائدا من تبوك ، وكان قد تخلف عنه رهط من المنافقين ، وتخلف أولئك الثلاثة

من المسلمين المخلصين من غير شك ولا نفاق ، وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، لا تكلمن أحدا من هؤلاء الثلاثة – لأنهم لم يقدموا عذرا عن تخلفهم – وأتاه من تخلف من المنافقين ، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، فصفح عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم معاملة لهم بظاهرهم ، واعتزل المسلمون أولئك النفر الثلاثة ، ثم نزلت هذه الآية معلنة قبول توبتهم وعفو الله عنهم .

والمعنى : وتاب الله أيضا على هؤلاء الثلاثة الذين أخر قبول توبتهم ، إلى أن ضاقت عليهم الأرض مع سعتها ورحابتها ، من شدة الأمر عليهم ، والحيرة التى حلت بهم ، كأنهم لا يجدون فى الأرض مكانا يستقرون فيه ويطمئنون إليه ، لشدة حزنهم وقلقهم ، وكذلك ضاقت عليهم أنفسهم ، بسبب إعراض الناس عنهم ، وتأخر قبول توبتهم ، واعتقدوا أن لاعاصم ولا منجى من سخط الله وعقابه ، إلا الرجوع إليه ، وطلب الغفران منه .

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) :

أى ثم أنزل الله قبول التوبة منهم . ليصيروا فى جملة التوابين ، وليستمروا ويثبتوا على توبتهم ، إن الله تعالى كثير التوبة والعفو عن عباده إن تابوا ولم يصروا على ما فعلوا ، عظيم الرحمة بقبول توبتهم وإن كثرت ذنوبهم مع استحقاقهم لأنواع العقوبات .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾)

التفسير

لما تاب الله على هؤلاء الثلاثة ، لصدقهم فى القول وإخلاصهم فى التوبة ، وبعدهم عن النفاق ، أمر الله المؤمنين أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين ، ويبتعدوا عن النفاق والمنافقين وفى جملة من أمروا هؤلاء الثلاثة .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله ، اتقوا الله بامتثال ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، ولا تتخلفوا عن رسول الله إذا دعاكم لما يحييكم من الجهاد والبذل فى سبيل الله ، وكونوا مع جماعة الصادقين المخلصين فى جهادهم إذا جاهدوا ، وفى عهودهم إذا عاهدوا ، وفى أقوالهم ووعودهم إذا حدَّثوا ووعدوا ، وفى توبتهم إذا أذنبوا أو قصَّروا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالصِّدق فإن الصدقَ يهدى إلى البرِّ وإن البرَّ يهدى إلَى الجَنةِ ، وما يزالُ الرجل يَصدُق ويتحرَّى الصِّدق حتى يكتبَ عِند الله صِدِّيقًا ، وإيَّاكم والكذب فإنَّ الكذب يهدى إلى الفجور ، وإنَّ الفُجورَ يهدى إلى النَّار ، وما يَزالُ الرَّجل يكْذبُ ويتحرَّى الكَذِب ، حتى يُكتَب عند الله كذَّابًا » أخرجه مسلم .

والحكم المأخوذ من الآية الكريمة يتناول المؤمنين فى جميع الأجيال .

(مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾)

المفـردات :

(وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ) : أى لا يؤثروا أنفسهم على نفسه .

(وَلَا نَصَبٌ) : ولا تعب .

(وَلَا مَخْمَصَةٌ) : ولا مجاعة .

(وَادِيًا) : الوادى هو الأرض التى تكون بين جبلين .

التفسير

١٢٠ - (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللهِ . . .) الآية .

أى ما صح وما استقام لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب المؤمنين أن يتأخروا عن تلبية دعوة رسول الله إذا دعاهم إلى الجهاد فى سبيل الله ولا أن يؤثروا أنفسهم على نفسه ، بأن يطلبوا السلامة بالتخلف عن الجهاد معه فعليهم أن يصحبوه على البأساء ، والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط ، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه الشريفة ، مع العلم بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه ، وذلك يقتضيهم أن يبذلوا أنفسهم دون نفسه ، وأن يدافعوا عنه بأنفة وحمية ، لا أن يتخلفوا عنه بغير عذر كما فعل بعضهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِن وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين »(١) .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللهِ ...) الآية .

ذلك الذى تقدم من وجوب مصاحبة الرسول فى الجهاد وإيثاره على أنفسهم بسبب أنهم لا يصيبهم شىء من العطش والتعب والمجاعة فى طريق الجهاد من أجل دين الله ، ولا يمشون فى مكان يغيظون فيه الكفار ، بأن يحلوا فى أرضهم ، ويتصرفوا فيها تصرفا يضيق صدورهم ، ولا يصيبوا من عدو إصابة بقتله أو أسره أو هزيمته أو الغنيمة منه ، إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح يستحقون به أكرم الثواب

(إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) :

أى أنه تعالى يجزل ثواب المحسنين الذين يمتثلون أمر الله ورسوله ولا يضيع لهم أجرا.

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان – باب حب رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو متفق عليه .

واعلم أن خروج المؤمنين للجهاد إذا دعاهم الإمام فرض كفاية ، مالم يتعين لأسباب تقتضى ذلك ، أما خروجهم إليه إذا دعاهم الرسول فهو فرض عين[1] .

والذين تخلفوا فى بدر لم يدر بخلدهم أنهم سيقاتلون جيشًا قدم لإنقاذ العير ، ولذلك تخلفوا مترخصين بأنهم لم يدعوا للجهاد فى سبيل الله ، وبالجملة فإن التخلف عن دعوة الرسول للجهاد كالنكث للبيعة فلذلك اشتد الرسول مع هؤلاء الثلاثة ، حتى لاتتكرر من المؤمنين .

١٢١ - (وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى ولا ينفقون فى سبيل الله نفقة قليلة أو كثيرة من مال أو زاد أو غير ذلك ، ولايجتازون واديًا إلى عدوهم إلا كتب الله لهم ذلك ، وجعل فى حسناتهم ، ليجزيهم الله على كل عمل كسبوه وإن قل جزاء أفضل عمل عملوه ، فيعطى على القليل جزاء الكثير ، كرمًا منه وفضلا .

(۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾) .

(١) ويرى ابن زيد أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : (و ماكان المؤمنون لينفروا كافة) . وأن حكم وجوب الخروج للجهاد بدعوة الإمام المفهوم من قوله تعالى : (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) الآية - إنما كان وقت قلة المسلمين ، فلما كثروا نسخت وأباح الله التخلف لمن شاء ويرى فريق آخر أنها محكمة ، وأنها لأول هذه الأمة وآخرها ، ولكن التفصيل الذى ذكرناه أرجح والله تعالى أعلم .

المفردات :

(لِيَنفِرُوا كَافَّةً) : ليخرجوا للجهاد ونحوه جميعًا .

(فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ) : فهلا خرج من كل جماعة كثيرة منهم ، جماعة قليلة .

(وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ) : وليحذروهم من المخاوف والعواقب السيئة لعصيان الله وعدم التَّدبُّر فى الأُمور .

التفسير

١٢٢ - (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً . . .) الآية .

كما أَوجب الله الخروج للجهاد ووعد بالثواب الجزيل عليه فى الآيات السابقة عقبها بهذه الآية ليحض المؤمنين فيها على التفقه فى الدين فإنه أَساس الجهاد، لأَن به الدفاع عن الدين بالحجة وهو الأَساس الأَول للبعثة المحمدية ، وباجتماع شعبتى الجهاد للمؤمنين جهاد السيف وجهاد العلم ، يتم لهم النصر والعزة بين العالمين .

والمعنى : وما صح ولا استقام أَن يخرج المؤمنون جميعًا للجهاد ونحوه من المقاصد الشريفة كطلب العلم ، ويتركوا عيالهم دون عائل أَو راع ، فإن ذلك مضيعة لأُسرهم ، فَهَلاَّ خرج من كل بلد أَو قبيلة أَو جماعة كثيرة ، طائفة قليلة ليتعلموا الدين ويتفهموه ويعرفوا براهين عقائده ، وأُصول أَحكامه وفروعها ، وليخوفوا قومهم من عصيان الله عند رجوعهم إليهم ، ويرشدوهم إلى مناهج الهدى ومسالك العزة لكى يحذروا ما يضرهم فى دنياهم وأخراهم ويقبلوا على ما ينفعهم ويعلى قدرهم ، ويستتبع العزة والكرامة لهم .

وبعض المفسرين اتجه بمعنى الآية وجهة أُخرى حيث جعل حكمها فيما إذا لم يخرج النبى صلى الله عليه وسلم للجهاد وبعث بالمجاهدين فى بعض المغازى والمعنى على هذا وما كان المؤمنون ليخرجوا جميعًا للقتال ، والنبى صلى الله عليه وسلم مقيم لم يخرج فيتركوه وحده ، فلولا خرج من كل فرقة منهم طائفة فى السرية التى لاتحتاج إليهم جميعًا ، ليتفقه الباقون منهم مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الدين حتى إذا عاد

الذين خرجوا فى السرية ، أعلمهم المقيمون ما تعلموا من أحكام الشرع ، وما تجدد نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم من آيات القرآن وعلى أى وجه فقد أفادت الآية إيجاب التفقه فى الكتاب والسنة على سبيل الكفاية ، وقد جاء فى إيجابه عن أنس بن مالك أنه قال :

« سَمعت رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسَلم يقول : طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » .

وحكم المسلمة حكم المسلم وجاء فى فضله من حديث أبى الدرداء قال : « سَمعتُ رسول الله صَلى الله عَليه وسَلم يقول : مَن سَلكَ طَرِيقًا يَلتَمس فيه عِلمًا ، سَلكَ الله به طَرِيقًا إِلَى الْجَنة . وَإن الملائِكةَ لتَضَعُ أَجْنحَتهارِضًا لطَالب الْعِلم وإنَّ العَالِم ليَستغفرُ لهُ من فى السَّموات وَمنْ فى الأَرْض والْحيتَان فى جَوْف الماءِ ، وإنَّ فَضلَ العَالم عَلى العَابد كَفضْل القَمر ليلةَ البَدْر عَلى سَائر الكَواكب وإنَّ العُلمَاء وَرثةُ الأَنْبيَاءِ ، وإنَّ الأَنْبياءَ لمْ يُورِّثُوا دِينارًا وَلا دِرهمًا ، وإنما وَرَّثوا العِلم ، فَمَنْ أَخَذَ بهِ أَخذَ بحَظ وافِر »أخرجه الترمذى ، وجاء فى صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ يُرِدِ اللهُ بهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِى الدِّين » وحسبك فى فضله قوله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾)

التفسير

بعد ما أوجب الله على المؤمنين أن يتسلحوا بالفقه ويزودوا أنفسهم بالعلم إلى جانب اقتدارهم على الجهاد ليتسنى لهم نشر الإسلام بالأمرين جميعًا ، أمرهم فى هذه الآية أن يتدرجوا فى قتال الكفار وأن يبدأوا أولا بقتال الأقرب من العدو ثم الذين يلونهم ولهذا بدأ الرسول بقتال اليهود الذين حول المدينة لنقضهم عهده ، وصد هجمات المشركين من

العرب حينًا ، وبدأهم بالقتال حينًا آخر ، لوقاية الإسلام من تربصهم به والتآمر عليه فلما فرغ منهم أوكاد قصد الروم بالشام ، ليحيط الإسلام فى معقله بحزام أمن واستقرار ولتكون كلمة الله هى العليا .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا قاتلوا الأقرب لكم من الكفار فالأقرب ، بعد أن تدعوهم إلى الإسلام فلا يستجيبوا ، وأغلظوا فى قتالهم واشتدوا فيه حتى يحسوا بذلك فيسلموا لكم ويضعفوا أمامكم ، واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والمعونة .

(وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾)

التفسير

١٢٤ – (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا . . .) الآية .

بعد أن بين الله ما يجب على المؤمنين فى قتالهم لأعدائهم ، ذكر أحوال المنافقين المنكرة توبيخًا لهم وتحذيرًا من شرورهم

والمعنى : وإذا أنزلنا عليك يا محمد أية سورة من سور القرآن فمن المنافقين من يقول لإخوانه تثبيتًا لهم على النفاق ، أيكم زادته هذه السورة إيمانًا ، ومنحته يقينًا ، يريدون بذلك أنها لم تؤثر فيهم ولم تنتزع الشك والكفر من نفوسهم .

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) :

هذا وما بعده جواب من جهته تعالى يبين به حال أهل اليقين ، وحال أولئك المنافقين .

والمعنى : فأما الذين آمنوا بقلوبهم ، وصدقوا بالله ورسوله مخلصين ، فقد زادتهم السورة يقينًا بتدبُّرهم فيها ، ووقوفهم على ما فيها من الحقائق ، وانضمام إيمانهم بما جاء فيها إلى إيمانهم السابق ، وهم يسرون بنزولها وبما فيها من المنافع الدينية والدنيوية .

١٢٥ - (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) :

وأما الذين فى قلوبهم مرض من كفر وسوء عقيدة ، فزادتهم السورة التى أنزلناها كفرًا بها مضمومًا إلى كفرهم بغيرها ، وعقائد باطلة وأخلاقًا ذميمة ، وماتوا وهم على هذه الحال المنكرة من الكفر والمفاسد .

١٢٦ - (أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ) :

المراد من فتنتهم كشف نفاقهم وفضيحتهم على رءوس الأشهاد ، وكان ذلك مرة أو مرتين فى كل عام كالذى حدث فى غزوة أُحد ، حين رجعوا من الطريق وكالذى حدث فى غزة الخندق حين قالوا : « إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا » .

وغير ذلك مما حدث منهم من المخالفات الخطيرة التى كشفها الله ، وفضح فيها نفاقهم وكشف أستارهم مرة بعد أخرى .

والمعنى : أيغفلون ولا يعلمون أنهم يمتحنون فى كل عام مرة أو مرتين، وذلك بكشف نفاقهم فى الأحداث الجسام ، ثم لايتوبون عن هذا النفاق الذى كان سببًا فى فضيحتهم ، ولا هم يستغفرون الله مما حدث منهم ، تحقيقًا لتوبتهم وندمًا على ما كان منهم ، وعدلوا عن تلك الأساليب الذميمة التى توهن من شأن المجاهدين عند لقاء المشركين .

١٢٧ - (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُم إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا) :

بعد أن بين الله مقالتهم السيئة وهم بعيدون من مكان نزول الوحى، وهى قولهم لإخوانهم المنافقين : « أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا » .

جاء بهذه الآية لبيان حالهم السيئة ، عندما يكونون فى مكان نزوله .

والمعنى : وإذا نزلت سورة من القرآن وهم حاضرون، نظر بعضهم إلى بعض متغامزين بالعيون سخرية بها أو غيظًا مما جاء فيها كشفًا لمخازيهم ، يقول بعضهم لبعض إشارة أو همسًا :

هل يراكم أحد من المسلمين إذا خرجتم من المجلس متسللين، ثم انصرفوا جميعًا من مجلس الوحى متفرقين مَللاً من سماع القرآن أو هربًا من افتضاح أمرهم .

(صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ) :

أى صرف الله قلوبهم عن الإيمان وفرائضه بسبب انصرافهم عن القرآن والتدبُّر فيه وجازاهم بعقوبة من جنس عملهم .

(لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ
حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ
حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾)

المفـردات :

(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) : شاق عليه ما تكرهون من مشاق الحياة ، والعنت:المشقة

(حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) : لا يفرِّط فيما يصلحكم .

(رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) : الرأفة شدة الرحمة ، ولا تكون مع الكراهية ،أما الرحمة فقد تكون مع الكراهية .

التفسـير

١٢٨ ـ (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِن أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ . . .) الآية .

أى لقد جاءكم يا معشر العرب رسول منكم عربى مثلكم ومن أكرم بيت فيكم ، وقد نشأ بينكم فعرفتموه منشأً وخُلُقًا ، وهذا الرسول يشق عليه كثيرًا ما يشق عليكم ، حريص عليكم ، فلا يفرط فى أمر فيه خيركم ومنفعتكم ، وبالمؤمنين منكم ومن غيركم عظيم الرأفة والشفقة ، وافر الرحمة .

قال الحسن بن الفضل : « لَمْ يَجْمع اللهُ لأَحدٍ منَ الأَنبياء بينَ اثنينِ من أَسمائه إِلَّا لِلنَّبى صلَّى الله علَيه وسلَّم فَقَدْ سمَّاه رَؤُوفًا رَّحيمًا » .

وقد جاء فى طيب أصله من رواية الإمام مسلم بسنده عن واثلة بن الأسقع قال :

« سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ كِنَانَةَ مِن وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ واصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِن كنانَة ، واصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِى هاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِى مِنْ بَنِى هَاشِمٍ »

ويرى بعض المفسرين أن الخطاب فى قوله تعالى :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . .) الآية .

للناس عامَّة ، لأن بعثته صلَّى الله عليه وسلَّم عامَّة لجميع الناس فى جميع العصور ، لقوله تعالى : « ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .

والمعنى : لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم أى من جنسكم فهو بشر مثلكم إذ لو كان من الملائكة ، لضعفت قوَّة البشر عن سماع كلامه والأخذ عنه ، ولا تعارض فى هذا الرأى مع الرأى السابق ، فإن رسالته للعرب لاتنافى رسالته للناس أجمعين .

١٢٩ - (فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) :

أى فإن أعرضوا عن الإيمان بك يا محمد فقل لهم : يكفينى الله ويعيننى عليكم ،لا معبود بحق سواه ، عليه وحده توكلت واعتمدت ، فلا أرجو سواه ، ولا أخاف إلامنه ،ولا أستعين إلا به ، وهو رب العرش العظيم .

والمراد من العرش إما الفلك الأعظم الذى تنزل منه الأحكام والمقادير ، أو السلطان والملك العظيم – والله تعالى أعلم .

* * *

سورة يونس

مكية كلها على المشهور وآياتها تسع ومائة

ووجه المناسبة بينها وبين سورة التوبة التى قبلها أن التوبة جاء فى آخرها الثناءُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمزيد شفقته على المؤمنين ، حيث وصف بأنه يشق عليه ما يلحقهم من المكروه ويحرص عليهم وهو بهم رؤوف رحيم ، وجاء فى أول يونس توبيخ الناس على تعجبهم من أن يوحى الله إليه وهو رجل منهم – بأن ينذر الكافرين ويبشر المؤمنين– وجاء فى الأولى بيان ما يفعله المنافقون عند نزول سورة من القرآن. «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا . . . . . . » الآية

وجاء فى الثانية بيان ما يقوله الكفار فى القرآن ، فقد جاء فيها قوله تعالى حكاية عنهم .

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » الآية (٣٨) . وقوله : « وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ . . . » الآية (١٥) .

وجاء فى الأولى ذم المنافقين بعدم التوبة وعدم التذكر والاتعاظ إذا أصابهم البلاءُ فى قوله سبحانه : « أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ » الآية (١٢٦) . وجاء فى هذه ذم لمن يصيبه البلاءُ فيرعوى عن إثمه ثم يعود ثانية إليه وذلك فى قوله تعالى : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . . » الآية (١٢) .

وقوله : « فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ . . . » الآيتين (٢٢ ، ٢٣) .

وفى الأولى براءة الرسول – صلى الله عليه وسلم – من المشركين ، فى قوله تعالى : « بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ » : وفى هذه أمره بالإعراض عنهم فى

قوله سبحانه : « وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ » الآية (٤١) .

وقد اشتركت السورتان فى إقامة معالم التوحيد وتجلية آياته إلى غير ذلك من المناسبات .

مقدمة السورة

افتتحت هذه السورة الكريمة بوصف القرآن الكريم ، بأنه الكتاب الحكيم ، وبيان أنه لا عجب فى أن ينزل الله الوحى على رجل من البشر لينذرهم بالعقوبة إن ظلوا كافرين ، ويبشرهم بالمثوبة إن استجابوا مؤمنين ، ثم تلا ذلك بيان أنه تعالى :أبدع السموات والأرض فى ستة أيام ، وأنه لاشفيع إلا بإذنه وأن المرجع إليه بعد الموت فكما بدأ الخلق يعيده ، ثم ذكر الله بعد ذلك بعض آياته الكونية وما اشتملت عليه من المنافع لخلقه ، ثم حذر من الاطمئنان إلى الحياة الدنيا والغفلة عن آياته ، وأنذرهم بقوله : « أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . وبشر المؤمنين بجنات النعيم بقوله : « تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ . دَعْوَاهُمْ فِيها سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

ثم بين أنه تعالى أهلك القرون السابقة لكفرهم وجعل المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم خلفاء فى الأرض من بعدهم لينظر كيف يعملون . .

ثم ذكر تبجح المشركين بطلبهم أن يأتيهم الرسول بقرآن غير هذا أو يبدله ، فأمر رسوله بأن يقول لهم : إن ذلك ليس من شأنه فإنه يتّبع ما يوحى إليه ، وأنه لبث فيهم عمرا وهو معروف بينهم بالصدق والأمانة فكيف لايعقلون أن مثله لايفترى على الله .

ثم نعى عليهم عبادة غير الله وزعمهم أن الأصنام شفعاء لهم عنده، فى حين أن الله لايسمح لها بالشفاعة فهو أعلم بحالها ، فلماذا ينبئون كذبًا بما هو أعلم بحقيقته من عدم صلاحيتها للشفاعة ولا لضرهم ونفعهم بأى وجه من الوجوه .

ثم ذكر فضله عليهم بتسييرهم فى البر والبحر وأنهم حين تحيط بهم أسباب الهلاك فى البحر يدعونه لينقذهم ، فإذا أنقذهم عادوا إلى بغيهم فى الأرض مع أن بغيهم على أنفسهم.

ثم ضرب مثلا للحياة الدنيا يفيد أنها سريعة الزوال فقد مثلها بالأرض المخضرة ، التى أصاب زرعها اليبس والجفاف فجأة ، فكانت حصيدًا كأن لم تغن بالأمس ، وذكر أنه تعالى يدعوهم إلى دار السلام ، ويهدى عباده إلى صراط مستقيم فمن آمن فله الحسنى وزيادة ، والذين كسبوا السيئات ليس لهم من الله من عاصم ، ثم بين أنه هو الذى يرزق عباده من السماء والأرض ، ويمنح السمع والبصر ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويدبر الأمر كله أما شركاؤهم فليس لهم من ذلك ولا من غيره شىء .

ثم بين أنه ليس مستقيمًا ولا معقولًا أن يفترى محمد القرآن ،وتحداهم أن يأتوا بسورة مثله ويستعينوا على ذلك بمن شاءوا من دون الله ،ونعى عليهم أنهم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وهددهم بمصير من تقدمهم من المكذبين .

ثم بين أنهم ينقسمون فى شأن القرآن إيمانًا وكفرا ، وأمر نبيه – صلى الله عليه وسلم– أن يقول لمكذبيه : (لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ).

ثم بين أن مرجعهم إلى الله وأنه شهيد على ما يفعلون ، وأنه سيقضى بين الأمم بالقسط وهم لايظلمون ، وأن مصير الكافرين الظالمين لأنفسهم عذاب الخلد جزاء بما يكسبون من الكفر والمعاصى ،وبين أنه لا مجال لقبول فدية من عذاب الله فى الآخرة ،ثم قال فى حق القرآن الكريم .

« يأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم موْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » . ثم بين أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وأنهم هم . « الَّذِينَ آمنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرةِ لَاتَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ » .

ثم أمر الله نبيه – صلى الله عليه وسلم –أن يتلو على قومه لتذكيرهم نبأ نوح وقومه، كذبوا بـآيات الله ولم ينفعهم تذكيره لهم ، فنجاه الله ومن معه فى الفلك من المؤمنين وأغرق جميع المكذبين .

ثم ذكر طائفة من أنباء المرسلين ، وما أصاب أقوامهم من إهلاك بسبب تكذيبهم لهم ثم قال فى أعقاب قصصهم : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » ثم بين أن كل قرية لو أنها آمنت قبل أن ينزل بها العذاب ، لنفعها إيمانها ، ولكشف الله عنها عذاب الخزى كما فعل بقوم يونس ، فإنهم لما آمنوا قبيل مجىء العذاب كشف الله عنهم عذاب الخزى ، ومتعهم إلى حين فكانوا مثلا حسنا فى حسن الرأى ونضج التفكير .

ثم أمر الله نبيه أن يقول : « يَـأَيُّهَا النَّاسُ إن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَدْعُون مِن دُونِ اللهِ وَلَكنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمؤْمِنِينَ » .

ثم أمره فى آخر السورة أن يخبر الناس بـأن الحق جاءهم من ربهم . « فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ومَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بوَكِيلٍ » وحضه فى ختامها على الصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾)

المفـردات :

(الٓر) : قال السلف فيها وفى أمثالها : الله أعلم بمراده : ويأْتى تفصيل الحديث عنها فى الشرح .

(الْكِتَابُ الْحَكِيمُ) : القرآن المشتمل على الحكمة وهى إصابة الحق .

(قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ) : مكانة سابقة محققة فى حسن الجزاء عند ربهم فى الجنة والقدم والقدمة بضم فسكون :السابقة فى الآمر .

(لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ) : أى لساحر بين السحر واضحه : كذا قال الكافرون وهم كاذبون .

التفسـير

١ - (الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) :

(الٓر) تقدم الكلام مبسوطا على فواتح السور المماثلة لهذه فى البقرة وآل عمران والأعراف ونجمله هنا فنقول : إن السلف يعدونها من المتشابه الذى استأْثر الله بعلمه ولذا فهم يفوضون فى مثل ذلك قائلين : الله أعلم بمراده ، وكثير من العلماء جنح إلى التأْويل ، فمنهم من قال إنها أسماءٌ للسور التى تصدرتها ؛ ومنهم من قال : هى فواصل بين

السور التى قبلها والسور التى تليها ،ومنهم من قال غير ذلك : وخير ما قالوه : إنها أسماءُ حروف عربية جعلت فى صدر السور لتنبيه الأسماع والقلوب إلى ما فيها من أعظم أساليب البلاغة والفصاحة وما اشتملت عليه من التشريعات الحكيمة وأخبار الغيب ونواميس الأخلاق الكريمة ، وغير ذلك من الروائع الناطقة بإعجاز القرآن للبشر وصدوره عن الله تبارك وتعالى كما أن فيها الرمز إلى التحدى ، بالإشارة إلى أن القرآن مؤلف من جنس ماينظم العرب منه كلامهم ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، وجب التسليم بأنه من عند الله وأن محمدا لا يستطيع أن يأتى به فهو فوق مستوى البشرية جميعا كما هو فوق مقدرة الإنس والجن مجتمعين « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) :

هذه الآيات الرفيعة الشأن ، التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة هى آيات القرآن العظيم الذى أُحكمت آياته ،واشتمل على ضروب الحكمة وشتى فنونها فهو خاتمة الكتب السماوية والمهيمن عليها .

٢ – (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ....) الآية .

كان للمشركين فى شأن الرسالة مواقف ، فتارة ينكرون أن يكون الرسول بشرا ، كقولهم « أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا » ويرون أنه تعالى لو أراد أن يرسل رسولا فإنه يختاره من الملائكة ، وذلك ما حكاه الله عنهم بقوله « وَلَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً » روى عن ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية : أن الكفار قالوا لما بعث محمد : إن الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا .

وتارة يزعمون أن الله لو أرسل رسولا من البشر ، فإنه يرسله من عظماء قومه فى المال والجاه ، كما حكى الله عنهم ذلك بقوله : « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »[1] ومن أقبح ما جهلوا به فى هذا الشأن قولهم العجب أن الله تعالى لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب ، وتلك النظرة الجاهلة ناشئة من فرط

(١) آية ٣١ من سورة الزخرف .

قصورهم فى التفكير ،وجهلهم بحقيقة الوحى والنبوة ، وقد كان أكثر رسل الله خفاف الحال فى شئون الدنيا ، ثقال الموازين فى الشرف وطيب المحتد ، وكان صلى الله عليه وسلم واسطة عقدهم فى جلائل الأخلاق وشرف المنبع ، فقد كان من أعز أرومة فى الجزيرة العربية والآية تنكر عليهم عجبهم من أن يكون الرسول بشرا .

والمعنى : لا يصح لهؤلاء الناس أن يتعجبوا من أننا أوحينا إلى رجل منهم ، أن ينذر الناس ويخوفهم عقاب الله إن عصوه وكفروا به ، ويبشر الذين آمنوا برسالته ، وعملوا الصالحات بأن لهم سابقة محققة فى الفضل وحسن الجزاء عند ربهم ، فالنبوة للبشر لا للملائكة ، كما تشهد به الكتب السماوية والتفاوت بين الناس ليس بالمال ، ولا بالزعامة بل بالعقل والكمال والاستقامة ، ورب رجل فى أعلى عليين بعقله وفضله ، وآخر فى أسفل سافلين بجهله وحمقه ، فما لهؤلاء المشركين ينكرون نُبُوةَ البشر ويطلبون رسلا من الملائكة ، مع أنهم يستسيغون ألوهية الحجر ، « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

وسميت سابقة الفضل قَدَمًا ، لأن السبق غالبا يكون بالقدم ، فهى التى يسعى بها المؤمن إلى الصالحات ، فى أكثر الحالات ، كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد غالبا .

وأضيفت القدم إلى الصدق للإيذان بأنهم ينالونها بصدق القول والعمل والنية

(قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ) :

أى قال الكافرون إن محمدا لساحر ظاهر السحر ، والآية تشير إلى أن الرسول لم تقصر معجزاته على القرآن الذى هو أقوى معجزاته ، بل أظهر لهم خوارق ومعجزات أخرى غير القرآن الكريم ، فوصفوه لهذا كله بأنه ساحر مبين، وقد كذبوا فيما زعموه ، فما هى إلا آيات الحق المبين :

وكيف يترك الله ساحرا متقولاً على الله ولا ينتقم منه ، وصدق الله إذ يقول « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ .لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ .ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » .

(إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ
بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟
يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾)

المفـردات :

(فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ) :أى فى ستة أوقات لا يعلم مداها إلا الله تعالى أمَّا اليوم المعروف فإنه لم يحدث إلا بعد خلق السموات والأرض .

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) : ثم استولى عليه ،ومنه قول الشاعر استوى بشر على العراق .
من غير سيف ودم مهراق .

أى ثم استولى على العرش ليدبر شئونه وشئون الكون كُله ، ولم يغلبه عليه أحد ، فهو وحده الخالق المدبر ، وسيأتى فى المعنى الحديثُ عن العرش .

(بِالْقِسْطِ) : بالعدل . (شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ) : شراب من ماء شديد الحرارة .

التفسـير

٣ – (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ) :

جاءت هذه الآية لإظهار بطلان تعجبهم من أن الله أرسل إليهم رجلا منهم لينذرهم ويبشرهم ، ولبيان خطيئتهم فى وصفه بأنه ساحر مبين .

والمعنى : إن ربكم ومالك أموركم هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أوقات بعيدة المدى لا يعلمها إلا الله ، اقتضاها تطوير خلقها من دخان إلى نجوم وكواكب وأرضين يابسات ، ثم استوى على العرش وملك سلطان الكون وهيمن عليه ، فكيف تعجبون من أنه أوحى إلى رجل منكم هو فى أعلى درجات الكمال الإنسانى ليبلغكم شريعته ، ويحذركم نقمته إن عصيتموه ، ويبشركم بحسن العاقبة إن أطعتموه ، وكيف تصفونه وهو الصادق المصدوق بأنه ساحر مبين ، مع أنه لم يمارس السحر طول حياته وقد عرفتموه فيما بينكم بالصادق الأمين ، فهل يعقل عاقل أن يؤيد الله رب هذا الملك والكون وخالق هذه الأرض والسموات وصاحب هذا العرش والسلطان ، كيف يعقل أن يؤيد بشرًا بالمعجزات وهو غير صادق فى دعوى الرسالة وكيف تصفون من أيده الله بأنه ساحر مبين .

واعلم أيها الأخ المسلم ، أنه لاينبغى أن تورط نفسك فى فهم المراد من اليوم ، فأيام الله من شأنه وحده ، ولا علم لنا بها ، فتارة يكون يومه تعالى كألف سنة مما تعدون ، وأخرى يكون كخمسين ألف سنة ، وثالثة يكون أقل أو أكثر من ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، واليوم فى هذه الأيام الستة يمثل طورًا من أطوار التكوين ، وربما جاوز ملايين السنين فدع تقديره لمن هو أعلم به جل وعلا .

أما اليوم الذى يطلق تارة على النهار الواحد أو على مجموع ليل ونهار فإنه لم ينشأ إلا بعد تكوين الشمس والقمر والأرض ودورانها حولها وهو خاص بأرضنا هذه ، ولكل كوكب نهاره وليله اللائقان بحجمه وبما خلق من أجله .

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) :

ويطلق العرش فى اللغة حقيقة على سرير الملك ومجازًا على العز والسلطان ، ويطلق الاستواء على الاعتدال وعلى الإقبال وعلى الاستيلاء .

والمعنى اللائق باستوائه سبحانه على العرش هو استيلاؤه على سلطان الكون وتمكنه منه ومن تدبيره دون شريك ، أما تفسيره بمعنى الاعتدال والجلوس على سرير الملك ، فهو أمر يجب تنزيه المولى عنه ، لأنه ليس جسما ولا مادة وكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

والسلف لايؤولون ويأخذون بظاهر النص ، ولكنهم ينزهون المولى عن أن يكون استواؤه على العرش ،كالذى يحدث من الملوك ، بل هو أمر يليق ينزهه تعالى عن مشابهة الحوادث ويجل عن تصور العقول .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) :

شروع فى بيان شئونه المترتبة على ملكه وسلطانه سبحانه وتعالى ، وتدبير الأمر معناه لغة النظر فى أدبار الأمور وعواقبها ، لتجىء محمودة العاقبة .

والمعنى : يقدر الله أمور الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به مشيئته ، ومن ذلك أمر الرسالات والرسل كما قال تعالى : « أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »[1] .

(مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) :

فى هذا النص الكريم تقرير لعظمته عز وجل واستقلاله فى التدبير ، ورد على من زعم منهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله .

والمعنى : مامن شفيع يشفع لأحد فى وقت من الأوقات ، إلا من بعد إذن الله المبنى على الحكم الباهرة ، وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الأخيار ، والمشفوع له ممن تليق به الشفاعة من عصاة المؤمنين .

(ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

ذلكم الموصوف بتلك الأوصاف الجليلة هو الله ربكم المنعم المتفضل عليكم الذى يدعوكم رسوله محمد إلى عبادته ، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ، أتغفلون عن مصلحتكم فلا تتعظون بتلك المواعظ وغيرها مما ينزل به القرآن الكريم .

٤ - (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا) :

إلى الله تعالى وحده رجوعكم جميعاً بالبعث والحشر لا إلى غيره ، وعد الله ذلك وعدا حقا لا خلف فيه ، فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه ، لتنالوا ثوابه وتنجوا من عقابه .

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية : (٥٤)

ثم بين قدرته على البعث والحكمة فيه فقال :

(إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ . . . .) :

إنه يبدأ الخلق لا على مثال سبق ، ثم يعيده فى النشأة الأخرى على ما كان عليه ،ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بعدله تعالى على حسب أعمالهم كما وكيفا ، ويزيدهم من فضله .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) :

والذين كفروا بالله ورسله ، ولم يهتموا بالآيات والنذر ولم يؤمنوا بيوم الحساب ، لهم شراب من ماءٍ شديد الحرارة يغلى فى البطون كغلى الحميم ، ولهم فوق ذلك عذاب شديد الإيلام بسبب إصرارهم على كفرهم واستمرارهم عليه .

(هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾)

المفردات :

(جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً) : أى جعلها ذات ضياء ، ويصح أن يكون هذا التعبير على المبالغة ، بجعلها نفس الضياء ، ومثل ذلك يقال فى جعل القمر نورًا .

(وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ) : أى وقدر كلا من الشمس والقمر ذا منازل ، ينزل فيها وينتقل إليها بنظام دقيق فى مداره الفلكى .

(مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) : أى ما خلقه إلا مقرونا بالحكمة والمصلحة .

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : أى فى تعاقبهما وكون كل واحد منهما خِلفة للآخر ، أو فى تخالفهما ظلمة وضياء وطولا وقصرًا وغير ذلك .

التفسير

٥ - (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا) :

بعد أن نبه الله عباده إلى أنه سيعيدهم فى النشأة الآخرة كما بدأهم فى النشأة الأولى ، ليجزيهم بما عملوا بالحق والعدل نبههم إلى آيات قدرته وآثار رحمته ، ومظاهر نعمته بجعل الشمس ضياءً والقمر نورًا ليشكروه ولا يكفروه ، ويرجوه ويحذروه .

والمعنى : هو الذى جعل الشمس مصدر ضياء ذاتى ساطع تنبعث منه الحرارة ، فتنشأ الكائنات الحية من نبات وحيوان ، وتعيش وتنشط بما تبثه فيها من أسباب الحياة والخفة والنشاط ، وتسعى فى سبيل رزقها مستضيئة بأشعتها .

وجعل القمر ذا نور هادىء يهتدى به السارون فى البر ، والماخرون فى البحر بعد أن غابت الشمس بضيائها تحت الأفق ، وأرخى الليل سدوله على وجه الأرض .

(وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) :

وقدر الله كل واحد من الشمس والقمر ذا منازل فى مداره الفلكى ينتقل إليها ، لتعلموا بانتقال كل منهما إليها عدد السنين التى تمر بكم وتضبطوا بها مصالحكم ومواقيتكم فى مواثيقكم ومختلف شئونكم ، ولتعلموا حساب الأوقات من الشهور والأيام ، التى نيطت بها مصالحكم الدنيوية والأخروية ونسبة الضياء إلى الشمس والنور إلى القمر ، لأن ما كان بالذات يطلق عليه ضياء ، وما كان بالعرض يطلق عليه نور ، ولما كانت أشعة الشمس ذاتية أطلق عليها ضياء ، ولما كانت أشعة القمر منعكسة عليه من أشعة الشمس ، أطلق عليه نور وقيل النور أعم من الضوء ، فالنور يشمل القوى والضعيف بخلاف الضوء فإنه خاص بالقوى فلذا يقال نور الشمس وضوؤها أما القمر فيضاف إليه النور دون الضوء ، وقيل غير ذلك ، وبانتقال الشمس فى هذه البروج ذات المنازل توجد الفصول الأربعة فى العام الشمسى وبانتقال القمر فى هذه البروج ذات المنازل تكون أوائل الشهور وأواخرها والله تعالى أعلم .

(مَا خَلَقَ اللّٰهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) :

ما خلق الله ذلك الذى تقدم من الشمس والقمر وأحوالهما إلا مقرونا بالحق ، مراعى فيه الحكمة والمصلحة ، فلم يخلقه عبثا ولا باطلا .

(يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) :

يفصل الله تعالى هذه الآيات الكونية وغيرها مما اشتمل عليه القرآن الكريم ، يفصلها لقوم من ذوى العلم والعقل ليتدبروها ويؤمنوا بمبدعها ، ويمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه . « وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ »

٦ - (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّٰهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ) :

بعد أن بين آياته ونعمه فى الشمس والقمر ، عقَّبها بالإشارة إلى آياته فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض .

والمعنى : إن فى تعاقب الليل والنهار ، وكون كل منهما خلفا للآخر ، وفى اختلافهما بالظلام والضياء ، ليكون الليل بظلامه قرارًا والنهار بنوره نشورًا ، وفى تمايزهما بالزيادة والنقصان بالتداول بينهما - إن فى ذلك كله - وفيما خلق الله فى السموات والأرض من بدائع رائعة ، ومنافع كثيرة ، ونعم شاملة لآيات شاهدات بوجود الصانع ووحدته ، وكمال علمه وقدرته ووافر فضله ورحمته لقوم يتقون المعاطب تنبههم إلى طريق السلامة .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۞)

المفردات :

(لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) : لايتوقعون الرجوع إلى الله تعالى .

(مَأْوَاهُمْ) : مسكنهم ومقرهم .

التفسير

٧ - (إِنَّ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ) :

هذه الآية والتى تليها تبين مصير من كفر بالبعث وغفل عن آيات الله تعالى .

والمعنى : إن الذين لايتوقعون لقاءالله يوم الحساب ،ورضوا بالحياة الدنيا معتقدين أنها لاحياة بعدها ، فعملوا لها وغفلوا عن غرورها وخداعها ، وسكنوا فيها سكون من لا يبرحها آمنين من المزعجات ، والذين هم غافلون عن آيات الله فى كونه وعلى ألسنة رسله فلم يتزودوا ليوم الوعيد .

٨ - (أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

أولئك الذين تقدمت صفاتهم السيئة ، مرجعهم النار بما واظبوا على كسبه من الكفر والمعاصى .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾)

المفـردات :

(تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ) : تجرى من تحت قصورهم فى الجنة .

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا) : أى دُعَاؤهم فيها

التفسـير

٩ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِم تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ) :

بعد أن بين الله فى الآيتين السابقتين أن الكافرين بلقاء الله الغافلين عن آياته مأواهم النار ، بسبب ما كانوا يكسبونه من الكفر والمعاصى ، جاء بهذه الآية والتى تليها لبيان أن مصير المؤمنين الجنة ، بسبب إيمانهم الممزوج بالعمل الصالح ، وَبضِدِّها تتميز الأَشياءُ

والمعنى: إن الذين آمنوا بلقائنا وبكل ما يجب الإيمان به ،وعملوا ما ينبغى لهذا الإيمان من الأعمال الصالحات ، يهديهم ربهم بسبب ذلك إلى مأواهم الذى أعده لهم فى الجنة ،حسب درجات أعمالهم ، فينزلون فيه مكرمين ، تجرى من تحت قصورهم الأنهار فى جنات النعيم الخالص من كل شائبة تنغص حياتهم .

١٠ - (دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ) :

الدعوى هنا بمعنى الدعاء ، أى : دعاء المؤمنين الصالحين فى الجنة قولهم سبحانك اللهم .

وقد جرى عرف الشرع على إطلاق الدعاء على التهليل والتحميد والتمجيد والتسبيح ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أَكْثر دعائى ودُعَاء الأنبياء قَبْلى بِعَرفات : لَا إِلَه إِلَّا الله وَحْدهُ لا شَرِيكَ لهُ ، لَه الملْك ولَه الحَمْد ، وهُوَ علىَ كلِّ شَيءٍ قَدير » وفى تعليل ذلك يقول ابن الأثير :

إنما سمى التهليل والتحميد والتمجيد دعاء ، لأنه بمنزلته فى استيجاب ثواب الله تعالى وجزائه .

وفى الحديث : « إذا شَغَل عَبْدى ثَنَاؤُه علىَّ عن مسْأَلتى ، أعطيتُه أفضَل ما أُعطى السَّائِلينَ » .

(وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) :

وما يُحيُّونَ به فى الجنة لفظ السلام الدال على الأمن والطمأنينة والسلامة من كل مكروه .

وهذا السلام يقوله الله تعالى لهم ، كما قال تعالى : « سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ » ويقوله بعضهم لبعض ، ويقوله الملائكة لهم توكيدًا لمعانى الأمن والسلامة والطمأنينة دائمًا .

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

أى وآخر دعائهم وذكرهم لربهم أنهم يقولون الحمد لله رب العالمين ، ويُرَى من الترتيب الذكرى فى الآية الكريمة أنه حكاية للترتيب الوقوعى فى الجنة ، وذلك أن أهلها من المؤمنين حين يشرعون فى الدعاء يسبحون الله تعالى وينزهونه فيقابلون بالسلام ، وهو دعاء بالسلامة من كل مكروه تقوله الملائكة لهم ، ويقوله الله تعالى لا دعاء بل طَمأْنَةً وتحية لهم منه جل وعلا ، ثم يختمون دعاءهم بالحمد لله رب العالمين ، وهكذا يستمر شأنهم بكرة وعشيًّا كما يشير إليه حديث فى وصف أهل الجنة « يُسَبِّحُونَ الله بُكْرَةً وَعشِيًّا » أى يسبحونه تعالى من آن لآخر .

(وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ
إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا
أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ
مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ
أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) : لا نتهى الأجل الذى قدره الله لعذابهم وأميتوا جميعا وما أمهلوا لحظة واحدة .

(لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) : لا يتوقعون الرجوع إلينا لإنكارهم البعث .

(فِي طُغْيَانِهِمْ) : الطغيان؛ مجاوزة الحد فى الظلم والمراد هنا إنكارهم البعث وتكذيب الرسل وارتكاب ما يترتب على ذلك من المفاسد والموبقات .

(يَعْمَهُونَ) : يترددون ويتحيرون .

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ) :وإذا أصابه أى ضرر .

(دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) : تضرع إلينا وهو مضطجع على جنبه أو دعانا قاعدا أو قائما ، طالبا إزالته عنه .

(مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ) :

أى مضى واستمر على ما كان عليه قبل البلاء من التكذيب ، كأنه لم يلجأ إلينا لإزالة ما أصابه .

(زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : حسن للمتجاوزين الحد فى ارتكاب القبائح ماعملوه منها .

التفسير

١١ - (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ) :

بعد أن ذكر القرآن الكريم طائفة من جرائم الذين ينكرون البعث والجزاء ، جاءت هذه الآية تحكى معصية أخرى من أشنع معاصيهم المترتبة على ذلك ، وهى استعجالهم لنزول العذاب الذى توعدهم القرآن به ، مبالغة منهم فى الاستهزاء بمجيئه والتكذيب بوقوعه .

والمعنى :ولو يعجل الله تعالى لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث ،ولا يتوقعون الرجوع إلى الله الواحد القهار ، لو يعجل لهم-سبحانه - العذاب الذى كانوا يستعجلون به، مثل إسراعه بتحقيق الخير لهم عند استعجالهم به وطلبهم إياه .

(لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) :

أى لأنهى الله إليهم مدتهم التى قدرها الله لعذابهم ،واستؤصلوا بإهلاكهم جميعا عن آخرهم ، وما أمهلوا لحظة واحدة جزاء جرأتهم ، كما قال تعالى : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ . . . » [1] ولكنه سبحانه يمهلهم ولا يعجل لهم الشر الذى طلبوه ولا ينهى إليهم أجلهم ، وإنما يتركهم إمهالا لهم واستدارجا ، كما قال تعالى :

(فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) : أى فنترك الذين لا يتوقعون لقاءنا يوم البعث ولا يصدقون بيوم القيامة ، غارقين فى ظلمهم الذى تجاوزوا فيه

(١) سورة فاطر الآية : ٤٥

الحدود ، وهو إنكارهم البعث وتهاويهم فى التكذيب وارتكابهم كل قبيح من الأقوال والأفعال — ندعهم فى هذا الحال السئ يترددون ويتحيرون ، ولا نترفق بهم بسبب تماديهم فى البغى .

١٢ —(وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْقَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) :

فى الآية السابقة إشارة إلى أن الكفار كانوا يستعجلون نزول العذاب الذى توعدهم الله به استهانة بشأنه ، وفى هذه الآية الكريمة بين سبحانه أنه لو نزل بالإنسان أدنى مكروه ،فإنه يدعو الله فى كل حال راجيا إنقاذه منه وإزالته عنه لعجزه عن احتماله وحيث كان أمرهم كذلك فكيف يستعجلون عذابه .

والمعنى : وإذا أصاب الإنسان أى ضرر من مرض أو فقر أو غير ذلك من الشدائد دعا الله طالبا كشفه عنه وتخليصه منه— دعاه — فى حال اضطجاعه على جنبه أو فى حال قعوده ، أو فى حال قيامه .

والمراد أنه يتضرع إلى الله ليكشف ضره على أى حال يكون ، وإنما خصت هذه الثلاثة بالذكر لأنها أغلب أحوال الإنسان ، ثم بين القرآن أن هذا الذى تضرع إلى الله لرفع ما نزل به من البلاء رجع بعد تخليصه منه إلى الكفر والضلال ، فقال تعالى :

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ) :

أى فلما استجبنا له وأزلنا عنه الضُّرَّ الذى نزل به ، مضى واستمر على طريقته التى كان عليها من التكذيب والعناد قبل أن يمسه الضر ، وَنَسِى ماكان فيه من الجهد والبلاء كأن لم يدعنا إلى كشفِ ضُرٍّ مسه ، وإزالةِ مكروه نزل به .

(كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى مثل هذه الحال العجيبة التى تنكروا فيها لله تعالى ورجعوا إلى الضلال الذى كانوا فيه ، زين الشيطان للمسرفين فى الكفر والمعاصى ، ما كانوا يعملونه من الانغمـــاس

فى الشهوات ، والانهماك فى الفجور والعصيان ، والإعراض عن التوحيد والطاعات ، وسموا مسرفين لأن الله أنعم عليهم بنعمة الفِكْر والعَقْل وسائر قوى الإدراك ، ليستعملوها فى تحصيل الخير وعمل الصالحات وتعلم العلوم النافعة ، فاستحبُّوا العمى على الهدى واستعملوها فى الظلم والتكذيب والفساد ، وذلك هو الإسراف ، ويستفاد من الآية الكريمة ذم الذين يتركون دعاء الله فى الرخاء ويتضرعون إليه عند نزول البلاء ، والجذير بالمؤمنين أن يلجأُوا إلى الله فى السراء أيضا ، فإن ذلك أرجى للإجابة فى الضراء ففى حديث البخارى : « تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِى الرَّخَاء يعْرِفْكَ فِى الشِّدَّةِ » .

وفى حديث الترمذى عن أبى هريرة : « مَنْ سَرَّهُ أن يَسْتَجِيبَ الله – تَعَالَى – لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكُرُوب فَلْيُكْثِرْ الدُّعَاءَ فِى الرَّخَاءِ » .

والآثار فى ذلك كثيرة ، والمراد من الإنسان : الجنس المتحقق فى الكافر الذى يلجأُ إلى الله فى الشدة وينساه بعد إنقاذه منها .

ثم أخبر القرآن الكريم المخاطبين بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم – بإهلاك المكذبين من الأُمم السابقة ليكون إنذارا لمن جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقال تعالى :

١٣ – (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا وا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) :

[illegible] من قبل زمانكم يا أهل مكة مثل قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم حين [illegible] فى الغى والضلال وتكذيبهم لرسلهم ، وقد جاءوهم بالآيات الواضحة والحجج الظاهرة [illegible] على صدقهم ، كذبوهم فى هذه الحالة التى لا ينبغى فيها التكذيب والكفران ، لأنها تدعو إلى التصديق وتقتضى الإيمان .

ثم بين القرآن أن هؤلاء لايستقيم منهم إيمان ، ولا يصح منهم إذعان لفساد فطرتهم بإصرارهم على رد رسالات الله فى قوله :

(وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا) :

أى وما صح لهؤلاء المُصِرِّين على الكفر والفساد أن يؤمنوا لبعدهم عن الإيمان ، إذ أفسدوا فطرتهم بسوء اختيارهم الضلالة على الهدى ، مع وضوح الحجة وسطوع البرهان .

(كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) :

أى مثل ذلك الجزاء الأليم الذى حلّ بالمكذبين من الأُمم الماضية ، نجزى كل طائفة أجرمت وطغت وبغت وكفرت بأنعم الله .

وفى الآية تهديد لكفّار مكة بأن يصيبهم ما أصاب المكذبين قبلهم ، فقد اشتركوا مع المهلكين السابقين فيما يقتضى الإهلاك وهو كفرهم برسل الله .

(ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾) .

المفـردات :

(خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ) : خلفاء فى الأرض بعد إهلاك المكذبين السابقين .

التفسير

١٤ - (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) :

بعد أن أوضحت الآية السابقة سبب إهلاك الأُمم السابقة وهو أنهم أتتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا ، جاءت هذه الآية توضح لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم أنهم خلف للأُمم السابقة ، وفى محل الاختبار فقال تعالى :

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) :

أى : ثم جعلناكم أيها المخاطبون بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم خلفاء فى الأرض تصلحون ولا تفسدون ، من بعد أن أهلكنا المكذبين قبلكم ، الذين تسمعون أخبارهم وتشاهدون آثارهم .

(لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) : أى استخلفناكم من بعدهم . لنعلم واقعًا منكم وموجود أى عمل تعملون خيرًا كان أو شرًّا ، مع ثبوت علمنا أزلا بما سيكون منكم ، ليكون الجزاء على ما يقع منكم فعلا .

والمراد : أنه تعالى يعاملكم معاملة من يختبر إنسانًا ، ليظهر من أمركم ، ما علم أزلا أنه سيحدث منكم باختياركم لتقوم به الحجة عليكم ، فيجازيكم على ما صدر منكم .

وأسلوب الآية يشعر باستمالة المخاطبين نحو الإيمان ، إذ الأصل أن يكون الاستخلاف بعد اختيار ، فإذا شعر المخاطب أنه اختير لما استخلف فيه ، لَانَ قلبهُ وانجذبت نفسه نحو القيام بعمل الصالحات .

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا) : لا يتوقعون مجىء البعث ، والمراد أنهم ينكرونه .

(وَلَا أَدْرَاكُمْ) : ولا أعلمكم الله بالقرآن عن طريق الوحى به إلىَّ .

(فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِن قَبْلِهِ) : أى فقد أقمت بينكم زمنًا طويلا من قبل نزول القرآن علىَّ .

(لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) :أى لاينجون مما يحذرون ولا يفوزون بما يطلبون .

التفسير

١٥ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا . . .) الآية .

فى الآية السابقة خطاب من الله تعالى لأهل مكة يخبرهم فيه باستخلافهم فى الأرض ، بعد إهلاك المكذبين من الأمم الماضية ، تليينًا لقلوبهم ، واستمالة لهم إلى الإيمان ، ثم جاءت هذه الآية تعدد بعضًا من جرائمهم الدالة على أنهم لم يستجيبوا لدعوة الإيمان ، ولم يقوموا بما يقضى به استخلافهم ،فقد بينت إصرارهم على الكفر بآيات القرآن البينات ، والتكذيب بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، كدأب من أهلكوا قبلهم بتكذيبهم .

والمعنى :وإذا تتلى منك أيها الرسول على هؤلاء المكذبين المعاندين آياتنا العظيمة الصادقة ،التى أنزلناها عليك واضحة فى دلالتها على التوحيد وإبطال الشرك ، مرغِّبة فى الإيمان منفِّرة من العصيان .

(قَالَ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ) :

أى وإذا تلوت عليهم أيها الرسول آياتنا العظيمة الصادقة قال الذين لايتوقعون البعث ولا يؤمنون بيوم القيامة ردًّا لها وكفرًا بها ، أحضر يا محمد قرآنًا غير هذا القرآن الذى تتلو منه علينا .

أى جيء بكتاب آخر نقرؤه لا تكون فيه آيات تخبر عن وقوع البعث ويكون خاليًا مما نكره ، من ذم آلهتنا ووعيد من يعبدها بالعقاب الشديد، وهم بهذا الطلب يريدون تغيير القرآن كله ، بما فيه مما ينكرونه أما قولهم : (أَوْ بَدِّلْهُ) فهم يريدون به تبديل الآيات التى تسفه عقولهم وعقول آبائهم وتثبت البعث والعقاب على الشرك بآيات خالية عن ذلك مع استبقاء سواها .

ولا شك فى أنهم قصدوا من هذا الطلب الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بناءً على طمعهم فى تحقيق إجابته لهم ، ليتوسلوا بذلك إلى الاستهزاء به والسخرية منه ، وإلزامه بما جاء به مما يوافق هواهم ورأيهم فى آلهتهم ، كما اقترحوه عليه ، وحينئذ لا يبقى له ولا لنبوته شأن فيهم .

وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يرد عليهم بقوله :

(قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي) :

أى قل أيها الرسول لهؤلاء المتعنتين ، مايصح وما ينبغى لى أبدًا أن أضع آية مكان آية أخرى من جهتى وبرأيى دون أمر من الله سبحانه وتعالى .

والمراد بهذا الجواب رد الاقتراحين معًا لأن تبديل آية مكان آية ، أخف من الإتيان بقرآن غير هذا القرآن الذى نزل ، وإذا امتنع السهل واستحال امتنع الصعب واستحال بالطريق الأولى ، ومما أمر به صلى الله عليه وسلم ، بيانا بشأنه وحاله فى تلقى الشريعة وإبلاغها للناس قوله تعالى :

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ) : أى ما أتبع أيها الناس فيما أفعل وأترك إلا ما ينزل به الوحى من عند الله دون أن أغيِّر منه شيئًا ، وكذلك أمر الله أن يقول تعليلا لاتباعه الوحى وامتناعه من التبديل :

(إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

أى إنى أخاف إن عصيت مولاى الذى أرسلنى ، بترك السير فى طريق الوحى المستقيم ، أخاف عذاب يوم عظيم تكثر فيه الأهوال وتشتد الكربات وهو يوم القيامة .

١٦ - (قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ....) الآية .

بعد أن بين القرآن الكريم فى الآية السابقة أن لا سبيل إلى ما اقترحوه تعنتا ، جاءت هذه الآية الكريمة تثبت أن القرآن حق ، وأنه من عند الله العزيز الحكيم .

والمعنى :قل أيها النبي لهؤلاء المنكرين عنادًا واستكبارًا : لو شاء الله تعالى أن لا يجعلنى رسولا إليكم ما تلوته عليكم ولاأدراكم به عن طريقى ، فإن ذلك مما لاسبيل لى إليه .

(فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

أى فقد أقمت بينكم زمنًا طويلا مقداره أربعون سنة ، عرفتم فيها جميع أحوالى وأحطتم خبرًا بكل أقوالى وأفعالى من قبل أن ينزل القرآن على ، فقد كنت لا أتكلم بينكم بما يشبه القرآن فى نظمه المعجز ، ومعناه الموضح لأحكام الشريعة من عبادات ومعاملات وأخلاق ، وأخبار الأمم الماضية مع رسلهم ، وغير ذلك مما جاء به القرآن ، كما كنت معروفًا بينكم بالصدق والأمانة ،أتغفلون عن ملاحظة ذلك فلا تدركون وجوب كونه من عند الله العزيز الحكيم ، ولا تعقلون امتناع صدوره عن مثلى ، وكيف يعقل أن أعرف بينكم فى هذا العمر الطويل ، بأننى لا أكذب على الناس ، ثم أكذب على الله المنتقم الجبار ، إن استحالة صدوره عنى أمر لا يخفى على من كان له أدنى فكر وأقل تدبر .

١٧ ـ (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) :

بعد أن أفادت الآية السابقة أن القرآن الكريم نزل بأمر الله تعالى ومشيئته على رسوله صلى الله عليه وسلم جاءت هذه الآية تبين للناس أن من اختلق كلامًا من عند نفسه ونسبه إلى الله تعالى يكون أظلم الظالمين .

والمعنى : إذا كنت التزمت الصدق والأمانة مع الناس لأن الكذب ظلم ، فلهذا يستحيل أن أفترى الكذب على الله فلا أحد أعظم ظلما من الذين يختلقون على الله مالم ينزله عليهم ، أو يكذبون بآيات الله سبحانه وتعالى .

والمراد بيان براءته صلى الله عليه وسلم مما جوزه المشركون فى حقه من الافتراء على الله والتنبيه على أنهم هم أظلم من كل الظالمين ، إذ كذبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم وكفروا بجميع ما جاء به من عند ربه .

(إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) :

أى إن الشأن الثابت عنه تعالى فى علمه القديم ـ أنه لايفوز أى مجرم بمطلوب يطلبه ولا يسلم من مكروه يخافه فلا ينجوا الذين افتروا على الله وكذبوا آياته بالأولى لأن جرمهم أشد وأشنع .

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾)

المفـردات :

(أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ) : أى أتخبرون الله بشفعاء لايعلمهم فى السموات ولا فى الأرض ، والمراد نفى وجودهم إذ لو وجدوا لعلمهم الله سبحانه .

(أُمَّةً وَاحِدَةً) : جماعة متفقة على الحق فى أصل الفطرة .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ) : أى ولولا قضاء الله بتأخير الفصل بين المحق والمبطل إلى يوم القيامة .

التفسـير

١٨ ـ (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَالَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ . . .) الآية .

بعد أن ذكرت الآيات السابقة طائفة من جرائم الكفار أهل مكة ، جاءت هذه الآية الكريمة تحكى عنهم جناية أخرى لعلها السبب فى تلك الجنايات السابقة .

أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال :

كان النضر بن الحارث يقول إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى فنزلت هذه الآية .

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَالَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ) :

أى ويعبد هؤلاء المشركون من أهل مكة غير الله أصنامًا جعلوها له سبحانه شركاء فى العبادة فى حين أنها لا تستطيع أن تلحق بهم ضررًا ولا أن تجلب لهم نفعًا ، وشأن المعبود أن يكون قادرًا على الضر والنفع .

(وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ) :

أى ويقول هؤلاء المشركون تبريرًا لعبادتهم لها : هؤلاء الأوثان شُفَعَاؤُنَا فى الحياة الدنيا نتوسل بها إلى الله لإصلاح معاشنا وكل ما يهمنا من شئون هذه الحياة ، وشفعاؤنا فى الآخرة إن كان هناك بعث أو نشور كما زعمتم ، يشفعون لنا فى تخفيف العقاب عنا .

وبهذا التأويل ظهر أنه لاتنافى بين ما فهم من هذه الآية وبين الآيات الدالة على إنكارهم البعث كقوله تعالى : « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَايَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ » وأمثاله .

وحال هؤلاء المشركين إن دل على شىء فإنما يدل على فرط جهالتهم وفظاعة حماقتهم ، إذ تركوا اللجوء إلى الخالق النافع الضار ، وتوسلوا بما يقطع الحس والنظر بأنه لا يضر ولا ينفع .

ثم أمر الله تعالى ، رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم تبكيتًا وتقريعًا :

(قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ) :

أى قل أيها الرسول لهؤلاء الحمقى إنكارًا عليهم وتوبيخًا لهم ، وسخرية منهم ، أتخبرون الله تعالى بشىء لا وجود له أصلا فى السموات ولا فى الأرض ، وهو أن الأصنام شفعاؤكم

عند الله تعالى إذ لو وجد ذلك فيهما وثبت ، لعلمه الواحد الصمد علام الغيوب فى جميع الكائنات ، فما لايعلمه فهو معدوم وليس له وجود ، فالمراد من نفى علمه تعالى به نفى وجوده فما لايعلمه فهو معدوم وليس له وجود .

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

أى تنزيهًا لله تعالى عن إشراكهم الذى بنوا عليه هذا القول الزائف ، وعن الشركاء الذين يشركونهم فى العبادة معه تعالى .

١٩ - (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

بعد أن أشار القرآن الكريم إلى أن التوحيد هو الدين الحق وأن الشرك والانحراف ظلم عظيم ، وجهالات ابتدعها أهل الغى والضلال ، جاءت هذه الآية تؤكد هذا المعنى وتقرره ، إذ أفادت أن التوحيد ملة قديمة اجتمعت عليها الأمم قاطبة فطرة وتشريعًا .

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا) :

أى وما كان الناس كافة من لدن آدم عليه السلام إلا متفقين على الحق والتوحيد ، وظلوا كذلك حتى أغوى الشيطان فريقًا منهم فكفر ، وثبت الآخرون على التوحيد الذى فطروا عليه فخالف كل من الفريقين الآخر .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ) :

أى : ولولا أن قضى الله فى سابق علمه بتأخير الفصل بين المؤمنين وغيرهم إلى الأجل الذى حدده فى سابق علمه وهو يوم القيامة .

(لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

أى : لحكم بينهم عاجلًا فى الدنيا بإهلاك المبطلين .

(وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾)

التفسير

٢٠ـ (وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ) :

تحكى هذه الآية الكريمة جناية أُخرى من جنايات أَهل مكة ، حين بينت أَنهم علقوا إِيمانهم على نزول آية سوى ما أَنزله الله تعالى من المعجزات وفى مقدمتها القرآن الكريم .

والمعنى : ويقول الكافرون من أَهل مكة - تعنتًا وعنادًا - هلا أَنزل الله على محمد آية من الآيات التى اقترحناها لنؤمن به رسولا من عند الله .

فأَنت تراهم لفرط عتوهم وشدة تماديهم فى المكابرة والضلال ، لم يعدُّوا ما جاءَ به من الآيات البينات والمعجزات الباهرات كافيًا لقبولهم الهدى والدخول فى دين الله وقد أُمر - صلى الله عليه وسلم أَن يرد عليهم فى قوله :

(فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلهِ فَانتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ) : أَى فانتظروا نزوله إِنى معكم من المنتظرين ، لكننى منتظر مايفعله الله بكم ، لاجترائكم جحود آياته .

(وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً) : أَنعمنا عليهم بالرحمة والمراد بها الصحة والسعة .

(مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ) : أى من بعد ضراء أصابتهم حتى أحسوا بشدتها عليهم .

(إِذَا لَهُم مكْرٌ فِى آيَاتِنَا) : المراد بالمكر هنا الطعن فى آيات الله وعدم الاهتداء بها والاحتيال فى ردها ، والمكر فى الأصل تدبير الكيد فى خفاء .

(قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا) : المراد بيان أن الله أعجل عقوبة وأشد أخذًا .

التفسير

٢١ – (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ ....) الآية .

روى أن الله جل شأنه سلط على أهل مكة القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم بالخصب ووعدوه بالإيمان ، فلما دعا لهم واستجاب الله دعاءه ورحمهم بإنزال المطر ، أخذوا يطعنون فى آيات الله تعالى ويكيدون لرسوله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية .

والمعنى : وإذا أنعمنا على هؤلاء الكفار وأمثالهم بنعمة الصحة والسعة ، وأفضنا عليهم أنواع الخير ورحمناهم بكشف ما نزل بهم من المصائب الأليمة والمكاره الشديدة التى خالطتهم وأحاطت بهم حتى أحسوا بشدة وطأتها عليهم وسوء أثرها فيهم ، إذا رحمناهم بكشفها سارعوا سرًّا وفى خفاء إلى تدبير ضروب الكيد لآياتنا التى أنزلناها على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم واحتالوا فى دفعها وبالغوا فى تكذيبها .

(قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا) :

أى قل أيها الرسول لهؤلاء الماكرين تهديدًا لهم ووعيدًا :

الله جلت قدرته أعجل عقوبة وأشد أخذًا فلن يصل من كيدهم شىءٌ إلى رسول الله ، ولا إلى الحق الذى جاء به من عند الله ، وتسمية عقاب الله مكرًا لذكره مع مكرهم فى سياق واحد[1] ، ثم أكد القرآن الكريم تهديدهم حين قال تعالى :

(١) وهذا نوع من البلاغة يسمى مشاكلة .

(إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ) :

أى : إن ملائكتنا الذين أمرناهم بحفظ أعمالكم وإحصائها عليكم ، مستمرون على كتابة ما دأبتم على تدبيره من الكيد فى خفاء ، ولم يخف عنهم ما بالغتم فى إخفائه ، وكيف يخفى على منزل الآيات علام الغيوب : وفى إخبار الله بإحصاء الحفظة لكيدهم بهذا الأسلوب المؤكد تحقيق لعقابهم على وجه بليغ .

(هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(الْفُلْكِ) : السفن .

(بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) : بريح لينة الهبوب تسير بهم إلى المقصد .

(رِيحٌ عَاصِفٌ) : [redacted] الهبوب ، وعصفت الريح : اشتدت ، وهو من باب جلس يجلس .

(الْمَوْجُ) : ما علا وارتفع من الماء بسبب اضطراب مياه البحر من أثر اشتداد الريح .

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ) : أى حوصروا بالشدة .

(إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ) : أى يسارعون إلى الإفساد فى أنحاء الأرض متجاوزين حدود ما أمر الله به ، والبغى التعدى والطغيان .

التفسير

٢٢ - (هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ . . .) الآية .

فى هذه الآية والتى بعدها حكاية جناية أخرى من جناياتهم مترتبة على ما مر من اختلاف أحوالهم تبعًا لاختلاف ما ينزل بهم من السراء والضراء .

سبب النزول :

عن سعد بن أبى وقاص قال : « لمَّا كان يوم الفتح فرَّ عكرمة بن أبى جهل فركب البحر فأصابهم عاصف فقال أصحاب السفينة لركابها : أخلصوا فإن آلهتكم لاتغنى عنكم شيئًا فقال عكرمة : لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص ما ينجينى فى البر غيره ، اللهم إنَّ لك عهدًا إن أنت عافيتنى مماأنا فيه ، أن آتى محمدا حتى أضع يدى فى يده ، فلأجدنه عفُوًّا كريمًا قال : فجاء فأسلم » أخرجه أبو داود والنسائى وغيرهما .

والمعنى : هو الله الذى يُيَسِّر لكم أيها الناس سبل السير فى البر مشاة وركبانًا - وفى البحر - على ظهور السفن .

ثم حكى القرآن الكريم ما كان من أحوالهم بعد ركوبهم السفن وسيرها بهم فى البحر فى قوله تعالى :

(حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا) :

أى حتى إذا ركبتم السفن أيها الناس وجرت تلك السفن بمن فيها جريًا هادئًا مريحًا ، بسبب هبوب ريح لينة تتجه بسفنهم إلى الجهة التى يقصدونها ، وفرح الراكبون بتلك الريح الطيبة الهادئة التى تسير بسفنهم فى أمان واطمئنان إلى ما يريدون .

(جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ) :

أى حتى إذا كان راكبو تلك السفن على هذه الحال من الهدوء والاستقرار ، هبت على تلك السفن ريح شديدة سريعة السير أهاجت مياه البحر ، فارتفعت الأمواج واضطربت ، وأحاطت بالسفن وبمن فيها من كل جانب ، وتقاذفتها من موجة إلى أخرى ، وظن راكبوها أن مسالك النجاة قد سدت أمامهم ، وأن الهلاك قد أحاط بهم من كل جانب ، وأنهم لا محالة هالكون فى هذه الشدة .

(دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) :

أى فى هذا الوقت الذى أوشكوا فيه على الهلاك ، رجعوا إلى أصل فطرتهم ، فدعوا الله وحده مخلصين له الدين ، غير مشركين معه سبحانه شيئا من الآلهة التى عبدوها من دون الله ، دعوا الله قائلين فى دعائهم :

(لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) : أى والله لئن أنقذتنا من هذه الكارثة المحيطة بنا ، لنكونن حتما بعد نجاتنا مما نزل بنا من أهوال من جملة الشاكرين دائما لنعمك الوفيرة وأفضالك العميمة ، فنشكر تفضلك علينا بالخلاص من أهوال البحر استجابة لدعائنا .

٢٣ ـ (فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) :

أى فلما استجاب الله تعالى لهم وأنقذهم مما نزل بهم من الأهوال والكربات ، بعد تضرعهم إليه ، سارعوا إلى الإفساد فى أقطار الأرض بغير حق ، ممعنين فى ذلك ومستمرين هذا الظلم الظاهر القبيح .

ثم خاطب القرآن الكريم هؤلاء الطغاة الباغين بما فيه تهديد لهم ووعيد بليغ على ظلمهم فقال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) :

أى يا أيها الناس الطغاة المعتدون إنما ضرر هذا الظلم الشديد الذى ترتكبونه فى الأرض ، يعود فى نهاية الأمر عليكم أنتم ، ولا يعود شىء منه على الذين تجاوزتم الحدود فى ظلمهم ـ

فإنَّ ما أصابهم من آثار ظلمكم لهم فى الدنيا، لا قيمة له ما داموا من أهل النعيم الدائم فى الآخرة، والآخرة خير وأبقى - وأما أنتم يا أيها الطغاة فإنما تتمتعون بثمرة بغيكم على الآمنين تمتُّعًا قاصرًا على الحياة الدنيا، ومتاع الدنيا قليل لا يعتد به، فهو سريع الزوال جالب للنكال مستتبع لعقاب العزيز القهار.

ثم زاد القرآن الكريم فى تهديدهم، وأكد وعيدهم حين قال:

(ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ):

أى ثم إلينا وحدنا رجوعكم أيها الباغون يوم القيامة لنذيقكم عقاب ما قدمتم فى حياتكم الآثمة، فنخبركم بما كنتم مستمرين عليه فى الدنيا من البغى والإفساد فى الأرض - نخبركم بذلك - زيادة فى إيلامكم والتنكيل بكم.

(إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾)

المفردات:

(مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا): صفة الحياة الدنيا من حيث سرعة انقضائها وزوال مُتَعِها.

(فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ): أى فاختلط بسببه نبات الأرض، بأن كثر فتشابك بعضه ببعض.

(وَازَّيَّنَتْ) : أى وتزينت بأنواع النباتات وأشكالها وألوانها المختلفة.

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا) : ظنوا أنهم متمكنون من تحصيل ثمرات الأرض .

(أَتَاهَا أَمْرُنَا) : أى نزلت بها الآفات التى اجتاحت النبات والثمار .

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ) : أى فجعلنا نبات الأرض هالكا كأنه لم يوجد فى الأرض قبل هلاكه .

التفسير

٢٤ - (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . .) الآية .

بعد أن بين القرآن الكريم فى الآية السابقة أن التمتع بالبغى على الناس قاصِرٌ على الحياة الدنيا ، جاءت هذه الآية تقرر هذا المعنى ، ببيان قصر أمدها وسرعة زوال نعيمها ، فلا ينبغى قصر الهمة عليها وحدها .

والمعنى : إنما مثل الحياة الدنيا وصفتها العجيبة فى سرعة انقضاء زمنها وزوال متعها وزينتها وجاهها ، بعد إقبالها على الناس واغترارهم بها وركونهم إليها - مثل هذه الحالة - كمثل الحالة الناشئة من نزول المطر من السماء على الأرض ، وإنبات الله به أنواع النبات مما يطعم الناس والأنعام ، واستمرار نموه بالماء حتى كثر وتشابك بعضه ببعض ، وتزينت الأرض بأنواع النباتات المتعددة وأشكالها المتفاوتة وألوانها المختلفة وطعومها المتنوعة ، وصارت كالعروس التى ازدانت بألوان الثياب وأنواع الزينة الفائقة ، وظن أصحاب تلك الأرض أنهم متمكنون من تحصيل ثمراتها ، جامعون لخيراتها فى هذه الحالة .

(أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا) :

أى أتاها الهلاك الذى قضاه الله وأمر به فى وقت الغفلة وفى وقت اليقظة ، فهما سواءٌ فى أن أصحاب تلك الأرض التى دنا جنى قطافها لايستطيعون دفع أمر الله عنها وحين أصابتها الآفات صيَّر الله نباتها مستأصلا هالكا كأنه لم يكن موجودا فى الأرض قبل نزول الجوائح .

والخلاصة :

أن القرآن صور للناس حال الدنيا فى سرعة انقضاء زمانها وزوال نعيمها ، بعد إقبالها على الناس واغترارهم بها واطمئنانهم إليها -صورها- بصورة ما على الأرض من أنواع النباتات التى زالت بهجتها ونضارتها فجأة وصارت حطاما ولم يبق لها على الأرض من أثر ، بعد أن ترعرعت ونمت وقويت سيقانها وتزينت الأرض بألوانها المختلفة، وأوشك الناس أن يجنوا قطافها وظنوا أنها قد سلمت لهم من المهالك .

(وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾)

التفسير

٢٥- (وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ) :

بعد أن حذر القرآن الكريم من الاغترار بالحياة الدنيا والعمل لها وحدها رغَّب فى العمل للفوز بدار السلام وهى الجنة.

والمعنى : والله - تعالى - القادر على كل شىء الغنى عن العالمين يدعو الناس إلى دار السلام - وهى الجنة - بِدَعْوَتِهِم إلى الإسلام والعمل بشريعة القرآن .

وسميت الجنة دار السلام لسلامة أهلها من كل آفة ومكروه ، أو لأن الله تعالى يسلم عليهم فيها ، أو لأن الملائكة على أبوابها يقولون للداخلين فيها : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » . أو لأن أهل الجنة يسلم بعضهم على بعض فيها كما قال تعالى : « تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » .

(وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) : أى ويرشد الله من أراد هدايتهم وهم الذين وفقهم إلى اختيار الهدى على الضلالة - يرشد هؤلاء - إلى طريق معتدل لاعوج فيه وهو الإسلام والعمل بشرائعه .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة
محمد حمدي السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٦٩٢ - ١٩٧٩ - ٢٥٠٠٠٤



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الثانى والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٠

(* لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾)

المفـردات :

(الْحُسْنَى): أى المثوبة الحسنى فى الجنة ، وهى تتفاوت حسب تفاوت درجات الإحسان .

(يَرْهَقُ) : يغشى ويغطى .

(قَتَرٌ) : أى غَبَرَةٌ فيها سواد كالقترة ، ومن معانيهما فى اللغة الدخان الكثيف من شواء أو فحم أو حطب أو غيره .

التفسير

٢٦ - (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) :

فى الآية السابقة دعا الله إلى دار السلام ، فمن الناس من أحسن استجابة الدعوة والعمل بها ، ومنهم من انصرف عنها ، وقد جاءت هذه الآية لتبين جزاء من أحسن الاستجابة ، وأول درجات الإحسان بعد الإيمان فعل الواجبات وترك المنهيات ، وأكمل درجاته : « أَن تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِن لَّمْ تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » كما جاء فى حديث رواه مسلم. وقد وعد الله تعالى فى الآية بمكافأة المحسنين وزيادتهم فوق ما يستحقون ، وفى بيان ذلك روى الشيخان عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فيَقولُون : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْر فى يَدَيْكَ فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ بِى ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبَّنَا وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَالَمْ تُعْطِ أَحَدًا منْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ : أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ منْ ذَٰلِكَ ؟ فَيَقُولُونَ : وَأَىُّ شَىْءٍ أَفْضَلُ منْ ذَٰلِكَ ؟ فَيَقُول : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِى فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا » .

وللمفسرين والمتكلِّمين فى الزيادة المذكورة فى الآية آراءٌ : فعن الحسن رضى الله عنه أنها مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها فأكثر إلى سبعمائة ضعف أو تزيد : وعن مجاهد رضوان الله عليه . هى مغفرة الله تعالى ورضوانه ، ويرى جمهرة أهل السنة . أنها النظر إلى وجه الله سبحانه بعد حصولهم على ثوابه فى الجنة ، كما قال تعالى : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »[١]. أى يوم القيامة ، فقد أثبتت هذه الآية لأهل الجنة أمرين أحدهما النضارة وهى حسن الوجوه ، والثانى النظر إلى وجهه الكريم ، وإلى الأول يشير قوله تعالى هنا :

(وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) :

أى أن أولئك المحسنين مكرمون أيضًا بأن تتألق وجوههم بنضرة النعيم ، فلا يلحقها قتر وهو الغُبْرة فى سواد ، ولا تلحقها ذلة وهى الخجل والانكسار ، والقتر حالة حسية والذلة حالة نفسية ، وقد أخبر الله بعد ذلك بأنهم أصحاب الجنة ، وذلك يشعر بأنها كالملك لهم (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) : لا يخرجون منها أبدًا ، كما قال تعالى : « وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ »[٢] .

والآية فى أسلوبها تقصر الحسنى بجميع أنواعها على المحسنين وحدهم ثم تفيد أن الله يفيض عليهم زيادة عن الحسنى أنواعًا من الإنعام لا تعد ولا تحصى ، وأعلاها النظر إلى وجهه الكريم ، كما جاء فى الآية السابقة ، وأن يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدًا ، كما جاء فى حديث الشيخين الذى تقدم ذكره ، وقد أعد الله لخيار المحسنين منازل فى عليين ، وهى أعلى مكان فى الجنة ، وفيهم يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ عِلِّيِّينَ لَيُشْرِفُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُضِيءُ الْجَنَّةَ بِوَجْهِهِ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ » أخرجه أبو داود .

(١) سورة القيامة ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ (٢) سورة الحجر ، من الآية : ٤٨

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

المفـردات :

(كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ) : عملوا المعاصى من كفر وغيره .

(مِنْ عَاصِمٍ) : من حافظ ومانع .

(أُغْشِيَتْ) : غطيت .

التفسير

٢٧ - (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ) :

بينت الآية السابقة جزاء المحسنين ، وجاءت هذه الآية لتُبين عقاب المُسيئين ، وقد أفادت أنهم يجازون بالعدل المطلق ، فلا تضاعف سيئاتهم كما ضوعفت حسنات المحسنين بل يجزون بقدرها وهم لا يظلمون ، ونظرًا لترقُّبهم وقوع سوء الجزاء تعلوهم وتحيط بهم ذلة وهوان من شدّة الخزى وعقاب الله لهم ، فهم بين ألم حسىّ وألم نفسى وليس لهم من دون الله منقذ أو مدافع يحميهم من عذابه الأليم ، ثم بين الله تعالى أثر حيرتهم ويأسهم على وجوههم فقال :

(كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا) :

فإنَّ زيادة آلامهم وشعورهم بالمذلة قد جعل وُجُوهَهُم كأنها مغطاة بقطع متراكمة من الليل المظلم لفرط سوادها وشدّة ظلمتها « وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ »[1] .

(١) سورة النور ، من الآية : ٤٠

(أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) : أى أولئك الموصوفون بالصفات الذميمة السابقة أصحاب النار المستحقون لها فهى مقصورة عليهم لسوء فعلهم جزاءً وفاقًا :

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(فَزَيَّلْنَا) : فرقنا وفصلنا .

التفسير

٢٨ – (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ) :

تعرض الآية الكريمة وما تلاها مشهدًا من أهوال البعث والنشور « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »[١] إذ ينساق الخلائق إلى موقف الحشر من مشركين وما عبدوه من دون الله ومن غيرهم لا يتخلف منهم أَحَدٌ ، وفى حشر المشركين وما يعبدون يقول الله تعالى : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ »[٢] فإذا تقدموا سمعوا زجرًا عنيفًا حين يقال لهم بأمر الله :

(مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ) : أى الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم للسؤال والجزاء قال تعالى : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ »[٣]

---

(١) المطففين ، الآية : ٦ (٢) الفرقان ، من الآية : ١٧

(٣) الصافات ، الآية : ٢٤

(فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ) :

أى ففرقنا بين المشركين والشركاء ، أى قطعنا الصلة التى كانت بين العبدة ومعبوداتها فى الدنيا ، فقد تبين الحال وخابت فيهم الآمال ، ولم يعد لهم أمل فى شفاعتهم فيئسوا منهم ، وابتعدوا عن اللجوء إليهم ، وقيل إن التفريق بينهم فى الموقف حسى ، والأول هو اللائق بالمقام ، وحينئذ تبرأ الشركاء من عابديهم ، قائلين لهم : ما كنتم تخصوننا بالعبادة فى الحقيقة ، بل كنتم تعبدون شهواتكم وشياطينكم التى دعتكم إلى الإشراك ، وهؤلاء الشركاء المتبرئون إما أصحاب عقل وإدراك كالملائكة والبشر ، وإما غيرهم كالأصنام والكواكب ، أما تبرؤ الأولين من عابديهم فلا يحتاج إلى تأويل ، وأما تبرؤ نحو الأصنام ، فيكون بلسان الحال أو المقال ، بأن ينطقها الله الذى أنطق كل شيء « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ »[1] .

٢٩ - (فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ) :

بَعْدَمَا تبرأ الشركاء من عبادة عابديهم ، استشهدوا بالله على براءتهم منها ، قائلين : فيكفينا الله شهيدًا بيننا وبينكم على براءتنا من إشراككم ، فإننا لم نجبركم عليه ، ولا أشرنا عليكم به وإن شأننا معكم أننا كنا عن عبادتكم لنا غافلين : والمراد من الغفلة هنا عدم رضاهم عنها .

(هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾)

المفـردات :

(تَبْلُو) : تعرف يقينًا ما قدمت .

---

(١) البقرة ، الآية : ١٦٦

التفسير

٣٠ـ (هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ) :

أى : فى هذا المكان ، وهو موقف الحساب ، تعرف يقينًا كل نفس مؤمنة أو كافرة ، سعيدة أو شقية ، ما عملت فى الدنيا من خير أو شر ، فتراهما فى كتاب « . . . لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »[١] .

وفى قراءة أخرى (تَتْلُو) أى تقرأ صحيفة أعمالها قراءة تعطيها صورة واضحة صادقة لكل ما عملته فى الدنيا « اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا »[٢] .

(وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

أى ورجعوا إلى الله فى الآخرة وعرفوا أنه تعالى هو المالك الحق وحده دون ما اتخذوه من الأنداد والشركاء ، وهكذا غاب وذهب عنهم ما كانوا يدعون زورًا وبهتانًا من الشفعاء والشركاء ، وظهر ضلاله وبطلانه ، فلم يجدوا أحدًا ينقذهم ولا ينصرهم من دون الله « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ »[٣] .

(قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) : يصرف شأن الكائنات بنظام دقيق وحكمة بالغة .

(١) الكهف الآية : ٤٩
(٢) الإسراء الآية : ١٤
(٣) الانفطار الآية : ١٩

التفسير

٣١ - (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) : بعد أن صورت الآيات السابقة مشهدًا رهيبًا من مشاهد القيامة يهيئ النفوس للتوبة والإنابة إلى الله، جاءت هذه الآية وما بعدها تناقش المشركين فى قضيه الألوهية أهم القضايا الدينية، وتضعهم أمام البراهين العقلية الواضحة، وتحذرهم وتنذرهم بعد ذلك من الخروج عن دائرة الحق، واعلم أنَّ المشركين يؤمنون فى قرارة نفوسهم بخالق واحد يصرف الأُمور وهو الله تعالى، ولكنهم يتخذون إليه الشفعاء ليقربوهم إليه زلفى، وقد أمر الله رسوله أن يسألهم سؤال إفحام وإلزام، ليعدلوا عما هم فيه من الإشراك فى العبادة . فقال له :

(قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) :وهو سؤال يتناول أُمورًا حسية تتعلق بكيانكم وحياتكم اليومية وهو الرزق المتجدد من السماء بإنزال المطر، ومن الأَرض بإنبات النباتات وخلق الحيوان وتربيته، والإمداد بأَنواع المعادن المختلفة والمياه الجوفية. وما تستخرجونه من البحر من أَسماك وخيرات، وما يدرج على الأَرض أَو يحلق فى السماء من أَنواع الطيور وغير ذلك من سائر الأَرزاق، فلا شك أَن هذا الرزق بأَنواعه هو من عند الله تكريمًا لكم وحفظًا لحياتكم - كما سيجىءُ بيانه فى آخر الآية :

(أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) : هذا هو السؤال الثانى الذى أَمر الله رسوله أن يوجهه إلى المشركين، أَى أَخبرونى من يملك أَداة السمع وما أُعد فيها من أَسباب إدراك المسموعات؟ ومن يملك أداة البصر، وما هيئت به لإدراك المبصرات ؟

وقد جاء لفظ السمع مفردًا ولفظ الأَبصار جمعًا لأَن السمع يتناول نوعًا واحدًا هو الأَصوات، أَما الأَبصار فتتناول الأَحجام والأَبعاد والأَلوان والأَشكال، والسمعُ والأَبصارُ يدركان الغالبية العظمى من المحسات .

(وَمَن يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ) : هذا هو السؤال الثالث، أَى ومن ذا الذى يملك الحياة والموت فى العالم كله فيخرج الأَحياء والأَموات بعضها من بعض فيما تعرفون من المخلوقات التى تحدث أَو تموت، وذلك كالإنسان خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون وهو ميت ثم سواه ونفخ فيه من روحه فدبت فيه الحياة، فهذا

مثلٌ لإخراج الله الحى من الميت وهو الصلصال بعد الحمإ المسنون ، أما الميت يخرجُه الله من الحى ، فكالجنين يخرجه الله من أمه ميتًا ، وكالحيوان يميته الله بعد أن كان حيًّا ، وقيل فى معناه : يخرج المؤمن من الكافر . والكافر من المؤمن . وقيل غير ذلك .

(وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) : أى ومن يقوم بتدبير أمور العالم كله بعد إيجاده ، فسيكون جوابهم أن فاعل ذلك كله هو الله رب العالمين وحده بلا تردد فى الجواب ولا تأخير ، إذ لا مجال للمكابرة لوضوحه غاية الوضوح ، ولأنهم معترفون به ، ثم يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم تبكيتًا وتوبيخًا بقوله : (فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

أى أتقرون بأن الله هو الرزاق ، وهو الذى يهب السمع والأبصار ويملكهما ، والذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، والذى يدبر أمر الكائنات بحكمته - أتقرون بذلك - فلا تقون أنفسكم من عذابه بترك عبادة الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، ولا تقدر على شىء من هذه الأمور .

أليس الأجدر بمن يقرون بذلك كله أن يؤمنوا بالله وحده ، ويتقوه ويعبدوه مخلصين له الدين .

(فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) : أى فكيف تتحولون عن الحق .

(فَسَقُوا) : خرجوا عن طاعة الله ، وأصل الفسق الانسلاخ عن الجلد ، ومنه فسقت الرطبة عن قشرها ، أى انسلخت منه ، والفاجر فاسق لانسلاخه عن طاعة الله .

التفسـير

٣٢ ـ (فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ) : أى فذلكم القادر على الحق المتصرف فيه باعترافكم هو الله المربى لكم على موائد كرمه ، الذى تتوالى عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، الحقُّ الجدير بأن يعبد وحده دون شريك .

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) :

فى هذا تقرير بأن المعبود الحق واحد لا يتعدد وضده الباطل ، ولا وسيط بينهما . فلا يجتمع الإيمان والشرك فى قلب واحد ، وهذا استفهام للنفى والتوبيخ .

والمعنى إذا كان الله هو الرب الحق وانصرفتم عن إفراده بالعبادة فليس بعد ترك الحق إلا الضلال ، وهو إشراك الأصنام مع الله فى العبادة ، وهو أمر لا يختاره عاقل .

(فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ) . يعنى إذا عرفتم هذه الأمور الواضحة فكيف تنصرفون عن عبادة الله ، وكيف تتحولون عن الحق إلى الضلال بعد العلم بأنه هو الرازق المحيي المميت المدبر للأمر كله .

٣٣ ـ (كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) : أى وكما ثبت أن الحق ليس بعده إلا الضلال أو كما ثبت أنهم انصرفوا عن الحق بعد معرفته وجب وثبت حكمه تعالى على الذين تمردوا على طاعته أنهم لن يكونوا مؤمنين ما داموا مصرين على ما هم عليه ، والمقصود من الآية أن الله يتخلى عنهم فلا يعينهم على الإيمان ، فمن بَعُدَ عن الله بَعُدَ الله عنه ، « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[1] والمراد من كلمة (الله) حكمه وقضاؤه كما تقدم فى بيان المعنى .

---

(١) آل عمران ، من الآية : ١١٧

(قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾)

المفـردات :

(أَنَّى) : كيف .

(تُؤْفَكُونَ) : أى تصرفون عن الحق إلى الباطل .

التفسير

٣٤ - (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) : بعد أن احتج الله على المشركين بما سبق بيانه ، جاءت هذه الآية تحكى احتجاجًا آخر على ثبوت التوحيد وبطلان الإشراك ، بإظهار كون الشركاء لايتصفون بصفات الإله الحق .

والمعنى : قل لهم أيها الرسول سائلاً إياهم على سبيل الإنكار والتوبيخ والإلزام ، هل يوجد من بين هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء لله فى العبادة من له القدرة على بدء الخلق ثم إعادته بعد الفناء ؟ ولما كان هذا السؤال مما لا يجيبون عليه لإنكارهم البعث والمعاد : أمر الله رسوله أن يبين لهم من يستطيع ذلك وهو الله تبارك وتعالى فقال :

(قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) : لأنه هو القادر وحده على البدء باعترافهم ، ومن قدر على البدء ، فهو قادر على الإعادة ، كما قال تعالى : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »[1] وفى قوله تعالى (ثُمَّ يُعِيدُهُ) تهديد بالعقاب لهم يستدعى التفكير فى التوبة من الشرك .

(فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) : أى إذا ثبت أن الله هو القادر على البدء والإعادة فكيف تعدلون به غيره فتنقلبون من الحق إلى الباطل ، وتتركون التوحيد إلى الشرك إن فعلكم هذا لعجيب لا يصح أن يكون .

---

(١) الأعراف ، من الآية : ٢٩

(قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾)

المفـردات :

(يَهِدِّى) : يهتدى . .

(يُهْدَى) : أى إلا أن يهديه الله تعالى .

التفسير

٣٥ـ (قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ) : هذا احتجاج آخر على حَقِّية التوحيد وبطلان الشرك ، جىء به إلزامًا بعد إلزام ، والمعنى قل لهم أيها الرسول هل من هؤلاء الشركاء من يستطيع أن يرشد عابديه إلى الحق ببيانه أو بإلهامه وتوفيقه ؟ وهو أقل صفات الألوهية ، فإذا قالوا : لا . ولا بد لهم من ذلك : فقل الله وحده يهدى ويرشد إلى الحق بالأدلة والبراهين ، وبالإلهام والتوفيق ، وبإرسال الرسل وإنزال الكتب قال تعالى : « مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا »[١] .

(أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّايَهِدِّى إِلَّا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) : أى إذا كان الله هو الحق وهو الذى يهدى إلى الحق وحده فهل الذى يهدى إلى الحق أولى بالاتباع ، أم الآلهة الذين عبدتموهم من دونه وهم لايهتدون إلى مقصد من المقاصد إلا أن يهديهم الله إليه ، ولا شك أن جواب هذا السؤال يتعين عند العقلاء أن يكون : من يهدى إلى

(١) الكهف من الآية : ١٧

الحق – وهو الله – أحق بالاتباع والعبادة من هؤلاء الشركاء العاجزين عن الاهتداء إلى المقاصد إلا بهدايته لو أراد جل وعلا، وكما أنه لاوجه للموازنة بين القادر والعاجز، ولابين القوى والضعيف، فكذلك لاوجه للمقارنة بين الهادى وبين من يحتاج إلى الهداية، ولذا عقبه بما يفيد التعجب من حالهم، وذلك فى قوله تعالى: (فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ): أى فما الذى حملكم على اتخاذكم هؤلاء شركاء لله سبحانه وتعالى وكيف تحكمون هذا الحكم الجائر وأنتم تعرفون بطلانه؟

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾)

التفسير

٣٦ – (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا): بعد الأسئلة السابقة والأجوبة عليها التى دلت على حقية التوحيد وبطلان الشرك: جاءت هذه الآية توضح سبب خطئهم فى اعتقادهم وهو اعتماد أكثرهم على الظن فى أحكامهم.

والمعنى: ومايتبع أكثر هؤلاء المشركين فى معتقداتهم وأحكامهم إلا أوهامًا يتوارثونها عن آبائهم وأجدادهم، دون أن يكون لهم عليها من دليل يدعو إلى الاطمئنان واليقين، والمراد بأكثرهم جميع المشركين، فكلهم عقائدهم ظنية، ناشئة عن أوهام وخيالات، وقيل الضمير فى أكثرهم للناس جميعًا، وما يتبع أكثر الناس إلا الظن [1]، ثم بين القرآن الكريم أن الظن لايقوم مقام اليقين الناشئ عن البراهين القطعية فى شئون العقائد فقال:

(إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا): أى إن الظن لاتثبت به الحقائق، ولا يقوم مقام العلم اليقينى فى الاعتقاد الصحيح المطابق للواقع ولا يغنى عنه شيئًا، فكيف سميتم معبوداتكم آلهة زورًا وبهتانا وعبدتموهم من دون الله بغير برهان، وصدق الله إذ يقول فى شأنها: «إِنْ هِيَ إِلَّا

(١) وعلى هذا فالتعبير بأكثر على حقيقته.

أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ »[١] . والمراد هنا من الحق ماثبت بطريق وحي سماوي ، أو دليل عقلي مبنى على الآيات الكونية ، وقد استدل العلماء بهذه الآية وبما ورد في قوله تعالى : « إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا »[٢] على أن العلم اليقيني واجب على كل مسلم في أصول العقائد .

(إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) :أي إنه تعالى واسع العلم فيعلم أفعالهم ، من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق .

وفي الآية إنذار مؤكد لأولئك الجاحدين بأنهم سينالون ما يستحقون من عقاب أليم « وَاللهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ »[٣] .

(وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾)

المفـردات :

(مَاكَانَ) : ماصح ولا استقام .

(يُفْتَرَى) : يختلق .

(وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) : أي ولكن أنزله تصديقًا للكتب السماوية التي سبقته في أصول العقائد والأحكام قبل تحريفها .

(وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ) : تبيين ماكتب وأثبت في الكتب السماوية .

---

(١) النجم من الآية : ٢٧

(٢) سورة النجم من الآية : ٢٨ .

(٣) سورة البروج من الآية : ٢٠

التفسير

٣٧ ـ (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ) : بعد أن تناولت الآيات السابقة بالأدلة القاطعة إثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى، وقدرته وحكمته وتدبيره ، جاءت هذه الآية وما بعدها تبين استحالة أن يكون القرآن مفترى من عند محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفيًا لما زعم المشركون .

والمعنى : ليس يصح فى شأن القرآن وهو على ماهو من العلو أسلوبًا ونهجًا وغاية ، أن يكون مفترى من عند محمد وأعانه عليه قوم آخرون كما افتراه عليه المشركون ، فإن هذا غير ممكن فهو « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ »[1] فانظر إليه فى أسلوبه ومعانيه واتساق آياته ، وفيما جمع من تشريعات وعقائد وأخلاق وآداب ، وحكم وأمثال وكشوف غيبية وحقائق علمية ، جاءت فى أقصى درجات الفصاحة والبلاغة والدّقة ، وفى أنماط سامية وآفاق عالية ، فإنك تقطع بأنّه لايقدر على الإتيان بمثله أحد من الإنس والجن « وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »[2] وتتأكد أنه من عند الله وحده « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »[3] .

(وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ) : أى ولكن أنزله الله مصدقًا وموافقًا لما تقدم من الكتب السماوية ، فى أصول العقائد والأحكام قبل أن يعتريها التحريف، مصححًا للعقائد التى عبثت بها أهواء القسيسين والأحبار والرهبان حيث ردها القرآن إلى التوحيد الخالص .

(وَتفْصِيلَ الْكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) : أى وأنزله أيضًا تفصيلا لما أجملته الكتب السماوية السابقة من عقائد وتشريع ومواعظ ومن شئون الاجتماع وسنن الله فى خلقه وزادها تكميلا ، فلا محل لأى شك فى أنه كلام الله رب العالمين ، الذى تعهد النوع الإنسانى بالتربية والتعليم والهداية .

---

(١) سورة هود من الآية : ١

(٢) سورة الإسراء من الآية : ٨٨

(٣) سورة النساء من الآية : ٨٢

(أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾)

التفسير

٣٨ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ) :

بعد أن بين الله فى الآية السابقة أن القرآن يستحيل أن يفترى على الله ، وَبَيَّنَ أيضا أنه أنزل من عند الله مصدقا ومفصلا للكتب السابقة ، جاء بهذه الآية حكاية لزعم المعاندين الجاهلين أن محمدًا افتراه ، وتعجيبا من قولهم وردا لفريتهم والمعنى : بل أيقولون افتراه محمد عليه الصلاة والسلام واختلقه من قبل نفسه ، قل لهم أيها الرسول الكريم موبخا لهم ومبرهنًا على بطلان مقالتهم : هاتوا سورة مثل أَيَّةِ سورة من سوره حتى يصبح زعمكم أن محمدًا افتراه على الله ، فأنتم أرباب فصاحة وبلاغة ، وأنتم تعرفون أنه أمى كما قال تعالى « وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ »[1] .

ولم يكن هذا أول ادعاء لهم بالافتراء ، فقد تكرر منهم إذ تحدثوا به أول الأمر فتحداهم القرآن أن يأتوا بمثل القرآن كله فلم يستطيعوا ، وبعد فترة شعروا بقوته تتزايد فعاودوا دعوى الافتراء معاندين ، فعاود القرآن التحدى لا فى مثله بل فى عشر سور منه فلم يتمكنوا ، وتزايد عليهم العجز وظهروا مفحمين لا يجدون جوابًا ، ولكنهم عاودوا بعد فترة زعمهم القديم ، فعاد القرآن لتحديهم هذه المرة أن يأتوا بسورة مثله وهو ماجاء فى هذه السورة حتى يلجئهم إلى صمت العاجزين ، وهكذا أثبت القرآن عليهم وعلى أمثالهم العجز العام عن محاكاته ، فمن عسى أن يزعم مثل هذا الزعم اليوم ، فعليه أن يجيب على هذا التحدى وإلا فليطبق فمه ، وليمضغ أكاذيبه ، ومن عجب أن ترى من أعداء الإسلام اليوم من يزعم أن محمداً عليه الصلاة والسلام هو صاحب القرآن وقائله : رغم هذا التحدى

(١) سورة العنكبوت الآية : ٤٨

الدائم : وهكذا كان الإلحاد الجديد صورة منسوخة من الأول القديم وماله عليه من دليل ، وقد بقى القرآن العظيم شامخًا شموخ الجبال الرواسي وتحطمت على صخوره كل مفترياتهم .

(وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ) : فى هذه الجملة من الآية الكريمة توسع القرآن فى دائرة التحدى وطلب منهم أن يستعينوا بمن يستطيعون الاستعانة به بشرًا أو آلهة ، وأمهلهم ماشاءوا ولا يزال فى تحديه للبشر ، ولكنهم ـ آخرهم كأولهم ـ أمام إعجاز بما هو متنوع متفرع ، فمنه الإعجاز اللغوى ومنه العلمى والتشريعى والغيبى ، وكل منها لم يعارض ، ولو كان ممكنًا لأتوا بمثله ولكن ظهر عجزهم وبطل ماقالوه ولزمهم الإفحام .

وكلمة (إن) فى قوله (إن كُنتُمْ صَادِقِينَ) : تفيد التشكيك فى صدقهم ، ليشعروا بهوانهم وبقصورهم عن شرف الصادقين ، وقوله (مِن دُونِ اللهِ) يشير إلى أنه لايقدر عليه سوى الله تعالى .

وصدق الله إذ يقول : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »[1]

(بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾)

التفسير

٣٩ ـ (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) :

لما ظهر عجزهم عن الإتيان بسورة مثله وتبين أن ما قالوه باطل لا وجه له من الصواب بين فى هذه الآية ما حملهم على تكذيب القرآن المشتمل على الحق الذى لا غاية وراءه .

(١) سورة فصلت الآية : ٤٢

والمعنى : أن هؤلاء الكفار لم يحكموا على القرآن بأنه مفترى من دون الله بمقتضى برهان يؤدى إلى ما ذهبوا إليه ، بل كذبوا بكتاب عظيم من غير إحاطة بعلم ما فيه ولا تدبر لمعانيه ، ولا وقوف على ما جاء به من الأدلة الشاهدة بصدقه ، من تشريع حكيم ، وآداب وحكم عالية ، وغير ذلك من أسرار إعجازه ، ولم يأتهم بَعْدُ تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين لهم أنه صادق وليس بكاذب . أو المعنى : ولم يبلغ أذهانهم ما فيه من المعانى الدالة على عُلوّ شأنه . والمقصود : أن القرآن آية كبرى على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم سارعوا بالتكذيب قبل أن يتدبروا نظمه ويتفحصوا معناه والتعبير بلفظ (لَمَّا) المفيدة لوقوع تأويله مستقبلا ، للإيذان بأنهم لو تريثوا ولم يسارعوا بالتكذيب ، لأدركوا تأويله ، وعرفوا فضائله ومعانيه السامية ، ولتحققوا من صدقه .

(كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) :

أى مثل هذا التكذيب الناشىء عن عدم التدبر كذب الذين من قبلهم رسلهم ، فكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوه . وكان هذا سببًا فى أن حل بهم جزاءُ ما كانوا به يستهزئون ، فكانوا سلفًا ومثلا للآخرين . يعتبر به كل عاقل ، فانظر يا محمد أنت وأمتك والناس جميعًا مآل الظلم والظالمين ، وصدق الله إذ يقول : « فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[1] .

---

(١) العنكبوت من الآية : ٤٠

(وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾)

التفسير

٤٠ - (وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّايُؤْمِنُ بِهِ) :

أى ومن أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - من سيؤمن بالقرآن وما جاء به ويتخلى عن عناده بعد الإحاطة بعلمه وظهور حقيقته ، ومنهم من يصر على الكفر والعناد فلا يصدق به فى نفسه كما لا يصدق به ظاهرًا ، لفرط عناده وغباوته واختلال تمييزه ، ويجوز أن يكون المعنى : ومن هؤلاء المشركين من قومك من يصدق به فى نفسه ، ولكنه يكفر به عنادًا ، ومنهم من لايصدق به فى نفسه لفرط جهله فيكفر به اعتقادًا .

(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ) : أى وربك يا محمد أعلم بأولئك المفسدين فى الأرض بعقائدهم الزائفة وأعمالهم الفاسدة ، وسوف يجازيهم بما يستحقون : وهذه الجملة وعيدللمصرين على الكفر مع وضوح البرهان .

٤١ - (وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ . .) الآية .

أى وإن كذبك هؤلاء الكفار - مع علمهم بأنك الصادق الأمين - فقل لهم يامحمد : لى جزاء عَمَلى ، ولكم جزاء عملكم ، فلا أحد منا يتحمل مسئولية عمل الآخر ، ثم أمر الله نبيه أن يؤكد هذا المعنى بأن يقول لهم :

(أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ) : فلا تتحملون مسئوليته (وَأَنَا بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) : فلست مسئولا عنه ، ولعل هذه السياسة تترك أثرًا حسنًا فى نفوسهم ، يتصاعد شيئًا فشيئًا حتى يستدنى

القلوب ، ويأخذ بالألباب ويرد العقول الشاردة كما قال الله تعالى : « اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَاحُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وإِلَيْهِ الْمَصِيرُ »[1] .

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(الصُّمَّ) : فاقدى حاسة السمع .

(لَايُبْصِرُونَ) : أى لايدركون ببصيرتهم .

التفسير

٤٢ - (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَايَعْقِلُونَ) :

لمَّا ذكر القرآن الكريم فى الآية السابقة ما أمر الله به رسوله من أن يقول للمكذبين : « لِى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ » مُعْلنا براءته منهم ، بين له هنا مثل الذين فقدوا الاستعداد للإيمان فقال تعالى :

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) : أى ومنهم ناس يستمعون إليك عند قراءتك للقرآن وتعليمك الشرائع للناس ، ولكنهم لايستمعون حقًّا ، إذًا لايتدبرون القول ، ولا يعقلون ما يراد منه ، ولا يفقهون مايرمى إليه ، وكان شأنهم فى سماعه كما قال تعالى : « مَايَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ »[2] . فلهذا أنزلهم الله منزلة الصم بقوله :

(١) الشورى من الآية : ١٥ (٢) الأنبياء الآية : ٢ ، ٣

(أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَايَعْقِلُونَ) : أى أنهم لم يستمعوه استماع تفهم وإقبال ، حيث أغلقوا نوافذ العقل والعلم ، فلهذا اعتبرهم الله صماً لا يسمعون ، وأنزل على رسوله هذه الجملة معذرا له فى عدم استفادتهم من تبليغه .

والمعنى : أفأنت تسمع من فقدوا حاسة السمع ، ولو كانوا مع صممهم لا يعقلون ، كهؤلاء الذين أعرضوا عن الإيمان بما دعوتهم إليه ، يعنى أن هؤلاء المشركين جمعوا إلى صممهم عدم العقل « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ »[(١)] . « إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغ »[(٢)] .

٤٣ – (وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ) : أى يتأمل فى شأنك ويعاين دلائل نبوتك ويشاهد عبادتك وسيرتك فى حياتك العملية الكريمة ، ومع هذا لايزال مقيماً على عناده مصراً على كفره وتكذيبه .

(أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَايُبْصِرُونَ) : المراد بكونهم لايبصرون ، أنهم لابصيرة فى قلوبهم ، ولا تفكير لديهم ، والمعنى : أفأنت تستطيع أن تهدى من فقد البصر فكيف إذا انضم إلى فقد البصر فقدان البصيرة ، والمقصود من الآيتين : أن هداية الدين كهداية الحس لا تكون إلا للمستعد لها ، ولهذا كان لا بد فى هداية الدين من هداية العقل ، وهدايةُ العقل لا تحصل إلا بتوجيه النفس وصحة القصد التماسا لهداية الله ، وليس عليك إلا البلاغ كما قال تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ »[(٣)] وفى هذا مواساة كريمة من الله لرسوله عليه الصلاة والسلام .

٤٤ – (إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) : لما بين فيما سبق امتناع اهتدائهم لأنهم عطلوا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم ، بين فى هذه الآية أنه تعالى لم يظلمهم حيث وهب الناس الأسماع والأبصار والعقول وسائر الحواس ، ليصرفوها فيما خلقت من أجله ، وشَدَّ أَزرَ الحواس بالعقل ، وأزر العقل بالهدى عن طريق إرسال الرسل والكتب ، وسخر لهم مافى السموات ومافى الأرض «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »[(٤)]

---

(١) سورة فاطر من الآية : ٨
(٢) الشورى من الآية : ٤٨
(٣) البقرة من الآية : ٢٧٢
(٤) النساء من الآية : ١٦٥

فلا عذر لأحد بعد ذلك ، ولكن من الناس من عطل مشاعره وقواه ، وصرفها عن استعمالها فيما يهديه ، فظلم نفسه ومجتمعه والإنسانية كلها ، فاستحق من الله الجزاء العادل .

والمعنى : إن الله لايظلم الناس شيئًا من الظلم حين يعاقبهم يوم القيامة على معاصيهم فقد منحهم سائر القوى التى تمكنهم من فعل الخير وتمنعهم عن الشر ، فصرفوها فى غير ما خلقت له ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم حيث استمروا على السيئات الموجبة للتعذيب فكان عقاب الله لهم جزاءً وفاقًا ، فهو عدل من الله تعالى لا ظلم فيه .

وفى الآية إشارة إلى أن عاقبة ظلمهم مقصورة عليهم . وأن للعبد كسبًا وليس مسلوب الاختيار كما زعمت الجبرية ، وفى ذلك يقول الله تعالى « كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ »[1] .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾)

التفسير

٤٥ـ (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ) :

هذه الآية للتذكير بمقدار ظلم الظالمين المشركين لأنفسهم وخسارتهم فى الآخرة بسبب تكذيبهم بها ، وكفرهم بالحساب والجزاء فيها .

والمعنى : وَحَذِّرْهم أيها الرسول يوم يحشرهم الله ويجمعهم بعد بعثهم من القبور فى موقف الحساب والجزاء ، وحينئذ يدركون قصر مدة مكثهم فى الدنيا كأنها مقدار ساعة قضوها وحين يخرجون من قبورهم يتعارفون بينهم ، فلا ينسى أحد منهم من كان يعرفه من قبل ، ثم تنقطع المعرفة عندما يشاهدون أهوال القيامة « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »[2] .

---

(١) الطور من الآية : ٢١ .

(٢) سورة عبس الآيات : ٣٤ ـ ٣٧

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ) : فى هذه الجملة حكم من الله تعالى بخسران المكذبين وتعجيب من حالهم حيث لم يستعدوا ليوم الدين بالإيمان وعمل الصالحات المزكِّية للنفوس ، وآثروا عليها الدنيا القصيرة الأمد ، المليئة بالأكدار ، والتى يرونها يوم الحشر كأنها ساعة من نهار . وقد بين الله تعالى ضلالهم فيما ذهبوا إليه فقال :

(وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) : أى وماكانوا مهتدين إلى الصواب فيما ذهبوا إليه واختاروه لأنفسهم ، من إيثارهم الفانى على الباقى ، وهو الأعمال الصالحة التى هى ثمرات الإيمان الصحيح ، والعاقل من يستعمل عقله ويأخذ حذره ، ويختار الأصلح والأنفع والأبقى . والمقصود من لقاء الله : حسابه وجزاؤه فى الآخرة قال تعالى : « ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(١) .

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾)

التفسير

٤٦ - (وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) : أى أن هؤلاء المشركين لن يفلتوا من عقابنا عاجلا أو آجلا ، فإمَّا أن ننزله بهم فى الدنيا ونريك بعض ماتوعدناهم به من قبل وفاتك ، وإما أن نتوفاك فإلينا رجوعهم للحساب والعقاب على ماكسبوا من جرائم ، فتراه ماثلا أمام عينيك .

(ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَايَفْعَلُونَ) : هذه الجملة فيها تأكيد للوعيد السابق ، والمراد منها أن أعمالهم محصاة عليهم وأنها معلومة بدقائقها لله تعالى ، فهو شهيد على مايفعلون

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٠٨ .

.فى دنياهم من الشرك والمعاصى ، وأنه لن يفلت أحد من عقابه . والتعبير بـ (ثُمَّ) للإيذان بسمو شهادة الله عليهم ، وعلوّ مرتبة علمه بهم ، فإنه لاتفوته صغيرة ولاكبيرة ، وفى ذلك مافيه من تأكيد الوعيد .

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾)

التفسير

٤٧ - (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ) : أى ولكل أمة من البشر رسول يبعثه الله إليهم ليهديهم إلى التوحيد ، ويدعوهم إلى دين الحق بشريعة خاصة بهم ، فيها صلاح معاشهم ومعادهم ، وذلك لأنه سبحانه يعلم قصور العقل البشرى عن إدراك مافيه صلاح أمورهم الدنيوية والأخروية ، مع وجود الصوارف النفسية والشهوانية التى جبل عليها الإنسان ، وكثيراً ما تغريهم بالضلال ، فلذلك اقتضت حكمته تعالى أن لايعذب عباده ، قبل أن يبعث إليهم رسولا ليبصرهم بعواقب الأمور ، كما قال تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »(١) وقال : « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »(٢) .

(فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ) : أى فإذا جاء كل أمة رسولهم مؤيَّدًا من الله بالمعجزات المثبتة لرسالته ، وانقسموا بشأنه بين مصدق ومكذب قضى الله تعالى بينهم بالحق وهم لا يظلمون بفوت ثواب أو زيادة عقاب .

---

(١) سورة الإسراء من الآية : ١٥

(٢) سورة النساء من الآية : ١٦٥

٤٨ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

أى ويقول المشركون من أُمتك وغيرهم استبعادًا لوقوع ما توعدهم به الرسل . واستهزاءً بهذا الوعيد . متى يتحقق ما أنذرتمونا به إن كنتم صادقين فى هذا الوعيد

(قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾)

التفسير

٤٩ - (قل لَّا أَمْلِكُ لنفسى ضراً وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ...) الآية .

لما استبعد الكفار وقوع ما توعدهم به القرآن من العذاب ، وكانوا يستعجلونه استهزاءً وتكذيبا . أمر الله رسوله أن يقول : (لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا) أدفعه عنها . أو نفعًا أجلبه إليها . لكن ما شاء الله من ذلك وقع ، فكيف أملك إخباركم بالموعد الذى حدده الله لعقوبتكم . أو استعجال وقوعه .

(لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) : أى لكل أمة وقت مضروب لهلاكهم ، إذا جاء هذا الوقت فلا يتأخرون ساعة عنه ، ولا يتقدمون . فلا يصح لهم أن يستعجلوه مستهزئين مستنكرين . ولا يمكن أن يجىء قبل أوانه . قال تعالى : « وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » (١) .

---

(١) سورة العنكبوت من الآية : ٥٣

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾)

المفـــردات :

(أَرَأَيْتُمْ) : أى أخبرونى . (بَيَاتًا) : أى ليلا ، وقت نومكم وغفلتكم .

(مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) : أى شيء يستعجل المجرمون من العذاب .

(أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ) : أى أبعد ما يقع العذاب حقيقة تؤمنون به ، ودخول همزة الاستفهام على (ثُمَّ) : لإنكار تأخيرهم الإيمان إلى وقت وقوع العذاب وتوبيخهم عليه .

التفسير

٥٠ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا) : أمر الله -تعالى- رسوله أن يبكِّت المشركين على كفرهم واستعجالهم العذاب بأن يقول لهم ما معناه : أخبرونى ما حالكم وما شأنكم إن أتاكم عذاب الله فى ليلكم وأنتم نائمون ، أو فى نهاركم وأنتم غافلون عنه باشتغالكم فى معاشكم .

والمراد : أخبرونى عن حالكم إذا باغتكم العذاب فى أى حال .

(مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) : يعنى أى شيء من أنواع العذاب يستعجله المشركون ؟ وليس شيء منه يقتضى الاستعجال ، فمن له عقل سليم لا يليق به أن يستعجله ، فإنه موجب للفرار منه ، لا لاستعجاله .

٥١ - (أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) :

أى أتستعجلون العذاب متهكمين ساخرين ، ثم إذا دهمكم آمنتم به حين: « لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا » [١] فالله تعالى ينكر عليكم تأخير إيمانهم إلى الوقت الذى لا يكون فيه إلا الحسرة والندامة قال تعالى :

« فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » [٢] .

٥٢ - (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) :

أى ثم قيل لهم فى الآخرة إهانة وإذلالاً وتبكيتا ، ذوقوا عذاب الخلد فى النار ، هل تجزون هذا الجزاء إلا بسبب ما كسبتمونه فى دنياكم من الكفر بالحق ، وغشيان المعاصى على اختلاف أنواعها ، والإصرار عليها .

والمراد من قوله : (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) : إثبات عدل الله تعالى ونفى الظلم عنه ، ببيان أن إصرارهم على الباطل هو الذى انتهى بهم إلى هذا المصير .

(۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(وَيَسْتَنبِئُونَكَ) : أى ويطلبون منك النبأ وهو الخبر .

(إِى وَرَبِّى) : نعم وحق ربى .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٥٨

(٢) سورة غافر ، الآية : ٨٥

(وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) : أى وما أنتم بمفلتين من عذاب الله .

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ) : قال أبو عبيدة : معناه وأظهروا الندامة ، وقال غيره وأخفوا الندامة - فهو من الأضداد .

(بِالْقِسْطِ) : القسط بكسر القاف بمعنى العدل أما بفتحها فبمعنى الظلم وليس له موضع هنا .

التفسير

٥٣ - (وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ) : لا يزال الكلام متصلا فى نقاش الكافرين ، والنبأ : الخبر الهامّ والاستنباء : طلب النبإ .

والمعنى : ويطلبون منك أيها الرسول أن تخبرهم عن العذاب أحق وصدق هو ، وأنهم ملاقوه لا يفوتهم ، وهم بسؤالهم هذا لا يريدون الجواب بل يقولونه مستهزئين ، معتقدين أنه وعد باطل ، ثم أمر الله رسوله أن يجيبهم فقال :

(قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) : أى قل لهم أيها الرسول - غير مكترث باستهزائهم - نعم وحق ربى إن العذاب الذى أوعدتموه وأنذرتم به لحق ثابت لا شك فى وقوعه ، فهو مقدور لله وما أنتم بمفلتين منه .

٥٤ - (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ) : أى ولو أن لكل نفس ارتكبت الظلم بعصيان ربها ، لو أن لها جميع ما فى الأرض لقدمته فدية من هذا العذاب إن كان الافتداء يجديها .

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ) : أى وأخفوا الندامة على ما فعلوا من الظلم ، ولم يظهروها لا تصبّرًا ولا تجلدا ، بل لأنهم بهتوا عند رؤيتهم فظاعة الحال وشدة الأهوال التى لم تخطر لهم على بال ، فلم يقدروا على النطق بشىء ، أو أنهم كتموها فى أنفسهم لأنهم رأوا أن لا نفع فى إظهارها وقتئذ ، وقيل : معناه وأظهروا الندامة تألما وتضجرا .

(وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) : أى وحكم بينهم بالعدل التام الذى لا ظلم فيه بوجه من الوجوه « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » [1]

---

(١) سورة النحل ، من الآية : ٣٣ .

(أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾)

التفسير

٥٥ - (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . .) الآية.

افتتح الله تعالى هذه الآية بكلمة (ألا) لينبه الغافلين إلى ما جاء فيها من دلائل ربوبيته ، والمعنى : ألا إن لله وحده ما فى السموات والأرض من أجزائهما وما استقر فيهما من الكائنات ، له كل ذلك خلقا وملكا وتصرفا . فلا يشاركه فيه شريك ، وليس لغيره فيه سلطان ، ثم نبه الله عقب ذلك على أن ما وعد به حق فقال :

(أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ) : أى كل ما وعد به الله على لسان رسله حق وواقع لا شك فيه ، وفى جملة ذلك البعث والحساب ، فهو القادر الذى لا يخلف الميعاد .

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) : أى ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك ،لا عن طريق النظر والاستدلال ،ولا عن طريق الكتب السماوية ، فإن معظمهم كفار بذلك عند نزول القرآن .

(هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾)

التفسير

٥٦ - (هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

أى هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة ، وإليه وحده ترجعون يوم القيامة للحساب والجزاء ، ومن شأنه ذلك يجب أن يحذر عقابه العقلاء ، وأن يسارعوا إلى الإيمان بما أنزله على رسوله لهداية عباده .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾)

التفسير

٥٧ ـ (يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) : جاءت هذه الآية خطاباً لمشركى مكة ، لا ستمالتهم نحو الحق ، بعد تحذيرهم من عاقبة ما هم عليه من الضلال بما تقدم من الآيات التى تنعى عليهم سوء عاقبتهم ، ومع أن الخطاب فيها لأهل مكة ، ولكن الحكم فيها عام لكل من على شاكلتهم من الناس كما يدل عليه لفظ : (يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ) حيث عبر به بدلا من يا أهل مكة ، والمراد من الموعظة التى جاءت من ربهم القرآن الكريم ، وقد وصف فى الآية بأربعة أوصاف ، وهى أنه موعظة وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين .

والمعنى : يا أيها الناس الذين أعرضتم عن الإسلام ، قد جاءكم من مالككم ومربيكم الرءوف بكم ، جاءكم منه كتاب يدعوكم إلى الإسلام ، اجتمعت فيه أربع صفات أولها : أنه موعظة وتذكير منه لكم ، فقد عرفكم بالخصال الكريمة ، وحثكم عليها ، وبين لكم حسن عاقبتها ، وكشف لكم عن الخصال الذميمة ونهاكم عنها ، وبين لكم سوء عاقبتها .

وثانيتها : أنه شفاء لما فى الصدور فقد بين الحق وأقام عليه الدلائل والبراهين المطمئنة للنفوس الحائرة ، وبين الباطل وأقام البراهين على بطلانه ووجوب تركه ، ولم يترك مجالا لأمراض الصدور عند العقلاء المنصفين ، فهو لهذا كله شاف لما فى الصدور من الأمراض كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الفاسدة ، فكأنه نفس الشفاء .

وثالثها : أنه هدى ، فهو هادٍ إلى طريق الحق واليقين ، بالإرشاد إلى أدلته ، فكأنه نفس الهدى .

رابعها : أنه رحمة للمؤمنين ، فقد نجوا به من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان وانتقلوا به من استحقاق العذاب أيام كفرهم ، إلى استحقاق النعيم المقيم بسبب إيمانهم .

٥٨ - (قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) :

هذه الآية مرتبطة بكل ما جاء فى الآية التى قبلها .

والمعنى : قل يامحمد : أيها الناس قد جاءكم القرآن واعظًا لكم وشافيًا لصدوركم وهاديًا لقلوبكم ، ورحمة للمؤمنين منكم ، وهذا كله بفضل الله - تعالى - وبرحمته ، فبذلك وحده فليفرح الناس جميعًا ، فإنه خير وأبقى مما يجمعون من متاع الدينا ، فهو زاد الآخرة الذى ليس له فناء ، أمَّا الدنيا ومتاعها فإلى زوال وإلى هباء .

هذا : وقد قرئ : (فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ) بأُسلوب الخطاب وبهذه القراءة وافقت الآية أُسلوب الخطاب الذى جرى فى الآية قبلها[1] .

---

(١) يلاحظ أن قراءة حفص التى نقرأ بها (فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) جاءت بأسلوب الغيبة على طريق الالتفات من الخطاب فى الآية السابقة إلى الغيبة هنا ، وهو لون من ألوان البلاغة فى التعبير ، أما قراءة (فلتفرحوا هو خير مما تجمعون) بأسلوب الخطاب فقد جاءت على نسق الخطاب فى الآية التى قبلها ، فلا التفات فيها .

(قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(رِزْقٍ) :الرزق فى اللغة : ما ينتفع به ، ومعلوم أنه ليس كله نازلا من السماء ، وإنما الذى أُنزل من السماء هو التشريع الذى أحله أو أسبابه التى حدث بها كالمطر والهواء وأشعة الشمس ، وعلى هذا فالمراد من إنزال الرزق من السماء هو إنزال تشريعه أو أسبابه ، وفسر بعض العلماء إنزال الرزق بمعنى خلقه ، وعليه فلا إشكال .

التفسير

٥٩ـ (قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ...)الآية .

لما بين الله تعالى فضله على الناس ورحمته بهم بإنزال القرآن الهادى لهم ، شرع يناقشهم فيما حرموه من رزق الله الذى أحله لهم ، ويوبخهم على هذا التحريم المخالف لما شرعه لعباده ، فقال جل ثناؤه :

(قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ...) الآية .

والمعنى : قل أيها الرسول للمشركين الذين يحرمون بعضما أحل الله للناس من الرزق أخبرونى : ما خلق الله لكم من رزق ، أنزل حله فى شريعة إبراهيم وإسماعيل ، فجعلتم بعض هذا الرزق حرامًا ، وحرمتم منه أنفسكم ، وبعضه حلالا وتناولتموه ، فقد قلتم :

« هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ » [1] وحرمتم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وقلتم : « مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا » إلى غير ذلك مما حرمتموه وأحللتموه ، مع أنه كله حلال .

(قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) : قل لهؤلاء الذين يحرمون رزق الله الحلال ، هل الله أذن لكم فى هذا التحريم ، أم لم يأذن لكم ، بل تفترونه عليه ، ثم توعدهم على هذا الافتراء فقال :

٦٠ ـ (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... » الآية .

الافتراء هو الكذب ، وجمعهما معا فى قوله تعالى : (يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) لإظهار مزيد قبح ما افتعلوه .

والمعنى : وأى شىء ظن أولئك المفترون فيما سيقع يوم القيامة أيحسبون أنهم لا يُسألون عن افترائهم ، أولا يجازون عليه ، أم أنهم يجازون جزاء يسيرا ، ولأجل ذلك يفعلون ما يفعلون كلا إنهم سيلقون أشد العذاب ، لأن معصيتهم أشد المعاصى ، ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا .

(إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) :

إن الله لذو فضل عظيم على الناس جميعا ، حيث أنعم عليهم بالعقل المميز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ، ورحمهم بإنزال الكتب وإرسال الرسل ، ليبين لهم بذلك الأحكام التى لا تصل إليها عقولهم ، وأرشدهم إلى ما يهمهم من أمر المعاش والمعاد ، وأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث ولكن أكثرهم لا يشكرون تلك النعم ، فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم إلى ما خلقت له ولا يتبعون دليل العقل فيما يستقل به ، ولا يتبعون دليل الشرع فيما لا يدرك إلا به ، مع أنه قد بين لهم ماسيلقونه يوم القيامة إن أعرضوا عن الحق ، ولكنهم لا يلتفتون إليه .

(١) راجع تفسير الآيتين ١٣٨ ، ١٣٩ من سورة الأنعام والآية ١٠٣ من سورة المائدة .

(وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(فِي شَأْنٍ) : فى أمر تقصده . (كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا) : كنا رقباء مطلعين عليكم .
(تُفِيضُونَ فِيهِ) : تخوضون وتندفعون فيه ، وأصل الإفاضة الاندفاع بكثرة أو بقوة .
(وَمَا يَعْزُبُ) : ولا يغيب . (مِثْقَالِ ذَرَّةٍ) : المثقال ؛ الوزن ، والذرة : النملة والهباء [1] .
(كِتَابٍ مُّبِينٍ) : المراد به اللوح المحفوظ أو هو كناية عن علمه تعالى ، ومعنى مبين بين واضح .

التفسير

٦١ - (وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوُ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا . . .) الآية .

جاءت هذه الآية إثر بيان دعوة المشركين إلى الإيمان بالقرآن ، والفرح بما جاء فيه من آيات الحق ، ليبين أن الله يعلم حال الرسول مع قومه فى تبليغهم أمر ربه ، وحال قومه معه فى شأن ما دعاهم إليه وأنه سيجازى كلا حسب حاله .

والمعنى : وما تكون يامحمد فى شأن من شئون الإسلام ، وما تتلو من شأنك هذا من قرآن ، ولا تعملون من عمل يا أيها الناس الذين بلغتكم دعوته ، واستمعتم منه قرآن ربه ، إلا كنا عليكم رقباء وحافظين ، حين تخوضون فى شأن هذا القرآن وتندفعون فى حقه بالباطل ، وما يغيب عن علم ربك من شىء فى وزن الهباء الدقيق ، سواء أكان

---

(١) يطلق الهباء على الغبار وعلى ما يشبه الدخان وعلى دقاق التراب ساطعة ومنثورة على وجه الأرض قاموس ، وفسرت الذرة فى المعجم الوسيط بأصغر جزء فى عنصر ما .

ذلك الشئ الدقيق فى الأرض أو فى السماء، ولا أصغر من ذلك الهباء ولا أكبر منه إلا فى علمه تعالى لا يغيب عنه منه شيء فكيف تخفى عليه تعالى أعمالكم، وكيف يغيب عنه كفركم.

(أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(أَوْلِيَاءَ اللهِ) : أولياء : جمع ولى، ومن معانيه لغة القريب، وقد أُطلق الأولياء فى عرف القرآن على المؤمنين الصادقين، لقربهم الروحى من الله تعالى.

(الْبُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَة) : البشرى : مصدر أُريد به المبشر به، وبشرى الحياة الدنيا خيراتها العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك، وبشرى الحياة الآخرة ما أُعد لهم فيها مما لاعين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

التفسير

٦٢ – (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) :

قَبْلَ هذه الآية توعد الله المفترين عليه بما أشار إليه من عقوبتهم يوم القيامة بقوله : (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) : وعقَّب ذلك ببيان أنه تعالى مطلع على جهد نبيه فى أُمته ، وعالم بما أفاض فيه المشركون نحو دعوته ، مشيرًا بذلك إلى أنهم سيجزون عليه وعلى كفرهم سوء الجزاء، وجاءت هذه الآية وما بعدها ، لتطمئن المؤمنين على أنفسهم وتبشرهم بالخير العميم فى الدنيا والآخرة ، وقد صدرت الآية بحرف التنبيه وهو (أَلَا) لاسترعاء انتباههم إلى ما بعده من البشائر الإلٰهية العظيمة، كما أكد مضمونها بحرف (إنَّ) وبالجملة الإسمية.

والمعنى : أن أحباء الله المقرَّبين إليه بالإيمان والعمل الصالح لا خوف عليهم فى الدنيا من قضاء أعدائهم عليهم ، فقد مكن لهم فى الأرض ، وآتاهم فيها العزة كما قال سبحانه : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ »[١]. ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيمًا حتى تقوم الساعة كما بشَّر به النبى صلى الله عليه وسلم ، فلا مجال للخوف عليهم فى دنياهم ، ولئن أصاب منهم أعداؤهم فى بعض المواقع ، فإن الدائرة بإذن الله ستكون لهم عليهم ، فهم فى ظل رعاية الله وحمايته ، ما داموا على طاعته والإعداد لنصرة دينه « وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ »[٢]. وبالجملة فإنه لايعتريهم فى دنياهم ما يوجب الخوف عليهم ما داموا على ولاية الله والتقرب إليه بالتقوى والاستقامة ، والحذر من الأعداء ، والتأهب لدفع عدوانهم بما استطاعوا من قوة ، وكما أنهم لا خوف عليهم فى دنياهم فلا خوف عليهم فى أُخراهم ، فهم فى الدنيا دائمو الخشية من الله ، يؤدون ما كلفهم به من الطاعات ، وينتهون عما نُهى عنه من المنهيات ، ويستصغرون ما أدوه نحوه من حقوق العبودية ، ويجتهدون فى تجريد أعمالهم من الرياء ، ويرجون منه الفضل بالقبول ، ومن كان هذا شأنهم فإنهم لا خوف عليهم أيضًا فى أخراهم . وكما أنهم لا خوف عليهم فى الدارين فإنهم لايحزنون فيهما على فوت رغيبة من رغائبهم ، فإنه تعالى منحهم نعمة الطاعة والرضا فى دنياهم ، فإن أقبلت عليهم النعمة والصحة والأمن والرخاء حمدوا وشكروا ، وإن فاتهم ذلك أو بعضه رضوا وصبروا ، ومن عليهم فى أُخراهم بجنة عرضها السموات والأرض ينعمون فيها بنعيم مقيم يفوق أعمالهم ، ولا ترقى إلى مثله آمالهم ، فهو فوق ما كانوا يؤملون ويتصورون ثم عقب الله هذا الوعد الكريم لأوليائه ببيان صفتهم التى تحقق ولايتهم فقال :

٦٣ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) :

أى أن أولياءه تعالى هم الذين آمنوا بكل ما جاء من عنده ، وواظبوا على تقواه - فلا يفعلون إلا ما رضى عنه الله ورسوله ، ولا يتركون طاعة من طاعاته ، فأمرهم دائر بين واجب ومسنون ، أما المباحات فهم يمارسونها بقدر ما يعينهم على طاعة الله وكثيرًا ما أغفلوها

(١) سورة المنافقون ، من الآية : ٨

(٢) سورة الحج ، من الآية : ٤٠

وإن أحل لهم فعلها ، وإن فعلوها فلا ينقص فعلها من ولايتهم « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »ومن هذا النص الكريم ، نعلم أن الولاية ليست بالادعاء ولا بالتزيي بزى الزاهدين مظهرًا ، ولا بالعقل المسلوب ، واللعاب السائل ولا بالإسراف فى الزهد ، ولكنها بالإيمان الصادق ، والطبع الصافى والاختيار الكامل حتى يتقى ربه باختيار وكسب وإرادة ، أما أولئك الذى يدعون أنهم مستغرقون فى الذات العلية ، وأن التكاليف سقطت عنهم ، لأنهم جذبوا إلى حضرة الله فسقطت عنهم التكاليف ، فلذلك لايشعرون بما يصنعون من حلال ومن حرام ، فهم شياطين يتخذون من هذا الزعم وسيلة لغشيان المحرمات وفعل المنكرات ، وكذلك ليس من أولياءِ الله مسلوبو العقول ولا من يلبسون المرقعات ، ويحملون العصى الطويلة ، ويلبسون المسابح لإيهام السذج والمغفلين أنهم من أهل القرب والوصول ، فهؤلاء شياطين سفاحون هاربون من السجون أو دجالون يسلبون الأموال ، فاحذروهم أيها المومنون فأولياءُ الله عقلاء ، أطهار الظاهر والباطن ، عرفوا بالصدق فى طاعة الله ، والإقبال عليها فى غفلة الغافلين ويقظة المتيقظين ، فى غير تصنع ولا نفاق سواء أظهرت على أيديهم الكرامات أم لم تظهر ، فأصحاب رسول الله أولياء الله ، مع أنهم لم تظهر على أيديهم من الكرامات إلا القليل .

وبالجملة فأولياءُ الله تعالى هم الذين تولى الله هدايتهم فأقبلوا على عبادته والدعوة إليه ، وهم الذين يذكر الله تعالى برؤيتهم ، فعن سعيد بن جبير أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سئل مَنْ أولياء الله ؟ فقال : « هُمُ الَّذِينَ يُذْكَرُ اللهُ بِرُؤْيَتِهِمْ ».أى بمظهرهم الصالح ، ومخبرهم النقى وإخباتهم إلى الله ، وسكينتهم وتواضعهم .

٦٤ — (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ . . .) الآية .

لما وعد الله تعالى أولياءه بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ووصفهم بقوله : (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ).جاءت هذه الآية لتبشرهم بما يسرهم فى الدارين .

والمعنى : أن هؤلاءِ الأولياءَ الموصوفين بالإيمان والتقوى ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا والآخرة ، والمراد بالبشرى فى الدنيا ما وعدوا به من الخيرات العاجلة التى ينالونها فى دنياهم ، كالنصر والفتح والنعم التى تدفقت عليهم من الفتوحات والغنائم ، والاشتغال

بالتجارة والزراعة ، وغير ذلك من النعم الدنيوية التى أغدقها الله عليهم بإيمانهم وتقواهم وجهادهم فى سبيل الله ، وسعيهم فى جلب أرزاقهم ومن البشرى فيها أن يكونوا مرهوبين من أعدائهم ، ومحبوبين من أوليائهم ، ومنها الرؤيا الصالحة فى النوم يراها المؤمن أو ترى له ، والبشرى عند الموت ، حيث تأتيهم الملائكة بالرحمة ، كما قال تعالى : « تَتَنزَّلُ عَلَيْهِمُ الْملائِكَةُ أَلَّا تخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعدُونَ[1] ». وكما أن لهم البشرى فى الحياة الدنيا فلهم البشرى فى الآخرة بأن تتلقاهم الملائكة مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ، وبياض وجوههم ، وإعطائهم صحائفهم بأيمانهم وما يقرؤونه فيها مما أعده الله لهم من نعيم الجنة ، وانتهاء تلك البشارات وأضرابها إلى غاية الغايات وهى الجنة وما فيها من نعيم مقيم .

(لَاتَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) : أى لا تبديل لأقواله التى من جملتها بشاراته للمؤمنين المتقين : ذلك الذى بشروا به فى الدارين هو الفوز العظيم الذى لاغاية وراءه .

(وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾)

المفـردات :

(الْعِزَّةَ) : الغلبة والقهر .

(إن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) : ما يتبعون إلا التوهم .

---

(١) سورة فصلت ، من الآية : ٣٠

(يَخْرُصُونَ) : يكذبون . وهو فى الأصل بمعنى يقدرون بالاجتهاد الجزافى وكثيرًا ما يحدث فيه الخطأ ، فلذا يطلق على الكذب مجازًا وهو المراد هنا .

التفسير

٦٥ – (وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) :

الخطاب هنا لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – لتسليته عما يعتريه فى بعض الأوقات من حزن ، بسبب ما يجده من قومه من التكذيب والمعارضة والتآمر عليه ، بعد أن طمأنه الله على أوليائه المؤمنين بأنهم لا خوف عليهم من المكاره ، ولا هم يحزنون على فوت بعض الرغائب .

والمعنى : ولا تحزن أيها الرسول بسبب ما قالوه فيك من التكذيب والتآمر على إبطال أمرك ، ووصفك بالسحر والشعر وغير ذلك مما لا خير فيه .

(إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

هذا تعليل لنهيه عن الحزن ، أى لا تحزن لما قالوه فى شأنك : فإن الغلبة والقهر فى الأرض والسماء لله ، إذ لا يملك أحد من أمرهما شيئًا لا هم ولا غيرهم ، فهو يقهرهم ويعصمك منهم ، ويهزمهم وينصرك عليهم ، لأنه تعالى هو السميع لكل مسموع ، العليم بكل معلوم ، فلا يخفى عليه شىء من مؤامراتهم ، فهو بإحباطها كفيل ، وقد تحقق ما أشارت إليه الآية الكريمة ، من إحباط مؤامراتهم ، ونصر الرسول عليهم ، وذلك من المبشرات التى عجلها الله لرسوله وللمؤمنين معه فى الدنيا ، والحمد لله رب العالمين .

٦٦ – (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ) :

فى هذه الآية تأكيد لما مر من البشارات ، ومن أن العزة لله جميعًا ، والمراد ممن فى السموات والأرض ، العقلاء وهم الملائكة والإنس والجن وتخصيصهم بالذكر للإيذان بأن غيرهم أولى بملكية الله تعالى .

والمعنى : أن الله تعالى يملك من فى السموات والأرض من الملائكة والجن والإنس مع شرفهم وعلو مكانتهم ، فهم جميعًا مملوكون له ومقهورون بسلطانه ، وعبيد لمشيئته ، وكذلك

جميع كائناته ، فهى أيضًا تحت قهره وسلطانه ، فإنه إذا كان العقلاء مملوكين له ، وخاضعين لإرادته فما سواهم مما خلق لأجلهم ، مملوك له ،وناشىء عن قدرته ومشيئته ، وتابع لتدبيره وإرادته ، ولم يصرح هنا بدخول غير العقلاء فى دائرة ملكية الله ، لأنه مفهوم بالأولى وغير محتاج إلى التصريح به ، فضلا عن أنه مصرح به فى كثير من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : « لِلَّهِ مَافِي السَّمَٰوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَافِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ . . » [(١)] . ويجوز أن تكون (مَنْ) فى قوله تعالى : (مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ) عامة للعقلاء وغيرهم ، كما فى قوله تعالى : « وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ » [(٢)] .

وبعد أن بين ملكيته تعالى لأهل السموات والأرض ، عقب ذلك ببيان خطإ الكافرين فى عبادة غيره فقال :

(وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ) : أى وما يتبع الذين يعبدون غير الله شركاء له على الحقيقة ، فإنها مملوكة له تعالى ولا شركة لها معه فى شىء ، فلا تستحق أن يشركوها به فى العبادة .

(إن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) : أى ما يتبع هؤلاء المشركون فى عبادة غير الله تعالى إلا توهمهم الباطل أنه شريك له ، دون أن يكون لهم على شركته له برهان عقلى أو نقلى ، وما هم فى جعلهم شركاء له إلا يكذبون .

(هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(لِتَسْكُنُوا فِيهِ) : لتطمئنوا وتستقروا فيه بعد حركتكم بالنهار .

(١) سورة البقرة، من الآية : ٢٨٤

(٢) سورة النور، من الآية : ٤٥

(مُبْصِرًا) : مضيئًا لتتحركوا فيه وتهتدوا فى ضوئه إلى حوائجكم . ونقل القرطبي عن قطرب أنه قال : أظلم الليل أى صار ذا ظلمة ، وأضاء النهار وأبصر ، أى صار ذا ضياءٍ وبصر – يقصد صاحب ضياءٍ وبصر من الناس فيه .

التفسير

٦٧ – (هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) :

بعد ما بينت الآية السابقة عقيدة المشركين فى إشراكهم بالله ما لايملك شيئًا من السموات والأرض التى يختص بملكها الله ، وأوضحت أنهم ليس لهم على ألوهيتها دليل بل يتبعون الوهم ويكذبون ، جاءت هذه الآية لتؤكد خطأهم فى الإشراك بالله وتقرر ما تقدم من اختصاص الله بملكيته للسموات والأرض ومن فيهما ، وأهليته لإفراده بالعبادة .

والمعنى : هو الذى أبدع لكم الليل وجعله مظلمًا لتسكنوا فيه وتستريحوا من متاعبكم نهارًا ، وأبدع لكم النهار وجعله مضيئًا لتتحركوا فيه لمصالحكم .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) :

إن فى هذا التدبير الحكيم فى شأن الليل والنهار ، لآيات عظيمة على وحدانية الله تعالى واستحقاقه وحده للعبادة ،فوق ما مر من آياته جل وعلا ، وهذه الآيات مسوقة لمن يسمعونها سماع تعقل وتدبر فينتفعون بها ولا يتشبثون بأوهام الشرك الواهنة ، أما أولئك الذين يعرضون عن سماعها أو يسمعونها ولا يتدبرون فيها فلا سبيل لهم إلى الانتفاع بها ، والانتقال من الضلال إلى الهدى .

(قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠))

المفـردات :

(إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا) : ليس عندكم من حجة عليه .

التفسـير

٦٨ - (قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ) :

الظاهر أن الضمير فى :(قَالُوا) يعود على المشركين الذين سبق الحديث عنهم من أول السورة إلى هنا ، ويؤيده أن السورة مكية والنقاش فى السورة المكية مع المشركين ، أما مع أهل الكتاب فإنه بدأ فى المدينة حيث يوجد اليهود ، ومن المفسرين من جعله شاملا لكل من اعتقد البنوة لله ، فيدخل فيهم المشركون واليهود والنصارى ، وغيرهم ممن على شاكلتهم والولد يشمل الذكر والأنثى ، ويطلق على الواحد والجمع ، وقد زعم المشركون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا »[1] . وفى زعمهم هذا يقول الله منكرًا عليهم: « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ »[2] . وزعم اليهود أن عزيرًا ابن الله ، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله ، ولغير هؤلاء مزاعم تشبههم ، فنزلت الآية لإبطال مزاعمهم .

---

(١) الإسراء آية : ٤٣ .
(٢) الزخرف آية : ١٩ .

والمعنى : قال الكافرون : اتخذ الله ولدا وجعله له ابنًا ، سبحانه وتنزيهًا له عن ذلك الزعم الباطل ، هو الغنى على الإطلاق ، فأى حاجة له إلى التبنى؟ ثم شرع يفند زعمهم بقوله :

(لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) : أى له تعالى كل مافى السموات والأرض خلقًا وملكًا وتصرفًا ، وفى جملة ذلك من زعموه له ولدًا ، ومن كان كذلك فلا حاجة له إلى ولد ، ثم بين أنهم لاحجة لهم فيما زعموا ووبخهم عليه فقال :

(إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) : أى ما عندكم من حجة بهذا الزعم ، والعاقل لا يعتقد إلا ما قامت عليه الحجة ، أيليق بكم أن تقولوا على الله الذى له ملك السموات والأرض مالا تعلمون صدقه ، ولا تقوم به حجة ، ثم أمر الله رسوله أن يهددهم على هذا الافتراء فقال :

٦٩ - (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) :

قل أيها الرسول للذين زعموا أن الله اتخذ ولدا ، مبينًا لهم سوء عاقبتهم ، ووخامة منقلبهم : إن الذين يختلقون على الله الكذب بمثل مزاعمكم المستحيلة لايفلحون ، فلاهم ينجون من مكروه ولاهم يفوزون بمطلوب ، فالنار مثواهم ، والجنة حرام عليهم ، وإلى هذا المصير يشير قوله تعالى :

٧٠ - (مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) :

أى لهؤلاء المفترين على الله تمتع قليل فى الدنيا ، فإنهم إليه راجعون مهما طال مكثهم فيها ثم يذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم الذى أصروا عليه فى دنياهم .

(* وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ
عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟
أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ
وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ
وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾)

المفـردات :

(نَبَأَ نُوحٍ) : النبأُ ؛ الخبرُ الذى له شأْن وخطر .

(كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِى) : شق وعظم عليكم قيامى ووجودى بينكم .

(فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ) : إجماع الأَمر؛ العزم عليه ،تقول أجمعت الأَمر وأجمعت عليه أى عزمته وأردته بهمة ومضاء عزيمة ، والصيغة الأُولى أفصح من الثانية وقال أبو الهيثم : أجمع أمره جعله مجموعًا بعد ما كان متفرقًا .

(غُمَّةً) : أى مستورا ، من غمه إذا ستره .

(اقْضُوا إِلَىَّ) : أى أدوا إلىّ الأَمر الذى تريدونه بى .(وَلَا تُنظِرُونِ) : ولا تمهلونى .
(تَوَلَّيْتُمْ) : أعرضتم عن تذكيرى .(مِنَ الْمُسْلِمِينَ) : من المنقادين لحكم الله لا أُخالف أمره . (الْفُلْكِ) : السفينة .

التفسير

٧١ - (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ) :

أى واتل أيها الرسول على المشركين من قومك ومن على شاكلتهم من سائر الكفار ، اتل عليهم خبر نوح مع قومه الذين هم على شاكلة قومك فى الكفر والعناد ، فإنه خبر ذو شأن وخطر عظيم فلعلهم بتلاوته عليهم ، يتدبرون مافيه من زوال ما تمتع به قوم نوح من النعم ، وحلول عذاب الغرق بهم الموصول بعذاب الآخرة، لينزجروا عما هم فيه من الكفر ؛ فإنه خبر صادق موافق لما ذكرته الكتب السماوية عنه، شاهد بصحة نبوتك . فإنهم يعلمون أنه لا سبيل لك إلى علمه إلا بطريق الوحى . والمراد من نبإ نوح مع قومه : بعض أخباره معهم لاكلها ، فالموجود منها هنا موجز يسير لقصد العبرة .

(إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ . . .) الآية .

أى اذكر لقومك نبأ نوح حين قال لقومه مهددًا ومتوعدًا لهم بعد ماعاناه منهم من الإعراض والإصرار على التكذيب ، وبذل الجهد الطويل المديد فى الوعظ والتذكير : اذكر لهم حين قال نوح لقومه بعد ذلك كله : ياقومى إن كان قد عظم وشق عليكم . قيامى ومكثى بين ظهرانيكم وتذكيرى لكم بآيات الله الذى كان سببا فى كراهتكم لوجودى بينكم فعلى الله وحده توكلت ، وعلى حمايته وحفظه لى من شركم اعتمدت ؛ فاعزموا أمركم فى شأنى ، ووحدوا كيدكم لى ، واجعلوا معكم شركاءَ فيما تريدون بى : واحتشدوا فيه على أى وجه يمكنكم ، ثم لايكن أمركم الذى تدبرونه لى مستورًا مقصورًا عليكم ، بل اكشفوه وجاهروا به ولا تخشونى ، فإن السر إنما يصان ، لمنع الخلاص من المكروه بالهرب ونحوه وذلك لا مجال لى فيه ، فأنا واحد وأنتم أمة ، فكيف أستطيع الخلاص من كيدكم كما تتوهمون ، ثم أوصلوا إلى كيدكم واتجهوا به نحوى ولاتمهلونى . فلن يصل إلى من أذاكم قليل ولا كثير فقد اعتصمت بالله وتوكلت عليه ، «فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» .[1]

ولا ترى أبلغ من ذلك فى الثقة بنصر الله ، والسخرية من أعدائه الغافلين عن عظمة الله وحمايته لأنبيائه وأوليائه .

(١) سورة يوسف ، من الآية : ٦٤

٧٢ - (فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَاسَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ ...) الآية :
لايزال كلام نوح مع قومه متصلا .

والمعنى :فإن أعرضتم عن نصيحتى وتذكيرى لكم ، بعد ما بينته من أننى لاأخاف من أذاكم ولا أذى آلهتكم المزعومة ، وأننى فى حرز حصين من حماية ربى ، فلا سبيل لكم إلى إهلاكى فإن أعرضتم بعد ذلك كله فما سألتكم على وعظى وتذكيرى لكم من أجر قل أو كثر ، حتى يؤدى ذلك إلى توليكم ، أو حتى يضرنى توليكم بالحرمان ، فما سألتكم على التبليغ من أجر فما أجرى إلا على الله ، فلا وجه لإعراضكم عن الحق ، وقد أمرت من الله بأن أكون من المسلمين أى المستسلمين الخاضعين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره ، ولا أدعو إلى عبادة سواه ، فدعوا إعراضكم وأسلموا لله وحده كما أسلمت . ولكن قومه لم يستجيبوا له ، وأصروا كعادتهم على التكذيب فعاقبهم الله وذلك ماحكاه الله بقوله :

٧٣ - (فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خلَائفَ وَأَغْرَقنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا . . .) الآية :

أى فأصروا على التكذيب بعد ما ألزمهم الحجة ، وأوضح لهم الطريق المأمون ، وقضى معهم دهرًا طويلا فى النصح والإرشاد ، فنجاه الله تعالى من الغرق بالطوفان الذى عوقب به قومه ، ونجى من كان معه فى السفينة التى صنعها بأمر الله وإرشاده ، وهم الذين آمنوا بربهم واستجابوا له وكانوا عددًا قليلا وجعل الله هؤلاء المؤمنين من قوم نوح خلائف لقومهم المكذبين ، وأغرق الذين كذبوا بآياته تعالى ، جزاءً لهم على كفرهم وعنادهم ، ثم أمر الله بالتأمل فى عاقبتهم الوخيمة فقال :

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ) :

والخطاب هنا لكل ذى عقل سديد ، والمعنى : فانظر أيها العاقل وتأمل لتعرف منه أن بطش الله بالكافرين شديد لا قبل لأحد به ، وفيه تحذير لمن كذب رسول الله ، وتسلية له - صلى الله عليه وسلم - .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾)

التفسير

٧٤ - (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قومِهِمْ فجَاءُوهُمْ بالْبَيِّنات) :

ثم أرسل الله من بعد نوح رسلا كراما كثيرين إلى أقوامهم ، لكل قوم رسولهم الخاص بهم ، فجاءوهم بالمعجزات الواضحة الدالة على صدقهم فى التبليغ عنه سبحانه ، فما حدث لقوم من أقوامهم أن يؤمنوا فى آخر دعوته بما كذبوا به من قبل فى أول دعوته ، فلم ينفعهم دوام « تذكيرهم » ولا تواتر البينات الظاهرة والمعجزات الباهرة عليهم .

ويجوز أن يكون معنى (فَمَا كانُوا لِيُؤمِنُوا بمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ) : فما كانت كل أمة منهم لتؤمن برسولها بسبب تعودهم تكذيب الحق قبل بعثة رسولهم الخاص بهم إليهم ، فقد كانوا فى فترات الرسل يسمعون من بقايا الأمم قبلهم أن مرسلين أرسلوا بالتوحيد قبلهم ، فلما عصوا أهلكوا ، فكانوا يكذبون ذلك ، ثم كانت حالتهم بعد مجىء الرسل إليهم ، كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث إليهم أحد .

(كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ المعْتَدِينَ) : والطبع فى اللغة معناه الختم ، وقد استعمل فى الآية مجازًا عن التخلى والخذلان حتى صارت قلوبهم كأنها مغلقة ومختومة ومطبوع عليها .

والمعنى : مِثْلَ ذلك الخذلان والتخلى عن معونة هؤلاء الكافرين فيستمرون على كفرهم يتخلى الله ويخذل جميع المعتدين المتجاوزين لحدود الله ، فيبقون فيما هم فيه من عدوان ، وذلك لانهماكهم فى البغى والضلال ، وإعراضهم عن الهدى والرشاد ، ولو أنهم تدبروا آياته ، وفتحوا قلوبهم للنظر السديد ، لأعانهم الله وبصرهم فكانوا من المهتدين .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ
بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ
ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ
أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾
قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا
ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(وَمَلَئِهِ) : الملأ أشراف القوم .

(لِتَلْفِتَنَا) : لتصرفنا ، واللفت والفتل بمعنى واحد .

التفسير

٧٥ - (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا . .) الآية .

أي ثم بعثنا موسى وهارون من بعد أُولئك الرسل الذين تقدموهما إلى فرعون وأشراف قومه بآياتنا وعلاماتنا الدالة على أنهما مرسلان منا ،والمراد بتلك الآيات، ما مر في سورة الأعراف ، من انقلاب العَصا حيَّة وابتلاعها سحر الساحرين ، وخروج يده من جيبه بيضاء من غير سوءٍ والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ،إلى آخر الآيات التسع التي مر بيانها في سورة الأعراف .

وتخصيص ملإ فرعون بالذكر مع أن موسى وهارون أُرسلا إلى باقي أُمة فرعون ، لأن الحديث كان معهم أولا ، رغبة في إيمان منْ خلفهم بإيمانهم ، ولم يكتف باندراج قصة موسى وهارون منْ قوم فرعون فيما أجمل من أخبار الرسل بعد نوح ،لاختصاصها من بين سائر

القصص بأحداث هائلة مع ملك جبار ومستبد ، ولأنها كانت معروفة إجمالًا للعرب ، لأن اليهود كانوا يعيشون بينهم ، ثم بين الله ما حدث من قوم فرعون بعد ما دعاهم موسى وهرون إلى الحق المؤيد بالمعجزات ، فقال سبحانه :

(فاسْتكبرُوا وكانُوا قوْمًا مُّجْرِمِين) :

أى فتعالوا عليهما وامتنعوا عن قبول دعوتهما ، وكانوا معتادين الإجرام فلذا اجترءوا على رفض دعوة الله والكفر بها ، ثم فصل الله كفرهم بها نوعًا من التفصيل فقال :

٧٦ـ (فلمَّا جاءَهُمُ الْحقُّ منْ عنْدِنا قالُوا إنَّ هذا لسِحْرٌ مُّبِينٌ) :

أى فحين جاءهم الحق من عندنا على لسان موسى وهرون ـ عليهما السلام ـ مؤيدًا بالمعجزات الباهرات ، بادروا إلى ردها فورًا من غير تدبر ، وقالوا إن هذا الذى زعمتماه معجزات مؤيدة لرسالتكما ، ما هو إلا سحر واضح لايحتاج إلى جهد فى إثبات كونه سحرًا ، ثم أخبر الله برد موسى عليهم فقال :

٧٧ـ (قَال مُوسَى أَتقُولُون للْحقِّ لمَّا جاءَكُمْ) :

أى قال موسى منكرًا عليهم بعدما اتهموه بأن معجزاته من قبيل السحر الواضح : أتقولون للحق عند مجيئه إليكم من غير تثبت ولا تفكير (إنَّ هذا لسحْرٌ مُّبِينٌ) ولم يذكر فى رده عليهم جملة (إنَّ هذا لسحْرٌ مُّبِينٌ) اكتفاءً بعلمها من كلامهم السابق ، ثم وبخهم على هذا الادعاء ودلل على فساده فقال :

(أَسِحْرٌ هذَا ولَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ) :

أى أسحر هذا الذى جئتكم به ، وكيف يكون سحرًا وأتحداكم به وأنا أعلم أنه لايفلح الساحرون فلا يفوزون بمطلوب ، ولا ينجون من مكروه ولا يثبتون أمام تحدى الساحرين المتمرسين المتفوقين ، كالذين ينتشرون فى أطراف مصر وأرجائها ، وكيف يفلح الساحرون وهم يفترون على الله ، والله لاينصر من يفترى عليه .

ثم حكى الله مقالتهم الواهية لما عجزوا عن رد حجته عليهم فقال :

٧٨ـ (قَالُوا أَجِئتنا لتلْفِتنا عمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنَا وتكُونَ لَكُما الْكِبْرِياءُ فِى الأَرْضِ) :

أى قال قوم فرعون لموسى : هروبًا مما أفحمهم به ، أجئتنا بدعوى الرسالة عن الله ، لتصرفنا

عما وجدنا عليه آباءنا من عبادة فرعون وسائر المعبودات التى ورثناها عنهم ، لكى نعبد إلٰهك الذى طلبت أن نعبده وحده ، ولكى تكون لك ولأخيك الكبرياء والعظمة فى الأرض ، بتولى الملك والرياسة علينا ، فما أضعف حجتهم ، وما أقصر نظرهم ، فلا ينبغى لعاقل أن يحتج بما كان عليه الآباء - فما أكثر ما يكونون عليه من ضلال - ولا أن يُتَّهم من يدعو إلى الله وحده بأنه يدعو إلى الرياسة والملك فى الناس .

(وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ) : أى وقال فرعون وقومه لموسى وهرون ولسنا لكما بمصدقين فيما جئتما به من الدعوة إلى توحيد الله وترك ما كان عليه آباؤنا .

ولم يخصوا موسى بالخطاب مع أنه هو الذى خاطبهم بشريعته ودعاهم إليها ، مبالغة فى إقناطه من إيمانهم ، ولما كان لفتُهم عما وجدوا عليه آباءهم من خصائص صاحب الشريعة أسندوه إلى موسى عليه السلام فى قولهم : (أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) . أما هرون فوزيره فيها، وتأكيدًا لإصرارهم على الكفر والعناد كان التعبير بالجملة الإسمية والإتيان بالباء وتقديم (لَكُمَا) على (مُؤْمِنِينَ) فى قوله (وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ) .

وقد رفض هولاء دعوة موسى لسببين :

١ - أنه جاء ليصرفهم عما كان عليه آباؤهم وهم لايحبون التحول عنه ومفارقته .

٢ - أنهم زعموا أنه أراد بدعوته أن يكون له ولأخيه الكبرياء فى الأرض وهم يحرصون على الانفراد به واستعباد الناس وظلمهم ، ويرد السبب الأول بأنه حقا دعاهم إلى نبذ ماكان عليه آباؤهم ولكن ليخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الايمان والعرفان ،وهذا خير مما عليه آباؤهم ، ولا يحتاج رد الثانى إلى فكر ونظر لأن الرسالة لم تكن طريقًا إلى التسلط والكبرياء ،فقد تحمل موسى وهرون فى سبيلها متاعب شديدة ، ورحلات شاقة وبذلا فى تبليغها للناس جهودًا مضنية ، من أجل الله وإسعادًا للبشر فى الدنيا والآخرة ، دون أن يكون لهما مأرب دنيوى .

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(السِّحْرُ) : يطلق على ما لطف ودق ، ويطلق على ما يقع بخداع وتخيلات لا حقيقة لها ، مثل ما يفعله المشعوذ من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده ، ويكون السحر أيضًا بمباشرة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد من التأثير على الشخص المقصود ، بحيث يغير مزاجه ويؤثر فى حواسه ووجدانه ، كأن يجد الحلو مرًّا ، وينقبض صدره وتضعف قواه ، ويكثر اضطرابه .

(سَيُبْطِلُهُ) : سيمحقه ولا يبقى له أثرًا . (لَا يُصْلِحُ) : لايثبِّت ولا يؤيِّد .

(وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ) : ويثبت الله الحق ويقويه ويؤيده . (بِكَلِمَاتِهِ) : بأوامره ووحيه .

التفسير

٧٩ـ (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) :

بعد أن بين القرآن الكريم أن فرعون وقومه لجأوا إلى التمسك بتقليد آبائهم ـ حينما لم يجدوا حجة يردون بها دعوة موسى ـ بعد ذلك جاءت هذه الآية تبين أن فرعون اتبع أسلوباً آخر فى رد رسالة موسى ، وهو إيهام قومه أن ما جاء به موسى من قبيل السحر حتى لا يتأثروا بدعوته الواضحة ، فيبقى له النفوذ والكبرياء والتسلط .

والمعنى : وقال فرعون آمرا قومه : اجْمَعُوا لِي من جميع أنحاء مملكتي كل ساحر واسع العلم بفنون السحر ، عظيم الخبرة به قوى التأثير بارع الحيلة كي يعارض بهم معجزة موسى عليه السلام .

٨٠ـ (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَاأَنتُم مُلْقُونَ) :

أى فحشروا لفرعون كل ماهر فى صناعة السحر ، فلما جاءوا إليه واجتمعوا لديه قال لهم موسى ألقوا ما استقر رأيكم على إلقائه من أنواع السحر ، وقدموا ما عزمتم على فعله وأظهروا كل مافى طاقتكم من سحر ليظهر بطلانه على رءوس الأشهاد .

ولم يطلب إليهم موسى عليه السلام . أن يبدأوا بإظهار سحرهم عقب مجيئهم إلى فرعون وإنما كان بعد أن خيروه بين أن يبدأ هو أو يكونوا هم البادئين ، كما حكاه القرآن فى سورة الأعراف « إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ »[1] .

ولوثوقهم بتغلبهم عليه خيروه ، كما كان طلب موسى منهم أن يبدأوا ليعطيهم الفرصة كاملة لإظهار مافى طاقتهم من السحر فى هدوء تام واطمئنان كامل ، وحتى يجد الحق بعد الباطل نفوسًا تتقبله وعقولا تتدبره .

٨١ـ (فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَايُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)

أى فلما ألقوا مالديهم من العصى والحبال وأظهروا كل مافى طاقتهم من فنون السحر استرهبوا الناس وجاءوا بسحر عظيم . ولثقة موسى ـ عليه السلام ـ بصدق رسالته ، وإيمانه بنصر الله له ، وتثبيت الله لقلبه ، وتكذيبًا لما رموه من السحر قال لهم : الذى جئتم به وبذلتم فى إظهاره أقصى جهدكم هو السحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ، وتأكيدا لثقته بتحقيق ماتقدم قال فيما حكاه القرآن عنه (إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ) : أى إن الله سيمحق هذا السحر فلا يبقى له من أثر بما يظهره على يدى من المعجزات ، فإن الباطل لايدوم مهما كثر وانتشر .

---

(١) الأعراف من الآية : ١١٥

ثم أكد القرآن الكريم ذهاب هذا السحر وزواله بقوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) : أى إن الله لايجعل عمل جميع المفسدين صالحاً للبقاء ثابتًا ، بل يزيله ويذهب به ، فلا يبقى لباطل هؤلاء السحرة المفسدين أثراً .

٨٢ـ (وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) :

أى ويثبت الله الحق الذى يبعث به رسله رحمة للعالمين ، ويؤيده ويقويه بأوامره وتأييده ، ولو كره المجرمون الكافرون إحقاقه واستقراره ، ففى إحقاقه قطع أطماعهم وتقويض سلطانهم والقضاء على باطلهم ، واستقرار الأمن وعمارة الأرض وذهاب الفساد . ومن سنن الله فى خلقه أن البقاء لمبادىء الخير والحق « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »[1] .

(فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾)

المفردات :

(ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ) : جماعة من قومه ، شبابًا أو كهولا ، فقد آمن به السحرة وهم كهول غالبًا كما آمن به غيرهم .

(أَن يَفْتِنَهُمْ) : أن يعذبهم . (لَعَالٍ فِى الْأَرْضِ) : لغالب فيها .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨١

التفسـير

٨٣- (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلا ذُرِيةٌ مِّنْ قوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْن وَمَلَائِهِمْ[1] أَنْ يَفتِنَهُمْ) :
بعد أن بين القرآن الكريم على لسان موسى أن ماجاء به سحرة فرعون هو السحر الذى لاحقيقة له ، وأن الله سيبطله ، ويحق الحق بكلماته ، جاءت هذه الآية تخبر بأنه مع ثبوت الحق بغلبة المعجزة وزهوق الباطل باندحار السحر ، لم يؤمن بموسى عليه السلام- إلا عدد قليل من قومه .

والمعنى : فما آمن لموسى وصدق برسالته بعد إحقاق الله الحق بقضاء عصا موسى على سحر الساحرين ، إلا عدد قليل من قوم فرعون شرح الله صدورهم للإيمان ، بعد ظهور الحق على الباطل ، وكان إيمان هؤلاء مصحوباً بخوف شديد وحذر بالغ من فرعون ورؤساء قومه أن يعذبهم على أيدى هؤلاء الرؤساء ويوقع بهم صنوف الأذى بمعونتهم .

وإنما جاء فى القرآن (أن يَفتِنَهُمْ) دون أن يفتنوهم حتى يشمل فرعون وملأهم ، لإفادة أن الخوف من الملإ كان بسبب أن كل ظالم فى دولة فرعون كان يستمد ظلمه من طغيان فرعون وجبروته ، ثم أكد القرآن الكريم خوف المؤمنين من بطش فرعون بقوله تعالى :

(وإنَّ فِرْعَوْن لَعَالٍ فى الْأَرْضِ) : أى وإن فرعون لغالب على الناس قاهر لهم فى أرض مصر بالسلطان والملك عليهم وادعاء أنه لا إله لهم سواه كما حكاه الله عنه بقوله : « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى .»[2] ثم زاد فى تقرير هذا المعنى حين قال :

(وَإِنهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ) : أى وإن فرعون لمن جملة الذين دأبوا على تجاوز الحد فى الظلم والفساد فقد أسرف فى القتل وسفك الدماء ، كما بالغ فى الكبر والاستعلاء .

٨٤- (وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ توَكَّلُوا إِن كُنْتُم مُّسْلِمِينَ) :
أى وقال موسى لأولئك الذين أظهروا إيمانهم ، ياقوم إن كنتم صدقتم بالله ، فعليه وحده توكلوا إن كنتم مستسلمين له خاضعين لشرعه .

٨٥- (فَقَالُوا عَلَى اللهِ توَكَّلنَا ربَّنا لَاتَجْعَلْنَا فتنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :
بعد أن بينت الآية السابقة أن موسى عليه السلام دعا من آمن به من قومه إلى التوكل على الله والاعتماد عليه فى نصرتهم وإصلاح شئونهم كدليل على صدق إيمانهم جاءت هذه الآية الكريمة لبيان أنهم أسرعوا إلى تلبية ندائه .

(١) جمع الضمير فى (ملئهم) مع أنه عائد على فرعون ، لأنه جاء على طريقتهم فى تعظيمه . (٢) سورة القصص من الآية : ٣٨

والمعنى وقال الذين آمنوا بموسى مستجيبين له فى صدق إيمان ، وإخلاص يقين ، ومن غير إبطاء ولا تردد – على الله وحده اعتمدنا فى نصره لنا ودفع الأذى عنا ، وإنقاذنا من ظلم الظالمين ، وإعانتنا فى كل ما يهمنا من شئون الدنيا وأمور الآخرة : وفى مبادرتهم إلى إجابة هذا النداء ، دليل واضح على رسوخ إيمانهم وقوة إسلامهم ، ومصداق لإخلاصهم فى التوكل على الله ، وقد فزعوا إليه سبحانه بالدعاء قائلين : (رَبَّنَا لَاتَجْعَلنا فِتنةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمين) : أى ربنا لاتجعلنا موضع فتنة لهؤلاء القوم الظالمين فلا تسلطهم علينا تعذيباً ووعيدا ومضايقة فيفتنونا عن ديننا .

٨٦ – (وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِك منَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) :

أى وأنقذنا برحمتك وعطفك من هؤلاء القوم الكافرين بك – إن هم أرادونا بسوء – فنحن لا قدرة لنا على دفعهم لضعفنا وقوتهم ، ومن أظلَّتهم حمايتك ، فلا سلطان لجبار عليهم .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾)

المفـردات :

(تَبَوءَا لقَومكُمَا بمِصْرَ بُيُوتاً) : أى اجعلا لقومكما منازل يقيمون فيها – يقال : تبوأ المكان وتبوأ به نزل فيه وأقام به . (واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً) : أى اجعلوها أماكن الصلاة متجهين فيها إلى القبلة. (اطْمِسْ عَلى أَمْوَالهِمْ) : الطمس فى اللغة المحق والمحو، أى أهلكها واجعلها غير صالحة للانتفاع بها . (واشدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ) : أى اختم عليها واجعلها قاسية لا تنشرح للإيمان لاختيارهم الكفر وإصرارهم عليه .

التفسـير

٨٧ – (وأَوْحَيْنَا إِلى مُوسَى وأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لقَوْمِكُمَا بِمِصْرَبُيُوتًاواجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وأَقِيمُوا الصَّلاَةَ) .. الآية : أى وأمر الله تعالى موسى وأخاه هرون – عليهما السلام – بوحى أوحاه الله إليهما أن يجعلا لقومهما بمصر بيوتا خاصة بهم ينزلون بها ويسكنون فيها ، وأمرهما وقومهما أن يجعلوا بيوتهم هذه أماكن للصلاة ، وأن يقيموا الصلاة فيها إلى جهة القبلة ، بعيدا عن أعين فرعون وقومه حتى يأمنوا على أنفسهم من البطش والإيذاء وعلى دينهم من الفتنة – وكان فرعون قد خرب معابد بنى إسرائيل ومنعهم من الصلاة .

ولِمَا للصلاة من الأثر البالغ فى تهذيب النفس وصفاء القلب ، أمرهم الله جميعا بها فقال : (وأَقِيمُوا الصَّلاةَ) : أى وأدوا الصلاة تامة الأركان والشروط فى خشوع وإخلاص لله تعالى لتنشرح صدوركم وتمتلئ نورا وإيمانا ، وتثبت أقدامكم على طريق الحق والهدى إذ الصلاة عماد كل الديانات التى شرعها الله .

(وَبَشِّرِ المؤمِنِينَ) : أى وبشر المؤمنين ياموسى بالنصر والتأييد فى الدنيا إجابة لدعائهم ، وفى الآخرة بجنات النعيم جزاء ما قدموا من صالح الأعمال .

ومن محاسن النظم الكريم فى هذه الآية أن الله أمر موسى وهرون وحدهما باتخاذ البيوت لقومهما لأن ذلك من شأن الرؤساء والقادة .

وأمرهم جميعاً بإقامة الصلاة وجعل بيوتهم معابد لوجوب الصلاة على جميع المكلفين وأمر موسى وحده بالبشارة لأنها من وظائف صاحب الرسالة المقدم فى قومه ، لتكون أوقع فى نفوس المؤمنين وأعظم فى إدخال السرور عليهم .

٨٨ - (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إنك آتَيْتَ فرعَونَ وَمَلأَهُ زِينَةً وأَمْوالاً فى الحَياةِ الدُّنْيَا) الآية.
بعد أن اطمأن موسى - عليه السلام - إلى استقرار قومه فى البيوت التى اتخذها هو وأخوه لسكناهم جاءت هذه الآية تبين أنه اتجه إلى الله بالدعاء على فرعون وملئه وبعد أن يئس من إيمانهم .

والمعنى : وقال موسى - عليه السلام - مناجيا رب العالمين سبحانه وتعالى ياربنا إنك أعطيت فرعون والرؤساء من قومه زينة من لباس حسن جميل وحلى وجواهر ، وأثاث فاخر وقصور عالية ، وغير ذلك مما يتزين به ، ومنحتهم أنواعاً كثيرة من الأموال فكانت عاقبة هذه النعم أنهم بالغو فى الكفر بك ، وجعلوها وسيلة قهر وبطش وطغيان ، وضلوا بها وأضلوا عن سواء السبيل واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأغلقوا قلوبهم دون قبول الخير ، فاستوجبوا دعائى عليهم (ربَّنا اطْمسْ على أمْوَالِهِمْ واشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يؤمنوا حتى يَرَوُا الْعذَابَ الأَليم) : أى ياربنا أهلك هذه الأموال التى استعبدوا الناس بها ، وأكثروا فى الأرض الفساد بسببها ، أهلكها ليزول سلطانهم ويذلوا ، واربط على قلوبهم بحيث تكون قاسية جامدة لا تنشرح للإيمان ، فإنها ليست له أهلا ، لنبذهم شريعتك وتكذيبهم رسالتك بسوء اختيارهم ، اربط على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم حيث لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أوكسبت فى إيمانها خيرا ، ليكون انتقامك منهم شديدًا وعبرة لغيرهم ، وهو ما كان من فرعون فيما حكاه القرآن الكريم بقوله : « حَتى إذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إلَهَ إلاَّ الَّذى آمَنَتْ به بَنُو إسْرَائيلَ وأَنَا مِنَ المسْلِمينَ »[١] .

وقدم موسى - عليه السلام - بين يدى دعائه على فرعون وقومه ذكر طغيانهم ليكون أرجى لاستجابة الله له ، وتشهيرا بهؤلاء الذين لم يقدروا نعم الله حق قدرها .

وكرر النداء (ربنا) مبالغة فى الضراعة إليه تعالى ، حتى يستجيب له لمبالغتهم فى العناد والطغيان ، والتنكر لأنْعُم الله ومقابلتهم الإحسان بالكفران .

٨٩ - (قَالَ قَدْ أُجِيبتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) : أى قال الله تعالى - خطابا لموسى وهرون عليهما السلام - قد أجبتُ دعاءكما ، وحققت رجاءكما

(١) سورة يونس الآية رقم (٩٠) .

فى شأن فرعون وملئه فأهلكتهم وأموالهم لأنهم استمروا على عنادهم ، فلم يؤمنوا إلا عند اليأس من الحياة حين أدركهم الغرق ، فلم يقبل الله إيمانهم .

وقد ذكر الله تعالى أنه أجاب دعاء موسى وأخيه ، مع أن موسى هو الذى دعا على الطغاة لأن هرون كان يقول عند دعاء موسى : آمين كما دلت عليه الآثار. ومعناه: استجب ياربنا فكلاهما طلب الإجابة – طلبها موسى بلفظ الدعاء وطلبها هرون بمضمونه فلا تعارض بين إشراكهما فى الإجابة وانفراد موسى بالدعاء .

وبعد أن طمأنهما الله – تعالى – على إجابة دعائهما أمرهما بالثبات على طريق الحق المستقيم ضمانا لنصرهما فقال – تعالى – : (فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ):أى فاستمرا على طريق الحق طريق الطاعة والعبادة والدعوة إلى التوحيد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الحجة على أعداء الله ، ولا تسيرا فى طريق الجهلاء الذين لا يعلمون باستعجال العذاب قبل أوانه ، فإنَّ ما طلبتماه سيتحقق فى وقته المقدر له وفقا لقضاء الله المحكم وحكمته البالغة .

(۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾)

المفردات :

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ) : أى وجعلناهم يجاوزونه ويعبرونه من الغرب إلى الشرق حتى وصلوا إلى شاطئه الشرقى .

(فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ) : أى تبعهم حتى اقترب منهم ، تقول : تبعته حتى أتبعته ، إذا كان قد سبقك فلحقته ،(بَغْياً وَعَدْواً) : أى ظلما ، وتجاوزا للحد فيه .

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ) : أى حتى إذا لحقه الغرق .

التفسير

٩ - (وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ) الآية .

بعد أن أخبر الله - تعالى - موسى وهرون - عليهما السلام - باستجابة دعائهما على فرعون وقومه ، أمرهما أن يخرجا ببنى إسرائيل من مصر ، فخرجوا على حين غفلة من فرعون وقومه فلما علم فرعون بخروجهم ، خرج بجنوده فى طلبهم بغيا وعدوا ، فلما أدركهم قالوا يا موسى كيف الخلاص ؟ والبحر أمامنا والعدو وراءنا ، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، فسلك موسى ببنى إسرائيل طريقا فى البحر يبسا ووصل فرعون وجنوده إلى الساحل وكان طريق بنى إسرائيل فى البحر لايزال باقيا ، فسار فيه فرعون بجنوده فلما اكتملوا جميعا فيه وهمَّ أولهم بالخروج ، انطبق البحر عليهم وأغرقوا أجمعين .

(حَتَّى إذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ) : أى حتى إذا لحقه الغرق واقترب منه الموت ، صحا من غروره ، وندم على فجوره وأعلن إيمانه فيما حكاه القرآن عنه بقوله : (قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلا الذِى آمَنتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنا من الْمُسْلِمِين) : أى قال فرعون آمنت بأنه لا إله يعبد وحده إلا الإله الذى آمنت به بنو إسرائيل وصدقت بوحدانيته ، وأكد قوله السابق بقوله : (وَأَنا مِنَ الْمُسْلِمِين) : أى وأنا واحد من جملة الذين أسلموا نفوسهم

لله تعالى ـ وحده ـ وبهذا الاعتراف أبطل ما كان يقوله استعلاءً وتجبرا : « أَنا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . وقوله : « مَا عَلِمْتُ لكُم مِّن إِلَٰهٍ غيْرِى » .

فأنت تراه فى اعترافاته هذه قد بالغ فى إعلان إيمانه حيث كرره بثلاث عبارات :

١ ـ « آمنت » .

٢ ـ « أَنهُ لا إِلَٰهَ إِلا الذِى آمَنتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ » .

٣ ـ « وَأَنا من الْمُسْلِمِين » .

وقد حدث منه كل ذلك طمعا فى النجاة مما نزل به ، وليت شيئا من ذلك كان منه حين ينفعه الإيمان ـ وذلك قبل اليأس من الحياة ، لأن تأخير الإيمان إلى وقت العقاب لاينجى صاحبه ، وقد دلت على ذلك الآية التالية :

٩١ ـ (الْآن وَقدْ عَصَيْتَ قبْلُ وَكُنتَ من الْمُفسِدِين) : أى أتؤمن الآن حين لاينفع نفسا إيمانها ، وقد أمضيت عمرك فى المعصية ، وكنت من الملازمين للإفساد فى الأرض ، أفلا قدمت إيمانك ، وأجبت داعى ربك ، وأنت فى فسحة من الأجل حين كان ينفعك إيمانك؟ ولكنك ندمت وآمنت بعد فوات الأوان ، فلم ينفعك الإيمان ، كما قال تعالى : « فلمْ يَكُ يَنْفعُهُمْ إِيمَانُهمْ لمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنةَ اللهِ الَّتى قدْ خَلَتْ فى عبَادِهِ وَخسِرَ هُنا لِك الْكافِرُون »[1] . روى الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه ـ رضى الله عنهم ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ مالمْ يُغَرْغِرْ » والغرغرة حشرجة الموت وقال تعالى ـ : « وَلَيْسَت التوْبَةُ لِلَّذِين يَعْمَلون السيِّئاتِ حَتى إذا حَضرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّى تُبْتُ الْآن وَلَا الذِين يَمُوتون وَهُمْ كُفَّارٌ أُولـئك أَعْتدْنا لهمْ عَذابا أَلِيمًا »[2] .

٩٢ ـ (فالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً) :

بعد أن أنكرت الآية السابقة على فرعون تأخير الإيمان بلا عذر إلى أن حضره الهلاك ، جاءت هذه الآية لبيان خيبة أمله وقطع رجائه وللسخرية منه .

---

(١) سورة غافر ، الآية : ٨٥

(٢) سورة النساء ، الآية : ١٨

والمعنى : فى هذا اليوم الذى نجى الله فيه موسى وهرون وبنى إسرائيل من الغرق ، يخرجك الله من البحر ، ويلقى ببدنك على شاطئه خاليا من الروح ، لتكون قصتك آية وعلامة لمن وراءك من أهل عصرك ومن يأتى بعدهم ممن يبلغهم خبرك ، وتصل إلى أسماعهم عاقبتك ، فيعرفون من هذه الآية أن الكفر بالله وخيم العاقبة ، وأنه لايصح للبشر أن يشاركوه فى الألوهية أو يستأثروا بها ، قيل إن فرعون الذى أرسل إليه موسى هو منفتاح أو رمسيس الثانى ، وكلاهما جثة موجودة إلى اليوم فى المتحف المصرى والله أعلم ، ومع ما فى قصة فرعون من العبر فلم يلتفت إلى الإفادة منها كثير من الناس ، كما قال تعالى : (وَإِنَّ كَثِيراً مِّن النَاسِ عَن آيَاتِنَا لغَافِلُونَ) :

أى وإنَّ كثيرًا من أهل مكة ومن غيرهم لغافلون ، عن التفكير فى آيات الله التى أقامها أو أنزلها للفصل بين الحق والباطل لغافلون أشد الغفلة ، ساهون عن تدبر معانيها ، والانتفاع بدلالاتها ، ولو فعلوا لما ضلوا عن سواءِ السبيل .

(وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(بَوَّأْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ) : أنزلنا هم مكانًا صالحًا آمنًا وأسكناهم فيه .

التفسير

بعد أن ذكر القرآن الكريم إنعام الله على بنى إسرائيل بإنجائهم وإهلاك عدوهم جاءت هذه الآية لبيان أحوالهم وما أفاض الله عليهم من نعمه الوفيرة وأنهم لم يقوموا بشكرها .

٩٣ـ (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ) .. الآية .

يؤكد الله ـ تعالى ـ أنه أنزل بنى إسرائيل بعد أن أنجاهم من طغيان فرعون وجنوده ،

وخلصهم من مطاردتهم- أنزلهم -مكانًا صالحًا مرضيا ،وأرضًا يجدون فيها الأمن والطمأنينة ، ومع تهيئة المكان الآمن رزقهم أرزاقًا طيبة ، فأنزل عليهم المن والسلوى وأتم عليهم نعمته .

(فَمَا اخْتَلَفوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ) : أى ظل هؤلاء يرفلون فى نعم الله عليهم فما اختلفوا فى أمر دينهم وما عصوا رسولهم موسى- عليه السلام – إلى أن قرأوا التوراة وعرفوا أحكامها فاختلفوا فى فهمها ، وانقسموا فرقًا فى تأويلها ، كل فرقة تدعى أنها هى التى على الحق دون سواها ، ويجوز أن يكون المراد ببنى إسرائيل الذين اختلفوا ، هم اليهود الذين كانوا فى زمن محمد – صلى الله عليه وسلم – وذلك أنهم كانوا قبل مبعثه عالمين بقرب مبعثه مجمعين على نبوته ، مما عرفوه عنه فى كتبهم من البشارة به وبيان أحواله وصفاته ، فلما بعث اختلفوا فمنهم من آمن به ومنهم من كفر بغيا وحسدًا ، كما قال –تعالى –: « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِين أُوتوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهم الْبَيِّنَةُ »[1] .

ثم حذرت الآية المكذبين وطمأنت المصدقين ببيان أن مصير الكل إلى الله يحاسب كلا على ما قدمت يداه وذلك فى قوله تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ يَفصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) : أى إن ربك أيها الرسول سيحاسب كلا بما كسبت يداه ، ويحكم بالعدل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، فيثيب المحقين ويعاقب أهل الباطل الظالمين .

(فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾)

(١) سورة البينة ، الآية : ٤

المفردات :

(مِنَ الْمُمْتَرِين) : من الشاكِّين .

التفسير

٩٤ - (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ . .) الآية .

بعد أن تحدثت هذه السورة عن قصص بعض المرسلين مع أممهم ، وآخرها قصة موسى مع فرعون وقومه ، جاءت هذه الآية تطالب من يشك فى صدق هذه القصص التى ساقها الله للعبرة ، وللدلالة على صدق محمد فى نبوته ، تطالبه بأن يسأل الذين يقرءون الكتاب من علماء اليهود والنصارى ، ليتأكد من وجودها فى كتبهم ، وليحمله ذلك على الإيمان بنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - فالخطاب فى قوله تعالى : (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) إلخ موجه إلى من يتعرض للشك من الأمة التى أرسل إليها النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وليس موجهًا للنبى - عليه الصلاة والسلام - لما سنبينه فيما يلى :

اعلم أن القرآن كما أُنزل إلى الرسول وحيًا وتبليغًا أُنزل إلى أمته أفرادًا وجماعات عملًا وتكليفًا ، فمن الأول قوله تعالى فى سورة النحل : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »[(١)]. وقوله فى سورة النساء : « إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ . . »[(٢)]. ومن الثانى قوله تعالى خطابًا للأمة : « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[(٣)] ». وقوله تعالى : « وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ »[(٤)] .

والمعنى : فإن كنت أيها المكلف من أمة الدعوة المحمدية ، فى شك من صدق ما أنزلناه من هذه القصص على رسولنا إليك لتعرف به صحة نبوته ورسالته - صلى الله عليه وسلم - ، فاسأل علماء اليهود والنصارى الذين يقرءون كتبهم ويعرفون أن هذه القصص قد وردت بها منقولة من جيل إلى جيل قبل وجودك ، حتى تعلم من وجودها قديمًا فى كتبهم أن محمدًا - صلى الله عليه وسلم - صادق فى نبوته ، وثقةٌ فى رسالته ، فإنه أمى لا يقرأ ولا يكتب

(١) سورة النحل ، من الآية : ٤٤
(٢) النساء ، من الآية : ١٠٥
(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠
(٤) سورة النور ، من الآية : ٣٤

ولم يجالس من قرأها وعلم بها ، فقد نشأ بين قريش الوثنية ، فهذا برهان واضح على أن الله تعالى هوالذى أعلمه بها وأوحاها إليه ، وأنه صادق فيما أبلغكم عن الله ، وأن الإيمان بنبوته فيه النجاة ، وأن الكفر بها يستتبع الهلاك .

أفهام خاطئة فى معنى الآية

ويرى بعض المفسرين أن الخطاب فيها للرسول - صلى الله عليه وسلم - لغرض تهييجه وإثارته ، ليزداد ثباتًا على دينه ، من غير احتمال وقوع شك منه ، وهذا الرأى لايصح قبوله بحال من الأحوال ، فإن فرض الشك فيه لأى غرض من الأغراض وبأى تأويل مما قالوه ، مخالف للنقل مرفوض من جهة العقل ، وخطأ فاحش استغله أعداءُ الإسلام ، وقالوا إن محمدًا لم يكن متيقنًا أنه رسول من الله - تعالى - وساقوا هذه الآية وتفسير المفسرين لها على هذا النحو تأييدًا لفريتهم ، فكيف يصح عقلا أن يفرض الشك فى الرسول لغرض إثارته وزيادة تثبيته - كما أولوا به موضوع فرض الشك فيه - فهل كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - بحاجة إلى مزيد تثبيته وإثارته ، لكى يزداد استمساكه بتبليغ دعوة ربه ، كلا وألف مرة كلا ، فقد سجل القرآن الكريم ما يناقض ذلك ، قال تعالى : « فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . ما زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١) » .

وكيف يحتاج الرسول إلى التثبيت وهو الذى كان يقول : «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الدين ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . وكيف يحتاج إلى التثبيت وإلى سؤال أهل الكتاب ليزداد طمأنينة ، وهو الذى تحمل من إيذاء قومه ثلاثة عشر عامًا ، مالا تحتمله الشمُّ الرواسى ، وشاركه فى ذلك من آمن معه من المؤمنين حتى مات بعضهم من شدة العذاب ، ألم يقاطعهم المشركون لايؤاكلونهم ولا يزاوجونهم ولا يبيعونهم الطعام ، حتى اضطروهم إلى الإقامة فى شعب أبى طالب ثلاث سنين ، ووصل بهم الجوع هناك إلى أن يأكلوا أوراق الشجر وهم صابرون ، وكيف يستطيع أن يحمل عبء هذه الدعوة

(١) سورة النجم ، الآيات : ١٠ - ١٨ .

الضخمة من هو بحاجة إلى التثبيت ، وكيف يعمل لها بهمة وصدق عزيمة لاتعرف الكلل ، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجًا ، وذاع فى عهده وانتشر حتى غطى الجزيرة العربية كلها ، فوالله لولا أنه ثابت الجنان عظيم الاطمئنان ، واثق من دين الرحمن ، لما استطاع أن يفلت من حصار أهل الشرك له بمكة ، بل كان يسلم لهم القياد ، ويجيبهم إلى ما يبتغون فأسمعهم حين يخاطبهم خطاب الواثق من نفسه بأنه يبلغ عن الله – تعالى – : « قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّنْ دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »[١] . . ولقد علم الناس من سيرته الوثيقة ، أنهم عرضوا عليه الرياسة والمال بعد أن يئسوا من استجابته بالإيذاء فأبى وقرأ عليهم سورة فصلت ، وقد جاء فيها: « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُود[٢] ». فهل يكون هذا حال من هو محتاج إلى التثبيت . . ؟

ولقد أحسن البيضاوى إذ حكى فى آخر كلامه ، رأيًا لبعض المفسرين أن الخطاب فى قوله تعالى : (فَإِنْ كُنْتَ فى شَكٍّ) إلخ لكل من يسمع ، وقال فى معناه على هذا الرأى : أى إن كنت أيها السامع فى شك مما أنزلنا على نبينا إليك (فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقرءُون الْكِتَابَ) .

ولو أن الإمام البيضاوى وغيره اقتصر على هذا الرأى ، ولم يذكر معه سواه – لا قَبْله ولا بَعْده – لكان قد أسدى خيرًا للحق الذى يجانب غيره من تلك الآراء الفاسدة ، المخالفة لنص القرآن ولواقع النبى – صلى الله عليه وسلم – من الهمة ومضاء العزيمة ، ومن ثباته على دينه رغم المغريات من الملك والمال ، بعد أن لم يصرفه عن دينه الإيذاءُ والاستهزاءُ .

(لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) : لقد جاءك أيها المكلف الحق من ربك فلا تكونن من أصحاب الشكوك والأوهام ، بل كن من ذوى الإيمان الثابت بهذا الحق المبين .

٩٥ – (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) : هذه الآية خير شاهد لما قلناه من أن الخطاب ليس موجهًا إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – ،

---

(١) سورة يونس ، الآية ١٠٤

(٢) الآية : ١٣ .

بل إلى كل مكلف من أمة الدعوة المحمدية ، فإن محمدًا - صلى الله عليه وسلم - لايتصور منه أن يكون مكذبًا لآيات الله وهو يدعو الناس إلى الإيمان بربه .

والمعنى : وكما نهيناك أيها المكلف عن الشك فيما أنزلناه إليك على لسان محمد ، ننهاك عن التكذيب بآيات الله ، فلا تكونن من جملة المكذبين بدين الإسلام ، فتكون بذلك التكذيب فى عداد الخاسرين فى الدنيا والآخرة .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾)

التفسير

فى هاتين الآيتين بيان شدة إصرار أهل الكفر على الجحود والعصيان ولو جاءتهم كل آية طلبوها أو لم يطلبوها ، وأن اقتراحهم ماهو إلا تعلة لرفضهم الإسلام ، لعدم تحقيقها وبيان ذلك فيما يلى :

٩٦ - (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ) : أى إن الذين حقت ووجبت عليهم كلمة ربك أى حكمه وقضاؤه بأنهم لايؤمنون ، بل يموتون على الكفر ويخلدون فى النار ، بسبب ما علمه منهم من الإصرار على تكذيب رسوله تكبرًا وعنادًا ، وتقليدًا للآباء والأجداد ، فآثروا الضلالة على الهدى ، مع وضوح الحق ، ودوام التذكير .

٩٧ - (وَلَوْ جَاءَتهمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ) : أى إن هولاء الذين حكم الله بعدم إيمانهم وخلودهم فى النار بسبب اختيارهم العمى على الهدى لايستجيبون لدعوة الحق ولو جاءتهم كل آية كونية طلبوها أو لم يطلبوها ، وكل آية نقلية من شأنها أن تجذب

القلوب إلى قبول الهدى والرشاد ، كما قال تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١) » .

(حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ) : أى هؤلاء يستمرون على كفرهم وعنادهم فلا يصدقون بالآيات الواضحة والبراهين القاطعة ولا يؤمنون إلى أن يأتيهم العذاب الأليم على كفرهم ، فيؤمنوا حين لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا – كشأن فرعون وأمثاله ممن آمنوا عندما شاهدوا العذاب الذى أنذروه محيطا بهم من حيث لايعلمون ، وقد فات الأوان الذى ينفع فيه الإيمان .

(فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾)

المفردات :

(فَلَوْلَا) : لولا كلمة تفيد الحث على الفعل بمعنى هلَّا . (قَرْيَةٌ) : اسم للمبانى المتصلة التى يسكنها جمع من الناس ، وقد جاء فى القرآن الكريم أن القرية والمدينة بمعنى واحد قال – تعالى – : « حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ » . ثم قال : « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ » . وقيل القرية بلدة أصغر من المدينة – والمراد من القرية فى الآية أهلها .

التفسير

٩٨ – (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا) .. الآية .

بعد أن بينت السورة قبل هذه الآية امتناع الإيمان ممن حكم الله عليهم بالخسران لاختيارهم طريق العصيان ، مع تمكنهم من إنقاذ أنفسهم بالإيمان قبل فوات الأوان ، جاءت

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٧

هذه الآية الكريمة ترتيبًا على ما تقدم لتقرير هذا المعنى : إذ بينت أن الله تعالى قد أهلك الذين أخروا إيمانهم من الأمم السابقة ، حتى إذا عاينوا الهلاك قالوا آمنا .

والمعنى : فهلا كان أهل كل قرية بعث الله إليهم رسولا ، بادروا إلى الإيمان بما جاءهم به قبل أن يحيط العذاب بهم فيقبله منهم وينجيهم من الهلاك : لكن لم يبادروا بالإيمان قبله فهلكوا .

(إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) : أى لكن قوم يونس – عليه السلام – لما آمنوا عندما رأوا أمارات العذاب ، وتابوا إلى الله – تعالى – قبل حلوله بهم ، أزال الله عنهم عذاب الذل والهوان فى الحياة الدنيا وكشفه عنهم بعد أن كاد يقع بهم ، ومتعهم بما فى الدنيا من زينة ونعيم ومتاع إلى انقضاء آجالهم ، لمسارعتهم إلى التصديق بما جاء به رسولهم عند رؤيتهم أمارات العذاب .

روى عن عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير وعبد الله بن عباس أن يونس – عليه السلام – أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل – وكانوا أهل كفر وشرك – فكذبوه وأصروا على ذلك ، فأوحى الله إليه أن أنذرهم أن العذاب يصبحهم بعد ثلاث ليال ، فأخبرهم بذلك ، فلما قرب موعد الإنذار غامت السماء غيمًا أسود هائلا ، ذا دخان شديد ، فهبط حتى غشى مدينتهم ، فاستولى عليهم الخوف والفزع ، فطلبوا يونس فلم يجدوه ، فأيقنوا صدقه فلبسوا المسوح ، وخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ، وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب ، فَحَنَّ بعضها إلى بعض – فَحَنَّت الأولاد إلى الأمهات والأمهات إلى الأولاد وعلت الأصوات والضجيج ، وأخلصوا النية وأعلنوا إيمانهم ، وتضرعوا إلى الله فاستجاب دعاءهم فرحمهم ، وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلهم ، وليس هذا الذى نقلناه عن عبد الله بن مسعود وغيره حديثًا مرفوعًا بل هو أثر مروى عنهم فى تفسير الآية والله تعالى أعلم .

(وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾)

التفسير

٩٩ – (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً).. الآية .

كان – صلى الله عليه وسلم – لفرط شفقته على أمته حريصا أشد الحرص على إيمان الناس جميعاً ، وللوصول إلى تلك الغاية حمل نفسه أعباء ثقيلة ، ومتاعب جسيمة ، فخفف الله عنه ، ببيان أنه ليس مكلفاً بإكراه الناس على الإيمان ، وحملهم جميعاً عليه ، فليس عليه إلا البلاغ وقد فعل ، وحسبه التبليغ الذى لا يرهقه ، فإن الهداية من الله .

والمعنى : ولو شاء ربك أيها الرسول إيمان من فى الأرض جميعاً من الجن والإنس لآمنوا كلهم لا يشذ منهم أحد ، لكن مشيئته – تعالى – الموافقة لحكمته البالغة اقتضت أن يكون الناس فريقين : فريقاً شاء الله إيمانه فيؤمن لا محالة وهم الذين اختاروا الهدى فيوفقهم الله – تعالى – إليه ، وفريقاً شاء الله كفره لسوء نيته فيكفر لا محالة .

(أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) : أى أفأنت مطلوب منك أن تكره الناس على دينك حتى يصيروا مؤمنين به ؟ كلاً . فأشفق على نفسك فما عليك إلا البلاغ ، «فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ »[1] ولا تُحَمِّل نفسك المصاعب والمشاق ، بالمبالغة فى دعوة المعاندين المستكبرين «فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ على آثَارِهِمْ إن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفاً » .[2]

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٨

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٦

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾)

المفردات :

(بِإِذْنِ اللهِ) : بإرادة الله. (الرِّجْس) : يطلق على القذر حسيًّا كان أو معنويًّا ، ومن المعنوى الذنب والكفر ، وكُلٌّ يصح أن يراد هنا ، وقد يطلق على العذاب والشك وغير ذلك .

التفسير

١٠٠ـ(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بإِذْنِ اللهِ) : أخبرنا الله تعالى فى الآية السابقة أنه لو شاء لهدى الناس جميعا ، وأن رسوله صلى الله عليه وسلم لا يملك إكراه الناس على الإيمان ولم يكلف به ، ثم أخبرنا فى هذه الآية أن إيمان أى نفس متوقف على إرادة الله ، فلا تستطيع نفسٌ أن تهتدى إلا إذا أراد الله هدايتها ، فإن الهدي هدى الله وحده ، قال تعالى : « قُلْ إِنَّ الهُدَى هُدَى الله »[1]. ومن سنن الله فى خليقته أن يهدى من هو أهل للإيمان به من أصحاب الفطر السليمة « الَّذِين يَسْتَمِعون القَوْلَ فيَتبِعون أَحْسَنَه »[2]. ومن الذين أحسنوا استعمال حواسهم وعقولهم فى سبيل الوصول إلى الحق ، أما الذين ألغوا حواسهم وأهملوا عقولهم ، واتبعوا أهواءهم واستقبلوا الرسالات السماوية بالعناد واللجاج ، وآثروا الضلال على الهدى ، فهم غير أهل للهداية والإيمان ، فلا يأْذن به ولا يعينهم عليه بسبب سوءِ اختيارهم ، قال تعالى : «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ٧٣

(٢) سورة الزمر ، من الآية : ١٨

بها أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ[1] ». وقال سبحانه وتعالى : « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ للعَبِيد [2] » وهذا الصنف هو الذى يشير إليه قوله تعالى فى آخر الآية :

(وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعقِلُونَ) : فالرجس هنا بمعنى الكفر ليقابل الإيمان فى صدر الآية .

والمعنى : أنه تعالى يجعل الكفر قضاءً منه على الذين عطلوا عقولهم فلم ينتفعوا بآياته ، ولم يهتدوا برسله ، كما أذن بالإيمان وحكم به وأعان عليه الذين يعقلون ويهتدون بهداه ، ويؤمنون برسله .

(قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾)

المفـردات :

(انْظُرُوا) : تفكروا واعتبروا . (النُّذُر) : جمع نذير وهو الذى ينبه الناس إلى الخطر .

التفسـير

١٠١ - (قُل انظُروا مَاذَا فِى السَّمَوٰاتِ والأَرْضِ) :

بينت الآية السابقة أن الهدى بإذن الله لمن هو أهل له ، ممن يستعملون عقولهم فى فهم آياته ، وأن الرجس - أى الكفر - قضى الله به على من لا يعقلون ولا يتدبرون فيها ، وجاءت هذه الآية آمرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يحث الناس على التفكر فى آياته حتى يتيسر لهم الإيمان بالحق تبارك وتعالى .

والمعنى : قل لهم يامحمد تأمّلوا وتفكروا فى عجائب صنع الله فى السموات وما تضمه من مجرات ونجوم وكواكب ، وانظروا ما فى الأرض وما يتعاقب فيها من ليل ونهار

(١) سورة الأعراف الآية : ١٧٩ (٢) سورة فصلت ، من الآية : ٤٦

وفصول متوالية ، وما يطرأ عليها من زوابع عاتية وهواء عليل ، وما تضمه من جبال وبحار ، ومحيطات وقارات ، ومن صحارى جدباء ، وحدائق غناء ، ومروج خضراء ، وما يجرى على سطحها من جداول وأنهار ، وما يستقر فى جوفها من مناجم وكنوز ، وما يعتريها من زلازل وبراكين ، وما تراه فوقها من إنسان وحيوان ونبات ، انظروا فى هذا كله وغيره من عجائب خلق الله ، فإنه يهديكم إلى معرفة الله ، ويدعوكم إلى إفراده بالعبادة والتقديس .

(وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ) :

« ما » : إما أن تكون نافية أو استفهامية ، فعلى النفى يكون المعنى : أن آيات الله الكونية وآياته المنزلة على الرسل بالتبشير والإنذار ، لا تغنى هؤلاء الكفار ولا تنفعهم فى الاهتداء إلى الإيمان ، ما داموا مصرين على الكفر والضلال ، وعلى أن (ما) استفهامية يكون المعنى : كيف يمكن أن تنفع الآيات والنذر هؤلاء الممعنين فى الضلال المصرين على عدم الإيمان ؟

(فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾)

المفردات :

(يَنْتَظِرُونَ) : يترقبون ويتوقعون . (خَلَوْا) : مضوا .

التفسير

١٠٢ - (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ) :

فى هذه الآية الكريمة إنذار بعقاب الله لمن ينصرفون عن الله ويحجبون أبصارهم وبصائرهم عن الهداية ، وتذكير لهم بما أصاب الأمم السابقة التى أصرت على الكفر ، وما حل بها من عذاب شديد ، قال تعالى : « فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ، وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ

مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا، وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[١] والمراد من الاستفهام فى قوله : (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ) النفى ، أى لا ينتظر هؤلاء الكفار أثرا لكفرهم إلا أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة من عذاب ونكال ، والمراد أن العقاب الشديد سيحل بهم لا محالة ، فهم فى حكم المنتظرين لهذا العقاب (قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ) : قل لهم يامحمد، فانتظروا وترقبوا آثار إصراركم على الكفر ، فإنى مترقب معكم ما سيصيبكم من عذاب إن ظللتم مصرين على الكفر و الإنكار .

١٠٣ - (ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا) :

بعد أن أفادت الآية السابقة أن الهلاك يحل بالكفار المعاندين ، جاءت هذه الآية تفيد أن الله سبحانه سينجى رسله والذين آمنوا معهم مما أصاب كفار قومهم من عذاب وتنكيل ، لأن عدالة الله تقتضى ألا يعذب قوما بذنوب آخرين ، قال تعالى فى قوم هود : « وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ[٢] ». وقال سبحانه فى قوم صالح : « فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ »[٣] .

(كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ) : أى كما أنجى الله الأنبياء والمؤمنين مما أصاب أقوامهم ، كذلك اقتضت عدالته وصدق وعده ، أن ينجى المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم مما يتعرض له الكفار المصرون على الكفر والضلال ، قال تعالى : « ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ »[٤] .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٠

(٢) سورة هود ، الآية : ٥٨

(٣) سورة هود ، الآية : ٦٦ ، ٦٧

(٤) سورة الأنبياء ، الآية : ٩

(قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾)

المفـردات :

(يَتَوَفَّاكُمْ) : يستوفى آجالكم ، بقبض أرواحكم . (وَجْهَكَ) : المراد من الوجه : الذات أو القلب أو القصد . (حَنِيفًا) : منصرفا عن الباطل مقبلا على الحق .

التفسـير

بعد أن بينت الآيات السابقة ، ما ينتظر الكافرين من الهلاك ، وما يتوقعه المؤمنون من الفوز والنجاة ــ أمر الله رسوله فى هذه الآيات أن يعلن الكافرين أنه لن يعبد ما يعبدون ، وأن الله أمره بالإخلاص فى عبادته وحده ، وفيما يلى بيانها :

١٠٤ ــ (قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِنْ دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) : أى قل يا محمد للمشركين بالله الشاكين فى نبوتك يـأيها الناس ، إن كنتم فى ريب وشك من دينى ، حتى أدى بكم الشك فيه إلى تكذيبى فيما جئتكم به ، فاعلموا أننى مؤمن إيمانا راسخا بما أنزله الله تعالى علىّ ، ثابت كل الثبات على عقيدتى ، فلا تتوقعوا منى أن أجنح إلى مشاركتكم فى عقيدتكم ، وعبادة آلهتكم التى عبدتموها من دون الله بغير حق.

(وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ) :

أى ولكننى أعبد الله ــ تعالى ــ الذى يستوفى آجالكم ، بقبض أرواحكم فهو الجدير بالعبادة والتقديس ، فاعرضوا عقيدتى هذه على عقولكم ، وانظروا فيها بعين الإنصاف ، لتعلموا

صحتها وفساد ما أنتم عليه من عبادة آلهة لا شأن لها فى إحياء ولا إماتة - وإنما خص التوفى بالذكر لتهديدهم .

(وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

أى وأمرنى الله تعالى أن أكون من المتمسكين بالإيمان به ، وعدم المبالاة بآلهتكم ، فإنهم « لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ. وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورا »[١] .

١٠٥ - (وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

المراد من إقامة وجهه - صلى الله عليه وسلم - للدين ، استقامته فى الاتجاه إليه ، وقد أكد ذلك بقوله : (حَنِيفًا) : أى مائلا عن الأديان كلها إليه ، أى وكما أمرنى الله تعالى بالإيمان به - أمرنى سبحانه بالإخلاص فى الاتجاه إلى دينه بقلبى وجوارحى ، وأقوالى وأفعالى ، بحيث لا يصرفنى عنه صارف ، وأمرنى أيضا أن لا أشرك فى عبادته أحدا حتى لا أكون كهؤلاء الذين قال الله فيهم : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُشْرِكُونَ »[٢]. وقد عرفت من هذا العرض أن الآية السابقة دعت إلى الإيمان ، وأن هذه الآية دعت إلى الإخلاص فى الإيمان ، والحرص على صفائه ونقائه وثباته ، والحذر من أن يتطرق إليه أى شك أو لبس والخطاب وإن كان موجها إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فالمؤمنون داخلون فى حكمه ، فهم مطالبون بالإخلاص فى دينهم ، وقد جاء ذلك صراحة فى قوله - عز وجل - : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُهْتَدُونَ[٣] » :

أى الذين صدقوا بإخلاص ، ولم يخلطوا إيمانهم بشرك يظلمون به أنفسهم ، ويعتدون به على الحق ، أولئك لهم الأمن من المكاره ، وهم مهتدون إلى الحق وإلى عظيم الثواب ، وقال -

(١) الفرقان من الآية : ٣
(٢) يوسف من الآية : ١٠٦
(٣) الأنعام الآية : ٨٢

صلى الله عليه وسلم - محذرا من الشرك : « أيها الناس اتقوا هذا الشرك ، فإنه أخفى من دبيب النمل ». أخرجه الإمام أحمد والطبرانى .

١٠٦ - (وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَالَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ) :

جاءت هذه الآية ، لزيادة تأكيد ما جاء فى الآيات السابقة ، فقد نهى الله فيها رسوله - عليه الصلاة والسلام - عن الاتجاه فى دعائه وعبادته ، إلا إليه وحده لأنه سبحانه هو الذى يملك جلب المنافع ودفع المضار ، أما الآلهة المزعومة ، فلا تملك أن تنفع ذاتها أو أن تدفع الضر عنها ، فكيف تملك لغيرها نفعًا أو ضرًّا ؟ !

(فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ) :

الخطاب - هنا وفيما سبق - موجه للمسلمين عامة فى جميع العصور ، وإن بدا فى لفظه إلى شخص النبى - صلى الله عليه وسلم - والمعنى : إن دعوت من دون الله مالا ينفعك ولايضرك فإنك تكون - حينئذ - من الظالمين لأنفسهم بالشرك . واستعمال أداة الشرط (إن) تفيد استبعاد أن يدعو الرسول والمؤمنون غير الله - تعالى - بعد إيمانهم به سبحانه وتعالى .

والآية تنهى نهيًا حاسمًا ، عن الاتجاه بالدعاء إلى غير الله ، كائنًا ماكان كما جاء فى الحديث الشريف . الذى ذكرت فيه وصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - لابن عمه عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - : « وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء ، لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك . وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف ». أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾)

المفـردات :

(يمْسَسْكَ) : يصبك .

التفسـير

نهت الآية السابقة ، عن الاتجاه بالدعاء إلى مالا ينفع ولا يضر . وقررت أن هذا إشراك بالله – تعالى – وجاءت هذه الآية لتؤكد أن النفع والضر ، من الله وحده . وفيما يلي بيانها :

١٠٧ – (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ) :

أى : وإن يصبك الله بما يضرك ، من قحط أو فقر أو مرض . أو خوف أو إيذاء أو غيرها ، فإن أحدًا لن يستطيع أن يزيل عنك ما أصابك إلا الله وحده « وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ »[1] .

والناس يتعرضون للضر ، ابتلاءً من الله – تعالى – واختبارًا منه لعباده . ليظهر مدى إيمانهم وصبرهم ، قال تعالى : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ »[2] . وقد يتعرض الناس للضر ، عقابًا لهم على ما اجترحوا من آثام لكى يعودوا إلى الله بالتوبة والاستغفار ، قال تعالى : « فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ »[3] . وقال جل شأنه : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ »[4] . وقد يكون هذا التعرض تكفيراً للذنوب ، أو رفعة للمنزلة .

(١) الشورى الآية : ٢٨
(٢) البقرة : ١٥٥
(٣) الأنعام من الآية : ٤٢
(٤) الشورى : ٣٠

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ من نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ ، وَلا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ ، ولا أذى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَة يُشَاكها إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاه » .[١] وقد جرت سنة الله تعالى ، أن لايديم الضر على عباده ، بل يكشفه عنهم ، كما يشير إليه قوله تعالى : « سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا »[٢] .

(وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ) :

والمعنى : أنه – تعالى – إن يرد عبده بخير من فضله ، فلن يستطيع أحد منع هذا الخير عنه ، فإن إرادته – جل وعلا – نافذة ، وفضله سبحانه لايستطيع أن يرده أحد من خلقه .

وكما يكون الضرُّ ابتلاءً من الله لعباده لإظهار مدى إيمانهم وصبرهم ، يكون الخير كذلك لإظهار مدى شكرهم لله وإقبالهم عليه – تعالى – قال سبحانه : « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » .[٣] وقد يكون الخير تكريمًا من الله لعباده الصالحين ، وتعجيلا بنصيب من الثواب فى الدنيا قال تعالى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ » .[٤] وكما قال سبحانه : « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا »[٥] .

(وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) : أى والله – سبحانه وتعالى – عظيم المغفرة واسع الرحمة . يفسح لعباده مجال التوبة والاستغفار قبل أن ينزل بهم العقاب ، فإنه – سبحانه – : « أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ » .[٦] ومن فضل الله ورحمته أنه يتجاوز عن كثير من السيئات ، كما قال عز وجل : « وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » .[٧] ولا يؤاخذهم عاجلا بما كسبوا ، كما قال سبحانه : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ »[٨] .

وكما قال تعالى : « وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ »[٩] .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب المرض عن أبى سعيد الخدرى (باب ما جاء فى كفارة المرض) .

(٢) سورة الطلاق الآية : ٧

(٣) سورة الأنبياء الآية : ٣٥

(٤) سورة النحل من الآية : ٣٠

(٥) سورة الطلاق من الآية : ٤

(٦) ختام المدثر .

(٧) سورة الشورى من الآية : ٣٠

(٨) سورة فاطر من الآية الأخيرة .

(٩) سورة الكهف : آية ٥٨

(قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾)

المفردات :

(بِوَكِيلٍ) : الوكيل ؛ من يُوكل إليه الأمر .

التفسير

١٠٨ - (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ . .) الآية .

أثبتت الآيات السابقة ، أن الذى يملك الهداية ، والنفع والضرَّ والموت والحياة هو الله وحده ، فهو الجدير بالعبادة والتقديس ، وجاءت هذه الآية لتبين أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أدى رسالته للناس على وجهها الحق ، وأنه ليس مسئولا عنهم إن أعرضوا عنها .

والمعنى : قل يا محمد لأُمتك : يا أيها الناس قد جاءكم من ربكم الدين الحق ، الثابت بالمعجزات والبراهين العقلية والنقلية ، وقد أصبح الحق واضحًا لاشك فيه ، فلا عذر لأَحد فى التكذيب به ، أو العمل بما يخالفه .

(فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ) : أى فمن اهتدى إلى هذا الدين الحق بالإيمان والمتابعة فإنما يهتدى لمنفعة نفسه دون سواها .

(وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) : ومن ضل عن هديه وانصرف عنه ، فما وبال ضلاله إلا على نفسه دون غيرها ،فلا منفعة لله ولا لرسوله من اهتدائكم ،ولا ضرر على الله ولا على رسوله من ضلالكم ، أخرج مسلم فى صحيحه . عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عن ربه عزَّ وجلَّ : « يَا عِبَادِى إِنَّكُم لَن تَبْلُغُوا ضرِّى فَتَضرُّونِى . وَلَن تَبْلُغوا نَفْعِى فَتَنفَعُونِى يا عبادى لوْ أَنَّ أَوَّلَكُم وآخِرَكُم ، وإِنْسَكُم وجِنَّكُم ،كَانُوا عَلَى أَتقَى قلب رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم ،

مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا . . يا عبادى لو أن أَوَّلكم وآخِرَكم وإنْسكُم وجِنَّكُم كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شيئًا ».[١] فالله – سبحانه – غنى عن الناس ، والناس جميعًا مفتقرون إلى رحمته ، قال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ »[٢] .

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) :

وقل لهم أيها الرسول : إن الذى كُلِّفتُ به هو أداء رسالة الله إليكم . وقد أديتها كاملة ولم يوكل إلىّ إرغامكم على اتباعها ، لأننى لست عليكم بمسيطر . كما قال تعالى :

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ »[٣] .

١٠٩ – (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) :

بعد أن أمر الله رسوله بتبليغ قومه أنه جاءهم بالحق من ربهم ، وأن عاقبة الاهتداء إليه والضلال عنه لا تلحق سواهم ، وأنه ليس مكلفًا بقهرهم على الاهتداء ، أمره فى هذه الآية بالثبات على اتباع وحيه ، والصبر حتى يأتى النصر .

والمعنى : دم على ما أنت عليه من اتباع وحى الله–تعالى– ولا تدخل اليأس على نفسك بسبب إصرارهم على كفرهم . واصبر على ما تتعرض له من إيذاء المشركين وعنتهم وإمعانهم فى الضلال ، حتى يقضى الله تعالى فيهم قضاءه ، وينفذ فيهم مشيئته وحكمه ، فإنه أعدل الحاكمين .

وقد نفذ الرسول ما أمره الله به من ملازمة الاتباع ، ومداومة الصبر ، وصبر معه المؤمنون وتحملوا أذى المشركين ، حتى صدق الله وعده وأعز جنده ، وهزم المشركين وحده ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) رواه أبو ذر الغفارى – رضى الله عنه – والحديث طويل وهذا جزء منه .
(٢) سورة فاطر الآية : ١٥
(٣) الغاشية الآيتين : ٢١ ، ٢٢

« بسم الله الرحمن الرحيم »

سورة هود

هذه السورة مكية :

روى الترمذى والطبرانى - وغيرهما - أن أبا بكر - رضى الله عنه - قال للرسول - صلى الله عليه وسلم - : «ما شيبّكَ ؟ قال : شَيَّبَتْنِى هُودٌ وأَخَواتها ».وفى رواية أُخرى:«شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات . وعم يتساءلون » والمراد : ما فيها من ذكر ما أصاب الطغاة من عذاب شديد، فى الدنيا وما ينتظرهم من أهوال يوم القيامة التى تجعل الولدان شيبا .

وأهم مقاصد السورة ما يلى :

١ - الحديث عن القرآن الكريم وأحكامه من لدن حكيم خبير ، ودعوة الناس للعمل بما فيه من عقائد وأحكام شرعية ، ليمتعهم متاعًا حسنًا ويؤتى كل ذى فضل فضله ، وبيان أن المرجع إليه - سبحانه - وأنه على كل شىء قدير .

٢ - الحديث عن علم الله تعالى وإحاطته - عز وجل - بمكنون الضمائر ، وتكفله برزق كل دابة ومعرفته جميع أحوالها وحركاتها وسكناتها .

٣ - الإشارة إلى آيات الله الكونية ، فى خلق السموات والأرض والعرش العظيم ، وأنه اختبرنا بالتكاليف ليبلو عباده أيهم أحسن عملا .

٤ - الحديث عن إعجاز القرآن الكريم ، وعجز البشر عن محاكاته ، وأن هذا كافٍ فى الدلالة على أنه من عند الله ، وأن الله أيّد به رسوله ، وأن ما يدعونه من افترائه على الله زعم باطل :

٥ - بيان موقف الناس من الإسلام ، وذكر ثواب المطيعين وعقاب المسيئين - وأن مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، وأنهما لايستويان مثلا .

٦ - الحديث عن قصة نوح - عليه السلام - وقومه ، والطوفان ، ونجاة المؤمنين وهلاك المكذبين الكافرين ليعتبر كفار قريش ويرجعوا عن كفرهم وتكذيبهم .

٧ - بيان قصة هود - عليه السلام - مع قومه عاد ، ونجاة المؤمنين منهم وهلاك العاصين المتمردين ، ليكون فى نبئهم عبرة لأُولى الألباب .

٨-قصة صالح - عليه السلام - مع قومه « ثمود » ونجاة المؤمنين منهم وهلاك المكذبين بالصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، جزاء كفرهم وتكذيبهم لرسول الله إليهم .

٩-قصة إبراهيم - عليه السلام - وتبشير الملائكة له بإسحق ومن ورائه يعقوب - عليهما السلام - .

١٠-قصة الملائكة وزيارتهم لوطا عليه السلام . وإهلاك الله لقومه بإبادة قراهم ، وإمطارهم بحجارة من سجيل ، جزاء شذوذهم الشهوانى ، وكفرهم بآيات ربهم .

١١-قصة شعيب - عليه السلام - وتمرد قومه عليه وإهلاكهم بالصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ، كما حدث لقوم صالح - عليه السلام - ونجى الله شعيبا ومن آمن معه .

١٢-قصة موسى وفرعون ، وبيان أن قوم فرعون اتبعوا أمره ، فأهلكهم الله وأتبعهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة بسبب كفرهم .

١٣-الإشارة إلى سنة الله فى عقاب الكفار فى الدنيا ، ونجاة المؤمنين بقوله : « وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » . وبيان أن فى ذلك آية لمن خاف عذاب الآخرة .

١٤-بيان حال الكافرين الأشقياء فى الآخرة من الخلود فى النار وزفيرهم وشهيقهم فيها ، وبيان حال المؤمنين السعداء فيها ، من الخلود فى الجنة والنعيم المقيم فيها .

١٥-بيان أنه -تعالى- قص على رسوله صلى الله عليه وسلم قَصَصَ إخوانه الأنبياء مع أممهم ، ليُثَبِّتَ بها فؤادَه ، وموعظة وذكرى للمؤمنين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾)

المفردات :

(أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ) : نظمت آياته نظمًا محكمًا لا خلل فيها ولا تناقض ولا اضطراب .

(فُصِّلَتْ) : ذكرت فيها الأمور التى يحتاج إليها العباد فى عقائدهم وسلوكهم ومعادهم ومعاشهم مفصلة مبينة .

(مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ) : من عند إله مبدع للأمور على خير وجه .

(خَبِيرٍ) : عليم بما كان وما يكون ، ظاهرًا أو خفيًا .

(نَذِيرٌ) : محذر لعباد الله من سوء عاقبة الكفر والعصيان .

(بَشِيرٌ) : مخبر بما يسر الصالحين من ثواب الله .

التفسير

١ - (الٓر) : تحدثنا فى أول سورة البقرة عما بُدِىء به بعض السور من مثل هذه الفواتح ، وذكرنا آراء المفسرين فيها ، وأرجح الآراء فى تأويلها هو أنها ترمز إلى التحدى بأن يأتوا بمثل هذا القرآن المؤلف من كلمات وجمل ذات حروف مما ينظمون منها كلامهم ، إن كانوا صادقين فى زعمهم أن الرسول تَقَوَّلَهُ على الله ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله أو بمثل سورة منه مع ما يمتازون به من الفصاحة والبلاغة وحسن البيان ، فمحمد مثلهم وشأنه شأنهم فهذا دليل على أن القرآن من عند الله وأنه : « لَايَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .(١) وتكرارها فى القرآن على هذا الرأى تكرار للتحدى ، وقيل : إن المقصود بها هو تنبيه السامعين إلى ما يأتى بعدها .

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) :

هذا كتاب كريم ، أنزل الله آياته البينات فى غاية الإحكام ، فهى فصيحة الكلمات ، بليغة العبارات متناسقة الموضوعات ، رائعة المعانى غزيرة الفوائد ، لايمكن أن يتطرق إليها أى اضطراب أو اختلال كما قال تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »(٢) .

---

(١) فصلت الآية : ٤٢

(٢) النساء من الآية : ٨٢

وكما هى متقنة فى أُصولها ، فهى متقنة فى تفصيلاتها الفرعية فى قوة ، ودقة ، ووضوح لأَنها مُنَزَّلَة من الحكيم الذى يضع الأُمور فى مواضعها ، الخبير بما كان وما هو كائن . والعطف بحرف (ثُمَّ) لإفادة علو مرتبة التفصيل ، لوفائه بحاجات البشر .

٢ ـ (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) :

جاءت هذه الآية مبينة المقصود من إنزال القران محكما ومفصَّلا ـ وهو الدعوة إلى الإِيمان بالله سبحانه وتعالى والتوجه اليه ـ عز وجل ـ وحده بالعبادة ، دون شريك ، وهذا هو جوهر الرسالات السماوية .

والمعنى : هذا كتاب أُحكمت آياتُه وفصلت من عند الحكيم الخبير ، لكيلا تعبدوا غير الله ـ تعالى ـ فإننى لكم منه منذر فلا تعصوه خوفا من عقابه ، ومبشر فأَقبلوا على طاعته طمعا فى ثوابه .

(وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾)

المفـردات :

(تَوَلَّوْا) : أَصلها تتولوا أَى تعرضوا . (مَرْجِعُكُمْ) : مصيركم .

التفسير

٣ ـ (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) :

هذه الآية مكملة للآية السابقة فى المعنى .

والمعنى : هذا كتاب أُحكمت وفصِّلت آياته من عند الله ـ وحده ـ لكى تعبدوه دون سواه وتستغفروه وتتوبوا إليه من ذنوبكم ومعاصيكم ، على أَن تكون توبة نصوحا ، وهى المنبعثة

عن الندم ، مع العزم على تجنب المعاصى والآثام والإكثار من الطاعات ، فإنها تمحو السيئات ، كما قال تعالى : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ »[1] .

وقد بيَّنت الآية أن من ثمرات الاستغفار والتوبة ، أن الله يمنُّ على صاحبهما بالثواب العاجل فى الدنيا ، فيغمره بفضله وإحسانه فيها ، حتى يوافيه أجله المحتوم المقدر عند الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى : « اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ، وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا »[2] .

وأدنى المتاع الحسن فى الدنيا ، الأمن والدعة وراحة النفس والرضا بما قسم الله — تعالى — والصبر على المحن .

(وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ) . أى ويمنح فى الآخرة كل صاحب فضل فى دينه جزاء فضله ، بعد أن متَّعه فى دنياه ، متاعاً حسنا .

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) :

وإن تنصرفوا عمَّا دعوتكم إليه من طاعة الله والتوبة من المعاصى فإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الهول ، رهيب الجزاء : « يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ »[3] .

٤ — (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ) :

أى إلى الله — وحده — مصيركم ومآلكم ، بعد هذه الحياة . فعليكم أن تتزودوا لهذا المصير بما يجزل الله لكم به الثواب ويقيكم العذاب — قال تعالى : « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ »[4]

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

ختم الله الآية بهذه الجملة ، ليعلم العباد أن من كان قادرا على كل شئ فهو — عز وجل — قادر على بعثهم ، ومجازاتهم بما يستحقون من ثواب وعقاب ، وأن عليهم أن يتقوه

(١) هود من الآية : ١١٤
(٢) نوح الآيات : ١٠ — ١٢
(٣) الحج الآية : ٢
(٤) البقرة من الآية : ١٩٧

ويحذروا عقابه ، ويدعوه مستغفرين تائبين طامعين فى فضله وإحسانه ، كما قال تعالى :

« وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ »[1].

(أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾)

المفـردات :

(يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ) : يطوون قلوبهم على ما فيها من نوايا .

(لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ) : ليستروا أنفسهم عنه سبحانه .

(يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ) : يوارون أنفسهم بثيابهم .

التفسير

٥ ـ (أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ) :

تحدثت الآيات السابقة عن وجوب الإيمان بالله واستغفاره ، والتوبة إليه من الذنوب ليمتعهم فى الدنيا متاعا حسنا ، ويؤتى فى الآخرة كل ذى فضل ثواب فضله حين يرجعون إليه ، وجاءت هذه الآية تبيّن إصرار المشركين على الكفر ، وتنذرهم بأن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأنه سيجزيهم بما كانوا يعملون .

ورأى بعض المفسرين : أن هذه الآية نزلت فى المنافقين ، لأنهم كانوا يخفون الكفر ويظهرون الإيمان ، ولكن هذا الرأى لا يناسب ما تقدم عليها وما تأخر عنها ، من وعظ المشركين وإنذارهم مَغبَّة ما هم عليه ، فى حين أن السورة مكية ، فلا ينبغى أن يُقْحم أمر

(١) الأعراف من الآية : ٥٦

المنافقين بين ما هو مرتبط بمسلك المشركين بمكة ، قال العلامة البيضاوى بعد حكايته القول بأنها نزلت فى المنافقين وفيه نظر ؛ إذ الآية مكية ، والنفاق حدث فى المدينة اهـ . ويؤيد ذلك ما روى عن ابن عباس فى سبب نزولها ، فقد روى عنه أنها نزلت فى الأخنس بن شريق وكان رجلا حلو المنطق حسن السياق للحديث ، يظهر لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – المحبة ، ويضمر فى قلبه ضدها .

والمعنى : ألا إن الكافرين الذين لم يتأثروا بآيات القرآن ، يطوون صدورهم على الكفر وعداوة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولا ينتفعون بتلك الزواجر التى تقدمت فى صدر السورة ، يريدون أن يخفوا أمرهم عن الله ، أو يعتقدون أن أمرهم يخفى عليه : ثم رد الله عليهم وخطأ مسلكهم فقال :

(أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

ليس المراد من استغشائهم ثيابهم المعنى الحقيقى ، بل المراد : مبالغتهم فى إخفاء أمرهم فهو من التعبيرات الكنائية ، ويدل لذلك قوله تعالى فى ختام الآية : (يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) والمعنى : ألا إنهم حين يبالغون فى ستر حالهم وإخفاء كفرهم وعداوتهم للرسول – صلى الله عليه وسلم – ويستخفون تحت ظواهرهم من المودة والملاطفة ، يعلم الله ما يخفونه من الكفر بالله والعداوة لرسوله ، وجميع ما تنطوى عليه جوانحهم ، ويعلم ما يعلنونه من جميع ظواهرهم ، وصدق الله إذ يقول فى سورة سبأ : « لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
محمد حمدى السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩ / ١٩٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٦٩٣-١٩٧٩-٢٥٠٠٤



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الثالث والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٠

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
محمد حمدى السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية
٦٩٤-١٩٧٩-٢٥٠٠٠

(* وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾)

المفــردات :

(دابَّةٍ) :هى اسم لكل حيوان يدب على الأرض زحفا أو على قوائم ، مأخوذة من الدبيب وهو الانتقال البطىء ، والمقصود منها هنا جنس الحيوان من ماشية وسباع وهوام وحشرات وغيرها ويدخل فيها الإنسان ، فإنه يدب على الأرض ، ومنه قول الشاعر :

إنما الشيخ من يدب دبيبا .

(مُسْتَقَرَّهَا) :موضع استقرارها وإقامتها . (وَمُسْتَوْدَعَهَا) : ومكان استيداعها ووجودها إلى حين تنقل بعده إلى غيره . (كِتَابٍ مُّبِينٍ) : هو كناية عن علم الله تعالى، أو هو اللوح المحفوظ .

التفسير

٦ ـ (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ...) الآية .

بين الله فى الآية السابقة أن الكافرين مهما حاولوا الاستخفاء من الله تعالى بما يظنون أنه يخفيهم عنه ، ومهما تستروا فى كفرهم وعداوتهم للرسول فإنهم لا يخفون على الله العليم بما يسرون وما يعلنون ، وجاءت هذه الآية لتقرر ما سبق ، ببيان شمول رزقه تعالى وعلمه لكل دابة فى الأرض .

والمعنى : وما من حيوان فى أى جزء من أجزاء الأرض ، ذكرا كان أو أُنثى يمشى على رجلين أو يمشى على أربع ، أو يمشى على غير هذه الصور ، إلا تكفل الله برزقه اللائق به ، وأوجبه على نفسه تفضلا وإحسانا .

وكما تكفل برزقه أينما كان يعلم مستقره وموطنه الذى ولد ونشأ فيه ، ومستودعه الذى يرحل إليه لطلب الرزق وغيره ، كما يعلم مساكنه فى أدوار حياته ويعلم ما يودع فيه بعد مماته ، كل ذلك فى كتاب بين واضح .

والكتاب المبين هنا: إما كناية عن علم الله تعالى ، وإما حقيقة مراد منها اللوح المحفوظ .

وتذييل الآية بهذه الجملة ، للإيذان بأنه تعالى لا يبتدئ العلم بأحوال الدواب ابتداء ، بل علمه بها أزلى قديم ، وواضح لديه أمرها قبل خلقها ورزقها وإيوائها فى مستقرها ومستودعها ، وأنه دبر أمرها أزلا على النحو الفائق العجيب الذى أراده لها ، وأبرزها عليه وفق تدبيره الأزلى القديم فتبارك الله أحسن الخالقين .

(وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾)

المفردات :

(سِتَّةِ أَيَّامٍ) :المراد بالأيام،أيام الله لا أيامنا نحن ولا يعلمها إلا الله ، وسيأتى الحديث عنها .

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) : وكان عرشه فوق الماء ، ولا يقتضى هذا أن يكون العرش فوقه مباشرة ، وسيأتى تفصيل الحديث عن هذه الجملة فى تفسيرها .

التفسير

٧ـ (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ) :

بعد أن بين الله سبحانه فى الآية السابقة تكفله بأرزاق دواب الأرض ، وعلمه بجميع أحوالها ، بين فى هذه الآية خلقه للسموات والأرض ، وأيام خلقه لها ، ليعلم الناس عظمته تعالى ، فلا يشركوا به فى العبادة ما ليس له دخل فى خلق ولا رزق ، بل يتنافسوا فى إحسان العمل والتقرب به إليه سبحانه ، ونعى عليهم فيها إنكارهم للبعث بعد الموت للحساب والجزاء ووصفهم للقرآن الذى أخبرهم بذلك بأنه سحر مبين .

واعلم أن أصل السموات والأرض الدخان ، قال تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِين »(١) . وقال جل وعلا فى سورة الأنبياء : « أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا »(٢) .

ويقول أهل العلم الحديث : إن أصل العالم غاز الهيدروجين ، وهم بذلك يهتدون إلى ما سبقهم به القرآن العظيم بأكثر من ألف عام ، وتحويلُ هذا الدخان إلى سموات وأرضين ، استغرق ستة أيام كما نصت عليه الآية الكريمة ، ولا يصح حمل الأيام هنا على أيامنا فى أرضنا ، فإنها نشأت بعد خلق السموات والأرض ، وأيامنا على قدر حجم أرضنا ، والأيام فى الكواكب الأخرى على قدر حجمها صغرا أو كبرا .

أما الأيام التى استغرقها خلق السموات والأرض ، فهى بقدر عظمة هذا الكون وما يقتضيه من زمان طويل جدا ، حتى يتم تحويل الغاز أو الدخان إلى سموات وأرضين ، كما تقتضيه سنة التطوير التى شاءها الله تعالى ، مع أنه قادر على أن يقول لها كونى فتكون فورا .

ولقد ضرب الله مثلا لأيامه بقوله سبحانه : « وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ »(٣) . وبقوله : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »(٤) . وذلك يقتضى أن أيام الله ليس لها حد معين وأنها تكون فى طولها وامتدادها حسب الأمر الذى تتصل به ، وفى موضوع تكوين السموات والأرض قد تكون الأيام أطول من هذين المثلين وربما وصل اليوم فيها إلى ملايين السنين ، وليس من الحكمة تحديد مدى أيام الله تعالى فذلك شأنه تعالى ، ولا سبيل لنا إلى علمه ، وعلى هذا يكون معنى الجملة من الآية ما يلى :

وهو الذى خلق السموات والأرض مادة وصورة ، وهيأ لها كل ما خلقت لأجله من العناصر والوظائف والمواضع فى هذا الفضاء الرهيب ، ووصل بينها بالقوى التى تربط بعضها ببعض من غير عمد ترونها ، وكان ذلك كله فى سته أيام من أيامه تعالى ، حتى تمت على أجمل صورة وأكمل إبداع ، وأقوى بناء ، فلا ترى فيها من عيب ولا فطور وشقوق . وصدق الله إذ يقول : « الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ

(١) سورة فصلت ، من الآية : ١١
(٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٠
(٣) سورة الحج ، من الآية : ٤٧
(٤) سورة المعارج ، من الآية : ٣

فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ »[(١)] .

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) : دلت هذه الجملة على أن عرشه تعالى كان على الماء قبل خلق السموات والأرض ، فكأنه قيل : وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام فى حال كون عرشه تعالى على الماء ، ويدل صراحة لهذا المعنى ، ما جاء فى كتاب بدء الخلق بصحيح البخارى من حديث عمران بن حصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض » .

فهذا الحديث يدل على أنه تعالى أزلى لا أول له ، وأنه لم يكن يشاركه شيءٌ غيره فى الوجود وأنه سبحانه كان عرشه على الماء وأنه كتب كل شيء قبل خلق السموات والأرض ، وأنه خلق السموات والأرض بعد ذلك ، ومن هذا كله يعلم أن الماء مخلوق قبل خلق السموات والأرض ، فهو أصل خلقهما ومادته وأصل كل شيء حى ويدل لذلك صراحة قوله تعالى : « أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ »[(٢)] . قال الشيخ رشيد رضا فى شرح قوله تعالى : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) : نفهم منه أن الذى كان دون هذا العرش من مادة هذا الخلق قبل تكوين السموات والأرض أو فى أثنائه هو هذا الماء الذى أخبرنا عز وجل أنه جعله أصلا لخلق جميع الأحياء ، إذ قال : « أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » . والرؤية هنا علمية .

والمعنى : ألم يعلموا ما ينبغى أن يعلموه من أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة لا فتق فيها ولا انفصال – وهى ما يسمى فى عرف علماء الفلك بالسديم ، وبلغة القرآن بالدخان – ففتقناهما بفصل بعضهما من بعض ، فكان منها ما هو سماء ، ومنها ما هو أرض ، وجعلنا من الماء فى المقابلة لحياة الأحياء كلّ شيء حيّ . اهـ .

---

(١) سورة الملك ، من الآيتين : ٣ ، ٤

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٠

واختلف فى المراد من عرش الله الذى كان على الماء ، فمن العلماء من يفهمه على أنه جسم كونى عظيم ، خلقه الله أول ما خلق ، وجعله مصدر أوامره فى الكون الذى شاء إنشاءه بعده ؛ والله يعلم مادته وصورته ، ومعنى كون عرشه تعالى على الماء على هذا أنه فوقه ، وهذا لا يلزم منه أنه فوقه مباشرة بحيث يكون مرتكزا عليه . فأنت تقول : السحاب على الأرض أو فوق الأرض ، مع أنه ليس مباشرا بالعلو والفوقية لها ، بل بينهما فراغ .

قال الشيخ رشيد رضا بعد ما نقلناه عنه سابقا فى شرح الآية : فيفهم من هذا وذاك أن الذى كان تحت العرش فينزل إليه منه أمر التدبير والتكوين هو الماء الذى هو الأصل لجميع الأحياء ، ثم قال : والعبارة ليست نصا فى أن ذات العرش المخلوق كان على متن الماء ، كالسفن التى نراها راسية فيه الآن كما قيل – اهـ من ص ١٦ جـ ١٢ طبعة الشعب .

ومن العلماء من ذهب إلى أن العرش كناية عن الملك والسلطان وَرَمْزٌ له ، ومعنى قوله تعالى : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) – على هذا الرأى – وكان سلطانه على الماء ليخلق منه ما يريد خلقه من السموات والأرض ، وقد تقدم الكلام فى سورة الأعراف – الآية ٤٥ – على قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » فارجع إليه لتعرف تفصيلا أكثر لما قاله العلماءُ فى معنى العرش والله تعالى أعلم .

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) : أى وهو الذى خلق السموات والأرض ، وكان سلطانه على الماء فى خلق ما يريد ، وسخر لكم ما فى السموات والأرض ليمتحنكم ، فيظهر أيكم أحسن عملا من سواه ، فيجازيكم على عملكم لا ما علمه أزلا بكم ، فإن العمل حجة على صاحبه ، ويفهم من ذلك أن الله تعالى خلق الكون ليعبده العقلاءُ من خلقه فيه ، فإنه سبحانه ماخلقهم إلاليعبدوه كما قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ »[1] . وإنما جعل الله ذلك غاية لخلقه السموات والأرض ، لأنه تعالى زود عباده بالعقل والاستعداد للنظر فى الآيات الكونية التى بثها سبحانه فى أرجاء السموات والأرض ، وجعلها مصدرا

(١) سورة الذاريات ، من الآيتين : ٥٦ ، ٥٨

لخيراتهم ومنافعهم ، وجعل ذلك كله شاهدا لأنه هو الخالق المدبر الحكيم ، الرءوف الرحيم . المستحق لشكرهم إياه بالإخلاص فى عبادته وحده ، وإنما اقتصر فى البلاء على أيهم أحسن عملا ، مع أن منهم من هو حَسَنُ العمل ومنهم من هو سيئه ، ليحثهم بذلك على التنافس فى إحسان العمل ، وليرشدهم إلى أن الغاية العظمى من خلق ذلك هو أن يكونوا فى عملهم على أحسن وجه وأكمله، بقدر استطاعتهم واجتهادهم وفى حدود طاقتهم .

(وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

أى ولئن قلت أيها النبى تبليغا للناس إنكم جميعا مبعوثون من بعد الموت للحساب وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب وأقمت الأدلة عليه .

(لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) : أى لانفرد الكافرون بإنكار البعث ، وليقولُن تكذيبا لك : ما البعث الذى تخيفنا منه ، أو القرآن المشتمل على الإنذار به ، إلا كالسحر يخدع ويغر ولا ثبات له ولا دوام ، يعنون بذلك أن لا بعث ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب .

(وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾)

المفـردات :

(أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ) : مدة قليلة . (مَا يَحْبِسُهُ) : ما يمنعه .

(مَصْرُوفًا عَنْهُمْ) : مدفوعا ومتحولا عنهم . (حَاقَ بِهِم) : أى نزل وأحاط بهم .

التفسير

٨ – (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ) : بعد مابينت الآية السابقة ما يقوله المشركون إنكارا للبعث ، بينت هذه الآية ، ما يقولونه إنكارا للعذاب الذى أنذرهم إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : ولئن أخرنا عن هؤلاء المكذبين العذاب الموعود الذى أنذرهم النبى صلى الله عليه وسلم بوقوعه إن استمروا فى كفرهم وعنادهم ، لئن أخرناه إلى مدة من الزمن معدودة مقدرة فى علمنا ، كما هو شأننا فى تحديد الآجال « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » لئن أخرناه هكذا ليقولن منكرين مستهزئين : أى شئ يمنع وقوع هذا العذاب بنا ؟ يقصدون بذلك التكذيب بوقوعه . فيرد الله عليهم بقوله تعالى :

(أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

والمعنى : أنَّ الله تعالى يؤكد بهذه الجملة وقوع العذاب بهم حينما يأتى الوقت المقدر لوقوعه ، ويومئذ لا يصرفه عنهم صارف ولا يحبسه عنهم حابس وقد أحاط بهم العذاب الذى كانوا به يستعجلون استهزاءً وتكذيباً .

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾)

المفردات :

(أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً) : أعطيناه نعمة ذاق لذتها . (نَزَعْنَاهَا) : سلبناها وأخذناها . (لَيَئُوسٌ) : لشديد اليأس من عود ما سلب منه .

(كَفُورٌ) : مبالغ فى جحد النعمة وعدم شكرها . (نَعْمَاءَ) : نعمة من صحة وغنى وغيرهما ، ولم يرد فى القرآن لفظ النعماء إلا فى هذه الآية . (ضَرَّاءَ) : من فقر ومرض وغير ذلك . (مَسَّتْهُ) : أصابته ولحقته . (فَرِحٌ) : كثير الفرح بطرا . (فَخُورٌ) : مبالغ فى الفخر بها والتعالى على عباد الله .

التفسير

٩ - (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ) :

جاءت هذه الآية والآيتان بعدها لبيان حال الإنسان وطبيعته عند الابتلاء بالسراء والضراء ، وأنه لايصبر على المحن ولا يشكر النعم إلا الصالحون .

والمعنى: ولئن أعطينا الإنسان منا نعمة من النعم وأذقناه حلاوتها ولذتها ، كالصحة والمال والولد البار ، ثم أخذناها منه فإنه يجمع بين شيئين : المبالغة فى اليأس من عودة مثل ما سلب منه ، والمبالغة فى جحد النعمة وعدم شكر ما بقى منها ، ونعم الله لاتحصى ، وإنما يفعل ذلك لحرمانه من فضيلتى الصبر والشكر ، فهو لذلك لايرجو ثوابًا ، ولا يخطر بباله أن الله سيردها إليه أو مثلها أو خيرًا منها إن هو صبر أو شكر ، مع أنه لايقنط من رحمة الله إلا الضالون .

١٠ - (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى) :

أى وإذا أنعمنا على الإنسان بما تطيب به حياته ويشعر بلذته - أنعمنا عليه بذلك - بعد ضر كان يقاسيه ويعانيه . ليقولن مطمئنًّا إلى بقاء هذه النعمة . قد مضى البأس وانقضى الضُّرُّ ولن يعود .

(إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ): أى إنه نسى ما كان فيه من ضَرَّاءَ ، واطمأن إلى بقاء النعمة الطارئة ، وفرح بها فرح بطر وغرور وتفاخر بها على عباد الله ، وغاب عن ذهنه شكر الله عليها ، وأن الله قد يحرمه منها بعدم قيامه بشكره من أجلها .

١١ -(إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) : لما بين الله تعالى حال جنس الإنسان الذى ييئس من رحمة الله إن أصابته محنة ، والذى يكفر بالنعمة بعد الضر فلا يشكر

الله عليها ، ويظن بقاءها ويتفاخر بها على عباد الله ، جاءت هذه الآية لتبين صنفًا من الناس ليسوا على شاكلة هؤلاء وأولئك ، وهم الذين يصبرون عند نزول المحن والشدائد استسلامًا لقضاء الله ويضبطون أنفسهم عند امتحانها بالغنى فلا يفرحون ولا يغترون . شكرًا لنعم الله عند السراء ، وامتثالا لأمر الله تعالى وتقربًا إليه فى حال النعماء .

والمعنى : لكن الذين صبروا على الابتلاء ، وعملوا الصالحات فى الضراء والسراء .

(أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) : أى أولئك الموصوفون بهذه الصفات الحميدة المخالفة لصفات من قبلهم ، لهم مغفرة من الله تعالى يستر بها ذنوبهم ، وأجر كبير فى الآخرة لصبرهم فى الشدة وشكرهم فى الرخاء ، ولأنهم ردُّوا ما ينالهم من خير إلى فضل الله ، وما يقع عليهم من ضر إلى قدر الله تعالى الموافق للحكمة والصواب .

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ) : لعلك راغب فى عدم إسماعهم بعض ما يوحى إليك من دلائل نبوتك كراهة معارضتهم لك ، وترويضًا لنفوسهم .

(لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ) : أى هلا أعطى الله محمدًا مالًا ينفقه . (وَكِيلٌ) : حفيظ مطلع يحفظ أحوالك وأحوالهم . (افْتَرَاهُ) : اختلقه . (يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ) : يجيبوكم . (مُسْلِمُونَ) : منقادون لله .

التفسير

١٢ - (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ .....) :

هذه الآية واللتان بعدها لتسلية الرسول والتخفيف عن نفسه الشريفة بسبب مايجده من عناد المشركين واقتراحهم الآيات ، مع كفاية ما جاءهم به منها فى الإيمان .

كما أنها مسوقة لبيان أنه صلى الله عليه وسلم ليس مسئولا عن كفرهم ، فما هو إلا منذر ، والله وكيل ورقيب عليهم .

والمعنى : فلعلك يا محمد تارك إسماعهم بعض ما يوحى إليك من الآيات الدالة على حقيقة نبوتك ، المنادية بكونها من عند الله تعالى لمن له أذن واعية وقلب رشيد ، ولعلك يضيق صدرك بتلاوته عليهم وتبليغه إياهم أثناء المحاجة والدعوة إلى الإيمان ، بسبب معارضتهم الشديدة لك ، وإصرارهم على رفض ماجئتهم به من التوحيد والوعد والوعيد وبسبب قولهم هلا أعطى مالا كثيرا كما يعطى الملوك والعظماء ، ليكون ذلك أمارة على أن ربه يشد أزره ولا يدعه فقيرا بين الناس ،وهلا جاء معه ملك يؤيده ويشهد له بالنبوة. فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ،ولا تترك تبليغهم شيئا مما أوحى إليك ، ولا يضق صدرك بما يقولون ، فإنه لا ينبغى لمثلك أن يتأثر بمثل هذا القول الدال على ضعف تفكيرهم وشدة وطأة الحق الذى جئت به عليهم ، فهم يحاولون التنفيس عن أنفسهم وتخفيف وطأته عليهم .

(إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) : ما أنت يا محمد إلا منذر لكل مكذب ولست عليهم بمسيطر فدع أمرهم لله فإنه هو الموكل بأمور خلقه والعالم بها ، يحصى عليهم أعمالهم ويجازيهم بها أتم الجزاء ، فتوكل عليه وفوض أمرك إليه .

١٣ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ) :أى بل أيقولون إن محمدا اختلق القرآن من عند نفسه ونسبه إلى الله تعالى . قل لهم أيها الرسول إن كان الأمر كما تزعمون فأتوا بعشر سور مفتريات مثل القرآن فى بلاغته وحسن تنسيقه ، فإنكم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة الحريصون على إبطال دعوتى .

(وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) : أى واستعينوا على ذلك بما تشاءون ، وادعوا من استطعتم دعوته فى المعارضة ، أو فادعوهم ليشهدوا لكم إن كنتم صادقين فى دعواكم : أنى اختلقته وأنه ليس من عند الله تعالى .

١٤ - (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) :

إن كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كان المعنى : فإن لم يستجب هؤلاء المشركون إلى ما دعوتموهم إليه من معارضة القرآن وحدهم أو مع من يشد أزرهم فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه ، وازدادوا يقينًا وثباتًا بأنه منزل من عند الله تعالى ، وأنه لا إله إلا الله ،لأنه العالم بما لايعلمه غيره والقادر على مالم يقدر عليه سواه ،ومن ذلك اختصاصه بالقدرة على إنزال هذا القرآن الذى أعجز البشر .

وإن كان الخطاب للمشركين كان المعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعونهم للشهادة على أن محمدًا اختلقه ولم يوافقوكم على دعواكم ، فاعلموا أنما أنزل بعلم الله المحيط بحاجات البشر فى التشريع والسلوك ، وأنه لا سبيل إلى أن يؤلف مثله بشر ، واعلموا أيضًا أنه لا شريك له تعالى حتى يأتى بمثل هذا القرآن . (فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) :أى أسلموا أيها الكفار وأخلصوا لله وحده حيث ثبت عجزكم وعجز من استعنتم بهم عن معارضة القرآن .

هذا إذا كان الخطاب هنا وفيما قبله للكفار ، فإن كان للمسلمين على ما تقدم بيانه فالغرض منه حثهم على الثبات أمام حرب المشركين لهم ، أى فهل أنتم ثابتون على إسلامكم أمام أعدائكم بعد أن وضح الحق ، واختفى الباطل ، يريد بذلك الأسلوب إلهاب عزائمهم .

(مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾)

المفـردات :

(وَزِينَتَهَا) :الزينة ما يتزين به من اللباس والأثاث والأولاد والأسباب .

(نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ) : نوصل إليهم جزاء أعمالهم وافيًا كاملًا .

(لايُبْخَسُونَ) : لاينقصون شيئًا من أجورهم . (وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا) : أى بطل وضاع ثواب عِملهم فى الآخرة .

(وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى لا قيمة له حيث لم يعمل لوجه الله .

التفسير

١٥ – (مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا . . .) :

بعد ما ثبت أن القرآن من عند الله تعالى بعجزهم عن الإتيان بمثله ، جاءت هذه الآية والتى بعدها لتبين أن من ينصرف عن العمل به إلى الاهتمام بالدنيا وحدها وترك العمل للآخرة ، عاقبتُه الخسران المبين .

والمعنى : من كان كل همه ومقصده من وجوده الدنيوى التمتع بلذات الدنيا وما يتزين به فيها فيعمل للتمتع بملذاته فيها ، دون أن يهتم بلقاء الله تعالى والعمل للآخرة بالبر والإحسان وتزكية النفس بالإيمان والتقوى .

(نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُم فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَيُبْخَسُونَ) : أى نعطهم جزاء أعمالهم وافيًا فى الدنيا ، من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد وغير ذلك ، وهم فيها لاينقصون شيئًا من أجورهم الدنيوية « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » . ثم بين الله تعالى عاقبة أمر هؤلاء فى الآخرة فقال:

١٦ – (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَاصَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّاكَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى أُولئك الذين لايريدون إلا زينة الحياة الدنيا وبهجتها وإشباع غرائزهم فيها ولم تمتد أبصارهم وأعمالهم وآمالهم إلى ما وراء هذه الحياة – أُولئك – ليس لهم فى الآخرة مثوى إلا النار ، لأنهم استوفَوْا فى الدنيا ما تقتضيه صور أعمالهم ، وبقيت لهم أوزار عقائدهم ونياتهم السيئة ، وبطل ثواب ما صنعوه فى الدنيا ، لأنه لم يعمل لوجه الله تعالى ، فلا نفع ولا خير لهم فيه قال تعالى : « مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا »[1] .

---

(١) سورة الإسراء الآيتين : ١٨ ، ١٩

(أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(بَيِّنَةٍ) :حجة واضحة وبرهان ظاهر . (وَيَتْلُوهُ) : أى يتبعه .(شَاهِدٌ مِّنْهُ) : أى من الله تعالى يشهد بصحته . (إِمَامًا وَرَحْمَةً) :كتابًا يؤتم به فى الدين ورحمة على المنزل عليهم. (الْأَحْزَاب) :أهل مكة ومن تحزب معهم . (مِرْيَةٍ مِّنْهُ) :شك من الوعيد بالنار أو من القرآن .

التفسير

١٧ ـ (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً) : هذا بيان لحال المسلمين الذين يريدون بأعمالهم وجه الله تعالى إثر بيان حال من يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا وحدها .

والمعنى : أيكون حال من كان على بينة وبرهان عقلى بما يؤمن به ويدعو الناس إليه، ويتبعُ هذا النورَ الفطرى والبرهان العقلى شاهِدٌ من الله تعالى يشهد على صحة ما اهتدى إليه العقل وهو القرآن الذى ثبت صدقه وأنه من عند الله ،ويؤيده شاهد آخر من قبله ، وهو التوراة كتاب موسى الذى جعله الله إمامًا يؤتم به فى الدين ،ورحمة لمن عمل به من بنى إسرائيل قبل نسخه بالقرآن فقد بشر بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن .

أفمن كان على هذا الحال؟ يكون كمن يريد الحياة الدنيا وحدها محرومًا من الحياة الدينية الموصلة إلى السعادة فى الدار الآخرة ؟! لا يستويان .

(أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) :أى أولئك الذين استناروا بالحجج العقلية والنقلية يؤمنون بالقرآن ويعملون به .

(وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) : أى ومن لم يؤمن به من أهل مكة ومن تحزب معهم على محمد صلى الله عليه وسلم ممن يسير على غير هدى، أو من أهل الكتاب ، فموعدهم ومآلهم النار يعذبون فيها ويردُونها لا محالة بمقتضى وعيده تعالى لهم ولأمثالهم ، لقيام الحجة عليهم وعدم ما يثير الشكوك والجحود .

(فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ) :أى فلا تكن أيها العاقل المكلف فى شك من أن موعد أهل الكفر النار أو من أن القرآن من عند الله تعالى.

(إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) :أى إن الوعيد بالنار . أو إنَّ القرآن هو الحق من الله الذى لا شك فيه ، فإنه : «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ». [1] ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ، لأنهم لا يمعنون النظر فيه ولا فى الأدلة التى تهدى إليه .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(وَمَنْ أَظْلَمُ): لا أحد أشد ظلما. (يُعْرَضُونَ) : أى يعرضون ذاتا وعملا .

(الْأَشْهَادُ) :جمع شاهد أو شهيد [2] وهو من يشهد عليهم. (لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) :إبعاده لهم من رحمته . (يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ) : أى يمنعون غيرهم عن دين الله ، أو يُعْرِضون هم عن دينه .

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً) : أى يريدونها معوجة .

(١) سورة فصلت الآية (٤٢)

(٢) ومن الوزن الأول صاحب وأصحاب ، ومن الوزن الثانى شريف وأشراف .

التفسير

١٨ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) :

بعد أن بينت الآيات السابقة إصرار المشركين على الكفر بآيات الله . جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان طائفة أخرى من جرائمهم وجزائهم عليها .

والمعنى : لا أحد أشد ظلما ممن كذب على الله تعالى فنسب إليه ما لا يليق به كالشريك والولد ، أو وصفه بما لايجوز وصفه به، أو أخبر عنه بما لم يقله . فهؤلاء أعظم الناس ظلما وأشدهم جرما .

(أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ) :أي أولئك الكاذبون يعرضون على ربهم ليحاسبهم على أعمالهم .

(وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ) : المراد من الأشهاد إما من شهدوا كفرهم ومعاصيهم التى اجترحوها فى الدنيا . وهم الملائكة والنبيون وصالحو المؤمنين أو أهل الموقف .

والمعنى : ويقول هؤلاء الأشهاد مشيرين إليهم عند عرضهم على ربهم ، هؤلاء هم الذين افتروا على الله كذبا . فنسبوا إليه ما لا يليق به .

(أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) :

يحتمل أن تكون هذه موجهة من الله تعالى إليهم . أو من هؤلاء الأشهاد .

والمعنى : ألا بعداً وطرداً من رحمة الله لهؤلاء الظالمين لأنفسهم المعتدين على الحق .

١٩ - (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) :

الصد عن سبيل الله : يستعمل بمعنيين (أحدهما) : منع الناس عن دين الله . (والثانى) : الامتناع عنه . وكلا هما يحصل من الكافرين . فكما يكفرون فى أنفسهم . يحملون غيرهم على الكفر .

والمعنى : هم الذين يمنعون الناس ويصرفونهم عن دين الله الذى هو السبيل إلى معرفته ومرضاته كما صرفوا أنفسهم عنها ؛ ويريدون أن تكون هذه السبيل معوجة حسب أهوائهم.

(وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) :

أى : وهم مع صدهم عن سبيل الله ينكرون البعث وما بعده ، من حساب وثواب وعقاب ويجحدونه ، وتكرار الضمير (هُمْ) : لتأكيد كفرهم بالآخرة ، والإيذان بعمق جذوره .

(أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(مُعْجِزِينَ فى الْأَرْضِ) : مفلتين من عقاب الله . (أَوْلِيَاءَ) : نصراء .

(خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) : أضاعوها بكفرهم . (وَضَلَّ عَنْهُم) : وغاب عنهم .

(مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : يدعون من ألوهية الأصنام وشفاعتها . (لَا جَرَمَ) : لابد .

التفسير

٢٠ - (أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ) :

أى : هؤلاء الذين يصدون الناس عن سبيل الله ويطلبون لها اعوجاجا وعدم استقامة - هؤلاء - لم يكونوا ناجين من عذاب الله فى الدنيا إذا ما أراد الانتقام منهم فى أى جزء من أجزاء الأرض ، فهم فى قبضته وملكه فلا يقدرون على الامتناع منه .

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ :

أى وليس لهؤلاء المشركين من أنصار يتولون أمرهم ويمنعونهم من عذاب الله تعالى إذا ما أراده بهم .

﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ :

أى يزاد لهم العذاب مثلا أو مثلين أو أكثر بسبب صدهم الناس عن دين الله وإنكارهم البعث بعد الموت لأنهم ضلوا فى أنفسهم وأضلوا غيرهم .

﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ :

أى فقدوا القدرة على السمع المفيد والبصر النافع فإنهم أغلقوا نوافذ المعرفة عندهم فأصموا آذانهم عن سماع الحق بتدبر واعتبار ، فلهذا لم ينتفعوا بما يسمعون ، وهم مع ذلك ما كانوا يبصرون إبصار تأمل وعبرة فيما ينفعهم ويعود عليهم بالخير فى الدنيا والآخرة ويؤهلهم لرضا الله تعالى كما قال سبحانه : « فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ »[1] .

٢١ - ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ :

أى أولئك الذين أغلقوا آذانهم عن سماع الحق ، وحجبوا أبصارهم عن النظر فى آياته باعتبار وتأمل - أولئك - هم الذين جنوا على أنفسهم فأوقعوها فى الخسران بافترائهم الكذب على الله تعالى ، واشترائهم الضلالة بالهدى فضيعوا على أنفسهم حظوظها من رحمة الله تعالى ، وقد غاب عنهم فى الآخرة الآلهة الذين كانوا يزعمون أنهم شفعاء لهم ومنقذوهم من العذاب ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً .

٢٢ - ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ :

أى لابد أنهم فى الآخرة هم أشد الناس خسرانا ، لأنهم أضاعوا منازلهم فى الجنة واستبدلوا بها النار .

(١) سورة المدثر ، الآيات : ٤٩ - ٥١

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾)

المفـردات :

(أَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِم) : خضعوا إلى الله ، واطمأنوا إلى عبادته وحسن جزائه .

التفسير

٢٣ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ) :

لما ذكر الله تعالى سوء أحوال الكفار فى الدنيا وخسرانهم فى الآخرة أتبعه بيان حسن حال المؤمنين فيهما .

والمعنى : إن الذين آمنوا بالله ورسله وبكل ما يجب الإيمان به ، وعملوا الصالحات من الواجبات والمسنونات ، وخشعوا لله واطمأنت قلوبهم بذكره . فجمعوا بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب لتكون أعمالهم مقبولة عند الله تعالى .

(أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) : أى هؤلاء هم أهل الجنة وأصحابها دون من عداهم ، هم فيها خالدون لايبرحونها اختيارا ، ولايخرجهم منها أحد اضطراراً . كما قال تعالى : « وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ »[1]

(۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾)

المفـردات :

(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ) : صفة الفريقين ؛ فريق الكفار وفريق المؤمنين .

(الْأَعْمَىٰ) :فاقد البصر . (الْأَصَمِّ) :فاقد السمع . (الْبَصِيرِ) :حاد البصر . (السَّمِيعِ) :قوى السمع .

(١) سورة الحجر ، من الآية (٤٨)

التفسير

٢٤ - (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ....) الآية .

تحدثت الآيات السابقة عن الكفار وإغراقهم فى الضلال ومصيرهم الرهيب، كما تحدثت عن المؤمنين وخشوعهم لله وثوابهم الجزيل، وجاءت هذه الآية لتوضيح الفرق الشاسع بين الفريقين .

والمعنى : مثل الكفار فى عدم الانتفاع بأبصارهم وأسماعهم ، كمثل الأعمى الذى لايبصر والأصم الذى لايسمع أى كمثل الذى جمع بين العمى والصمم [(١)] فهو يتخبط فى الضلال كما قال تعالى : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّايُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّايَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » [(٢)] .

ومثل المؤمنين فى معرفة الله والتصديق بوحدانيته وكمالاته ، مثل الرجل الحاد البصر القوى السمع فكما أنه لايغيب عنه شىء مما يرى ويسمع ، فكذلك المؤمن لايغيب عن بصيرته وصفاء قلبه ، شىءٌ مما يليق بكمالات الله تعالى فهو ينتفع بمدركاته العقلية ويميز بين الحق والباطل ، والصواب والخطأ ، فيتبع الخير ويبتعد عن الشر بعكس الأول .

(هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً) : الاستفهام هنا بمعنى النفى . أى لايستويان حالا وصفة .

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

أى أتغفلون عن عدم استوائهما وما بينهما من الفرق فلا تعتبرون بالفرق بين هؤلاء - وهؤلاء ، كما قال تعالى : « لَايَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » [(٣)] . فما بالكم لاتدركون الفرق الشاسع بين الفريقين .

---

(١) قوله تعالى (كالأعمى والأصم) صفتان لموصوف واحد وكذلك (البصير والسميع) فهما من عطف الصفة على الصفة ، ومنه قول الشاعر : إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم .

(٢) الأعراف ، الآية : ١٧٩ .

(٣) سورة الحشر ، الآية : ٢٠

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(نَذِيرٌ) : محذر من وقوع خطر . (مُبِينٌ) : موضح . (أَلِيمٍ) : شديد الإيلام .

التفسير

تحدثت الآيات السابقة عن فريق الكفار ومصيرهم الأليم ، وفريق المؤمنين وثوابهم العظيم وفى الآيات التالية إلى آخر السورة يقص الله سبحانه وتعالى علينا أمثلة تاريخية واقعية لهذين الفريقين فى عصر كل رسول من الرسل بالترتيب الزمنى التاريخى ، وابتدأ بقصة نوح عليه السلام فقال :

٢٥ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

استهلت الآية بتأكيد القصة بقوله : (وَلَقَدْ) لأن تاريخ نوح عليه السلام موغل فى القدم وفى التأكيد تنبيه على صدق القصة مع جذب انتباه السامعين إليها .

والمعنى : ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه قائلا لهم : إننى لكم محذر من غضب الله وعقابه إن بقيتم على كفركم ، موضح لكم مافيه خلاصكم ورضا ربكم .

٢٦ - (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) : أى أرسلنا نوحا إلى قومه ليقول لهم : لاتعبدوا إلّهًا غير الله فإنه وحده الجدير بالعبادة والتقديس .

واستمال قلوبهم إليه بتأكيد إشفاقه عليهم وحرصه على إنقاذهم ، مما يتعرضون له من عقاب يوم رهيب شديد الإيلام ، إذا أصروا على الشرك والضلال فقال :

(إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ) : واليوم الأليم هو يوم القيامة الذى يجعل الولدان شيبا . أو يوم الهلاك والاستئصال فى الدنيا أو هما معًا ، وقد حل بهم عذاب يوم الطوفان « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ » .

(فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾)

المفـردات :

(الْمَلَأُ) : الزعماء والقادة . (الْأَرَاذِلُ) : جمع أرذل وهو الخسيس الدنئُ .

(نَظُنُّكُمْ) : نعتقد ونوقن ، مثل قوله تعالى : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ » .

(بَادِىَ الرَّأْىِ) : ما يبدو من الرأى للوهلة الأُولى دون إمعان للنظر .

التفسـير

٢٧ - (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا) :

أى فتحدث زعماءُ قوم نوح الذين كذبوا رسالته قائلين له : ما أنت إلا بشر مشابه لنا فى البشرية لا ميزة لك علينا ، فكيف نستجيب لك ونتبعك ؟ وقد فاتهم أن البشر لايقدرون على الأخذ من الملائكة ولايستطيعون لقاءهم ، وأنهم لو جعلوا فى صورة البشر لالتبس الأمر على من أُرسلوا إليهم ، كما فاتهم أن البشرية ليست على مستوى واحد ، فهى تعلو حتى تفوق الملائكة ، وتهبط حتى تصل إلى درك الشياطين .

ثم عللوا تكذيبهم بسبب ثان فقالوا :

(وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ) : أى ولا نعلم أحدًا اتبعك من الزعماء والأشراف ، بل اتبعك الضعفاء والفقراءُ وقد اتبعوك دون روية أو تفكير ، لأنهم لايحسنون التدبر فى الأمور .

(وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ) : أى وما نعلم لك ولمن اتبعك مَزِيَّةً ولا فضلا فى أى شأن حتى نترك مكانتنا فى الرياسة والزعامة وننقاد لكم .

ثم ختموا اعتراضهم على رسالته بقولهم له :

(بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) : أى بل نعتقد أنكم مفترون فيما زعمتموه لأنفسكم من فضل : والظن هنا بمعنى الاعتقاد كما جاء فى قوله تعالى : « قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »[1] .

(قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾)

المفـردات :

(أَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى عن رأيكم. (بَيِّنَةٍ) : حجة قوية واضحة . (رَحْمَةً) : نعمة ، والمراد بها هنا نعمة النبوة والرسالة . (أَنُلْزِمُكُمُوهَا) : أنكرهكم على اتباعها .

(فَعُمِّيَتْ) : أُخفيت عليكم فلم تدركوها .

التفسير

٢٨ - (قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَآتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُون) :

فى هذه الآية وما يليها يرد نوح عليه السلام على الأسباب التى استند إليها قومه فى تبرير كفرهم - ويرد فى رفق وأناة - ويجادلهم بالتى هى أحسن ، رجاء أن يفيئوا إلى الصواب .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢٤٩

والمعنى : ياقوم إننى لا أزعم أننى أمتاز عليكم فإننى بشر مثلكم، ولكن أخبرونى عن رأيكم فيما أعرضه عليكم : إن الله سبحانه قد هدانى إليه فآمنت به إيمانا راسخا ثابتا معتمدا على الحجة والبينة الظاهرة ، وتفضل على بنعمة خصنى بها من عنده وهى الرسالة ، وأمرنى بإبلاغها إليكم تفضلا منه عليكم . وقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة فخفى أمرها عليكم حين بادرتم إلى تكذيبها دون تدبر أو تأمل. فأخبرونى ماذا أفعل لكم أنا ومن معى من المؤمنين بعد ذلك ؟ أنرغمكم على العمل بشريعة الله التى رحمكم بها وأنتم لها كارهون .

وعاد نوح فذكرهم بأنهم قومه قائلا :

٢٩ - (وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ) : أى ياقوم إننى لا أريد منكم مالا على أداء هذه الرسالة ، فما أجرى إلا على الله وحده فما بالكم ترفضون مادعوتكم إليه من الحق ، وهذا الذى قاله نوح لقومه من الأسس الهامة التى تقوم عليها دعوات المرسلين ، وينبغى أن تكون قدوة لجميع الدعاة والمصلحين ، فإن الدعوة للإصلاح إذا تجردت عن المطامع الذاتية ، تكون أدعى للاستجابة إليها ، واستمالة القلوب نحوها وفى ذلك يقول الله تعالى : « اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ »[(١)] .

(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ) : هذا جواب عما طلبوه منه من طرد الفقراء بقولهم : « وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ » . كأنهم يوحون إليه بطردهم والتبرؤ منهم .

والمعنى : لست بطارد المؤمنين لفقرهم كما أردتم ، فإنهم سيلقون الله فينصفهم منى إذا ظلمتهم وأبعدتهم عنى إرضاء لكم ، ولن أغضب الله بازدرائى لهم كما تحبون وليس الأمر فى شرع الله دائما على الصور والأجسام والثياب ، بل مرده إلى طمأنينة القلوب ونظافة الصدور .

وفى هذا المعنى يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّه »[(٢)] .

(١) سورة يس : الآية ٢١

(٢) حديث شريف رواه مسلم وأحمد .

(وَلَٰكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) : أى لا تعرفون أقدار هؤلاء المؤمنين حين حكمتم بأنهم أراذل ، ولن أكون مثلكم فى الخطأ وسوء التقدير .

ويجوز أن يكون المعنى : أراكم قوما بكم جهالة وحمق ، تدفعكم إلى التعالى على هؤلاء المؤمنين والسخرية بهم ، والازدراء والامتهان لهم .

٣٠ - (وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

ويقول لهم مرة أخرى : وياقوم من يمنعنى من انتقام الله إن طردت هؤلاء الفقراء الذين جعلتموهم أراذلكم ، وهم على ماهم عليه من الإيمان والاستقامة . أتستمرون على ماأنتم عليه من الجهل والحمق ، فلا تتذكرون ولا تتدبرون أن قيمة الناس عند الله ليست فى مظاهرهم وثرائهم ، بل فى صفاء نفوسهم وطواعيتهم للحق ، واستقامتهم على جادَّة الصدق ، فكيف أطردهم وهم على المنهج المستقيم ؟

(وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(خَزَائِن) : جمع خزانة بكسر الخاء وهى موضع المال أو المتاع ، والمقصود بخزائن الله ما عنده من خير جزيل .

(الْغَيْبَ) : المراد من الغيب ما غاب وخفى عن الإنسان من العوالم المجهولة ، أو أحداث المستقبل . (تَزْدَرِىٓ) تحتقر .

التفسير

٣١ - ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللهِ ﴾ :

بعد أن جادلهم فى ادعاءاتهم وفنَّد مزاعمهم ، أعلن لهم أنه حين يبلغهم رسالة ربه لا يدعى أنه يملك ما عند الله من خير ورزق وفير ، حتى يستدلوا بعدمه عنده على كذبه بقولهم له وَلِمَنْ آمن معه : « وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » . فإن النبوة لا تنال بالأسباب الدنيوية ، ودعواها بمعزل عن ادعاء المال والجاه ، ولا تفتقر إليهما .

﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ :

أى لا أقول لكم حين أنذركم بقولى : « إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » . « إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ » : لا أقول لكم إنى أعلم الغيب ، حتى تسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد .

﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ : أى لا أزعم أنى ملك حين دعوتكم إلى دين الله ، حتى تردُّوا دعوتى بقولكم : « مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا » . على حين أن البشرية لا تمنع من النبوة ، بل هى من مقتضياتها .

﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا ﴾ :

أى ولا أقول فى شأن المؤمنين الفقراء الذين تحتقرهم أعينكم ، لا أقول فى حقهم ما قلتموه أنتم من أنه تعالى لن يؤتيهم خيرا لرثاثة حالهم ، فإن الله لا ينظر إلى الصور والثياب ، ولكن ينظر إلى القلوب ، فعسى الله أن يمنحهم الخير فى الدنيا والآخرة .

﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ إِنِّى إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ :

أى أن الله تعالى أعلم بما انطوت عليه نفوسهم ، فكيف أحكم عليهم بأنهم لن ينالوا من الله خيرا ، إنى لو قلت هذا لكنت من الظالمين لهم بنقص مرتبتهم وغمط حقوقهم ، أو لكنت من الظالمين لأنفسهم بالحكم فى شىء غيبى لا سبيل لى إلى معرفته فإن أسرار القلوب بين يدى علام الغيوب . .

(قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا
إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ
وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ
لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(جَادَلْتَنَا) : الجدال ؛ مقارعة الحجة بالحجة طلبا لتغليب رأى على رأى آخر . ويطلق على شدّة المخاصمة والقدرة على النقاش .

(بمُعْجِزِينَ) : بسابقين ، والمراد أنهم لا يفلتون من عذاب الله .

(أن يُغْوِيَكُمْ) : أى يترككم فى غيِّكم ويتخلَّى عن هدايتكم ، أو يُوقعكم فى الغىِّ وهو العذاب ، ومنه قوله تعالى : « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » . أى هلاكا وعذابا .

التفسير

أفحم نوح قومه ولم يجدوا مجالا للردِّ عليه ، فتحدوه بأن ينفِّذ ما وعدهم به من العذاب وذلك ما حكاه الله بقوله :

٣٢ - (قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

المعنى : قالوا يانوح قد بالغت فى مناقشتنا ولسنا مقتنعين برسالتك ، ولا بما قدمته علينا من الأدلة والبراهين ، ونحن مصرّون على تكذيبك فيما تدعيه من ثواب المؤمنين وعقاب الكفار ، فأتنا بما أوعدتنا من العذاب الأليم إن كنت صادقا فيما تقول .

٣٣ - (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) :

قال نوح مجيبا لهم بما يتفق مع بشريته التى أعلنها لهم من قبل ، وبما يتفق مع رسالته عن الله : قال لهم : ما يأتيكم بالعذاب الموعود إلا الله تعالى إن شاء إنزاله بكم ، وليس أمره بيدى حتى تطلبوه منى ، ولن تستطيعوا الإفلات منه حين يريد نزوله بكم .

٣٤ - (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ) :

أى ولا ينفعكم ما أبذله لكم من نصح أردت بذله لكم ، إن كان الله يريد أن يبقيكم فى غيِّكم الذى أصررتم عليه ، ثم بيَّن أن مردهم إلى ربهم صاحب الأمر فيهم فقال : (هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) : أى أنه تعالى هو مالك أمرهم وحده ، وإليه مرجعهم بعد الموت للحساب والجزاء فأمر هدايتهم وجزائهم إليه وحده وليس لى من ذلك شيء .

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(افْتَرَاهُ) : اخترعه من نفسه ولم ينزله الله عليه .

(إِجْرَامِي) : ارتكابى إثما كبيرًا .

التفسير

٣٥ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) :

لمَّا عجز قوم نوح عن محاجته زعموا أن كلامه كله كذب وادعاء ، فأمره الله أن يبرئ نفسه مما يقولون ، ويحمِّلهم عاقبة افترائهم عليه .

والمعنى : بل أيقول قوم نوح بعد عجزهم عن الردِّ عليه ـ إنه اختلق هذا الدِّين الذى يزعم أنه من عند الله .

(قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ) :

أى قل لهم يانوح إن كنت قد اختلقت ماأبلغتكم إيَّاه من رسالة الله ، فعلىَّ إثم إجرامى بالافتراء على الله ، وما يترتب عليه من عقاب يستحقه كل من افترى عليه الكذب ، فكيف أفترى على الله الكذب وأنا المسئول عنه دون غيرى ، وبما أننى صادق فأنا برىءٌ من إجرامكم وكفركم .

وهذا شبيه بقوله ـ تعالى ـ للرسول صلى الله عليه وسلم : « وإن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ »[1] . وهنا يتجلى الإنصاف الكامل .

(وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾)

المفـردات :

(فَلاَ تَبْتَئِسْ) : لا تحزن ولا تتألم .

(الْفُلْكَ) : السفينة الواحدة والجمع .

(بِأَعْيُنِنَا) : تحت رعايتنا وتوجيهنا .

التفسير

نصح نوح ـعليه السلام ـ قومه بكل الوسائل ودعاهم إلى الإيمان بمختلف الأساليب العقلية فى رفق ولين ، ولكنهم أصروا على عنادهم وركبوا رءُوسهم ، ورموه بالكذب

(١) سورة يونس الآية : ٤١

على الله كما تقدم بيانه ، وفيما يلى من الآيات باقى قصة نوح مع قومه وبيان نهايتهم الأليمة .

٣٦ - (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ) :

أى : وأوحى الله إلى نوح أنه لن يستجيب لدعوتك أحد من قومك سوى الذين آمنوا بك من قبلُ ، فلا مجال لبذل النصيحة والدعوة إلى الهداية مع قوم مصرِّين على الكفر تلك الدهور الطويلة .

(فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) :

أى فلا تحزن عليهم ولا يَضِقْ صدرك بكفرهم ومكرهم ، وانغماسهم فى الآثام والذنوب .

٣٧ - (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا) :

أى وقم بعمل السفينة طبقًا لوحينا الذى بينا لك فيه كيفية صنعها ، وذلك تحت رعايتنا ، وبتوجيه وسند منَّا لتؤدى الغرض المقصود منها .

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ) :

ظاهر الآية أن نوحا عليه السلام شفع فى قومه أو كان بصدد أن يشفع فيهم فنهى عن ذلك ، وسيأتى فى سورة نوح أنه - صلى الله عليه وسلم - طلب من ربِّه أن يُهلكهم بقوله : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا »[1] . وتوفيقا بين هذه الآية وبين ماجاء هنا نقول : إنه سبحانه يعلم شفقة نوح بقومه وطول إقامته معهم ، وأنه قد يدعو ربه أن يتأنى معهم وأن لا يغرقهم أو كان قد دعاه فعلا ، فلهذا نبهه هنا إلى أن لا يطلب منه ذلك مستقبلا ، فقضاء الله فيهم لا رجعة فيه بشفاعته ، فلا يطلب منه مالا سبيل إلى إجابته .

أما ما سيأتى فى سورة نوح من قوله : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » . فقد صدر منه بعد يأسه تماما من إيمان قومه .

والمعنى : ولا تخاطبنى فى تأجيل تعذيب هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم ونبيهم ، إنهم مغرقون ولابُدَّ ، فلا مجال للرحمة بهم ولا مفرَّ من إهلاكهم .

(١) سورة نوح ، الآية : ٢٦

(وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ
قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(مَلَأٌ) : جماعة من الأشراف . (سَخِرُوا مِنْهُ) : اتخذوه هدفا للاستهزاء ومجالا للضحك . (يُخْزِيهِ) : يذلُّه ويفضحه .

التفسير

٣٨ - (وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ) :

نفذ نوح أمر ربه ، وظل يباشر صناعة السفينة وكلما رآه جماعة من أشراف قومه أثناء صنعتها واجهوه بالاستهزاء والسخرية منه . فقد عهدوه داعيا إلى توحيد الله وعبادته ، فإذا هو قد انصرف عن الدعوة واشتغل بقطع الأشجار وتهيئة الألواح وضم بعضها إلى بعض ولم يدركوا السر فى هذا التغيير .

(قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) : لمَّا رأى نوح قومه يسخرون من اشتغاله ببناء السفينة ، هدَّدهم بقوله إن تسخروا منا اليوم . فإننا عن قريب نجيب على سخريتكم بالفرح بهلاككم ، وتخليص الأرض من شروركم وجهلكم فى حق ربكم وحقِّ أنفسكم .

٣٩ - (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) :

أى إنكم تسخرون منا اليوم وسوف تعلمون غدًا من هو أهل للسخرية والاستهزاء حينما يفجؤكم عقاب من الله يخزيكم فى الدنيا ، وحينما يحل بكم عذاب خالد يوم القيامة وبئس المصير ..

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(فَارَ) : فاض وارتفع بقوة واشتد اضطرابه . (التَّنُّورُ) : الفرن .

(سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) : حق عليه قضاءُ الله .

التفسير

٤٠ ـ (حَتَّى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ) : ظل نوح عليه السلام يصنع السفينة ويسمع سخرية الساخرين واستهزاء المستهزئين من قومه ، حتى إذا أتم صنعها وحل قضاءُ الله وتدفقت ينابيع الماء من مكان غير مألوف وهوجوف الفرن ، وهطل المطر من السماء مدرارًا ، كما قال تعالى: «فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّماءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ »[١] .

حتى إذا حدث هذا كله : (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) : أى قلنا لنوح عليه السلام احمل فى سفينتك من كل صنف من الحيوان زوجين اثنين ذكرًا وأنثى حتى لا تنقرض الأنواع ، أما الأنواع التى أمره الله بحملها معه فلم نعلم أنه ورد فى تحديدها نص صريح يوثق به .

(وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) : أى واحمل معك فى السفينة أهلك جميعًا إلَّا مَن حقَّ عليه قضاءُ الله بالهلاك مع الكفار لأنه منهم ، ومن سبق عليه القول من أهله هم : ابنه وزوجته كما ورد فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم .

(وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) : أى واحمل معك الذين استجابوا لدعوتك وآمنوا برسالتك وهم عدد قليل .

(١) سورة القمر ، الآيتين : ١١ ، ١٢

(* وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(ارْكَبُوا فِيهَا) : أى اركبوا مستقرين فيها . (مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا) : أى جريها فى الماء ، وإرساؤها أى إثباتها فى مرساها ، ويجوز أن يكون المراد منهما مكان أو زمان جريها وإرسائها .

التفسير

٤١ - (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجرِيٰهَا وَمُرْسَاهَا) :

بعد أن بيَّنت الآية السابقة أن الله تعالى أمر نوحا عليه السَّلام أن يحمل فى السفينة زوجين اثنين من كل الحيوانات المنتفَع بها ، وأن يحمل فيها أهلَه إلا من سبق عليه قول الله بالغرق بالطوفان ، جاءت هذه الآية لتبيِّن أنه نفَّذ ما أمره به ، وأوصى أهله أن يذكروا اسمه - تعالى - عند ركوبهم فيها على النحو الذى سنشرحه ، والركوب كما قال العلامة أبو السعود : هو العلو على شيء له حركة ، إمَّا إرادية كالحيوان أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما ، فإذا استعمل فى الأول لم يذكر معه لفظ (فى) كما فى قوله تعالى : « وَالْخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا »[1] .

وإذا استعمل فى الثانى لوحظت الظرفية فذكر معه لفظ (فى) كما هنا ، وكما فى قوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِى السَّفِينَةِ خَرَقَهَا »[2] وقوله : « فَإِذَا رَكِبُوا فِى الفُلْكِ » . هذه خلاصة ما أسهب به فى هذا الموضوع ، وقال البيضاوى :(وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا) : أى صِيرُوا فيها وجعل ذلك ركوبا ؛ لأنها فى الماء كالمركوب فى الأرض . : ا هـ .

والمعنى : وقال نوح - عليه السلام - لأهله والمؤمنين الذين أمره الله بحملهم معه : اركبوا فى السفينة قائلين بسم الله جريها فوق الماء المتلاطم الأمواج ، وبين

(١) سورة النحل ، من الآية : ٨ (٢) سورة الكهف ، من الآية : ٧١

الزوابعَ والعواصف وتحت سُحُبٍ مفتَّحة الأَبواب بماءٍ منهمر ، وبسم الله إرساؤُها وإيقافها عن الجرى عند مرْساها الذى شاءَ الله أن يوقفها ويثبتها عنده .

ويجوز أَن يكون نوح بعد أن أَمرهم بركوبها ، أَخبرهم بأَن جريها وإرساءَها بإذن الله وحمايته حتَّى لا يخافوا من ركوبها فى هذا الفزع الأَكبر ، فكأَنه قال لهم : اركبوا فى السفينة بإذن الله جريها وإيقافها لا بإذنى فلا تخافوا من الغرق ؛ ويرشح هذا المعنى ختم الآية بقوله سبحانه :

(إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) :أَى إن ربى لعظيم الغفران لذنوب المؤمنين ، واسعُ الرحمة والرأْفة بهم ، ومن كان كذلك فهو الكفيل بنجاتهم من كل خطر يُحيط بهم .

(وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾)

المفــردات :

(فِى مَعْزِلٍ) : أَى فى مكان عزل نفسه فيه عن أَهله .

(يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ) : يمنعنى ويحمينى منه .

التفسـير

٤٢ - (وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ) :

هذا الكلام مرتبط بمقدر مفهوم من الآية السابقة ،أَى فركبوا فى السفينة (بِسْمِ اللهِ) الخ ؛ وهى تجرى بهم بعد ركوبهم ، فى موج مرتفع كالجبال ، لشدة العواصف والرياح التى يتأَثر بها الموج ويشتد ارتفاعه .

(وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ...) الآية .

فى هذه الآية عدة أسئلة :

(أحدها) : كيف ينادى نوح ابنه ليركب معه فى السفينة مع أنه نهى عن ذلك بقوله سبحانه : « وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ »؛ ومن سبق عليه قول الله هم الذين قضى بإغراقهم لكفرهم؟ وقد أجيب عن ذلك : بأنه لم يقطع الأمل فى إيمانه إذ لم يكن لديه علم بأنه مصرٌّ على الكفر وأنه من المغرقين ، إلا بعد أن أخبره الله بأنه ليس من أهله المؤمنين وبأنه من المغرقين ، ويدل لذلك قوله : « ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ » . فكأنه يقول له اركب معنا نحن المؤمنين وكن مؤمنا فى جملتنا ، ولا تكن باقيا على الكفر مع الكافرين حتى لا تغرق بسبب كفرك وعزلتك معهم ، وقيل : إنه كان ينافق أباه فيظهر له الإيمان ويبطن الكفر فلذلك دعاه ليركب مع المؤمنين ظانًّا أنه مؤمن ، والرأى الأول أظهر .

(وثانى هذه الأسئلة) :

ما المراد بكونه (وَكَانَ فى مَعْزِلٍ) ؟ والجواب : أنه كان فى مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن المؤمنين وقتما كانوا على الشاطىء يستعدون لركوب السفينة ، ولكنه كان بحيث يسمع النداء ، فلذلك ناداه أبوه بترك العزلة مع الكافرين ، والانضمام إليهم فى الإيمان وركوب السفينة معهم .

(والسؤال الثالث) :

ظاهر النص الكريم ، أن نوحا نادى ابنه وكانت السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال والمعقول أنه يناديه قبل أن تبحر بهم؟ والجواب : أن هذا حكاية لما حدث منه لولده قبل إبحار السفينة ، وليس فى النص ما يقتضى تأخره إلى مابعد جريانها فكأنه قيل : وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، وكان نوح قد نادى ولده ليترك مَعْزِلَهُ ، ويؤمن ويركب معهم ، لينجو من الغرق فى طوفان أمواجه كالجبال ، فأبى وقال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء الخ .

والمعنى الإجمالى للآية : فركبوا فى السفينة بإذن الله جريها وإرساؤها ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، وكان نوح قبل إبحارها قد نادى ابنه وكان فى مَعزل عنه وعمَّن

آمن معه ، قائلا له بحكم الشفقة الدينية والأبوية : يابنى اركب معنا نحن المؤمنين ودع ما أنت عليه من الكفر ، لتنجو من الغرق ، ولا تكن منعزلا عنا مع الكافرين ، فإنهم سيغرقون ويهلكون .

٤٣ - (قَالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَاعَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) :

توهم هذا الولد المفتون أنه يستطيع أن ينجو من الغرق باللجوء إلى جبل مرتفع ، كما يحدث فى بعض المُلمَّات من اللجوء إلى أسباب النجاة العادية ، فلهذا رفض دعوة أبيه وقال له : سألجأُ إلى جبل مرتفع يحمينى من الماء ويمنعنى تسلُّقُه من الغرق بالطوفان ، فردَّ عليه أبوه قائلًا :

(لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ) : أى ليس هذا الذى نزل بالناس ماءً عاديا يُتَّقى فيضانه بارتقاء الجبال ، بل هو عذاب الله وعقابه للكافرين فلا يُنْجِى منه إلا الله ، الذى رحم عباده المؤمنين بإركابهم سفينة النجاة فدع عنك هذه الغفلة ، وآمن بربك واركب مع المؤمنين سفينة النجاة ، لتنجو معهم ، ولكنه لم يستمع إلى نصيحة أبيه .

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) .

أى قام الموج حائلا بين نوح وابنه فاجتذبه إليه ، وانقطعت صلة التفاوض بينهما ، وكان هذا الولد من جملة الذين أغرقهم الله بالطوفان من الكفار أمثاله .

(وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِى) : وياسماءُ أمسكى عن المطر ، والسماءُ هنا : السحاب .

(وَغِيضَ المَاءُ) : أى نقص . (وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِىِّ) : واستقرت السفينة على جبل يُسمَّى بهذا الاسم ، واختلف فى موقعه على ما سنبينه فى الشرح .

(بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) : أى هلاكا لهم ، يقال : بَعُدَ بُعْدًا وَبَعَدًا ، إذا بَعُدَ بحيث لا يرجى رجوعه ، ثم استُعير للهلاك .

التفسير

٤٤ - (وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِى مَآءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِى) .

بعد ما بيَّنت الآية السابقة شدة الطوفان وإغراقه لأهل الأرض ، وأنه لم يعصم منه إلا من رحمه الله وهم أهل السفينة التى صنعها لهم نوح ، جاءت هذه الآية لتبيِّن انتهاء الطوفان بأمر الله ، بعدما أهلك الله به الظالمين .

والمعنى : أنه -تعالى- بعد إهلاكه الظالمين بالطوفان ، أمر الأرض أن تكف عن الفوران وأن تبتلع ما على ظهرها من الماء الذى جاء به الطوفان ، دون ما فيها من مياه البحار والمحيطات ، وأمر السماء أن تكفَّ عن المطر ، وتقلع عن إرساله مدرارًا ، وظاهر الآية : أن الأرض والسماء نوديا حقيقة ، وأنه -تعالى- خلق لهما إدراكا جعلهما أهلا لتقبُّل التكليف ، ولا يبعد ذلك على قدرة الله تعالى ، ويشهد له قوله تعالى : « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ »[1] .

ومن المفسِّرين من جعل ذلك تمثيلا لكمال قدرة الله عليهما ، وتمام انقيادهما لما يشاؤه فيهما ، قال الإمام البيضاوى : نوديا بما ينادى به أولو العلم ، وأُمرا بما يؤمرون به تمثيلا لكمال قدرته ، وانقيادهما لما يشاءُ تكوينه فيهما ، بالآمر المطاع الذى يأمر المنقاد لحكمه ، المبادر إلى امتثال أمره ، مهابة من عظمته ، وخشية من أليم عقابه ، انتهى .

(وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ) :

ونقص الماء حتَّى غاب فى الأرض بعد ما صدر أمر الله للسماء بالإقلاع والأرض بالابتلاع وتنفيذهما مشيئته فيهما ، وأُنجز الأمر الذى جاء الطوفان من أجله ، وهو هلاك أولئك

(١) سورة الأنبياء ، من الآية : ٧٩

الظالمين من قوم نوح ، وتطهير الأَرض منهم ، لينشأَ جيل جديد من البشر على توحيد الله وطاعته ، واستقرت السفينة بعد أَن جف ظاهر الأَرض ، على جبل اسمه الجودى .

وقد اختلف الناس فى بيان موقعه ؛ فمنهم من قال : إنه بالموصل ، ومنهم من قال : بالشام ومنهم من قال بـآمل - بمدّ الهمز وضمّ الميم - ومنذ عدة سنين نشر بالصحف، أَنهم وجدوا أَلواحا طويلة على جبل أَرارت تشبه أَلواح سفينة كبرى ، وقيل : إنها بقايا سفينة نوح ، والله - تعالى - أَعلم بالحقيقة .

(وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

إذا قلت : بعدا لفلان ، فأَنت تدعو عليه ، فهو خاص بدعاءِ السوءِ ، وكثيرا ما يستعار للدعاءِ بالهلاك كما هنا .

والمعنى : وقيل من جهة الله تعالى : هلاكا لقوم نوح لكونهم ظالمين أَشد الظلم. ويقول العلامة البيضاوى ، فى وصف بلاغة الآية وفصاحتها ما يلى :

«والآية فى غاية الفصاحة لفخامة لفظها ، وحسن نظمها ، والدلالة على كنه الحال ، مع الإِيجاز الخالى عن الإِخلال ، وفى إِيراد الإِخبار على البناءِ للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل وأَنه متعين فى نفسه ، مستغنٍ عن ذكره ، إِذ لا يذهب الوهم إِلى غيره ، للعلم بأَن مثل هذه الأَفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار» . انتهى .

وقال الألوسى : هذه الآية بلغت من مراتب الإِعجاز أَقاصيها ، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان ، إِلى آخر ما قال .

هل شمل الطوفان جميع الأَرض

إِذا قرأْنا قصة الطوفان فى سور القرآن التى تحدثت عنه ، نجد فيها أَن الله تعالى جعله عقوبة لقوم نوح لغلوهم فى الكفر ، وإِصرارهم عليه أَحقابا ودهورا ، وقوم نوح كانوا فى إِقليم من أَقاليم الأَرض يعلمه الله ، ولم يكونوا منتشرين فى أَرجائها كلها ، فهل يبعثنا هذا على القول بأَن الطوفان لم يعم الأَرض جميعا ، بل كان قاصرًا على المنطقة التى كان يوجد فيها قوم نوح لعقابهم ، وهل يشهد لصحة هذا الاستنتاج أَن الله تعالى قال هنا فى آخر القصة : (وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) .كما يشهد له أَن نوحا كان قريبا

من جدّه آدم ـ عليهما السلام ـ فالبشرية فى عهده كانت محصورة فى حيِّز ضيق من الأرض أم أن الطوفان مع كونه عقوبة لقوم نوح ، فإنه كان عاما لجميع أنحاء الأرض لحِكَمٍ يختص بعلمها الحكيم الخبير ، ولم نجد لهذا السؤال جوابا حاسما يحمل على اعتقاد عمومه أو خصوصه يقينا ، والذى يجب اعتقاده هو عموم الطوفان للكافرين لقوله تعالى: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » .وقوله : «لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ».

أما عمومه لجميع بقاع الأرض ، فليس لدينا ما ينفيه على البت والقطع ، لا حتمال النصوص لهذا العموم ، ولأنه قد وجدت بعض الأصداف والأسماك المتحجرة فى أعالى الجبال ، لأن هذه الأشياء لا تتكون إلا فى البحر ، فلا بد أن تكون هذه مخلفات طوفان عمَّ الأرض ، وارتفع إلى أعالى الجبال . .

سؤال

قد يقول قائل :ما ذنب الصغار الذين لم يبلغوا حد التكليف حتى يهلكهم الله بالطوفان ؟ والجواب : أنه مجرد سبب لموتهم ، وليس موتهم به عقوبة لهم ، وأى محذور فى إماتة من لا ذنب له ؟ وفى كل وقت يميت الله من هؤلاء الصغار بأسباب وبغيرها عددا لا يحصى ، فالخلق عباده ، والملك له ـ وحده ـ يفعل فيه ما يشاء حسب حكمته العالية ، فهو الحكيم الخبير .

(وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) : أى بعض أهلى الذين وعدتنى بنجاتهم .

(لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) : أى لا يستحق الانتساب إليهم ،لانقطاع الولاية بين المؤمن والكافر . (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) : أى إنه صاحب عمل فاسد ، فلا ينسب إلى أهلك الذين سبق الوعد بإنجائهم . (إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ) : إنى أحذرك أن تكون من جملة الجاهلين بسؤالك نجاة ولدك الكافر .

التفسير

٤٥ـ (وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .....) الآية .

تقدم فى الآيات السابقة بيان أن نوحا دعا ولده هذا إلى أن يركب معه السفينة ، ولا يتخلف مع الكافرين حتى لا يهلك بهلاكهم ، وأنه أجابه بأنه سيأوى إلى جبل يعصمه من الماء ، وأن أباه أفهمه أنه لا عاصم من الغرق ، إلا الله الذى رحم المؤمنين ركّاب السفينة ، وأن الموج حال بينهما فانقطع الحديث ، وكان هذا الولد من المغرقين. وظاهر هذه الآية أن نوحا أراد بقوله : (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) الخ أن يطلب من الله تعالى نجاته من الغرق بالطوفان ، فكيف يطلب ذلك بعد غرق ولده ، لأنه من الكافرين المغرقين .

ويجاب عن ذلك ، بأن نوحا لم يكن رآه يغرق ، وأنه ربما ظنّ أنه نجا باللجوء إلى جبل ، أو أنّ كفره لم يكن مُؤكدًا لديه ، ولذا قال : (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مَنْ أَهْلِي) . ولم يكن يظن أنه ممن سبق عليه القول بالغرق فى قوله ـ سبحانه ـ : «إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ». وأجيب بغير ذلك وحسبنا ما ذكرناه .

والمعنى : ودعا نوح ربه قائلا : يارب إن ابنى من أهلى ، وقد وعدت أن تنجيهم فما حاله ؟ أو فما له لم ينج ؟ ويجوز أن يكون هذا النداء قبل غرقه ـ كما قال البيضاوى[1] .

(وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ) :

أى وإن كل وعد يصدر عنك يارب هو الحق فلا يتطرق إليه الخُلْف ، وقد وعدت أن تنجى أهلى ، وأنت أعدل الحاكمين ، فلعلك ياربى نجيته ، و قضيت بنجاته .

---

(١) وتفصيلا لما أجمله البيضاوى نقول : الواو فى قوله تعالى : (ونادى نوح ربه) الخ لمجرد العطف لا تفيد ترتيبا ولا تعقيبا ، وإنما أخر إلى تمام قصة السفينة ونجاتها بركابها المؤمنين ، تقديما للأهم على المهم كما قدم فى قصة البقرة أمر ذبحها واختلافهم فى صفاتها ، على ذكر السبب فيه وهو اختلافهم فيمن قتل القتيل ، فراجعها هناك لتعرف سر تقديم العجز على الصدر .

٤٦ - (قَالَ يَانُوحُ إِنَّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) :

قال الله لنوح فى إجابته على سؤاله : يانوح إن ابنك هذا ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم من الطوفان ، لأن عمله لاصلاح فيه ، فهو الفساد بعينه ، فخرج بذلك عن كونه من أهلك ، لانقطاع الولاية بين المؤمن والكافر ، ولأن أساس نجاة أهلك الإيمان دون النسب .

(فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) :

أى إذا كنت قد علمت شأن ولدك الذى ظننت أنه أهل للنجاة ، وتبيَّن لك أنه أهل للهلاك لكفره ، فلا تسألنى فيه ولا فى غيره بعد ذلك مطلبا لا تعلم يقينا أنه صواب وموافق للحكمة .

(إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) :

إنِّى أُحذرك وأنهاك عن أن تكون من جملة الجاهلين ، بسبب سؤالك إيانا ما لا تعلم يقينا أنه صواب وموافق للحكمة لدينا .

(قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾)

المفـردات :

(أَعُوذُ بِكَ) : ألتجىء إليك وأحتمى بك . (بِسَلَامٍ) : بسلامة وأمن .

(وبَرَكَاتٍ) : ونعم ثابتة .

التفسير

٤٧ - (قَالَ ربِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ) :

تحكى هذه الآية توبة نوح عمَّا سأله فى شأن ولده ، ولجوءه إلى الله أن يعصمه من أن يعود إلى مثل ما طلبه بشأنه .

والمعنى : قال نوح بعد ما وعظه الله وذكَّره : يارب إنى ألتجىءُ إليك، لتعصمنى من أن أطلب منك مستقبلا مطلبا لا أعلم يقينا أن حصوله مقتضى الحكمة أو أنه صواب. وهذه الاستعاذة التى صدرت من نوح عليه السلام ، هى توبته ممَّا حدث منه ، وهى أبلغ فى التوبة من أن يقول :أتوبُ إليك أن أسألك ،لما فيها من الدلالة على أن ذلك أمر لا قدرة للعبد عليه إلا بالاستعانة بالله واللجوء إلى حمايته وعصمته .

(وإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيَ أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ) :

وإن لم تغفر لى يارب ما طلبته فى شأن ولدى حين قلتُ :« رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ » فقد سألتُك بذلك نجاته ، وظننتُ أنه داخل فى وعدك الحق ولم أكن عالما بحقيقة أمره ، وأنسانى ذلك شكر إنعامك بالنجاة علينا ، وإهلاك أعدائنا إن لم تغفر لىّ ذلك ، وترحمنى بقبول توبتى ، أكن من الذين خسروا أعمالهم وأضاعوها لأننى غفلت عن أنَّ ترك ولدى لركوبه معنا فى السفينة التى أمرنى الله بإعدادها لنجاة المؤمنين شاهد على أنه لا يأتمر بأمر ربه ، وأنه ليس معه بقلبه ، وأنه لا يستحق أن يكون داخلا فى الوعد بنجاة أهلى ، حتى أستنجز ربى ما وعدنى.واعلم أن ما فعله نوح فى شأن ولده ناشىءٌ عن اجتهاد منه ، وبدافع الشفقة التى أودعها الله قلب كل والد ، وهذا لا يعتبر مثله موضع لوم وتحذير من الله ، ولا توبة من العبد ، لكنه بالنسبة للأنبياء ليس كذلك. فما يعتبر مخالفة يسيرة فى حقنا يعتبر ذنبا فى حقهم .

٤٨ - (قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ....) الآية .

أى قالت الملائكة بأمر الله ، أو قال الله تعالى : يانوح اهبط من السفينة بسلامة وأمن منَّا إلى الأرض التى ابتلعت ماءها وأصبحت صالحة للنزول بها ، وهذه السلامة مصحوبة ببركات وخيرات دنيوية وأخروية ، عائدة عليك فى نفسك ونسلك ، وعائدة

أيضا على أمم سوف تنشأ ممن معك ، وتتشعب منهم وعلى سنتهم من الإيمان إلى يوم القيامة ، وهذه البشارة إعلام بقبول توبة نوح ونجاته من الخسران بفيضان الخيرات عليه فى كل ما يأتى ويذر ، وعلى أمم مؤمنة تنشأ ممن ركبوا السفينة معه من المؤمنين .

(وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

وأمم من ذريتهم ليسوا على سنتهم من الإيمان والعمل الصالح ، سنمتعهم فى الدنيا فيستنفدون فيها طيباتهم ، ثم يصيبهم فى الآخرة أو فيهما معا عذاب شديد الإيلام فأنت ترى أن السلام الذى هبط به نوح ومن آمن معه ، دخل فيه كل مؤمن ومؤمنة من ذرياتهم إلى يوم القيامة ، وأن المتاع العاجل والعذاب الآجل دخل فيه كل كافر وكافرة من ذرياتهم إلى يوم القيامة . وعن ابن زيد : هبطوا والله عنهم راض ، ثم أخرج منهم نسلا ، منهم مَن رَّحم ومنهم من عذب .

(تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾)

التفسير

٤٩ - (تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ .....) الآية .

بعد أن بيَّن الله قصة نوح وقومه مفصَّلة بدقائقها ، جاءت هذه الآية تشير إلى أنَّ إخبار القرآن عن هذا الغيب البعيد يعتبر من آيات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : تلك القصة العجيبة التى فصل فيها ما حدث بين نوح وقومه ، وما انتهى إليه أمرهم من الهلاك بالطوفان ، هى من أنباء الغيب نوحيها إليك لتكون برهانا على نبوتك ، وذلك لأنك :

(مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا) :

فإذا كان قومُك يجهلونها وقد عشتَ بينهم ولم تخالط غيرهم ، فإن الذى أخبرك بها مطابقة لواقعها هو اللهُ الذى أرسلك ، وجعلها وأمثالها آياتٍ تشهد برسالتك ، وإن

أعرض قومك ولم يصدقوك .(فَاصْبِرْ) :كما صبر نوح على معارضة قومه وإيذائهم له ولمن آمن معه. (إِنَّ العَاقِبَةَ) : بالظفر فى الدنيا والفوز فى الآخرة .(لِلْمُتَّقِينَ) : الذين يصبرون ولا يجزعون ولا يفترون ، مهما عارضهم الكافرون ، فقلوبهم واثقة من نصر الله ، وجوارحهم مشغولة بطاعة الله .

(وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾)

المفـردات :

(مُفْتَرُونَ) :كاذبون .(فَطَرَنِى) :خلقنى ابتداءً من غير مثال سبق ، والفطرة : الخلقة ابتداءً ـ كما قاله القرطبى . (يُرْسِلِ السَّمَاءَ) : يرسل السحاب ، فكل ما علاك سماء .

(مِدْرَارًا) : كثيرة الدُّرُورِ والسيلان .

التفسـير

٥٠ ـ (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا) :

بعد أن ذَكَّرَ الله قريشا بما أصاب قوم نوح لمّا أصروا على كفرهم ، زادهم تذكيرا ببيان ما أصاب غيرهم من الأمم التى كفرت بالرسل ، وقدم قصة عاد على ما بعدها لأنها أقربها إلى قوم نوح ، وعاد هذه هى عاد الأولى ، سميت باسم جدها الأول وهم قوم يسكنون الأحقاف بين الشحر وعُمَان وحضرموت ، وكانوا قوما جبارين عظام

الأجسام ؛ قال تعالى فى شأنهم : « ... واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَصْطَةً ... »(١) :

وهم من ذرية سام بن نوح ، وكانوا أهل أوثان وطغيان ، فأرسل الله إليهم رسولا من بينهم فطره على التوحيد ، وأنشأه نشأة الرسل الأطهار وهو هود عليه السلام ، ليدعوهم إلى التوحيد ، وترك ما هم عليه من الشرك والجبروت .

وقد عبرت الآية عن هود عليه السلام بأنه أخو عاد ، للإيذان بأنه منهم نسبًا ، وأنه نشأ بينهم ، فهم يعرفونه من منشئه إلى أن دعاهم إلى الحق ، ويعرفون من حسن سلوكه أنه لا يخدعهم ولا يدعوهم إلا إلى ما تدعو إليه الأخوة من الخير والحق ، فإن الرائد لا يكذب أهله .

والمعنى : وأرسلنا إلى عاد رسولا من بينهم هو هود ، ليأمنوا جانبه ويطمئنوا إليه لأنه نشأ فيهم ، وعرفوا صدقه وطيب نشأته .

(قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ) :

تحكى هذه الآية ما جرى بين هود وقومه على وجه الإجمال ، فالمعقول والمنقول فى سياسة الرسل لأممهم أنهم لا يجابهونهم فى أول لقائهم معهم بوصفهم بالافتراء ، ففى سورة الأعراف يقول الله تعالى : « وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ »(٢) فقد نصحهم بوقاية أنفسهم من عقاب الله ؛ بعبادته وحده ، ولم يصفهم بالافتراء ، فلذا يحمل وصفهم به هنا على أنه حدث بعد أن طال جدالهم ومعارضتهم له .

والمعنى : قال هود لقومه بعد ما نصحهم وذكرهم مدة طويلة ، وأصروا على شركهم قال لهم : اعبدوا الله ، ودَعوا ما أنتم عليه من الإشراك به ، فليس لكم من إله سواه ، ما أنتم إلا كاذبون عليه فى اتخاذ الأوثان شركاء وجعلها مستحِقة للعبادة معه ، وزعمكم أنها لكم شفعاء .

(١) الأعراف ، من الآية : ٦٩
(٢) الأعراف ، من الآية : ٦٥

٥١ - (يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي) :

خاطب هود قومه بأن دعوته خالية عن المطامع الدنيوية ، لبيان إخلاصه فى النصيحة ودفع الريبة عن دعوته ، وكذلك فعل كل رسول مع قومه إبعادا للتهمة عنه ، وطلبا لنجاح دعوته ، فإن الدعوات المشوبة بالمطامع لا نجاح لها .

والمعنى : ياقومى وأهلى ؛ أنا لا أطلب منكم أجرًا ، ولا أبتغى بدعوتى جزاءً دنيويا من مال أو جاه ، فما أجرى فى إرشادكم وهدايتكم على أحد إلا على الله تعالى ، فلا وجه لمخالفتكم وإمعانكم فى الإعراض عما جئتكم به من الله ، مع وضوح الآيات والتجرد عن المطامع الدنيوية ، ثم دعاهم إلى استعمال عقولهم ، وعاب عليهم إغفالها فقال :

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) : أى أتغفلون فلا تستعملون عقولكم ، لتعرفوا الحق من الباطل والصواب من الخطأ .

٥٢ - (وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) :

وياقوم اطلبوا المغفرة من ربكم لما قدمتموه من الشرك والمعاصى بالإيمان والطاعة ، ثم توسلوا إليه بعد الإيمان بالتوبة والندم على ما فاتكم من طاعة الله ، وبالعزم على عدم العودة إلى طريق الشيطان الرجيم .

(يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) :

أى إن تستغفروا الله وتتوبوا إليه من شرككم وجبروتكم ، يرسل السحاب عليكم كثير الدَّر غزير المطر ، ويعطكم قوة مضافة إلى قوتكم ، بتوفير الأسباب المؤدية إلى ذلك من الزرع والضرع والصناعة ، والحصون والبروج وغير ذلك ، وإنما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوَّة لأنهم كانوا أصحاب زرع وضرع ومصانع وحصون وقصور ، وكانوا ذوى جبروت وقوة ، كما قال تعالى : « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ »[1] .

فرُغِّبوا فى الإيمان بتوفير ما يحبون لهم ، وسوف يعلمهم الإيمان وشريعة الرحمن كيف ينتفعون وينفعون بتلك النعم ، وكيف يوجهون قوتهم وجبروتهم فلا تكون إلا

(١) الشعراء ، الآيات : ١٢٨ - ١٣٠

فى الخير وإرهاب أهل الشر ، ثم نصحهم بعدم الإعراض عما دعاهم إليه فقال :

(وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) : أى ولا تنصرفوا معرضين عن دعوة الحق ، مصرين على إجرامكم وعصيانكم .

(قَالُوا يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(بِبَيِّنَةٍ) : بحجة . (عَن قَوْلِكَ) : أى من أجل قولك ، (بِمُؤْمِنِينَ) : بمصدقين . (لَا تُنظِرُونِ) : لا تمهلون .

التفسير

٥٣ - (قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ) :

قال شعب عاد لنبيهم هود ، وهم مصرون على رفض دعوته : ياهود أنت ماجئتنا بحجة تدل على صدق نبوتك ، يقولون ذلك ليجعلوا منه سبيلا إلى عدم الاستجابة إلى ما دعاهم إليه ، والحق أنهم كاذبون ، فقد جاءهم من المعجزات فوق ما يكفى لطمأنينة من ألقى السمع ، وأجال البصر ، وفكر بعقل حر ، فما من نبى إلا أيده الله من الآيات بما يكفى لإيمان أهل الحق . قال - صلى الله عليه وسلم - : « مَا مِنْ نَبِىٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلاَّ أُعْطِىَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَر ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَىَّ ، فَأَرْجُوْ أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

والمقصود من كون الذى أوتيه الرسول وحيا ، أنه اختص بالقرآن إلى جانب معجزاته الأخرى التى يشاركه فى مثلها الأنبياء ، فالقرآن هو أعظم معجزاته التى تحدى

بها البشر ، واعلم أن كل نبي أوتى معجزة لم يؤتها غيره ، وهى التى تحدى بها قومه وهذا لا ينافى حصول خوارق أخرى على يديه . وبعد أن نفوا مجيء هود عليه السلام ببينة قالوا :

(وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) :

أى وما نحن بتاركى عبادة آلهتنا صادرين فى تركها عن قولك وما نحن لك بمصدقين نبوتك حتى نرفض آلهتنا بسبب قولك لنا : دعوها واتركوها .

٥٤، ٥٥ - (إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ...) الآية .

أى ما نقول فى شأن ما أنت عليه وجئتنا به إلا أنك أصابك بعض آلهتنا بشر ساءك فأفقدك عقلك ، وجعلك تهذى وتتكلم بالخرافات عن آلهتنا ، وتدعو إلى إلٓه واحد وتخوفنا بعقابه فى الآخرة ، إلى غير ذلك مما تقول ، ولقد سلك هؤلاء فى عنادهم سبيل التدرج والتسلسل ، فنفوا مجيئه ببينة ثم نفوا تركهم لآلهتهم لمجرد قوله لهم (اتركوها) دون أن يقنعهم بحجه تقتضى تركهم لها ، ثم نفوا تصديقهم له ، لأنه لا حجة لديه تثبت نبوته ، ثم بعد هذا الهذيان كله قالوا فيه ما قالوه من السباب « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » .

ولقد حكى الله تعالى رده عليهم بعد هذا كله بقوله :

(قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ) :

أى أشهد الله على براءتى مما تجعلونه من غير الله شريكا له سبحانه ، واشهدوا أنتم على براءتى من ذلك ، فليس لكم على ما تزعمون برهان ، وما أنزل به سلطان .
(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ) :

أى فدبروا لى المكايد والمحن أنتم وشركاؤكم جميعاً ، بعد ما نلتُ منها وَجَرَّدْتُها من وصف الألوهية ومقتضياتها ، وعاقبونى على امتهانى لها ، ولا تمهلونى ولا تتراخوا فى عقوبتى إن صح ما زعمتوه من ألوهيتها .

وخطاب النبي هود عليه السلام لقومه بهذا الأُسلوب الذى بلغ الغاية فى التحدى والتحقير لهم ولآلهتهم ، والإساءة لكبريائهم وجبروتهم وحميتهم وعصبيتهم ، مع ما عرف عنهم من سفك الدماء ، والعُنجهية والكبرياء ، وعجزهم عن تحقيق شىء مما تحداهم به مع كونه وحيدًا لا يؤيده سوى قليل من المؤمنين لاحول لهم ولا قوة ،هذا كله فيه برهان واضح على ثقته صلى الله عليه وسلم بتأْييد ربه وعنايته به ونصره له ، وعصمته من المكاره ، كما أنه برهان على أنه مرسل من الله ، حيث أَعجزهم عن الإضرار به والقضاء على دينه ، فكأَن المولى يقول لعاد صدق هود فيما يبلغه عنى ، وقد عقَّب هذا التحدى الدال على ثقته بربه ، ببيان مصدر ثقته فقال :

(إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾)

التفسير

٥٦ - (إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ) :

أَى إنكم لن تضرونى بكيدكم لى مهما اجتمعتم عليه ، فإنى توكلت على الله ما لكى ومالككم وخالقى وخالقكم، واعتمدت عليه فى دفع ضركم عنى ، وتآمركم على .

«فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» .[1] ثم أَكد ثقته بربه وعدم قدرتهم عليه بقوله:

(مَامِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

أَى ما من دابة من حيوانات الأَرض وأَناسيِّها إلا الله مالك لها قادر عليها ، يصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه ، إن ربى على سبيل من الحق والعدل مستقيم ، فلا يضيع من اعتصم به ولا يفوته ظالم لنفسه أَو لعباده .

(١) يوسف ، من الآية : ٦٤

والدابة كل ما يدب على وجه الأرض ، أى يتحرك عليها فيدخل فيها الإنسان والحيوان والناصية مقدم الرأس وتطلق على الشعر النابت عليها ، والأخذ بالناصية كناية عن القدرة والتسلط ، وفى البحر لأبى حيان أن هذا التعبير صار عرفا فى القدرة على الحيوان ، والتعبير بقوله : (إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) تمثيل لعدله واستقامة تدبيره لخلقه ، وجزائه لهم بالثواب والعقاب ، وأنه كاف لمن اعتصم به ، وفى الْكَشْف أن فى قوله تعالى: (إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ) إلى آخر الآية ، ما يبهرك تأمله من حسن التعليل ، وأن من توكل على الله لا يبالى بهول ما ناله ، ثم التدرج إلى تعكيس التخويف بقوله : (رَبِّى وَرَبِّكُم) . فكيف يصاب من لزم سُدَّةَ العبودية وينجو من تولى عن ربه – إلى آخر ما نقله الآلوسى عنه ، فارجع إليه إن شئت .

(فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾)

المفـردات :

(وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ) : يجعلهم خلفاء لكم فى دياركم . (حَفِيظٌ) : عليم .

التفسـير

٥٧ – (فَإِنْ تَوَلَّوا[١] فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ) :

أى فإن تتولوا وتعرضوا عما دعوتكم إليه ، فلا عذر لكم ، فقد أبلغتكم رسالة ربى إليكم ، وبذلت لكم النصح ، وقدمت الحجج والبراهين ، وأديت حق ربى ، فلا تفريط منّى ، ولا حجة لكم .

(١) أصله فإن تتولوا ، فحذف حرف المضارعة وهو التاء الأولى تخفيفا لثقل تكرار التاء .

(وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ) :

كلام مستأنف مراد به وعيدهم وإنذارهم ، بأنه تعالى سوف يهلكهم إن استمروا على كفرهم ، ويستخلف مكانهم قوما آخرين فى ديارهم وأموالهم .

(وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا) :

ولا تضرون ربى شيئا من الضرر ، لا بإعراضكم وتوليكم عن دينه ، ولا بإهلاككم بذنوبكم ، فإن هلاككم لا ينقص ملكه ، ولا يخل بأمره .

(إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ) :

إن إلهى وخالقى على كل شىء رقيب ، وبكل شىء عليم ، فلا يغيب عنه شىء من أعمالكم ولا ما انطوت عليه صدوركم ، وسوف يجازيكم على خطاياكم فى دنياكم وأخراكم .

(وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(أَمْرُنَا) : عذابنا الذى أمرنا به ، أو المراد به الإذن بالعذاب والأمر به .

(مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) : من عذاب شديد لا يحتمل . (جَبَّارٍ عَنِيدٍ) : الجبار ؛ العاتى المتسلط ، والعنيد هو الذى يرد الحق ويرفضهُ وهو عارف به .

(وَأُتْبِعُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ) :

جعلت اللعنة تابعة لهم فى الدارين ، واللعنة ؛ الطرد من الرحمة . (كَفَرُوا رَبَّهُمْ) : جحدوه وأنكروا وحدانيته . (بُعْدًا) : هلاكا .

التفسير

٥٨ - (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا) :

أى : ولما نزل عذابنا بقوم هود الكافرين ، وكان بحيث يمكن أن يصيب المؤمنين نجينا هوداً ومن آمن معه برحمة منا ، حيث حفظناهم من العذاب الذى يمر بهم ولا يؤذيهم ، ويفتك بغيرهم ويكون رحمة لهم .

(وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) : هذه الجملة معطوفة على مثيلتها السابقة لبيان ما نجاهم الله منه .

أى وكانت تنجيتنا لهود والمؤمنين من عذاب شديد الغلظة عظيم الفتك بالكافرين ، حيث «.. أُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ »[1] . وكان مع هذا رحمة بالمؤمنين ، لا يضرهم ولا يصيبهم بمكروه .

٥٩ - (وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) : المعروف من ظواهر النصوص أن عاداً الأولى لم يرسل إليها سوى هود ، لكن هذه الآية تقول إنهم عصوا رسله ، ويؤول ذلك بجعل عصيانهم لهود عصيانا لجميع رسل الله السابقين واللاحقين ، لأن ما جاء به من التوحيد وأصول الشريعة لديه ، جاء به جميع المرسلين فعصيان أحدهم يعتبر عصيانا لجميع الرسل .

والمعنى : وتلك الأمة (عادٌ) - التى مضى الحديث عنها - جحدوا بآيات ربهم الكونية الشاهدة بنبوة هود ، وبالشريعة التى تعبدهم الله بها ، وعصوا جميع رسل الله الذين أرسلهم لهداية البشر ، فقد كذبوا رسولهم مباشرة ، وكذبوا جميع الرسل ضمنا بتكذيبهم له ، واتبعوا أمر كل متمرد طاغ معاند للحق من رؤسائهم وكبرائهم ، فقلبوا بذلك موازين الأمور ، حيث عصوا من دعاهم إلى ما ينجيهم ، وأطاعوا من دعاهم إلى ما يُرْدِيهِمْ .

(١) سورة الحاقة ، الآيات ٦ - ٨

٦٠ ـ (وَأُتبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ) :

أى : وأُلزموا فى هذه الدنيا لعنة ، فلازمتهم ملازمة التابع للمتبوع ، حتى أوردتهم موارد الهلاك الغليظ ، وأُلزموها يوم القيامة ، حتى خلدتهم فى النار .

(أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعداً لِّعَادٍ قَومِ هُودٍ) :

كُفْرُ عَادٍ بربهم أمر مفهوم من قصتهم التى مر بيانها ، وإنما أُعيد ذكره هنا بهذا الأسلوب المنبه للسامع ، للإيذان بأَن كفرهم هو سبب هلاكهم ولعنتهم حتى يخشى مصيرهم من كان على شاكلتهم .

والمعنى : ألا إن عادا كذبوا بوحدانية ربهم وجحدوا أنعمه ، ألا هلاكا لعاد قوم هود هؤلاء ، بسبب إصرارهم على كفرهم وعتوهم وعنادهم ، ويلاحظ فى الآية الكريمة تكرار حرف التنبيه (ألا) وإعادة لفظ (عَادٍ) للمبالغة فى تفظيع حالتهم ، والحث على الاعتبار بقصتهم .

والتعبير بقوله :(عَادٍ قَوم هُودٍ) للإيذان بأَنهم عاد الأُولى تمييزاً لهم عن عاد إرم ـ وتسمى عاداً الثانية وهم بقية من عاد الأُولى ، وإرم مدينتهم وقصبتهم ، وكانوا أهل ترف ومال ولكنهم لما كفروا وبغوا فى الأَرض صب عليهم الله العذاب ، قال تعالى فى شأْنهم فى سورة الفجر : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فى الْبِلاَدِ » . إلىقوله : « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » .

(* وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ) :ابتدأ خلقكم من الأرض وأوجدكم منها بخلق أبيكم آدم من ترابها .(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) : جعلكم تعمرونها ، إذ مكنكم من العمل فيها واستثمارها والبناء عليها (مَرْجُوًّا) : موضع رجائنا وأملنا إذ كان فاضلا خيِّراً .(مُرِيبٍ) : مُوقِع فى الريبة وقلق النفس وعدم الاطمئنان .

التفسير

٦١ - (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا)... الآية .

وأرسلنا إلى قبيلة ثمود واحداً منهم وأخا لهم فى النسب يُسمَّى صَالِحًا - أرسلناه مُبلِّغاً رسالة ربه فناداهم فى رفق ولين - (قال ياقوم) : يا أهلى ويا عشيرتى ؛تليينا لقلوبهم وجذبا لنفوسهم ، كى يقبلوا فى يسر وسهولة على امتثال ما أمرهم به فى قوله :

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ) . أى آمنوا بالله وحده ، وأفردوه بالعبادة ، ليس لكم أى إلٰه يستحق أن يعبد سواه .

ثم علَّل صالح دعوته إلى توحيد الله بإنعامه - تعالى - عليهم بأعظم النعم فيما حكاه القرآن بقوله : (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) : أى هو الله -سبحانه-لا غيره أوجدكم من الأرض ابتداءً باعتبار خلقه آدم أبا البشر منها ،ويجوز أن

يكون المراد ـ أنشأكم من الأرض ـ باعتبار أن النطف التى خلقت منها ذرية آدم تتكون من الأغذية التى نحصل عليها من زروع الأرض وثمارها ـ أوجدكم من الأرض ـ فأنتم مدينون له بحياتكم ووجودكم .

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) : أى وأقدركم على عمارتها، ومكنكم من العمل فيها ومن استثمارها وبناء ما تسكنون فيه على ظهرها، بما وهبكم من عقل وقوة، وبما سخر لكم فيها من وسائل تنفذون بها ما ألهمكم معرفة كيفيته .

ولمَّا كان إحسانه ـ تعالى ـ عليهم بتلك النعم يستدعى الاستغفار والتوبة ، رتب عليه الأمر بهما إذ قال : (فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) : أى فاطلبوا ممن غمركم بإحسانه العميم أن يستر بإيمانكم وأعمالكم الصالحة ما اقترفتموه من الشرك والخطايا، ثم ارجعوا إليه بتخليص أنفسكم من الذنوب نادمين على ما فرط منها، عازمين على عدم العودة إلى معصيته، مقبلين على طاعته راجين رحمته .

ثم رغَّبهم فى الاستغفار والتوبة بقوله : (إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) : أى إن ربى الذى أدعوكم إلى عبادته قريب بعفوه ممن يحسنون إلى أنفسهم بالاستغفار والتوبة من الشرك والخطايا، مجيب دعاء من رجع إليه وأناب . قال تعالى : « إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ » . وكانت ثمود تقيم بالحجر بين الحجاز والشام .

٦٢ ـ (قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيهِ مُرِيبٍ) :

قال قوم صالح يردُّون على دعوته إيَّاهم إلى التوحيد : ياصالح قد كنت بيننا رجلا فاضلا خيرًا نؤملك لمهمات أمورنا، كنت كذلك بيننا قبل هذا الذى أمرتنا به ودعوتنا إليه من التوحيد وترك عبادة الأوثان ، ثم خاب رجاؤنا فيك وانقطع أملنا وساء ظننا بعد أن سمعنا منك ما قلته لنا ، ثم خاطبوه باستفهام ينكرون به عليه مادعاهم إليه إذ قالوا : (أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَايَعْبُدُ آبَاؤُنَا) : أى أتطلب منا أن نترك عبادة الأوثان التى أقام على عبادتها آباؤنا طول حياتهم ، إن هذا لشئ نرفضه ولا نقبله ،

(وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) : أى أتنهانا عن فعل ماورثناه عن آبائنا وإننا لفى شك بالغ من صحة كل ما جئتنا به ، مريب موقع فى قلق شديد دائم لنفوسنا ، ومثير لا ضطراب مستمر فى قلوبنا .

(قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾)

المفـردات :

(أَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى عما سأسألكم عنه . (بَيِّنَةٍ) : حجة واضحة وبرهان ظاهر . (وَآتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً) : نبوة ورسالة فهى من رحمة الله . (فَمَن يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ) : فمن ينجينى ويمنعنى من عذابه . (تَخْسِيرٍ) : تضييع وإنقاص بإبطال عملى وتعريضى لغضب الله . (آيَةً) : معجزة . (فَذَرُوهَا) : فدعوها واتركوها . (فَعَقَرُوهَا) : فنحروها . يقال : عقرت البعير إذا نَحَرْتَهُ . (تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ) : أقيموا فى بلدكم وانتفعوا بأرزاقكم وبكل ما يسركم . (وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) : وعيد صادق .

التفسـير

٦٣ - (قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَآتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً) ... الآية .

بعد أن بينت الآية السابقة أن قوم صالح أنكروا دعوته وارتابوا فى صدقها ، ورغبوا فى استدراجه

إلى موافقتهم ، جاءت هذه الآية تحكى ردَّه عليهم وتبيِّن أنهم لا يستطيعون ولا يستطيع أحد سواهم إنقاذه من عذاب الله إن أطاعهم فيما يرون .

والمعنى : قال صالح — عليه السلام — فى ردِّه عليهم — ياقوم — أخبرونى إن كنت على طريقة واضحة وبصيرة نافذة من لدن ربى ، وأعطانى من عنده نبوة ورسالة — رحمة لى ولكم — أجيبونى عمَّا أسألكم عنه بقولى :

(فَمَن يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إن عَصَيْتُهُ) :

أى فمن يمنعنى من عذاب الله وينجينى من عقابه إن أطعتكم وعصيته —سبحانه— فلم أبلغكم رسالته ، ولم أحذركم من الشرك وعبادة الأصنام؟ لا أحد مطلقا يستطيع منعى من عقابه —تعالى— إن فعلت ذلك .

ثم رتب على عصيانه إن وقع ، بعد إنعام الله عليه بالنبوة ، إحباط عمله ، كما حكاه الله بقوله : (فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ) : أى فما أستفيد منكم إن جاريتكم فيما تشتهون سوى أن تجعلونى بهذا الاتباع خاسرا ، بإبطال عملى وتعريضى لغضب الله وعقابه ، ولا شك أن صالحا — عليه السلام — كان جازما بأنه على بيِّنة من ربه ، ولكنه عبر بإن التى للشك فى قوله : (إنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَة) : مجاراة لقومه فيما يزعمون ، ورعاية لحسن المحاورة لا ستنزالهم عن المكابرة .

هذا ويمكن أن يقال إن استعمال (إن) فى الشك غالب ، ولكنها قد تستعمل عند اليقين كما هنا ، انظر إلى لفظ (ما) فإنه يستعمل فى غير العاقل غالبا . ولكنه قد يستعمل فى العليم الخبير كما فى قوله تعالى : « وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا » .

٦٤ — (وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً) :

أى وقال صالح يخبر قومه بمجىء معجزة عظيمة : ياقوم هذه ناقة عظيمة الشأن ، شرفها الله بنسبتها إليه ، وأوجدها على خلاف ما عرفتم وألفتم فى خلق جنسها ، ومن خصائصها المميزة أنها تشرب الماء وحدها فى يوم ، والقوم جميعا وما معهم من حيوانات يشربونه فى آخر . قال تعالى : «هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ».[1] أوجدها كذلك لكم خاصَّة لتكون معجزة عظيمة تستدلون بها على قدرته —تعالى— وعلى صدقى فيما أبلغكم به عن ربى

(١) سورة الشعراء ، الآية : ١٥٥

(فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ) : أى فاتركوها تأكل وترعى وتشرب فى أرض الله دون أن تكلفوا بتحصيل شى من مؤونتها .

(وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) : أى ولا تصيبوها بأدنى سوء ولا بأقل أذى ، فيأخذكم ويستأصلكم لأجل ذلك عذاب عاجل .

٦٥ - (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) : أى فنحروها مخالفين ما أمروا به ، فقال لهم بوحى من الله : استمتعوا فى بلدكم بكل مايسركم فى اطمئنان وَدَعة مدّة ثلاثة أيام ، والمراد أنهم بعد هذه الأيام الثلاثة يهلكون ، ولذلك قال عقبها : (ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) : أى ذلك العقاب الهائل الذى أنذرتكم وقوعه بعد عقر الناقة بثلاثة أيام وعيد صادق يقع حتما ولا يتخلف لأنه من عند الله .

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) : فلما نزل عذابنا .(وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ) : ومن ذل وفضيحة هذا اليوم . (الصَّيْحَةُ) : صوت قوى مفزع زلزل الأرض بهم .

(جَاثِمِينَ) : باركين على الركب هامدين موتى لا يتحركون .

(كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا) : كأنهم لم يقيموا فى ديارهم ولم يحيوا فيها .

التفسير

٦٦ - (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) :

أى فلمّا نزل عذابنا بثمود، بعد مضى المدّة التى أُنذروا بنزول العذاب بعدها، نجّينا صالحا والذين آمنوا معه من الهلاك معهم، بسبب رحمة عظيمة من لدنا وسعتهم وحفظتهم، لإيمان صالح ونبوته وإيمان المصدقين برسالته العاملين بشريعته.

(وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ) :

أى ونجيناهم من ذل وفضيحة يوم العذاب المهين الذى نزل بكفار ثمود.

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) :

خطاب لمحمد - صلى الله عليه وسلم - تخلل الحديث عن قصة صالح تقوية لعزمه، أى إن ربك الذى يرعاك يامحمد، هو وحده القادر على كل شئ الغالب فى كل وقت فلا يعجزه شئ أراده، فلذا أخذ قوم صالح أخذ عزيز مقتدر، وفيه إنذار شديد للمشركين إن أصرّوا على الكفر والجحود «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» [1].

٦٧ - (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) : أى وأخذ الذين ظلموا بتكذيب رسالة صالح - أخذهم - العذاب بصيحة قوية مفزعة زلزلت بهم الأرض فصعقوا وانتهت حياتهم فى مساكنهم باركين على ركبهم خامدين لا يتحركون.

٦٨ - (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ) :

أى فأصبحوا وقد انتهى أمرهم من ديارهم فلم يبق لهم فيها من أثر يذكرون به - إلا الصورة المفزعة لهلاكهم - كأنهم لم يقيموا أصلا فى تلك الديار - فليعتبر بحال هؤلاء كل من يجترىء على تكذيب رسل الله والكفر بهم، فما وقع لثمود كان بسبب كفرهم كما قال تعالى: (أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ) : ألا إنّ ثمود قوم صالح - عليه السلام - قد أنكروا ربهم فاستحقّوا ماوقع عليهم وأن يقال فيهم هلاكا وطردا من رحمة الله وإحسانه لثمود.

---

(١) سورة هود، الآية: ١٠٢

(وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾)

المفـردات :

(بِالْبُشْرَى) : بالخبر السار . (حَنِيذٍ) : سمين أو مشوى بالدس فى النار كما قال ابن عباس ، وفسَّره مجاهد بالمطبوخ ، وهو أعم . والعجل ولد البقر . (نَكِرَهُمْ) : جَهِلَهُمْ ووجدهم على غير ما يعْهد . (أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) : استشعر من جهتهم شيئا يخافه ، أو أخفى وأضمر خوفا منهم .

التفسـير

٦٩ ـ (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ) الآية .

فى هذه الآية وما بعدها ذكر طرف من قصة إبراهيم ، كالتمهيد للحديث عن قصة لوط ـ عليهما السلام ـ .

والمعنى : ولقد جاءت رسلنا من الملائكة إلى إبراهيم يبشِّرونه بما يسرُّه ، قائلين له فى أول لقائهم له : « سَلَامًا » أى نسلم عليك سلاما .

وهزَّت إبراهيم سجية الجود والكرم فأسرع بتقديم الطعام ، وذلك قوله تعالى : (فَمَا لَبِثَ أَنجَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) : أى فلم يتأخر إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى مجيئه بعجل سمين مشوى إلى أضيافه ليأكلوا منه ، بل جاء به على عجل كاملا ـ وإن كان يكفيهم بعضه ـ مبالغة فى إكرامهم .

واختلف فى هذا العجل : هل كان مهيئا قبل مجيئهم ، أو أنه هُيِّئَ على عَجَلٍ بعد مجيئهم ، واختار الأول أبو حيان ، واختار الآلوسى الثانى لأنه أبلغ فى الإكرام .

٧٠- (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ) :

أى فلما رأى إبراهيم - عليه السلام - أيدى الملائكة لا تمتد إلى لحم العجل الذى قدمه لقراهم ولا تتناول منه شيئا ليأكلوه ، استنكر ذلك منهم وشعر بالخوف من جهتهم فإنَّ الغريب إذا قدم له الطعام لإكرامه ، يبادر إليه ولا يمتنع عنه إلا إذا كان يريد برب البيت سوءًا .

قالوا حين رأوا أمارات الخوف منهم بادية عليه : لا تخف ضررًا من جهتنا ، إننا أرسلنا من الله إلى قوم لوط لإهلاكهم جزاء إتيانهم فاحشةً ما سبقهم إلى فعلها أحد من العالمين .

(وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾) .

المفردات :

(فَضَحِكَتْ) : سرورا بما رأت وسمعت من زوال الخوف عن زوجها وكلام الملائكة له ومجيئهم لإهلاك المجرمين. (فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ) : أى فأتبعنا سرورها سرورا أتم

وأعظم على ألسنة ملائكتنا. (يَاوَيْلَتَا) : ياعجبًا. وأصل الويل الهلاك وهو غير مراد هنا. والنساء يستعملنها كثيرا إذا حدث ما يتعجبن منه. (بَعْلِي) : زوجى، والبعل فى الأصل الذى يقوم على تدبير الأمور، فأُطلق على الزوج لأنه يقوم على شئون المرأة.

(أتعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ): أتعجبين من قدرة الله وحكمته . (وَبَرَكَاتُهُ) : وخيراته التامَّة المتكاثرة. (حَمِيدٌ) : محمود لذاته وأفعاله . (مَجِيدٌ) : واسع الإحسان كثير الإنعام.

التفسير

٧١ـ (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) :

أى حدث ما حدث من المحاورة بين الملائكة وإبراهيم، وزوجته قائمة وحاضرة ترى وتسمع ماجرى بينهم، فضحكت فرحا وسرورا بزوال الخوف عن زوجها، واستبشاراً بقرب هلاك القوم المفسدين، وقد فهمت ذلك من قولهم لإبراهيم : (إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ)،

(فبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) : أى فأتبعنا سرورها بما سبق سرورا عظيما وذلك بإلقاء البشرى إليها على ألسنة الملائكة بأنها ستلد «إسحق» وترى من بعد إسحق «يعقوب» ولدا له وحفيدا لها.

وقد وجهت البشارة إليها؛ لبيان أن الولد المبشر به يكون منها ومن إبراهيم، فإن البشارة لو وجهت لإبراهيم، لأدركها الشك بأنه يأتى بإسحق من غيرها لعقمها. وكانت حريصةً على أن يكون لها ولد، وقد تمنته بعد أن ولد إسماعيل لهاجر.

٧٢ـ (قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً) الآية.

أى قالت سارة امرأة إبراهيم حين بشرت بالولد ياعجبا، أيولد لى وأنا عجوز عقيم قد تقدمت بى السنُّ وذهبت قوتى وضعف بدنى وغاب الطمث عنى، وهذا الذى تشاهدونه زوجى القائم على رعايتى قد صار شيخا كبير السن لم تجرِ العادةُ أنَّ مثلنا ينجب الأولاد.

(إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) : أى إن هذا الذى بشرتم به من حصول الولد من شيخين مثلنا يثير فى النفس التعجب ، فقد جرت سنة الله فى عباده أن يكون إنجاب الأولاد فى زمن الصحة والقوة ووجود الطمث غالبا - والطمث الحيض - ولم يكن تعجب زوجة إبراهيم استبعادًا لحدوث ذلك بالنسبة لقدرة الله - تعالى - وإنما كان استعظامًا لحصول تلك النعمة فى غير أوانها المألوف .

٧٣ - (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ) :

أى قالت الملائكة منكرين عليها تعجبها ودهشتها من حصول ذلك ، وكان عليها أن تتريث حتى تتحقق البشارة ، فإنه لا عجيب على قدرة الله سبحانه وتعالى ، وكأنهم قالوا لها : لا تعجبى مما قدره الله وأراده على خلاف ما جرت به سنته الغالبة فى خلقه ، فإن خوارق العادات بالنسبة لآل بيت النبوة ومهبط المعجزات وتخصيصهم بمزيد من النعم والكرامات ليس ببدع ولا غريب كما يؤذن به قوله تعالى :

(رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ) :

أى رحمة الله التى وسعتكم بكل خيراتها ، وبركاته التامة المتكاثرة تفيض عليكم ياأهل بيت النبوة ، ومن تلك الرحمات وهذه البركات هبة الأولاد فى غير أوانهم المعتاد .

(إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ) :

أى إنه سبحانه يستحق الحمد لذاته ، يصدر عنه ما يستوجب حمده من عباده ، كثير الخير والإحسان ، رفيع الشأن ، متصف بأعظم صفات المجد .

(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾).

المفـردات :

(الرَّوْعُ) : الخوف والفزع ، (لَحَلِيمٌ) :لمتصف بكثرة الحلم لا يعجل بالانتقام من المسيء . (أَوَّاهٌ) :كثير التأوه والتوجع رحمة بالناس . (مُّنِيبٌ) : كثير الرجوع إلى الله بالدعاء والاستغفار والعبادة . (غَيْرُ مَرْدُودٍ) : غير مدفوع .

التفسير

٧٤ـ (فَلَمَّا ذَهَبَ عن إبْرَاهِيمَ الرَّوعُ ....) الآية .

بعد أن حكى القرآن الكريم بعضا من أحوال إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ وزوجته جاءت هذه الآية والآيتان بعدها تذكر بعضا آخر من أحواله وشئونه ومجادلته عن قوم لوط .

والمعنى : فلما زال عن إبراهيم مالحقه من الخوف والفزع حينما امتنع ضيوفه من تناول طعامه ، واطمأنت نفسه بعد أن عرف أنهم ملائكة الله (وَجَآءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ) : أى وحل محل الخوف شعور بالسرور حينما بشَّروه بعد سن اليأس بغلام عليم ، فلمَّا حدث ذلك أخذ إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ يجادل رسل الله فى شأن قوم لوط وإهلاكهم وقد حكى القرآن الكريم قصة مجادلة إبراهيم للملائكة بشأنهم فى قوله ـ تعالى ـ :

« وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوٓ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ . قال إِنَّ فِيهَا لوطًا .... » [1] الآية ، وقد اعتبر قول إبراهيم « إِنَّ فِيهَا لُوطًا » جدالا عنهم

(١) سورة العنكبوت الآيتين ، ٣١ ، ٣٢

لأن المراد منه : كيف تهلكون أهل هذه القرية وفيهم من هو مؤمن بالله لا يستحق العذاب ، وعلى رأسهم نبي الله لوط - عليه السلام - ولذا أجابته الملائكة بقولهم : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ » . وكأن إبراهيم - عليه السلام - فهم أن وجود المؤمنين مع الظالمين فى قرية واحدة يُبيح له الجدال عن أهل القرية جميعا ؛ حرصا على سلامة المؤمنين .

يضاف إلى ذلك ما فطر عليه من الحلم والرحمة كما بينه القرآن فى قوله - تعالى - : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) : أى كان جدال إبراهيم لما تقدم . ولأنه عظيم الحلم يملك نفسه فلا يعاجل بالانتقام من المسىء ، كثير التأوه رقيق القلب عظيم الإشفاق يتأثر كثيرا ويتوجّع لما يصيب غيره من مكاره وخطوب ، متصف بالإنابة إلى الله والرجوع إليه يعمل ما يحبه ويرضاه ،

ولعل جداله عن قوم لوط مع علمه بكفرهم رجاء أن يؤمنوا بالله - تعالى - بالإضافة إلى ما سبق بيانه من خوفه على لوط ومن آمن معه .

٧٦ - (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ) :

أى قالت الملائكة - بأمر من الله - يا إبراهيم ابتعد عن هذا الذى ترجوه لهؤلاء وتجادل فيه ، ولا تلتمس بجدالك رحمة لهؤلاء القوم ، ولا تخفيفا عنهم ، إنه قد قرب وقت هلاكهم الذى قضاه - سبحانه - وقدره فى أزله القديم ، وإن هؤلاء الظلمة من قوم لوط واقع بهم لا محالة عذاب غير مدفوع عنهم بجدال أو دعاء ، ولا تستطيع قوة فى الأرض صدّه أو ردّه عنهم .

(وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(سِىءَ بِهِمْ) : أصيب بالغم والحزن بسبب مجيئهم وساءه ذلك ، (وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا) : عجزت طاقته وضعف جهده عن احتمال ما يترتب على مجيئهم من شرور قومه ، والمراد أنه لم يجد لهذا المكروه مخرجا . يقال ضاق بالأمر ذرعا إذا لم يطقه ولم يقدر عليه.

(عَصِيبٌ) : شديد الإيذاء . والعصْب : الشد بالعصابة .

(يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ) : يسرعون إليه ؛ كأنما يدفع بعضهم بعضا مسارعة إلى الفاحشة .

(وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى) : أى ولا تفضحونى ولا تلحقوا بى الذل والهوان فى شأن ضيوفى النازلين عندى .

التفسير

٧٧ ـ (وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ...) الآية .

بعد أن حكى القرآنُ الكريم بعضا من أحوال إبراهيم وزوجته كالتمهيد لقصة لوط جاءت هذه الآية والآيات بعدها تحكى بشىء من التفصيل ما جرى بين لوط وقومه ، من التوسل إليهم ليعدلوا عن الفاحشة إلى آخر ما ستذكره الآيات .

والمعنى : ولما جاءت رسل الله من الملائكة لوطا من عند إبراهيم حزن بسبب مجيئهم حزنا شديدا ، لأنهم جاءوه فى صور شباب من البشر حسان الوجوه ، وخشى أن يقصدهم قومه لارتكاب الفاحشة التى اشتهروا بها فيعجز عن مدافعتهم ، وضاقت طاقته وضعف جهده عن احتمال نزولهم عنده ، لعدم قدرته على تخليصهم من شر توقع حدوثه لهم من قومه.

(وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ) : أى وقال لوط ـ عليه السلام ـ تعبيرا عن شدة ما لحقه من الهلع والفزع : هذا اليوم الذى نزل فيه هؤلاء الضيوف يوم شديد الشر لا أستطيع احتمال ما يحدث فيه لضيوفى .

٧٨ ـ (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ . . .) الآية .

أى ولمَّا علم القوم بوجود هؤلاء الضيوف الحسان عند لوط ، جاءوا إليه يسرعون الخُطا فى لهفةٍ طلباً للفاحشة ؛ وتلهفهم على فعل الفاحشة لم يكن غريبا ، فقد اعتادوا فعل المنكرات من قبل ذلك كما قال تعالى :

(وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) : أى ومن قبل مجئ الملائكة إلى لوط كان قومه مستمرين على ارتكاب الآثام ، دائمين على فعل الموبقات ، فلا عجب إذا طلبوا الفاحشة مع ضيفه علنا جهارا بغير مبالاة .

(قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) : أى وحين أسرع قوم لوط إلى طلب الفاحشة مع ضيوفه ناداهم قائلا : (يَاقَوْمِ) ليستميلهم ويرقق قلوبهم ، واستمرّ فى محاولة تليين قلوبهم وجذب عواطفهم عسى أن يثوبوا إلى الرشاد ، فعرض عليهم عرضا كريما بقوله :

(هَؤُلَاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) : أى فتزوجوا بهن ، هن أنظف وأشرف لكم ، وليس فيما دأبتم عليه من إتيان الرجال شهوة من دون النساء شيءٌ من الطهر ، فالنظافة والطهارة فى التزوج بالنساء ، والدنس والخبث فى إتيان الذُّكران من العالمين . قال الآلوسى : وكانوا يطلبون التزوج ببناته من قبل ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم ، لا لعدم مشروعية زواج المؤمنات من الكفار فإنه كان جائزا ، وقد زوج النبى صلى الله عليه وسلم ابنته زينب لأبى العاص بن الربيع وكان مشركا قبل أن ينزل تحريم ذلك إلى آخر ما قال ، وقد ذكرنا هنا تلخيصه .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي) :أى فاحفظوا أنفسكم من عذاب الله بترك ذلك الدنس،ولا تلحقوا بى الخزى والذل والعار بسبب إهانة ضيفى ، فإن إهانتهم إهانة لى .

(أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ) :أى ألا يوجد من بينكم رجل سديد الرأى رشيد العقل يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر ويقنعكم بترك الفاحشة أو يمنعكم من ارتكابها وإذا كان لا يوجد بينكم هذا الرجل الرشيد فذلك منكر تستحقون عليه شديد اللوم وبالغ التقريع .

(قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾)

المفردات :

(مَالَنَا فِي بَنَاتِكَ) : المراد به هنا؛ مالنا فيهن من حاجة ولا شهوة فعندنا نساؤنا.

(آوِى) :ألجأ . (رُكْنٍ شَدِيدٍ) : جانب قوى أتقوى به وأستند إليه وأعتمد عليه ، وكل ما يتقوى به من ملك وجند وقوم يسمى ركنا .

التفسير

٧٩ - (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) :

أى قال قوم لوط معرضين عن قبول ما عرضه عليهم ونصحهم من التزوج ببناته : لقد عرفت يالوط غرضنا وقصدنا ، ليس لنا فى بناتك أى حاجة نعتبرها هدفا لنا وغاية لمجيئنا ، وإنك يا لوط بدون شك وبلاريب لتعرف قصدنا من المجىء وغايتنا من الإسراع ، وتدرك يقينا رغبتنا فيمن عندك .

ولما يئس لوط - عليه السلام - من إقناع قومه بترك ما هم عليه من الفساد . تمنى أن تكون له قوة تردهم عن ضيوفه ، وذلك ما حكاه الله بقوله :

٨٠ - (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) .

أى قال لوط - عليه السلام - لو أن لى طاقة وقدرة تنهض بردعكم ، أو أن لى جانبا قويا أستند إليه وأستنصر به عليكم لردعتكم عن غيكم ، وحفظت كرامتى وصنت ضيفى من الاعتداء عليهم وإيذائهم .

وقال لوط ذلك لأنه لم يكن فى منعة من قومه ، وقد أرسل إلى أهل «سدوم» وهى قرية عند حمص .

وقد استغرب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم مقالة لوط ، فقد جاء فيما رواه البخارى عن النبيّ صلىّ الله عليهْ وسلّم قال : « رَحِمَ اللهُ أَخِي لُوطًا كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ». يقصد صلى الله عليه وسلم أنه كان يلجأ إلى الله تعالى فإنه لا ركن أشدّ منه ، ولكنّه لهول المفاجأة وشدة الكرب قال ما قال وهو يعلم أنه لا ركن أشد من الله تعالى .

(قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾)

المفردات :

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ) : فسِرْ بهم ليلا . (بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ) : فى جزء منه .

(مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) : أى موعد عقابهم الصبح .

التفسـير

٨١ـ(قَالُوا يَالُوطُ ...) الآية .

أى لمَّا رأت الملائكة مااستولى على «لوط»من الكرب قالوا له مطمئنين : (يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ) :أى إنَّا رسل من عند ربِّك جئنا لإهلاك قومك وتطهير الأرض من دنسهم. (لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ) :أى لن يصل إليك هؤلاء الآثمون بضرر فى نفسك ولا فى ضيفك .(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ) : أى فاخرج بأهلك فى جزء من الليل . (وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ) : أى ولا تنظر أنت ولا تترك أحدا من أهلك ينظر إلى الوراء أثناء سيركم ، لئلا يرى هول ما نزل بقومهم . فيحصل لهم كرب قد لا يطيقه ، لكن امرأتك لا تخرج بها مع أهلك واتركها مع قومك ، فإنها خانتك بمُمَالأتهم عليك ، ونفاقها فى الإيمان بالله ، وإفشائها أسرارك إلى قومها ، فدعها معهم ليصيبها ما يصيبهم من عقاب أليم ، ثم علل الأمر بالإسراء بأهله والنهى عن الالتفات بقوله سبحانه : (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) : أى فأسرع السير بأهلك تحت جنح الظلام كى تبتعد عن مواقع العذاب الذى تحدد الصبح وقتا لنزوله . (أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) : أى إن موعد هلاكهم الصبح وهو وقت قريب جدًّا ،وكان الصبح ميقاتا لهلاكهم لأنه وقت الدَّعة والراحة والهدوء ،فيكون نزول العذاب بهم فيه أشدَّ.

(فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾)

المفـردات :

(أَمْرُنَا) : أى عذابنا أو الأمر به ، وهو على الأول واحد الأمور ، وعلى الثانى واحدالأوامر .

(جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) : أى قلبناها فصار أعلاها إلى أسفل وأسفلها إلى أعلى .

(سِجِّيلٍ) :طين قد تحجر ، (مَنضُودٍ) :متتابع بعضه إثر بعض .

(مُسَوَّمَةً) : معلمة بعلامات تميزها عن غيرها .

التفسير

٨٢ - (فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ) :

أى فلمَّا جاء الوقت الذى أَمَرْنَا بوقوع العذاب فيه - وهو الصُّبح - أو جاء العذاب الذى قدرنا نزوله بهم فى الصباح ، جعلنا ما كان عاليا من مبانى القرى والمدن سافلا . وأنزلنا على أهل تلك القرى مطرا من حجارة من طين تحجر - هذه الحجارة أنزلناها على هذه القرى متتابعة بعضها إثر بعض كتتابع المطر النازل من السماء .

٨٣ - (مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ...) الآية .

أى هذه الحجارة التى أُمطروا بها من السماء كانت مُعلَّمة ومميَّزة عند ربِّك بما يدل على أنها ليست من حجارة الأرض ، وأنه - سبحانه - أعدَّها لعذاب هؤلاء .

(وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) : أى وليست تلك الحجارة الموصوفة بما ذكر ببعيدة عن عيرهم من كل ظالم يأْثَم إثمهم ويظلم ظلمهم . فلا تكون بعيدة عن الكفار من قومك يامحمد فليسيروا إلى تلك القرى وليعتبروا بما وقع فيها لعلهم يؤمنون .



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الرابع والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ — ١٩٨٠ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٠

(* وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم
بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟
ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا
تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾)

المفردات :

(وَإِلَىٰ مَدْيَنَ) : أى وإلى أهل مدين . (بِخَيْرٍ) : بسعة فى الرزق والثروة .

(عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ) : المقصود من إحاطة اليوم بهم إحاطة عذابه بحيث لا ينجو منه أحد .

(أَوْفُوا) : أتموا وأكملوا . (وَلَا تَبْخَسُوا) : ولا تنقصوا .

(وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : ولا تمعنوا فى الإفساد فى الأرض قاصدين إضرار الخلق .

(بَقِيَّةُ اللهِ) : ما ادخر عنده من ثواب الصالحات .

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) : وما أنا عليكم بمراقب لأعمالكم فذلك لله وحده أمَّا أنا فناصح ومنذر .

التفسير

٨٤ - (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ......) الآية .

وأرسلنا إلى أهل مدين واحدًا منهم نسبًا هو شعيب - عليه السَّلام - وكانوا أهل كفر جشعين يبخسون المكيال والميزان ، ولا يوفون الحقوق ولا يحفظون الأمانات .

(قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِّن إِلَٰهٍ غَيْرُهُ) :

ناداهم متحببًا إليهم بقوله : (يَاقَوْمِ) : أى يا عشيرتى أنا منكم وأنتم منى والرائد لا يكذب أهله .

(اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ) :

بعد أن جذبهم إليه بهذا النداء بدأهم بالدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة لأنه هو الإله وحده ، فلا يستحق العبادة سواه ، ولقد جرت سنة الأنبياء فى دعوة أقوامهم أن يبدأوا بالدعوة إلى التوحيد لأنه أصل الإيمان ، وبه صلاح الأمر كله ، وهو الأساس الأول ، ثم يتبعون ذلك الدعوة إلى ترك ماهم عليه من النقائص والعيوب الظاهرة ، لذا عقب شعيب – عليه السلام – دعوتهم إلى التوحيد بالنهى عن نقص المكيال والميزان لأنه أعظم عيب تفشى فى قومه فقال :

(وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ) :

أى ولا تنقصوهما إذا بعتم للناس إذْ لا يليق بكم أن تخونوا فى معاملاتكم بعضكم مع بعض وأن تستحلوا ما تأخذونه من الناس عن طريق النقص فى المكيال والميزان ، فالحق أحق أن يتبع .

(إِنِّى أَرَاكُم بِخَيْرٍ) :

إنى أراكم فى سعة من الرزق والمال والولد فيجب أن تقابل هذه النعم بإعطاء الحقوق لا بالإصرار على الشرّ والفساد وسلب حقوق العباد ؛ فيسلبكم الله نِعَمَه .

(وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ) :

أى وإنى أشفق عليكم وأخشى أن يحل بكم عذابُ يومٍ يهلككم جميعا فى الدنيا ويحيط بكم فى الآخرة « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ »(١) .

٨٥ – (وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) :

كرر النداء بقوله : (يَاقَوْمِ) حين أمرهم ثانيًا بإتمام الكيل والوزن بالعدل من غير زيادة ولا نقصان حرصا منه على مصلحتهم ونفعهم . فهم قومه وعشيرته .

ثم عقب أمرهم بإيفاء الكيل والميزان بقوله :

(١) سورة الحجر ، الآية : ٤٣

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) :

يريد بذلك إمَّا نهيهم عن أن ينقصوا الناس حقوقهم فى جميع أُمورهم بصفة عامة ، حسية كانت أو معنوية ، وإما تأْكيد أمره لهم بالإيفاء بالمكيال والميزان بالقسط خاصة بالنهى عن نقصهم الناس حقهم فى الإيفاء بهما .

والمعنى على الأَول : ولا تنقصوا الناس أُمورهم فى أَموالهم وأَعراضهم وعقارهم ومنقولهم ، وزرعهم وضرعهم ، وبيعهم وشرائهم ، وغير ذلك مما عزَّ وهان .

والمعنى على الثانى : ولا تنقصوا الناس حقوقهم فى بيعهم وشرائهم ، بعدم إتمامكم المكيال والميزان لهم .

ثم عقب نهيهم عن بخس الناس أشياءهم بقوله :

(وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) :

والعُثُوُّ فى الأَرض؛ الإفساد فيها ، وقد يحدث لغرض الإصلاح كحرب البغاة والمرتدين وقُطَّاع الطريق ، وكقتل صاحب موسى للغلام وخرقه للسفينة ، وهذا وإن كان ظاهرهُ الإفساد فهو جائز للضرورة وقد يكون لغرض الإفساد والإضرار بالخلق وهذا هو المذموم والمنهى عنه .

والعثو المذموم يعم جميع أَنواع الإفساد والعدوان كقطع الطريق وتهديد الأَمن وقطع الشجر وقتل الحيوان وغير ذلك ،وقد كانوا يصدون الناس عن اتباع شعيب - عليه السلام - والإيمان به وينشرون الفساد فى الأَرض قال تعالى : « وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا »[1] .

وقيل : معناه ولا تعثوا فى الأَرض مفسدين أَمر آخرتكم ومصالح دينكم .

ثم زهَّدهم فى تلك الأَفعال القبيحة وأَرشدهم إلى ما هو خير وصلاح فقال :

٨٦ - (بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

أَى ما أَبقاه الله لكم من خيرى الدنيا والآخرة بعد إيفاء الكيل والوزن والتنزه عن المحرمات خير لكم وأَنفع من الكسب الحرام وإن كثر ، إن كنتم مصدقين بما شرعه الله لكم

(١) سورة الأعراف من الآية : ٨٦

على لسان شُعيب -عليه السَّلام- لأن الإيمان يستتبع خير الجزاء، فضلا عن أنه يطهر النفس من دناءة الطمع وسائر الخبائث ويحلِّيها بالقناعة وسائر الفضائل، ثم أثار فيهم الوازع النفسى بقوله:

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) : ولست عليكم بالحفيظ الذى يملك منعكم من الوقوع فى المحرمات، أو معناه: لست أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها وإنما أنا ناصح لكم ومبلِّغ «مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ»[1]. وقد بذلت الجهد وأعذرت إذْ أنذرت.

(قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾)

المفردات:

(الحَلِيمُ) : المتأنى الضابط لنفسه الذى لا يتعجل فى الأمور مع القدرة والقوة.

(الرَّشِيدُ) : المتصف بحسن التدبير ودقة التقدير.

التفسير

٨٧ -(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) :

أى قال قوم شُعيب - ساخرين مستهزئين - ردًّا على دعوته إياهم إلى التوحيد والعدل فى المعاملات أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا من الأوثان التى توارثنا عبادتها عن آبائنا، إننا ننكر عليك ذلك ولن نترك عبادتها، وإنما خصُّوا الصَّلاة بالإنكار دون سائر أحكام النبوة التى دعاهم إليها لأنه كان كثير الصلاة معروفاً بذلك، ولأنهم يغمزونه فى صلاته بأنها وسوسة خاطر، وليست وحيًا من السماء، وينكرون بهذا التهكم كل ما دعاهم إليه من عبادة الله وحده وسائر الفضائل.

(أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ) :

هذا جواب منهم عن أمره -عليه السَّلام- لهم بإيفاء الكيل والوزن مبنى أيضًا على السخرية بما يأمرهم به.

(١) سورة المائدة من الآية : ٩٩

والمعنى : أصلاتك ياشُعيب تأمرك أن نترك عبادة أوثاننا أو أن ندع التصرف فى أموالنا حسبا نريد من الزيادة والنقصان ، والأخذ والعطاء على النحو الذى تعودناه مع الناس ، أتريدنا أن نسير فى تجارتنا وشئون أموالنا على هواك الذى زعمت أنه شرع الله ، وهذا الجواب منهم شأن المتكبرين عن اتباع الحق فى كل أمة فإنهم لا يجدون جوابا سوى التمسك بما ورثوه عن الآباء والأجداد فهو الذى يعميهم عن الحق فلا يبصرونه ، « إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ »[1] ، ثم قالوا مبالغين فى السخرية والاستهزاء :

(إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) :

أى إنك لأنت الذى توصف بيننا بالتأنى والتريث فى معالجة الأمور ، فأين هذه الأوصاف مما تدعوننا إليه ، يريدون بذلك تجريده من صفتى الحلم والرشد ، بدعوى أن مادعاهم إليه لا يصدر عن حليم رشيد .

(قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(أَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى . (بَيِّنَةٍ) : حجة واضحة .

(وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) : ومنحنى من لدنه النبوة والحكمة وغمرنى بنعمه الكثيرة .

(أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) : أن أخالفكم إلى فعل مانهيتكم عنه .

(وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) : وإلى الله أرجع .

(١) سورة الصافات الآيتان : ٦٩ ، ٧٠

التفسـير

٨٨ - (قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَناً) :

فى هذه الآية ردُّ شُعيب - عليه السَّلام - عليهم فى رفقٍ ولينٍ بقوله : ياعشيرتى وأهلى أخبرونى : إن كنت على حجة واضحة وبيِّنة ظاهرة من لدن ربى وقدرزقنى منه رزقًا حسنًا هو النبوة والحكمة ، وهما مناط الحياة الأبدية لى ولكم ، وكذلك المال الوفير ، أفتجعلوننى فى زمرة السفهاء والغواة ، حينما دعوتكم إلى توحيد الله وإيفاء الكيل والميزان.

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) :

وما أقصد بدعوتى هذه أن أورطكم فيما دعوتكم إليه لكى أخالفكم إلى فعل مانهيتكم عنه بعد أن تستجيبوا لدعوتى فأنا أسبق منكم إلى ما دعوتكم إليه .

(إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ) :ما أريد بوعظى وتذكيرى لكم إلا إصلاح حالكم فى دنياكم وأخراكم بقدر جهدى واستطاعتى.

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ) :وما توفيقى فى التمسك بالحق وحملكم عليه إلا بفضل الله ومعونته .

(عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) : عليه وحده اعتمدت فى تبليغ الرسالة وأداء الأمانة .

وإليه - تعالى - وحده أرجع فى كل ما يهمُّنِى من أمور وشئون - فلا حول لى ولا قوة إلا بالله فيما أفعل وأقول ، وإنما الحول والطول لله وحده فهو الذى يرشدنى ويسدِّد خطاى ، وهو الذى يجازينى على أعمالى فلا أخاف أحدًا سواه .

(وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾)

المفـردات :

(لَايَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُمْ ...) الخ : أى لاتكسبنكم مشاقتى ومعاداتى عقوبة مثل عقوبة الأمم السابقة . (رَحِيمٌ) : واسع الرحمة . (وَدُودٌ) : كثير الودّ والمحبة والعطف .

التفسير

٨٩ - (وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ) :

أى وقال شُعيب لقومه على طريقته فى التلطُّف فى خطابهم ، حرصا منه على هدايتهم : يا قوم لايكسبنكم شقاق ومعاداتى أن يصيبكم بسبب ذلك مثل ما أصاب الأُمم التى كذبت رسلها من قبل كقوم نوح ، فقد أهلكهم الله بالطوفان ، وما أصاب عاداً حين كذبوا هوداً ، فقد أهلكهم الله بريح صرصر عاتية ، وما أصاب ثمود حينما كذبوا صالحا فأهلكهم الله بالصيحة والرجفة لإصرارهم على الكفر والفساد .

(وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ) :

وإن لم تعتبروا بهؤلاء المذكورين فما قوم لوط ببعيدين منكم ، فقد عوقبوا بقلب ديارهم ، وأمطر الله عليهم حجارةً من سجيل ، وقد رأيتم ديارهم وما أصابها ، فاعتبروا بحالهم واحذروا أن يحل بكم من العذاب ما حل بهم وهذه سنة الله فيمن كذب رسله ولن تجدوا لسنة الله تبديلا .

ولما أنذرهم سوء عاقبة صنعهم أرشدهم إلى طريق النجاة طمعا فى استجابتهم فقال :

٩٠ -(وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) :

أى واتعظوا بما وقع لهؤلاء واطلبوا مغفرة ربكم لما وقعتم فيه من الشرك والمعاصى ، ثم ارجعوا إليه بالإيمان والطاعة ولاتيئسوا من عفو الله ورحمته ، لأن ربى وربكم واسع الرحمة كثير الودِّ والمحبة والعطف فيرضى عمَّن يتوب ويرجع إليه ، فسارعوا إلى ما يستوجب رحمته ومحبته .

(قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ) : ما نفهم مرادك ، والفقه : الفهم الدقيق المؤثر فى النفس.

(رَهْطُكَ) : الرهط الجماعة من الرجال خاصة من ثلاثة إلى تسعة ،ورهط الرجل قومه وقبيلته.

(بِعَزِيزٍ) : بصاحب قوة ومنعة .

(وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا) : تركتموه وراء ظهوركم . والمراد أعرضتم عنه ونسيتموه.

(مُحِيطٌ) : أحاط علمه بكل شىء وأحصاه فلا يخفى عليه شىء من أعمالهم .

(اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) : اعملوا على غاية تمكنكم واستطاعتكم .

(وَارْتَقِبُوا) : وانتظروا عاقبة ما أقول .

التفسير

٩١ - (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ) :

دعا شُعيب قومه متلطفا فى دعوتهم إلى الإيمان والاستغفار والتوبة فأجابوه فى جفاء واستعلاء قائلين : يا شعيب ما نفهم كثيراً من قولك ، ولا نعلم حقيقة ما تقصد إليه

من دعوتنا إلى ترك عبادة الأوثان ومنعنا من التصرف فى أموالنا ، وتهديدك إيانا بعذاب يحيط بنا ويُبيدنا ، أجابوه بذلك مع وضوح حجته وقوة برهانه وظهور مراده ، واشتمال كلامه على فنون الحكم والمواعظ ، وأنواع العلوم والمعارف ، ولما عجزوا عن محاجته هددوه باستعمال القوة حين قالوا :

(وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا) :

أى وإنا لنشاهد ضعفك بيننا ، ونعلم أن لا قدرة لك على شىء ، ولا تستطيع أن تمتنع عنا إن أردنا أن نفتك بك .

(وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ) :

ولولا احترامنا لعشيرتك وأهلك الذين ثبتوا على ديننا ، ولم يؤثروك علينا ، ولولا رهطك هؤلاء لقتلناك رجما بالحجارة .

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) :

أى ولست عندنا قويًّا منيعا تستطيع أن تدفع ما نريده بك أو تحول بيننا وبين قتلك وإهلاكك .

وما يمنعنا عنك إلا أننا نُقَدِّر رهطك وعشيرتك ونحترمهم ونعزهم ، ونسى هؤلاء الغافلون قوته وعزته برب العالمين ، فلهذا وبَّخهم شُعيب على غفلتهم هذه – كما حكاه الله عنه بقوله :

٩٢ – (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ) :

قال لهم شُعيب ردًّا على هذا التهديد والاستهزاء : أعشيرتى وأهلى يا قوم أعزُّ وأكرم عليكم من الله ذى العزة والقدرة ، وقد دعوتكم بأمره إلى ما يصلح شئونكم فى الدنيا والآخرة فأعرضتم عنه .

(وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا) :

أى ونبذتم أمره وتركتموه وانصرفتم عنه كالشىء المهمل وراء الظهر فلا يلتفت إليه لعدم الاعتداد به .

(إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) :

أى إن ربى لا يخفى عليه شىءٌ من أموركم فعلمه محيط بجميع أعمالكم وأقوالكم ،

وسيجازيكم عليها يوم القيامة حيث لاتغنى قوتكم عنكم شيئا ، وهذا تهديد بليغ ووعيد شديد بالعذاب الأليم إن أصرُّوا على الكفر والعناد .

٩٣ - (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) :

وقال لهم مهدداً أيضا : يا قوم اعملوا ما شئتم بقدر استطاعتكم وتمكنكم ، وابذلوا جهدكم فى مضارتى ، فإن ذلك لا يصدنى عن الدعوة إلى الله .

ثم أكد ذلك بقوله : (إِنِّى عَامِلٌ) : أى إنى سأعمل بقدر استطاعتى وجهدى فى الطريق الذى أمرنى الله بالسير فيه دون أن أخشى تهديدكم ووعيدكم .

(سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ) :

أى سوف تعلمون علم اليقين من سيحيق به العذاب المذل المهين جزاء ضلاله ومن هو كاذب منا - أنا أم أنتم - وفيه تعريض بكذبهم فى ادعائهم القدرة على رجمه - عليه السلام - وفى نسبته إلى الضعف والهوان وأنهم لولا رهطه لرجموه .

(وَارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ) :

وانتظروا ما أتوعدكم به من العقاب على كفركم وعصيانكم إنى معكم منتظر عاقبة أمركم ، مراقب لها ، وفى هذا أبلغ تهديد وأعظم وعيد لهم ، وفيه إظهار ثقة شعيب بنصر ربه وتأييده له .

(وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾)

المفردات :

(جَاثِمِينَ) : باركين على الركب من الجثوم ، وهو للناس بمنزلة البروك للإبل.

(يَغْنَوْا فِيهَا) : كأن لم يقيموا فيها ، يقال غنى بالمكان يغنى أى أقام به وعاش فى نعمة

ورغد ، (بُعْدًا) : هلاكًا ، يقال : بَعِد بكسر العين يَبْعَد بفتحها من باب طرب يطرب : بمعنى هلك ، وأما بَعُد بالضم فمعناه ضد قرب .

التفسير

٩٤ ـ (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ...) الآية .

بعد أن هددهم شعيب وأوعدهم جاءت هذه الآية تحقيقا لوعيده لهم .

والمعنى : ولما جاء أمرنا بعذابهم نجينا رسولنا شعيبا والذين آمنوا به وصدقوه واتبعوه بسبب رحمة منا عظيمة شاملة إذ وفقناهم للإيمان الصادق والطاعة الخالصة ففازوا بالنجاة من الهلاك .

(وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) :

أى وأخذت الصيحةُ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى من قوم شعيب .

(فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) :

أى فأصبحوا من شدتها ميّتين خامدين فى أماكنهم ، وهذه الصيحة هى التى عبر عنها فى سورتى الأعراف والعنكبوت (بالرجفة) أى الزلزلة ولعل الصيحة من روادف الرجفة ، فإن الزلزلة تحدث تموجا فى الهواء ، يترتب عليه صفير وصياح ، فلذا سميت بالصيحة ، وقيل صاح بهم جبريل فهلكوا .

٩٥ ـ (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا) :

أى كأنهم لم يقيموا فى هذه الديار ، ولم ينعموا بها ولم يتقلبوا فى خيراتها وبركاتها ، فقد ذهب ما كانوا يعتزون به ، ولم يبق لهم إلا ما قدموه لأنفسهم مما استحقوا به العذاب والإبعاد من رحمة الله .

(أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ) :

أى ألا هلاكا لهم كما هلك سابقوهم وهم ثمود قوم صالح ، وإنما شبه هلاكهم بهلاك ثمود لأن عذاب كليهما كان بالصيحة ، قال ابن عباس : ما أهلك الله أمتين بعذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب ، غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم اهـ .

ويستفاد من قصة أهل مدين قوم شعيب ما يلى :

– أن نقص الكيل والوزن من الكبائر وتخشى منه العقوبة العاجلة وأنه من أكل أموال الناس بالباطل .

– وأن الصلاة مشروعة للأنبياء السابقين لقولهم لشعيب : « أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ » الآية .

– وأن من كمال الداعى المبادرة إلى فعل الخير قبل أن يدعو غيره إليه .

– وأن وظيفة الرسل الإصلاح بقدر الاستطاعة .

– وأن العبد يجب عليه أن يتكل على ربه بعد الأخذ بالأسباب ويسأله التوفيق وأن يرجع إليه فى كل أموره على الدوام .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾)

المفردات :

(آيَاتِنَا) : هى الآيات التسع التى أعطاها الله لموسى عليه السلام معجزة دالة على صدقه .

(وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : حجة بالغة لها سلطان بيِّن على العقول السليمة .

(مَلَإِيهِ) : أى رؤساء قومه وزعمائهم ، وسموا ملأ لأنهم يملئون العيون بوجاهتهم .

(يَقْدُمُ قَوْمَهُ) : يتقدمهم ويقودهم إلى النار . (فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ) : أى تسبب فى دخولهم النار .

(وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ) : أى وبئس المكان الذى يردونه – النار .

(وَبِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ) : بئست اللعنة المعطاة لهم فى الدارين عطاؤهم .

التفسير

٩٦ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) :

بعد أن بينت الآيات السابقة سوء عاقبة المكذبين من قوم شعيب جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان ماآل إليه أمر المكذبين لموسى من فرعون وملئه تأكيدا للغرض من سوق هذه القصص وهو العظة والاعتبار .

والمعنى : ولقد أرسلنا موسى بالآيات التسع وهى العصا واليد يخرجها من جيبه بيضاء من غير سوء ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الأنفس والثمرات وأيدناه بالحجج البينة التى أقامها على فرعون وقومه أثناء دعوته إياهم إلى الإيمان حين قال له فرعون : « فَمَن رَّبُّكُمَا يَامُوسَى » . وقوله : « فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى » .ونحو ذلك حيث بين لهم الحقائق الإلهية والشريعة التى بعث بها بياناً لا سبيل إلى رده كقوله له : « رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » .وقوله عن القرون الأولى : « عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى » . [1] إلى غير ذلك مما حاجّ به موسى فرعون وقومه .

٩٧ - (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ) :

أى أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون ورؤساء قومه فانقادوا لأمر فرعون نهم بالكفر بما جاء به موسى من عند الله ، وأعرضوا عن الآيات الواضحة والأدلة الباهرة .

(وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) :

أى وما أمرهم به فرعون بصائب وسديد حتى يتبعوه ويتركوا الحق المبين « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ [2] » . وقدبين الله مصير فرعون وقومه فى الآخرة فقال :

(١) سورة طه الآيات : ٤٩ — ٥٢

(٢) سورة الزخرف من الآية : ٥٤

٩٨ - (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ) :

أى إن فرعون كما كان قدوة للكفار من قومه جميعاً فى الضلال فى دار الدنيا ،كذلك يتقدمهم إلى النار يوم القيامة وهم يتبعونه .

وأصل الورد لغة : الماء الذى يرده الناس ليرتووا منه ويطفئوا به ظمأهم ، وقد دلت الآية على فساد رأى فرعون وسوء حاله حيث قادهم إلى النار وبئس الورد الذى يردونه لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار على ضد ذلك ، ولو أنه قادهم إلى الحق لنجَّى نفسه وقومه ، ولكن صدق الله إذ يقول : « وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » .

وإنما عبر بالماضى فى قوله : « فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » بدل التعبير بالمضارع « يُورِدُهُمْ » المفيد لحصول ذلك فى المستقبل للإيذان بتحقق هذا الوعيد . وحمل بعضهم الآية على ظاهرها وهو أنهم وردوا النار فعلا منذ موتهم استناداً إلى قوله تعالى : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »[1] .

٩٩ - (وَأُتْبِعُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ) :

أى واستحق آل فرعون بسبب كفرهم أن يلعنهم الناس فى الدنيا والآخرة ، وأن يطردهم الله من رحمته يوم القيامة - فاللعنة حالَّة بهم فى الدارين .

(بِئْسَ الرِّفْدُ المَرْفُودُ) :

أى بئس الجزاء الذى حل بهم من الهلاك فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة . وسُمِّى هذا الجزاء الأليم رفدا من باب السخرية بهم - إذ الرفد فى اللغة بمعنى العطاء .

---

(١) سورة غافر آية : ٤٦

(ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾
وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ
ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ
وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾)

المفردات :

(قَائِمٌ) : أى باق بعد أن هلك مكانه .

(حَصِيدٌ) : بمعنى محصود ، والمحصود الذى اندثرت معالمه .

(تَتْبِيبٍ) : إهلاك وتخسير .

التفسير

١٠٠ - (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيد) :

أى ذلك الذى مرَّ ذكره بعض أخبار أهل القرى التى أرسلنا إليها رسلنا فكذبوهم فأهلكناهم - ذلك المذكور - نقصه عليك ونبيِّنه عبرة وعظة للكافرين ، وتثبيتًا لك ولأُمتك المؤمنين ، من هذه القرى ما هو باق وقد خلا من أهله ومنها ما انطمست معالمه كالزرع المحصود الذى لم تبق منه باقية .

١٠١ - (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ) :

أى وما أهلكنا هؤلاء بغير ذنب ارتكبوه لأَن هذا ينافى عدلنا الذى قامت به السموات والأَرض ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بشركهم بالله وإفسادهم فى الأَرض وصدهم عن ديننا الذى شرعناه على ألسنة رسلنا فاستحقوا الهلاك الذى حل بهم .

(فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ) :

أى فما نفعتهم معبوداتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ولا دفعت عنهم أى شىء من عذاب الله الذى أنذرهم به الرسل .

(وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) :

أى وما زادتهم معبوداتهم على ما هم عليه من سوء الحال إلا هلاكًا وخسرانا ، حيث لم يشفعوا لهم كما زعموا ، بل وضعوا فى النار مثلهم .

(وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾)

المفردات :

(أَخْذُ رَبِّكَ) : أى إهلاك ربك إياهم . (أَلِيمٌ) : شديد الإيلام .

التفسير

١٠٢ - (وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ) :

أى ومثل ذلك الأخذ بالعذاب الذى مر بيانه - يهلك الله أهل القرى فى حال ظلمها ، تطهيرًا للأرض من أهل الظلم .

(إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) :

أى إن إهلاك الله للظالمين وجيع شديد الإيلام لا مفر منه ولا مناص؛ وفى هذا تحذير لكل من ظلم غيره فحرمه حقه ، وصده عن سبيل الله ، وظلم نفسه بما اقترفه من آثام ، فعليه أن يبادر بالتوبة قبل فوات الأوان .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾)

المفردات :

(لَآيَةً) : لعبرة وعظة . (مَّشْهُودٌ) : كثير شاهدوه من الملائكة والرسل ومن كل بر وفاجر .

(لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ) : لانقضاء مدة قليلة قضاها الله حسب حكمته .

التفسير

١٠٣ - (إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ) :

أى إن فيما قصه القرآن من إهلاك الأمم السابقة بسبب كفرهم بالله تعالى ، وإصرارهم على تكذيب رسله - إن فى ذلك لعظة بالغة وعبرة عظيمة للذين يخافون عقاب الآخرة ، فيحملهم هذا الخوف على سلامة النظر ، وحسن الاعتبار ، وسرعة الاستجابة إلى دعوة الحق ، وقيل المراد بهؤلاء الخائفين : المؤمنون ، فهم المنتفعون بالعظات والعبر ، والباحثون عن سبل السلامة من غضب الله وعقابه ليسلكوها .

(ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) :

أى ذلك اليوم الذى يقع فيه عذاب هؤلاء الكفار المعاندين - هو يوم مجموع له الناس جميعًا ليجزى الله كل امرىء بما قدمت يداه ، وهو يوم مشهود بما يقع فيه من أهوال حيث يحضره أهل السموات والأرضين ، من ملائكة وإنس وجن .

١٠٤ - (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ) :

أى وما نؤخر هذا اليوم الذى يجمع له الناس إلا لنهاية زمان محسوب بدقة تامة منا ، فلا يتقدم عن هذه الغاية ، ولا يتأخر عنها ، وقد استأثر الله تعالى بعلمه ، وأخفاه عن عباده ، لحكم كثيرة يعلمها قال تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا . إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا . إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا . كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »(١) .

وإنما عبر الله عن الأجل المحسوب بالأجل المعدود ، ليشير بذلك إلى قلته ، فإنه لا يعد فى العادة إلا القليل ، ولا شك أن ما بقى من عمر الدنيا بالنسبة لما مضى منها قليل ، ولذا كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين .

وقد بين الله شدة هذا اليوم وهوله بقوله :

١٠٥ - (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ) :

أى حين يأتى هذا اليوم الذى أجل عقابهم إلى مجيئه ، لا تتكلم أى نفس إلا بإذن الله تعالى ، فلا سلطان فيه لأحد من الملوك والرؤساء ، فقد فنى سلطانهم وزال كبرياؤهم وملكهم ، وانفرد الله وحده بالملك والعزة والسلطان ، كما قال تعالى فى سورة غافر : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » . وفى سورة الحج : « الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ » . وفى سورة الفرقان : « الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ » .

ويتجلى سلطان الله تعالى وجلاله يومئذ على نحو ما بينه الله بقوله فى سورة النبأ : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا » . وبمقتضى هذه الآية وعدالة الله تعالى ، يأذن الله للكفار والمذنبين فى الدفاع عن أنفسهم كما قال تعالى فى سورة النحل : « يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا » . فإذا قامت حجة الله عليهم بعد جدالهم عن أنفسهم ، خرست ألسنتهم ، ولم يؤذن لهم بالاعتذار حينئذ ، فقد ظهرت حجة الله عليهم واتضح

(١) آخر سورة النازعات .

أنه لاعذر لهم ، كما قال تعالى فى سورة المرسلات : « هَذَا يَوْمُ لَايَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .

(فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) :

أى فينقسم الناس فى هذا اليوم إلى قسمين : قسم شقى بكفره ومعصيته ، وقسم سعيد بإيمانه وطاعته ، ثم بين الله مصير الأشقياء بقوله :

(فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾)

المفردات :

(شَقُوا) : كانوا أشقياء فى الدنيا بكفرهم ومعاصيهم . (زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) : الزفير : إخراج النَّفَس من الصدر بمشقة ، والشهيق : إدخاله فيه بمشقة كذلك ، والمراد بهما تلاحق أنفاسهم فى النار من شدة العذاب .

التفسير

١٠٦ - (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) :

أى فأما الذين قُضى عليهم بالشقاء بسبب كفرهم ومعاصيهم فى الدنيا وإطفائهم نور الفطرة التى فطرهم الله عليها ، فهؤلاء مستقرون فى النار تتلاحق أنفاسهم فيها زفيرًا وشهيقًا من حرج صدورهم وشدة كروبهم ، ويأسهم من النجاة منها وهم فيها دائما كما قال تعالى فى سورة النساء : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ »[1] .

ولهذا عقب الله تلك الآية بقوله سبحانه :

(١) من الآية : ٥٦ .

١٠٧ - (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ . . .) الآية .

المراد من السموات والأرض سماوات اليوم الذى يجمع له الناس وأرضه ، فإن دوامها باق لانهاية له ، أما سماوات الدنيا وأرضها فهى زائلة ، كما قال تعالى : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ »[1] فلا معنى للتوقيت بدوامها لعدم وجودها يوم عقابهم وهو يوم القيامة ومن المفسرين من فسرها بسماوات الدنيا وأرضها ، وقال إنه ليس الغرض من النص الكريم ربط خلودهم بدوام سموات الدنيا وأرضها التى تزول والتى لاتكون موجودة يوم القيامة بل المراد التأبيد ونفى الانقطاع ، مخاطبة لهم بالأسلوب الذى اعتادوه فى هذا الصدد ، كقول أحدهم لا أفعل كذا ما لاح كوكب ، فإنه لا يقصد أنه لا يفعله ليلا مدة ظهور الكواكب ولكن يفعله نهاراً ، بل يقصد أنه لا يفعله أبداً ، ثم قال : أما إحالة التأبيد على دوام سماوات الآخرة وأرضها ، فهى إحالة لهم على شىء لايعرفونه بل ينكرونه ، لأنهم لايعترفون بالآخرة ، كما حكاه الله عنهم بقوله : « إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »[2]

والظاهر من الآية هو الوجه الأول ، فإنهم كما ينكرون الآخرة ودوام سماواتها وأرضها ينكرون وعدها ووعيدها ، ولكن هذا الإنكار لايمنع أن يتوعدهم الله بعذاب الآخرة ، ويصف لهم أهوالها لعلهم يرجعون .

(إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) :

ظاهر هذا الاستثناء أنه تعالى يشاءُ خروج الأشقياء من النار ، وأن خلودهم فيها ينقطع عند هذه المشيئة ، وقد حمل هذا التوهم بعض المفسرين على أن يقول : إن المراد بالذين شقوا ، الذين ارتكبوا ما يشقيهم ولا يسعدهم سواءٌ أكانوا كفارا أم مؤمنين عصاة ، ويحمل الاستثناءُ عند صاحب هذا الرأى على عصاة المؤمنين ، وكأنه قيل : فأما الذين شقوا بكفرهم أو معاصيهم ، ففى النار خالدين فيها أبدا إلا من شاءَ ربك عدم خلودهم من عصاة المؤمنين .[3]

(إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) :

فلا يمنعه أحد من العفو عنهم لإيمانهم بعد ما عذبوا على ذنوبهم .

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٨ (٢) سورة المؤمنين ، الآية : ٣٧

(٣) والاستثناء على هذا من الضمير المستكن فى خالدين ، ولفظ (ما) بمعنى من ، كما فى قوله تعالى «والسماء وما بناها» أى ومن بناها .

ورأى بعض آخر من المفسرين أن المراد بالذين شقوا هم الكفار ، وأن المراد بقوله تعالى : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » إلا الوقت الذى شاء الله فيه أن ينقلوا من عذاب النار إلى عذاب آخر كالزمهرير وغيره ، فأمرهم دائر بين التعذيب بالنار والتعذيب بغيرها ولا أمل لهم فى انقطاع العذاب عنهم بأى وجه . أو إلا الوقت الذى يتوقفون فيه فى الموقف للحساب ، وقيل الاستثناء ليس من خلودهم فى النار ، بل من قوله تعالى : « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ » .

والمعنى على هذا : فأما الكافرون الذين شقوا بكفرهم فنى النار لهم فيها زفير وشهيق حال خلودهم الأبدى فيها ، لا ينقطع زفيرهم وشهيقهم إلا مدة يشاؤها الله ، يكون تعبيرهم فيها عن كربهم بغير الزفير والشهيق .

ونقل القرطبى فى الوجه الرابع فى تفسيره لها عن ابن مسعود أنه قال : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » لا يموتون فيها ولا يخرجون منها « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم ، ثم يجدد خلقهم ليتجدد تعذيبهم . ولعله استمد هذا الرأى من قوله تعالى : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ »[1] .

تلك خلاصة الآراء المشهورة فى تفسيرها ، وفيها آراء ومباحث أخرى . فليرجع إليها فى المطولات من شاء المزيد .

(* وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾)

المفردات :

(سُعِدُوا) : بضم السين قراءة الأعمش وحفص والكسائى ، قال الثعلبى : أى رزقوا السعادة ، يقال سُعِد وأُسْعِدَ بمعنى واحد ، وقرأ الباقون بفتح السين على أسلوب شقوا .

(عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) : أى غير مقطوع عنهم .

(١) سورة النساء ، من الآية : ٥٦

التفسير

١٠٨ - (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) :

تتحدث هذه الآية الكريمة عن الفريق الثانى من أهل الموقف فى يوم مجموع له الناس ومشهود ، وهو فريق السعداء بعد أن تحدثت الآيتان السابقتان عن فريق الأشقياء والكلام فى معنى ما دامت السموات والأرض هنا ، كالكلام فى مثله فى الفريق الأول .

أما قوله (إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ) فإنه يوهم أن خلود السعداء فى الجنة ينقطع ولا يدوم حينما يشاء الله قطعه ، وهذا يتنافى مع التصريح بعدم قطعه فى قوله سبحانه :(عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) : كما يتنافى مع آيات كثيرة ناطقة بأبدية النعيم فى الجنة لهم ، وقد أجيب عن ذلك بعدة أجوبة ، منها أن اليوم المشهود يبدأ من البعث ، وأن السعداء لا يدخلون الجنة حين بعثهم ، فإنهم كغيرهم يحشرون للموقف ، ويحاسبون ، ثم ينعم الله عليهم بدخول الجنة بعد أن يقضى لهم بذلك عدالة منه وفضلا ورحمة ، فالوقت الذى قضوه فى اليوم المشهود قبل دخولهم الجنة ، هو المستثنى بقوله (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) ولا يضر هذا المعنى أن الاستثناء وقع من أول اليوم لا من آخره ، كما تقول جلست فى البُستان يوما إلا ثلاث ساعات من أوله ، فإنه تعبير صادق وسليم من الناحية اللغوية .

ومنها أن الاستثناء بالنسبة إلى الوقت الذى ينقلون فيه من نعيم الجنة إلى ما هو أعلى منه ، من الفوز برضوان الله الذى هو أكبر من الجنة ، كما قال تعالى : « وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ »[1] .ولهم أيضا ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه ، قال الزمخشرى : والدليل على هذا قوله تعالى: « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ »[2] .

(١) التوبه : من الآية (٧٢) .

(٢) أنظره فى الكشاف تعليقا للزمخشرى على قوله تعالى فى حق الكفار : « مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك» فقدتعرض فى كلامه فيها إلى ما يماثلها فى حق المؤمنين هنا .

ومما قيل فى تأويلها : إن الاستثناء بالنسبة إلى عصاة المؤمنين ، فإنهم يغيبون عن الجنة فى الوقت الذى يعاقبون فيه على معاصيهم ، ثم يؤمر بدخولهم الجنة ، فلذا قيل فى حقهم (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) : أى إلا من شاء ربك من عصاة المؤمنين ، فإن دخولهم فيها ينقطع عند أول دخول الصالحين إياها حتى يعاقبوا على معاصيهم ، فإنهم سيدخلونها ويلحقون من دخلها قبلهم من الصالحين ، وقد وصفوا بالسعادة باعتبار ماآل إليه أمرهم وفيما يلى بيان معنى الآية على ما نرى .

وأما الذين أُنعِمَ عليهم بالسعادة من الله بأن وفقوا للإيمان والعمل الصالح لصفاء فطرتهم فهؤلاء فى الجنة يستقرون ، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ، لا يبرحونها أبدًا ، إلا الوقت الذى يشاءُ الله فيه أن ينعموا بثواب أعظم ، حيث يتجلى عليهم برضوانه ، الذى هو أكبر من الجنة ، وأعظم منها شأْنًا .

وهناك أيضا ينظرون إليه جل وعلا كما قال فى سورة القيامة : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » .(١) وحيث ينعم الله عليهم بما لاعين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولا يعلم كنهه سواه ، يعطيهم الله هذه النعم دائما ، عطاءً غير مجذوذ عنهم ولاهم عنه ينصرفون .

(فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾)

المفردات :

(فِى مِرْيَةٍ) : فى شك . (نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ) : جزاءهم كاملا .

(١) سورة القيامة ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

التفسير

١٠٩ - (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ) :

بعد أن بين الله تعالى عقاب الأشقياء وثواب السعداء أنذر أهل مكة بأن عبادتهم قائمة على الضلال وأنهم سيلقون مصير الأشقياء الضالين إذا أصروا على شركهم .

والمعنى لايتطرق إليك - أيها الرسول - شك فى ضلال هؤلاء المشركين وإن ادعوا أنهم يتقربون إلى الله بعبادة هذه الأصنام حيث قالوا : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ »[1] .

وهو ادعاء باطل لايقوم على عقل رشيد أو رأى سديد ، لأن الأصنام لاتملك التقريب والإبعاد من الله تعالى ، فهى لاتملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا فكيف تملكهما لغيرها .

(مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ) :

أى أنهم لايؤدون عبادتهم تطبيقًا لكتاب منزل ، . أو إطاعة لنبى مرسل ، أو تأثرًا بعقل مفكر ، وإنما يؤدونها تقليدًا أعمى لآبائهم وأجدادهم الضالين دون رَوِيَّة أو تفكير « إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ »[2] .

(وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ) :

أى وإننا لمجازوهم على عقيدتهم الباطلة وأعمالهم الفاسدة جزاءً كاملا غير منقوص ، كما جازينا الأمم السابقة بسبب كفرهم وعتوهم « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » . والجملة هنا مؤكدة بأكثر من مؤكد للإنذار والترهيب .

---

(١) سورة الزمر الآية : ٣

(٢) سورة الصافات الآيتان ٦٩ ، ٧٠

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾)

المفـردات :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ) :لولا وعد سبق منه سبحانه بتأجيل العذاب حتى حين يعلمه . (شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) : شك مزعج محير مقلق .

التفسير

١١٠ ـ (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ . . .) الآية .

بعد أن ختم الله الآية السابقة بوعيد مشركى قريش بأنهم سينالهم نصيبهم من العقاب وافيًا ، جاءت هذه الآية مسلية للنبى صلى الله عليه وسلم بأن خلاف قومه عليه لم ينفرد به ، بل هذا هو الشأن فى جميع أمم المرسلين ، وضرب له مثلا بقوم موسى حيث اختلفوا عليه ، وأكد له أن عقابه سينزل بمن كفر به من قومه ،كما نزل بمن كفروا برسله من قبله ، وسيكون نزوله فى الوقت الذى عينه سبحانه لهذا العقاب ، فلا استعجالهم يقدمه ولا إنكارهم يؤخره ،كما قال تعالى : « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ »[1] وقال سبحانه : « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »[2]

والمعنى : ولقد أنزلنا التوراة على موسى عليه السلام فبلغها إلى قومه ولكنهم اختلفوا فيها ، فآمن بها بعضهم ، وكفر بها آخرون ، حتى آل أمرهم إلى عبادة العجل ، فلا تبال

(١) سورة الحج ، من الآية : ٤٧

(٢) سورة العنكبوت الآية : ٥٣

يا محمد باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن، وقولهم: «لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ». وزعمهم أنك افتريته، فالكفر كله ملة واحدة.

وإذا كان الله تعالى لم يعجل عقوبتهم فى الدنيا بالاستئصال، فلن يفلتوا من العقاب فى الآخرة بأشد العذاب، حيث سبقت كلمته بتأجيل عقابهم إليها لحكم يعلمها، وفى ذلك يقول الله تعالى:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ):

أى ولولا قضاء سبق من ربك يا محمد بتأجيل عقوبة قومك المختلفين عليك إلى يوم القيامة لقضى بينهم بتعجيل عقوبتهم على كفرهم، وإنجاء المؤمنين منه ليتميز المحقون من المبطلين.

وقيل إن الكلام فى قوم موسى، والمعنى: لقضى بينهم بعقابهم عاجلا على اختلافهم فى أمر التوراة. ويبعد هذا الرأى أن الآية مسوقة لتسلية الرسول على اختلاف قومه عليه، بما حدث لموسى من اختلاف بنى إسرائيل عليه، ولبيان أن عقوبة قريش على كفرهم به مؤجلة فى علم الله ليوم الوعيد، ولولا ذلك لعجل بها لهم.

(وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ):

أى وإن قومك يا محمد لنى شك من القرآن موقع فى حيرة لهم، ولو أنصفوا لبادروا إلى الإيمان به، فإن مبعث ريبهم هو استمساكهم بدين الآباء وتعصبهم له، وعدم إصغائهم إلى الناصح الأمين[1].

ويصح أن يكون المعنى: وإنهم لنى شك من تعذيبهم على كفرهم مقلق لنفوسهم وقد أخطئوا فى هذا الشك، كما يشير إليه قوله تعالى:

١١١ - (وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا[2] لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ):

(١) فالضمير فى لفظ (منه) عائد على القرآن وإن لم يذكر فى الكلام، قال أبو السعود فى بيان ذلك (فإن ذكر إيتاء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه، لاسيما بصدد التسلية ينادى بذلك نداء غير خفى): أه أى ينادى بعوده إلى القرآن وإن لم يذكر.

(٢) يرى أبو عبيدة أن لفظ (لما) فى قوله تعالى: «لما ليوفينهم ربك أعمالهم» بمعنى جميعا، وأصله بالتنوين — وقد قرئ به، ثم بنى على فعل، وهو مأخوذ من لمته بمعنى جمعته، وقد اخترنا هذا الرأى لأنه أقرب الآراء وأيسرها وأبعدها من التكلف برغم ما وجه إليه.

أى وإن كلا من المختلفين فيه مؤمنين وكافرين ، جميعًا والله ليوفينهم ربك يا محمد جزاءَ أعمالهم إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر .

(إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

إنه تعالى بما يعمله المحسنون والمسيئون عليم أدق العلم وأوسعه ،فما تخفى عليه منهم خافية ومن كان كذلك ، فإنه سبحانه سيوفيهم جزاءَ أعمالهم .

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾)

المفردات :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) : نفِّذ ما أمرناك به دون ميل عنه بزيادة أو نقص .

(وَلَا تَطْغَوْا) : أى لاتتجاوزوا الحد الذى أمرتم به وذلك بالإفراط أو التفريط .

(وَلَا تَرْكَنُوا) : ولا تميلوا .

التفسير

١١٢ – (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا) :

أى إذا علمت يا محمد أن كلاًّ من المؤمنين والكافرين سيوفيهم ربك جزاءَ أعمالهم فدم على ما أنت عليه من الاستقامة على شرع الله الذى شرعه لك عقيدة وعملا ، وليستقم عليه من تاب عن الشرك والكفر ليكون معك ويشاركك فى الإيمان ، ولا تتجاوزوا الحد بإفراط ممل أو تفريط مخل .

(إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

فيجازيكم على عملكم وفق ما علمهُ من أدائكم لهُ ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن قصر فعليها .

وقد دلَّت الآية على وجوب اتباع المنصوص عليه، من غير انحراف عنه بمجرد الرأى ، فإنه طغيان وضلال .

وأما العمل بمقتضى الاجتهاد المترتب على علل المنصوص ، فذلك من باب الاستقامة أيضًا ، لقوله تعالى : « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ [١] ».فإنه أمر بالقياس ،ومثال ذلك قياس عصير القصب إذا أسكر فى الحرمة ، على الخمر المنصوص على حرمتها ـ لعلة الإسكار ـ المشتركة بينهما .

والغرض من توجيه الأمر بالاستقامة على أمر الله إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى مقدمة من آمن وتاب ـ إلى الله وأصبح فى معيته ، الغرض من ذلك أن يعلم الناس أن عبادة الله وأوامره واجبة الاتباع حتى بالنسبة للأنبياء ، وأنهم فى مقدمة المكلفين بذلك ، لأنهم قدوة لأقوامهم ، فلا يباح لهم الخروج على أمره وعدم الاستقامة عليه بإفراط ، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى ، ولا بتفريط فإنهم مكلفون بكمال العمل ، لأنه حق له تعالى ، وليكونوا أسوة لغيرهم ، ولأنه تعالى طيب فلا يقبل إلا طيبًا ـ كما جاء فى الحديث الشريف .

ولقد كانت شدة الالتزام بكمال الامتثال من النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه السورة وغيرها ، داعية إلى مشيبه صلى الله عليه وسلم ، قال صلى الله عليه وسلم : « شيبتنى هود والواقعة وأخواتهما » . أخرجه الترمذى .

ومن هذا وأمثاله يعلم أنه لا طبقية فى الإسلام ، فالكل عباد الله ، وأنه لافرق بين حاكم ومحكوم ، ولا بين نبى وغيره فى التزام شريعة الله ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول للزهراء رضى الله عنها : « اعْمَلِي فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا » . وكان يقول أيضًا : « وَاللهِ لَوْ سَرَقَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » .

وقد أوجب الله تعالى على عباده ما يسهِّل عليهم الاستقامة عليه من فعل الواجبات وترك المحرمات ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « إِن الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلا غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وقَارِبُوا ، واسْتَعِينُوا بِالْغُدْوَةِ والرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ » . أخرجه البخارى عن أبى هريرة فى كتاب الحج ـ ومن تتبع التكاليف الشرعية وجدها سهلة ميسرة على

(١) سورة الحشر ، من الآية : ٢

القوى والضعيف والغنى والفقير، مع ما فيها من الترخيص لأصحاب الأعذار بالرخص الكثيرة، كإسقاط الحج عن فاقد الاستطاعة، والصوم عن الحائض والنفساء والشيخ الفانى، وغير ذلك كثير.

ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن بعض الصحابة نذر أن يصوم ولا يفطر ويقوم الليل عابداً ولا ينام، ولا يتزوج النساء، خطب فى الصحابة ناهياً عن ذلك وقال: « إِنِّى لأَخْشَاكُمْ لِلّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّى أَصُومُ وأُفْطِرُ وأُصَلِّى وأَرْقُدُ وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِى فَلَيْسَ مِنِّى » أخرجه الشيخان.

وكانت عبادته صلى الله عليه وسلم وسطًا لا إفراط فيها ولا تفريط، مراعاة للطاقة البشرية لأمته، أخرج مسلم عن جابر بن سمرة قال: « كُنْتُ أُصَلِّى مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَتْ صَلاَتُهُ قَصْدًا وَخُطْبَتُهُ قَصْدًا ».

فعلى المسلمين أن يستقيموا على أمر الله، فإن الدين يسر لا عسر، وليعلموا أن الله مطلع على أعمالهم وعباداتهم ومجازيهم عليها حسب أدائهم لها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

١١٣ - (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) :

بعد أن أمر الله رسوله والمؤمنين بالاستقامة على أمر الله دون إفراط أو تفريط جاءت هذه الآية ناهية عن الميل إلى الظالمين والتعاون معهم.

والمراد بالظالمين الكافرون، أو كل ظالم ولو كان مسلمًا، والمراد بالركون إليهم محبتهم والاعتماد عليهم، والأخذ بمشورتهم، وقد نهى الله فى الآية عن ذلك الركون وتوعد عليه بمساس النار، فإذا كان هذا مآل من يميل إليهم، فما ظنك بمن يشاركهم فى عاداتهم، ويديم معاشرتهم، ويتزيّ بزيهم تقليدًا لهم، ويعاونهم على ظلمهم، لا شك أن عذابه يكون أشد وأعظم، ولهذا تعتبر الآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم والوعيد عليه.

ومما جاء فى السنة نهيًا عن محبتهم ومعاونتهم قوله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ أَحبَّ قومًا حَشَرَهُ اللهُ فى زُمْرتِهم » أخرجه الطبرانى، وقوله: « مَنْ أعان ظالمًا ليَدْحَض بِبَاطله حقًا فقدْ بَرِئَتْ منه ذِمّةُ اللهِ وذِمّةُ رَسُولِه » أخرجه الحاكم، وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « مَنْ دَعَا لِظَالم بالبَقَاء فقدْ أَحبَّ أَنْ يُعْصَى اللهُ فى أَرْضه ».

فعلى كل مسلم أن يكون ولاؤه لله ولدينه ووطنه وإخوانه المسلمين ، قال تعالى : «يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .[1] وقال سبحانه : « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا »[2] .
وبالجملة فإن من أحب الظالمين أو أعانهم على ظلمهم عوقب بالنار بقدر حاله معهم ، وكذلك من استعانوا بهم على قتال إخوانهم المسلمين أو ظلمهم ، أو بعثوا بطائفة منهم للقتال فى صف من يريدون استعبادهم أو ظلمهم .

قال تعالى : « لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ »[3] .

وحكى الزمخشرى فى الكشاف أن الموفق الخليفة العباسى صلى خلف إمامه فقرأ الإمام بهذه الآية فخر الموفق مغشيًا عليه فلما أفاق قال هذا فيمن ركن إلى الظالم فكيف بالظالم؟.

(وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَاتُنصَرُونَ) :

أى إذا ركنتم إلى الظالمين بأى وجه من الوجوه التى مر بيانها مستكم النار معهم ولن يستطيع أحد إنقاذكم أو إنقاذهم من عذاب الله كما قال تعالى: «لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ »[4] .

ولا شك أن المسلمين يدركون من هذا التحذير ، أن عليهم أن يعتمدوا على الله وأن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وأن يحذروا موالاة الظالمين ، وأن يدركوا خبثهم وسوء طويتهم بالنسبة إليهم ، فقد علموا ما قاسيناه من لؤم المستعمرين ، وصداقتهم الزائفة ، فقد استنزفوا دماءنا وأموالنا ، وأساءوا إلى ديننا وأخلاقنا ، وعلى المسلمين أيضًا أن يحولوا بين الظالم وظلمه ، روى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن أبى بكر – رضى

---

(١) سورة التوبة الآية : ٢٣
(٢) سورة النساء الآية : ١٤٤
(٣) سورة آل عمران من الآية : ٢٨
(٤) سورة الأنعام من الآية : ٥١

الله عنه – أنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَايَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ »(١) ألا وإن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك الله أن يعمهم بعقابه ، ألا وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه » .

(وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾)

المفردات :

(طَرَفَيِ النَّهَارِ) : أوله وآخره ، هما الغداة والعشى . (وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ) : وساعات منه قريبة من النهار . (وَزُلَفًا) : جمع زلفة – من أزلفه إذا قربه .

التفسير

١١٤ – (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ) :

بعد أن أمر الله رسوله والمؤمنين بالاستقامة ، وأن يتركوا الركون إلى الظالمين ، أمرهم بما يعينهم على ذلك من اللجوء إلى الله بأداء الصلاة بضع مرات أثناء الليل والنهار .

وقد وجه الأمر فى هذه الآية إلى النبى صلى الله عليه وسلم – مع أن المراد به أمته معه – لأنه إمام المؤمنين ورسولهم ، فتكليفه تكليف لهم ، إلا ما نص على تخصيصه به كالتزوج بأكثر من أربع مجتمعات .

(١) سورة المائدة من الآية : ١٠٥

والمعنى : وأدِّ الصلاة بأركانها وشروطها فى طرفى النهار – الغداة والعشى – فأما صلاة الغداة فهى الصبح ، وأما صلاة العشى ، فهى الظهر والعصر ، وأقم الصلاة أيضا فى ساعات من أول الليل ، بأن تؤدى صلاتى المغرب والعشاء وبهذا التأويل تضمنت الآية الكريمة الصلوات الخمس التى كلف الله بها عباده المؤمنين يوميا .

قال القرطبى : لم يختلف أحد من أهل التأويل فى أن الصلاة فى هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة وخصها بالذكر لأنها ثانية الإيمان وإليها يفزع فى النوائب – وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . اهـ .

(إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) :

هذا التعقيب تعليل للأمر السابق بأداء الصلاة ، يشير إلى أن الحسنات وعلى رأسها الصلاه تكفر السيئات وتذهب الآثام . فإذا حدث من المؤمن انحراف عن الاستقامة ، أو ميل إلى الطغيان ، أو جنوح إلى الظالمين ، وذكر المؤمن ربه وتاب وأناب ، وفزع إلى الصلاة ، غفر الله له ما ارتكبه من آثام فإن الصلاة كما تنهى عن الفحشاء والمنكر تطهر النفوس من الأدران والأوشاب .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يغْتَسِلُ فيه كل يَوْم خَمْسًا ، مَا تَقُولُ : يُبْقِى ذَلِكَ مِنْ دَرَنه ؟ قَالُوا لَا يُبْقِى مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا ، قَالَ فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهَا الخَطَايَا » .

أخرجه البخارى فى كتاب مواقيت الصلوات عن أبى هريرة .

وجاء فى سبب نزول هذه الآية عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امراة قُبلةً حراماً . فأتى النبى صلى الله عليه وسلم . فسأله عن كفارتها فنزلت فقال الرجل أَلِيَ هذه يارسول الله ؟ قال لك ولمن عمل بها من أمتى » أخرجه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح .

وفى معنى الآية يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتَّقِ اللهَ حَيْثُما كُنْتَ وأتبع السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » رواه أحمد والترمذى والحاكم والبيهقى.

وقد يمن الله على عبده إذا أحسن التوبة وأكثر الحسنات فيبدل سيئاته حسنات كما قال سبحانه : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ »(١)

١١٥ - (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) :

إن التزام الاستقامة والقصد ، واجتناب الظالمين ، وإقامة الصلاة فى أوقاتها تامة الأركان والشروط ، كل هذا يستدعى الصبر فلذا أمر الله به فى هذه الآية كما أمر به فى غيرها كقوله تعالى « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا »(٢)

وقد أوصى الله سبحانه بالاستعانه بالصبر والصلاة على أداء الطاعات واجتناب الموبقات حيث قال تعالى : « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ »(٣)

فمن أطاع الله واتقاه وفاه الله أجره كاملا لأنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا « إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »(٤)

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾)

المفردات :

(لَوْلَا) : هلا .(الْقُرُونِ) : جمع قرن ، وقدَّره بعضهم بثمانين سنة ،وبعضهم بسبعين سنة والجمهور على أنه مائة سنة ، والمراد من القرون هنا أهلها من الأُمم السابقة .

---

(١) سورة الفرقان من الآية : ٧٠

(٢) سورة طه من الآية : ١٣٤

(٣) سورة البقرة الآية : ١٤٥

(٤) سورة الأعراف من الآية : ٥٦

(أُولُوا بَقِيَّةٍ) : أصحاب رويَّة وتفكير ، وأطلق عليهم ذلك لأنهم لا يعجلون بإبداء الرأى ، بل يبقونه حتى يمحصوه ، ويدركوا صوابه فيجهروا به

(مَا أُتْرِفُوا فِيهِ) : ما تنعموا به .

التفسير

١١٦ - (فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ) :

هذه الآية تشير إلى الأمم المهلكة التى ورد ذكرها فى هذه السورة ، لو كان فيهم كثير من العقلاء يقاومون الفساد ويضربون على أيدى الطغاة المستبدين ويحتكمون إلى العقل المؤيد للرسالات السماوية ، لو كان فيهم كثير من هؤلاء العقلاء الذين يكفونهم عن الفساد والإفساد لما حقت عليهم كلمة العذاب ، فإن من سنن الله الكونية أن يأخذ الأمم بعذابه الشديد إذا عَمَّ فيهم الفساد وانتشر بينهم الضلال ، وأصبح المعروف بينهم نادرًا ، والمنكر شائعا « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[١]

والمعنى : فهلا وجد من هؤلاء الأقوام المهلكة الذين تقدم ذكرهم فى هذه السورة هلَّا وجد منهم جماعة كثيرة أصحاب بقية من العقل والرويَّة ينهونهم عن الفساد والإفساد فى الأرض، لينجوا من الهلاك . لكن قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن ذلك فسلموا ونجوا منه .

(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) :

أى إن القلة القليلة من العقلاء لم تستطع القضاء على الفساد ، وأما الكثرة الكاثرة الظالمة لنفسها فقد انغمست فى الترف والنعيم وأمعنت فى الفساد والضلال . استجابة لما جبلت عليه من حب الجريمة والإجرام فاستحقت الهلاك والدمار .

(١) سورة النحل من الآية : ٣٣

١١٧ - (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) :

وما صح ولا استقام عقلا أن يهلك الله أهل هذه القرى بظلم وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ويؤمنون بخالقهم ، فإن إهلاكهم وهم مصلحون ينافى صفة الحكمة التى يتصف بها العليم الحكيم ، وينافى السبيل الذى اختاره سبحانه لمعاملة عباده ، وهو الذى جاء فى قوله تعالى: « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[1] وقوله سبحانه: « إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[2] .

(وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾)

المفردات :

(أُمَّةً وَاحِدَةً) : جماعة متحدة فى الدين لا خلاف فيه بينها .

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) : ووجب حكمه وقضاؤه الأزلى - (الجِنَّةِ) : الجن .

التفسير

١١٨ - (وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) :

ولو أراد الله ربك سبحانه وتعالى أن يكون الناس جماعة واحدة فى دينها وتقواها واتزان عقولها ، بحيث لا يقع من أحد منهم كفر ولا إفساد ، لو أراد ربك ذلك لوقع ، ولكنه لم

(١) سورة الأعراف الآية : ٩٦

(٢) سورة يونس الآية : ٤٤

يرده ، بل خلقهم وأودع فيهم العقل ، وأعطاهم الاختيار ، ووضح لهم الطريق ، وأقام الحجة بإرسال الرسل حتى تكون عقيدتهم وعملهم بكسبهم واختيارهم ، ولكنهم اختلفوا بسوء رأيهم فى هذا كله ، وأضاعوا فطرتهم المستقيمة المفطورة على الحق إلا من عصم الله منهم فثبتهم عليه

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) :

ولا يزال الناس مختلفين ، بعضهم على الحق ، وبعضهم على الباطل ، بعضهم يستعمل عقله ، ويسترشد بما رسمه له الرسل فيهتدى ، وبعضهم لا ينتفع بذلك ، بل يتبع هواه فيضل ويغوى .

١١٩ - (إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) :

أى لا يزال الناس مختلفين ، بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل ، إلا من رحمهم الله ربك فهداهم ولطف بهم فإنهم يتفقون على الدين الحق ، ولا يختلفون فيه ، لأنهم يقبلون عليه سبحانه بقلوبهم وعقولهم فيحسن استقبالهم ويعينهم بفضله ورحمته .

(وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) : اللام فى قوله (وَلِذَٰلِكَ) للعاقبة والإشارة راجعة إلى اختلاف الناس

والمعنى : وخلقهم على الفطرة السليمة ، لتكون عاقبتهم أن يختلفوا ، وما كان ينبغى لهم أن ينتهوا إلى ذلك ، وقد منحهم الله العقل والتمييز ، وأرسل إليهم الرسل ليهدوهم سواء السبيل ، ويشهد لهذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفطرةِ فَأَبَوَاهُ يهودَانِهِ أَوْ يُنَصرَانِهِ ، أَوْ يمجّسَانِهِ » وقوله تعالى : « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ »[1] .

ومن العلماء من جعل الإشارة فى قوله : « وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ » إلى الرحمة فى قوله : « إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ » .

---

(١) سورة النساء من الآية : ٧٩

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : معنى (وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) : وللمذكور من رحمة الله تعالى خلقهم ، يريد ابن عباس ومن معه ، أنه تعالى خلقهم على استعداد فطرى لرحمة الله ، لكنهم أفسدوا فطرة الله بسوء اختيارهم ، وحرموها من رحمته جلَّ وعلا .

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) : ووجب قضاء ربك العادل .

(لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) : وجب قضاؤه أن من الخلق من يستحق الجنة لأنه زكى نفسه فأفلح وفاز ، ومنهم من يستحق النار لأنه دنس نفسه بالمعاصى فخاب وخسر ، وأن النار لابد من أنها ستملأُ من الأشقياء من الثقلين الجن والإنس ، الذين لايهتدون بما أنزله الله من كتب ، ولا يؤمنون بمن أرسل من الرسل ، وذلك لعلمه سبحانه وتعالى بكثرة من يختار الباطل على الحق ، ويؤثر الضلال على الهدى بمحض اختياره ، وحرمان أنفسهم من تقبل رحمة الله ومعونته .

(وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ
وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل
لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا
إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ
الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾)

المفردات :

(نَقُصُّ) : من قص يقص ، والقص تتبع أثر الشيء للإحاطة والعلم ، ثم أطلق على الإخبار لما فيه من تتبع الأحداث رواية .

(أَنبَاء) : جمع نبأ وهو الخبر الهام .

(نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) : المراد من تثبيته زيادة ثباته فى أداء الرسالة ، واحتمال أذى الكفار .

(اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) : اعملوا على غاية تمكنكم ، وأقصى استطاعتكم ، أو اعملوا على حالكم ومنزلتكم التى أنتم عليها من الكفر والمعاصى ، والأمر للتهديد .

التفسير

١٢٠ - (وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) :

بعد أن قصَّ الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة قصص أشهر الرسل وعاقبتهم مع أممهم من نجاة المؤمنين ، وإهلاك المكذبين ، ذكر فى الآية فائدة ذكر هذه القصص .

والمعنى : وكل نبأ من أنباء هؤلاء الرسل مع أممهم نقص عليك يا محمد ونخبرك بما نثبت به فؤادك ، حيث تدرك منه أنك لست وحدك الرسول الذى كفر به قومه ، فكل الرسل كانوا كذلك فصبروا حتى ظفروا بإعلاء كلمة الله ، وهزيمة الشرك ودك معالمه ، وإهلاك أهله ، فإذا علمت أن الرسل من قبلك قاسوا ما تقاسى ، هان عليك ما تقاسيه ، فإن البلوى إذا عمت هانت ، وإذا هانت عليك قوى قلبك واشتدت عزيمتك على المضى فى سبيل ربك ، وقوى احتمالك للإيذاء والصبر على أداء الرسالة .

وفى مثل هذا المعنى يقول الله تعالى « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ »(١)

(وَجَاءَكَ فِى هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) :

ولقد جاءك فى هذا القصص من أنباء الرسل وأقوامهم بيان جامع للحق وللموعظة وتذكير المؤمنين ، حيث يتعظون بما حل بالأمم السابقة من هلاك ودمار فيبتعدون عن أسبابه وموجباته .

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٣٤

وإنما عبر بقوله : (وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) مع أنه فى الحقيقة أُنزل لوعظ الناس جميعًا ، لأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بما فى هذه القصص من الوعظ والتذكير .

١٢١ - (وَقُل لِّلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ) :

وقل أيها الرسول للمشركين الذين أعرضوا عن دعوتك فلم يؤمنوا بما جئتهم به ، قل لهم مهددًا وَمُوَعِّدًا : اعملوا بقدر استطاعتكم وتمكنكم ، وبكل ما أُوتيتم من قوة على مقاومة الدعوة والصد عنها ، إنا عاملون فى تبليغ الحق ، دائبون عليه لايثنينا عن عزيمتنا كفركم ولا يردنا عن دعوتنا طغيانكم ، أو عاملون بما أنزله ربنا ، لايصرفنا عنه صارف ، ولا يمنعنا منه كَفَّارٌ أثيم .

١٢٢ - (وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) :

وترقبوا ما تتمنون لنا من هلاك إنا مترقبون أن يحل بكم مثل ما حل بالأُمم السابقة التى كذبت رسل ربها وصدت عن سبيله .

١٢٣ - (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) :

أى ولله وحده علم ما غاب فى السموات والأرض ، فلا يخفى عليه شىءٌ من سركم وجهركم .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ) :

وإليه وحده مرجع الأمر كله فى الدنيا والآخرة ، لا إلى أحد غيره ، فيرجع إليه لا محالة أمرك يا محمد وأمرهم ، فيجازى كلا بما اعمل

(فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) :

وإذا كان مرجع الكل إلى الله وحده لا إلى غيره فدم على ما أنت عليه من عبادته وحده مخلصًا له العبادة ، وتوكل عليه فى جميع أُمورك ، فإنه يكفيك كل ما أهمك ويكفلك فى جميع أحوالك .

واعلم أن الأخذ بالأسباب المشروعة لاينافى التوكل على الله ، ولذا أوجبه الله بقوله : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ »[1] . وقوله : « فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ »[2] . وأمر به الرسول بقوله لصاحب الناقة : « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » : أى اعقل ناقتك أولا ، ثم قل توكلتُ على الله .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ :

وما ربك بغافل عما تعمله أنت من تبليغ رسالة ربك وما يعملونه هم من كفر وإعراض ، بل هو عالم به ، محيط بتفاصيله ، فيرفع شأنك يامحمد ويعلى قدرك فى الدنيا والآخرة ويعاقبهم فيهما بما يستحقون من تعذيب وحرمان .

(١) سورة الأنفال ، من الآية : ٦٠

(٢) سورة الملك ، من الآية : ١٥

سوره يوسف عليه السلام

وهى مكية ، وآياتها مائة وإحدى عشرة آية فقط ، وذكرت بعد هود لما يجمع بينهما من تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بقصص الأنبياء السابقين وما لاقوا من أذى الأباعد كقصص سورة هود وأذى الأقارب كقصة يوسف عليه السلام .

وتمتاز سورة يوسف بأنها تناولت قصته كاملة من أولها إلى نهايتها ، حيث شرحت أمره مع أبيه ومع إخوته فى صغره وشبابه وكهولته فى فقره وفى غناه ، وبينت كيف تآمر عليه إخوته ، حتى ألقوه فى غيابة الجب ، وكيف التقطه بعض المسافرين وباعوه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ، وأنه تربى فى بيت عزيز مصر ، ونشأ فيه نشأة عبد مملوك ، وأن جماله فى شبابه أغرى به زوجته فراودته عن نفسه فاستعصم ، فكادت له عنده ، ودفع به كيدها إلى السجن وعاش فيه بضع سنين ، وكان معه فتيان ، وفى ليلة رأيا فى المنام رؤيا ، وسألاه عن تعبيرها ، فقال فى تعبيرها : « أَمَّا أحدكما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ، وأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ » ، وتحقق تأويله لرؤياهما فقتل أحد السجينين وصلب ، وعفى عن السجين الثانى ، وأصبح ساقيا لملك مصر ، ولما رأى الملك رؤيا أزعجته وفشل الكهنة فى تأويلها ، علم من ساقيه مكانة يوسف فى تعبير الرؤيا ، فاستدعاه فعبرها تعبيراً عرف منه الملك منزلته من العلم ، وبرأته زوجة العزيز مما نسبته إليه ظلما وجعله الملك على خزائن الأرض

ثم بينت القحط الذى أصاب الناس وبينت كيف كان هذا سببا فى حضور إخوته ليتزودوا من الطعام الذى خزنه يوسف ليكون قوتا للناس فى سبع سنين عجاف ، وكيف خزنه حتى سلم من الآفات هذه المدة ، وكيف عاد إليه أبواه وإخوته ، ثم رفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ، إلى غير ذلك من غرائب هذه القصة التى تعتبر عبرا وعظات ينبغى أن ينتفع بها كل ذى عقل رشيد .

وقد بدئت السورة بثلاث آيات فى بيان أحسن القصص ، ثم جىء عقبها بقصة يوسف كاملة ، وختمت بإحدى عشرة آية توضح أهداف القصة والحكم المستفادة منها ، ودلالتها الواضحة على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومما يلاحظ فى هذه السورة الكريمة أنها تصور الفضائل فى أسمى صورها مثل : صبر يعقوب على فراق يوسف ثم فراق أخيه ، وصبر يوسف على ما قاساه من تعرض للهلاك بعد الأمان فى حضن أبويه ، وما عاناه من عبودية بعد الحرية ، وما تعرض له من ظلم فى غيابة السجن دون ذنب جناه .

ومن الفضائل الكبرى فى القصة : العفة فى أسمى صورها فى يوسف عليه السلام ، مع وفرة عوامل الإغراء والإغواء فى شرخ الشباب ، ومن الفضائل الكبرى التى أبرزتها أيضا الثقة بالله وآثارها فإن يعقوب لم يفقد ثقته به ، ولم يقنط من رحمته ، ويوسف لم ييئس ـ وهو فى قرارة السجن ـ من الفرج ، وظل ثابت الإيمان يدعو إلى الله ويعتصم بتقواه ، حتى بدل الله حالهما إلى أحسن حال

كما أبرزت القصة فضيلة العفو والصفح الجميل الصادر من يوسف لإخوته والاستغفار من يعقوب لأبنائه ، ومقابلة الإساءة بالإحسان .

وكما صورت القصة الفضائل فى أسمى صورها صورت أيضا الرذائل فى أبشع مظاهرها حيث صورت حقد إخوة يوسف عليه ، وارتكابهم ماآذى أباهم أشد الإيذاء ، وما عرض أخاهم للهلاك ، كما صورت استهتار زوجة العزيز وإصرارها كل الإصرار على الخيانة الزوجية وإنها لم تكترث بسوء القالة فى حقها ، ولما لم يستجب يوسف لرغبتها ، أغرت به زوجها العزيز وحرضته على إلقائه فى السجن ظلما وعدوانا

وقد بينت سورة يوسف كما بينت سورة هود أن العاقبة للمتقين ، كما بينت أن مع العسر يسراً وأن لكل شدة نهاية ، وأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾)

التفسير

١ - (الٓر) : أسماء حروف بدأ الله عز وجل بها بعض سور[1] كتابه الكريم إشارة إلى أنه مكون من كلمات ذات حروف عربية كتلك التى يتألف منها كلام معارضيه - تحديا لهم أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين فى دعواهم أن الرسول تقوله ، فإذا عجزوا فمحمد مثلهم لايقدر على مثله ، فيجب الإيمان حينئذ بأنه من عند الله أنزله تأييداً لرسوله .

وقيل هى سرٌّ بين الله عز وجل وبين رسوله أوحى الله به إليه عليه الصلاة والسلام ولا يلزم علم جميع الأنام بما يوحيه الله عز وجل لأنبيائه ، فهم قد علموا من الأسرار القدسية مالاتستطيع وعيه العقول البشرية العادية ، روى عن أبى بكر : لكل كتاب سر ، وسر القرآن أوائل السور . وقدتحدثنا عن هذه الفواتح فى أول سورة البقرة وآل عمران وغيرهما مما تقدم .

---

(١) السور المبدوءة بالحروف المفردة تسع وعشرون سوة وهى :

(١) البقرة (٢) آل عمران (٣) الأعراف (٤) يونس (٥) هود (٦) يوسف (٧) الرعد (٨) إبراهيم (٩)الحجر (١٠) مريم (١١) طه (١٢) الشعراء (١٣) النمل (١٤)القصص (١٥) العنكبوت(١٦) الروم (١٧) لقمان (١٨) السجدة (١٩) يس (٢٠) ص (٢١) غافر (٢٢) فصلت (٢٣) الشورى (٢٤) الزخرف (٢٥) الدخان (٢٦) (الجاثية) (٢٧) الأحقاف (٢٨) ق (٢٩) القلم .

(تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ) : الإشارة إلى آيات هذه السورة ، والمراد بالكتاب القرآن عامة والمبين من أبان اللازم بمعنى بان وظهر ؛ أى الظاهر أمره فى كونه حقا من عند الله ، أو الواضح فى معانيه وأغراضه .

أو هو من أبان غيره أى أظهره ، فهو يظهر حقائق الدين ومصالح الدنيا لمن تلاه وتدبر ما فيه . قال تعالى : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ». ولا مانع من أن يكون المعنى عاما يشمل كل ذلك فيكون ظاهراً فى نفسه مظهراً لغيره من الحقائق .

والمعنى : تلك الآيات الواردة فى هذه السورة آيات من الكتاب الواضح فى كونه من عند الله ، الظاهر فى معانيه وأغراضه ، الموضح لحقائق الدين الحق ، ومصالح الدنيا والآخرة .

ولما وصف الكتاب بما يدل على الشرف الذاتى من بعد منزلته ورفعة بيانه وحسن إبانته عقب ذلك بما يدل على الشرف الإضافى فقال :

٢ - (إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) : أى إنا أنزلنا هذا الكتاب على محمد قرآنا عربيا لتستطيعوا قراءته وتعقله وفهمه أيها العرب ، وتكونوا دعاة لشرائعه فى الأمة العربية وغيرها .

٣ - (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) :

آيات القرآن الكريم معجزة فى جميع صورها ، سواءٌ أوردت فى صيغة خطابية أم جدلية أم قصصية ، والقصص التربوى بصفة عامة يعطينا صوراً واضحة للفضائل والرذائل ، حتى تترك آثارها العميقة فى أغوار النفوس البشرية فتقبل على الفضائل لحسن عاقبتها ، وتدبر عن الرذائل لقبح مصيرها .

وقد ساق الله القصص القرآنية ، لنستفيد من روايتها مكارم الأخلاق ونتعظ بعظاتها وعبرها ، حتى نكون بمأمن من عثرات الحياة ومنجاة من أخطار الدنيا والآخرة ، وسورة يوسف مليئة بالعظات والعبر ، فلهذا تعتبر بحق أحسن القصص كما وصفها الله تعالى .

ومعنى هذه الآية ما يلى : نحن نروى لك يا محمد أحسن القصص الواقعى النافع فى شتّى نواحى الحياة ، وإن كنت من قبل إيحائه إليك ، لمن الغافلين عن هذه القصة ، فلم تخطر لك ببال ، ولم يسبق لك بها علم .

قال القرطبى فى بيان كون سورة يوسف أحسن القصص : مسألة اختلف العلماء لم سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص ، فقيل لأنه ليست قصة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة ، وبيانه قوله فى آخرها : «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ». وقيل سماها أحسن القصص بحسن مجاوزة يوسف عن إخوته وصبره على أذاهم ، وعفوه - بعد التقائهم - عن ذكر ما تعاطوه ، وكرمه فى العفو عنهم حتى قال : «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ». وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين ، والملائكة والشياطين ، والجن والإنس ، والأنعام والطير ، وسير الملوك والممالك والتجار والعلماء والجهال ، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد والفقة والسير وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وَجُمَل الفوائد التى تصلح للدين والدنيا .

ثم ذكر عن بعض أهل المعانى أنه قال : إنما كانت أحسن القصص ، لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة ، انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته وامرأة العزيز - قيل - وللملك أيضا ، فقد أسلم وآمن بيوسف ، وكذا مستعبر الرؤيا الساقى ، والشاهد فيما يقال ، فما كان أمر الجميع إلا إلى خير . ا هـ .

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾)

المفردات :

(يَاأَبَتِ) : بمعنى ياأبى ، والتاء عوض عن ياء المتكلم .

(يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ) : يختارك ويصطفيك (تَأْوِيلِ الأَحاديث) : تفسير الأحلام وبيان ما تؤول إليه .

(أَبَوَيْكَ) : المراد بهما الجدان إبراهيم وإسحق بن إبراهيم عليهما السلام ، وأطلق عليهما أبوان لأن الجد أب لغة وعرفا وشرعا حيث يرث ميراثه عند فقده .

التفسير

٤ - (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُم لِى سَاجِدِين) :

هذه الآية الكريمة بداية للحديث عن قصه يوسف التى وصفها الله بأنها أحسن القصص ووعد بأنه سيقصها على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : واذكر يامحمد لمن يعارضون فى نبوتك اذكر لهم قصة يوسف التى لاتعلمها أنت ولا قومك ، ليعلموا أنها من وحى الله وأنت صادق فى دعوى رسالتك ، اذكر

لهم حين قال يوسف لأبيه يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام : ياأبى إنى رأيت فى منامى أحد عشر كوكبا من الكواكب السماوية ، والشمس والقمر ، رأيتها جميعا تركت مواقعها وسجدت لى . وكان إخوة يوسف عليه السلام أحد عشر فجاءت هذه الرؤيا مؤذنة بأنهم سيسجدون ليوسف مع والديه المشار إليهما بالشمس والقمر فالشمس رمز إلى أبيه ، والقمر رمز إلى أمه أو بالعكس ، وقد تحققت هذه الرؤيا تماما ، كما بينه قوله تعالى فى آخر السورة : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ... » (١) .

والرؤيا الصادقة فى النوم قد تكون من الله لأنبيائه فتكون وحيا ، وقد تكون إلهاما للصالحين ، قال صلى الله عليه وسلم : « الرُّؤْيَا الحَسَنَةُ مِن الرجلِ الصَّالحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ » أخرجه البخارى. وقال أيضا : « لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبوةِ إلاَّ المُبَشِّرَاتُ قَالُوا وَمَا المُبَشِّرَاتُ يارسولَ اللهِ ؟ قال : الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالحُ أَوْ تُرَى لَهُ » أخرجه البخارى . وليس بلازم أن تكون الرؤيا الصادقة خاصة بأهل الدين الحق ، فقد يراها غيرهم ويغلب على الظن ، أنها حينئذ لا تكون صريحة بل مؤولة ، كتلك التى رآها ملك مصر الوثنى ، وهى رؤيته سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، وقد أولها يوسف عليه السلام بسبع سنوات خصبة تأتى بعدها مثلها جدباء .

وأحيانا يستدل بها على أمراض معينة ، ولهذا كان أطباء اليونان يعتمدون عليها فى تشخيص المرض عند المريض ، وكان بعض قواد الرومان يعتمدون على رؤاهم فى وضع خططهم الحربية ، لأن لديهم تجارب صحيحة فى تأويلها : انظر مادة الرؤيا فى دائرة المعارف للأستاذ محمد فريد وجدى وأحيانا تكون الرؤيا أخلاطا متباينة وهى المعبر عنها بأضغاث الأحلام وتلك هى التى لا يعرف المعبرون تأويلها لخروجها عن القواعد التى ألفوها فى تعبير الرؤى ــ والله تعالى أعلم .

(١) سورة يوسف من الآية : ١٠٠

وقد استفيد من هذه الآية وما بعدها ما يأتى :

أولا : أن إخوة يوسف كانوا يعرفون تأويل الرؤى ، ولذا حذره أبوه من أن يقص رؤياه عليهم حتى لا يكيدوا له بسبب ما يفهمونه من المعانى التى تشير إليها ، وهى السمو والرفعة ، وأن تكون أسرته مرءوسة له وهو رئيسهم ، إلى غير ذلك من ألوان العز المنتظرة له .

ثانيا : أن تعبير الرؤيا أمر يقره الشرع ولا ينهى عنه وأنه حقيقة علمية يمكن الانتفاع بها ، فقد أشار والده إلى مآل رؤياه وتعبيرها ، إشارة غير خفية ، إذ أفهمه أن إخوته إذا سمعوها أوَّلوها برفعة له مستقبلا وأنهم لذلك سوف يكيدون له ، كما دلت الآية الثانية على أنه تعالى سيعلم يوسف من تأويل الأحاديث أى تعبيرها ، وأن ذلك من تمام النعمة عليه .

وقد جاء فى فضل الرؤيا الصادقة قوله صلى الله عليه وسلم : « لَمْ يَبْقَ بَعْدِى مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ إلاَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ الصَّادِقَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ » .

وقال : « الرُّؤْيَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ » . والحديثان صحيحان وليس بلازم أن تكون الرؤيا الصادقة جزءا من النبوة دائما ، فقد وقعت من بعض الكفار وممن لا يرضى دينه ، كرؤيا ملك مصر الوثنى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، ورؤيا السجينين الوثنيين فى السجن ، وسيأتى فى هذه السورة بيان تلك الرؤى وتأويلها ، ورؤيا بختنصر التى فسرها دانيال فى ذهاب ملكه ، ورؤيا كسرى فى ظهور النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن كان وقوعها من هؤلاء وأمثالهم على سبيل الندرة والقلة (١) .

كما أنه ليس بلازم أن يكون الإخبار بالغيب ناشئا عن نبوة ، فقد يخبر الكاهن بخبر غيبى فيصدق ، بممارسة بعض أنواع الرياضات الروحية . أو استخدام الشياطين الذين يسترقون السمع من الملأ الأعلى ، ويفلتون من الشهب الراصدة التى يقذفون منها من كل جانب .

(١) انظر القرطبى فى المسألة الرابعة من تعليقه على قوله تعالى : «قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك . . . » الآية .

ثالثا : أفاد قوله تعالى : « قَالَ يَابُنَيَّ لَاتَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ » أنها لا تقص على غير شقيق ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها ، قيل لمالك : أَيَعبر الرؤيا كلُّ أحد ؟ فقال أَبِالنُّبوَّة يلعب ؟

وقال أيضا : لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها ، فإن رأى خيرا أخبر به ، وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت ، قيل فهل يعبرها على الخير وهى على المكروه ، لقول من قال : إنها على ما تأولت عليه فقال : لا. ثم قال : الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة .

رابعا : أفادت أيضا أن للمسلم أن يحذر المسلم ممن يخافه عليه ولو مسلما أو ابنا ولا يكون بذلك داخلا فى إثم الغيبة ، لأن يعقوب قد حذر ابنه يوسف من أولاده الآخرين من أن يقص رؤياه عليهم حتى لا يكيدوا له ، كما أنه يستفاد ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا ، وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « اسْتَعِينُوا عَلَى إنجاحِ حَوَائِجِكُم بالكِتْمانِ فإنَّ كُلَّ ذِى نِعْمةٍ مَحْسُودٌ » .

٥ ــ (قَالَ يَابُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) :

لما سمع يعقوب من يوسف رؤياه ، أدرك أنها إلهام من الله وبشرى بأن يوسف ينتظره مستقبل سعيد يجعله رئيسا كبيرا ، وأن أسرته جميعا ستكون فى جملة من يعظمه كما أدرك أن إخوته إن علموا برؤياه هذه يكيدون له ويدبرون المكايد حسدا له ، كما حدث من قابيل مع أخيه هابيل ، حيث قتله من أجل امرأة ، وأحدث بذلك أول جريمة بشرية على الأرض ، ولهذا أوصى ابنه يوسف قائلا : يابنى لا تخبر إخوتك برؤياك التى تشير إلى رفعتك عليهم ، فيحرضهم الشيطان عليك ، فيكيدوا لك كيدا شديدا ، إن الشيطان للإنسان عدو بين العداوة ، واضح الكراهية ، حريص على إشعال النار بين أفراده ، أقارب كانوا أو أباعد ، تنفيذا لوعيده لآدم :

« لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً »

٦ - (وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ....) :

المراد بالتشبيه في قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ) بيان المماثلة بين الصورة المرئية في عالم المثال - وهى التى حدثت فى المنام - وبين الذى سيقع فى عالم الشهادة والواقع .

والمعنى : ومثل هذا الاجتباء والاصطفاء العظيم الذى شاهدته فى عالم المثال والنوم ، حيث بدا لك يايوسف أنه تعالى سخر لك تلك النيرات العلوية فخضعت لك ، مثل هذا الاجتباء وعلى سنته يسخر لك الله وجوه الناس ونواصيهم - ومنهم أهلك - مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ، ويصطفيك ربك لجنابه على أشراف الخلائق وسراة الناس قاطبة . فيجعلك رسولاً وملكا على عرش مصر دون سواك ، ويبرز مصداق تلك الرؤيا فى عالم الشهادة والواقع ، حسبما عاينته مناما من غير قصور .

(وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) :

المراد من تأويل الأحاديث تعبير الرؤى ، فإن الرؤى أحاديث الملك إن كانت صادقة واضحة ، أو أحاديث النفس أو الشيطان إن كانت غير ذلك .

وكما بشر يعقوب ابنه يوسف عليهما السلام - بأنه تعالى سيصطفيه للرسالة والملك ، بشره أيضا بأنه سبحانه سيعلمه من تأويل الأحلام ، مشيرا بذلك إلى السبيل الذى سيسلكه حتى يصل إلى العز الدنيوى المدخر له ، فإنه وصل إليه عن طريق تعبير الرؤيا لصاحبى السجن ، ثم رؤيا الملك ، وهذا العز الذى سيؤول أمر رؤياه إليه ، هو بعض ما عبر عنه بإتمام النعمة فى قوله تعالى :

(وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ) :

فإنه شامل لعز النبوة والملك ، والمراد من آل يعقوب بنوه ، وحفدته ، وإتمام النعمة بهذه الرؤيا على آل يعقوب لأنها مؤذنة بأنهم سيكونون كواكب يهتدى بأنوارهم ، حيث خرج من ذريتهم الأنبياء كما أنهم سوف ينالون من عز يوسف وجاهه وماله حيث سجدوا له وخضعوا لسلطانه ، وكل ذلك سيحدث ويتم به الله نعمته عليك يايوسف وعلى آل يعقوب .

(كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ) :

إسحق جد يوسف الأول وإبراهيم جده الثانى ، وإطلاق لفظ الأب عليهما لغة وعرفا وشرعا لأن الجد أب ، وإتمام النعمة على إبراهيم باتخاذه خليلا وإنجائه من النار ومن ذبح ولده ، وإتمامها على إسحق بنبوته ونبوة ولده يعقوب ، وجعل الأنبياء فى ذرية ولده يعقوب. واعلم أنه لا يجب فى التشبيه أن يطابق المشبه المشبه به من كل وجه فيكفى فيه وجود بعض الصفات مشتركة بينهما .

(إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

هذه الجملة مستأنفة لتحقيق مضمون الجمل المذكورة ، أى يفعل ما ذكر لأنه محيط العلم بكل شىء فيعلم من يستحق الاجتباء وما يتفرع عليه من النعم ، حكيم فيما يقدره ويشاؤه ، فيكون دائمًا موافقا للصواب مجانبًا للخطأ .

(۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾)

المفردات :

(عُصْبَةٌ) : أى جماعة ، وتطلق لغة على الجماعة من الرجال عشرة فصاعدًا ، أطلق عليهم ذلك ، لأن الأمور تعصب بهم [1] أى تشتد بهم وتقوى .

(ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : خطأ بين واضح ، وأصل الضلال البعد عن الطريق الموصل إلى الغاية .

(١) أنظر البيضاوى .

التفسير

٧ - (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ) :

بينت الآيات السابقة أن يوسف عليه السلام أخبر أباه برؤياه وأن والده أولها برفعة شأنه فى مستقبل حياته ، فلهذا أوصاه أن لايقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيداً ، لأن الشيطان للإنسان عدو مبين ، وجاءت هذه الآية وما بعدها إلى آخر السورة لتحدثنا عن كيد إخوته له ، لما رأوه من حب أبيه له أكثر من حبه لهم ، ولتذكر لنا ما آل إليه أمر يوسف من علو الشأن وسمو المنزلة تحقيقًا لرؤياه ، وما تخلل ذلك من أحداث عظام ، وآيات تلك السورة مترابطة ترابطًا مسلسلا وثيقًا ، انفردت به عما سواها من سائر السور ، لأنها تضمنت قصة واحدة متتابعة الحلقات .

والمقصود من إخوة يوسف إما جميعهم ، ويدخل فيهم شقيقه بنيامين الذى احتجزه يوسف فى مقابل صواع الملك - كما سيأتى الحديث عن قصته وَإِمَّا إخوته لأبيه الذين كادوا له فلم يفلحوا ، ورفعه الله مكانًا عليا ، وعلى أى الوجهين ففيهم جميعًا آيات للسائلين .

والمقصود من السائلين إما كل من سأل عن قصتهم وعرفها ، وإما المشركون واليهود خاصة ، فقد سألوا الرسول عنها امتحانًا له ، وإما الطالبون للآيات والعبر ليتعظوا بها ، لصفاء نفوسهم ، دون غيرهم .

وإليك المعانى وفقًا لهذه الاحتمالات كما يلى :

المعنى الأول : لقد كان فى قصة يوسف وإخوته جميعًا علامات عظيمة الشأن على قدرة الله تعالى الباهرة لكل من سأل عن قصتهم وعرفها ، فإنها تدل على أنه تعالى لا يصلح عمل المفسدين ، وأنه وحده هو الذى ينجى من أحاطت به أسباب التهلكة ، ويرفع من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويحقق الأمل بعد اليأس .

المعنى الثانى : لقد كان فى قصة يوسف وإخوته علامات واضحة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لمن سأله عنها من المشركين واليهود ، حيث أخبرهم بها على ما هى عليه من غير

سماع من أحد ولاقراءة فى كتب ،وهذا قاطع بأن الذى نبأه بها هو العليم الحكيم ، تأييدًا لرسالته ودليلا على صحتها .

المعنى الثالث : لقد كان فى أحداث قصة يوسف وإخوته علامات واضحات لطالبى العبرة الذين يتعظون بآيات الله تعالى ، فتخبت لها قلوبهم ، وتنصرف بها إلى مرضاة الله نفوسهم ، فهى تحرك القلوب الراكدة وتنبه النفوس النائمة ، إلى أن الملك لله ، لايجرى فيه حدث إلا بمشيئته ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، ولا يستطيع أحد أن يضع من رفعه الله ، إلى غير ذلك من العظات .

٨ـ (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

اذكر أيها السائل عن قصتهم حين قال بعضهم لبعض : والله ليوسف وأخوه الشقيق (بنيامين) أحب إلى أبينا منا مع أننا جماعة قوية يشتد بنا ساعده ، فما باله يحبهما أكثر من حبه لنا ، ويؤثر القلة على الكثرة ؟ إن أبانا فى ترجيحهما فى المحبة علينا لفى بعد عن طريق العدل بين واضح ، وخطأ فى الرأى جلى بعد به عن الصواب ، وفاتهم أن الفضل فى الرجال ليس بالكثرة بل بسمو الروح ، وصفاء النفس وغلبة الخير ، وكل ذلك كان فى يوسف وشقيقه بنيامين وقد اجتمع إلى ذلك ما دلت عليه رؤيا يوسف عليه السلام من الجاه العظيم والعز الرفيع الذى ينتظره عند الله والناس ، فكان ذلك كله باعثا على أن يؤثرهما يعقوب عليه السلام بمزيد من الحب ، أكثر من بقية إخوتهما ، فحقدوا عليهما وتآمروا على يوسف ليخلوا لهم وجه أبيهم حيث إنهم يرونه السبب الأول فى عدم اهتمامه بهم دون بنيامين ، فلذا أفردوا يوسف بالتآمر على قتله ، وذلك ما حكاه الله عنهم بقوله :

٩ ـ (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ) :

أى وقال بعضهم لبعض أيضًا : اقتلوا يوسف بأى وجه من وجوه القتل أو ألقوه فى أرض مجهولة بعيدة عن بلادنا بحيث لايستطيع الرجوع ، فإن التغريب كالقتل فى حصول المقصود مع السلامة من إثمه ، فإن فعلتم واحدًا منهما .

(يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ) : ويفرغ لكم فلا ينازعكم فيه أحد .

وخلو وجهه لهم كناية عن إقباله عليهم بوجهه وإيثارهم بحبه حيث لا ينازعهم فى ذلك أحد .

(وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ) :

المراد من صلاحهم صلاح أمرهم مع أبيهم ، وانتظام شئون دنياهم .

والمعنى : اقتلوا يوسف أو ابعدوه عن أرضنا بحيث لا يستطيع الرجوع إليها ، يفرغ لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعد التخلص منه قومًا صالحين مع أبيكم ، بأن يكون أكثر حبًّا لكم وإقبالًا عليكم ، وأن تنتظم معه شئون دنياكم فيكثر من بركم وإغداق الخير عليكم ، بعد يأسه من عودة يوسف ، وخفاء أمره عليه .

وفسر الكلبى صلاحهم بتوبتهم إلى الله تعالى مما فعلوه بيوسف ، ويبعده أن المتآمر على قتل أخيه لايعقل أنه يفكر حين تآمره فى مرضاة الله كما أنه لايظن أن مثل هؤلاء يفكرون فى صلاح أمرهم بالتوبة إلى الله ، وهم يعلمون أن شرائع الله تعالى أجمعت على الحكم الذى جاء فى سورة النساء ، بقوله تعالى : « وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا »[1] فهو من الأحكام التى لاتختلف فيها الشرائع ، وقد نشأوا فى بيت النبوة فلا يخفى هذا الحكم عليهم ، فالصواب أن الصلاح الذى أرادوه هو صلاح دنياهم ، وهو الذى دعاهم إلى التفكير فى التخلص من يوسف ، فهم طلاب دنيا وليسوا أهل تقوى .

(قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(غَيَابَةِ الْجُبِّ) : الجب البئر قبل أن يبنى محيطها ، وأطلقه بعض اللغويين على البئر مطلقًا ، وغيابة الجب : قاعه ، وفسره الهروى بكهف أو طاقٍ فيه فوق الماء ، وأطلق عليه غيابة لأنه يغيّب مافيه عن العيون . (السَّيَّارَةِ) : الجماعة التى تسير .

(١) سورة النساء ، الآية : ٩٣

التفسير

١٠ - (قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَاتَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ) :

لايزال مجلس التآمر منعقدًا ، ولكنه لم يخل من وجود داع من دواعى الخير فى قلوب بعض الإخوة ، إذ أراد صرفهم عن الجريمة البشعة إلى ما يحقق غرضهم من الإبعاد ، ولكنه يبقى على حياة أخ صغير لاحول له ولا قوة ولابد أن الجب الذى اقترح إلقاء أخيه فيه كان معروفًا لهم وكان ضحل الماء حيث يبقى على حياة أخيه يوسف حتى يلتقطه بعض السيارة ، فلذا قال لهم : ألقوه فى غيابة الجب ولم يقل ألقوه فى غيابة جب[١] .

ويلاحظ أن ماقاله الهروى من أن غيابة الجب كهف فيه لايناسب هنا ، فإن إلقاءه من أعلى الجب يوصله إلى قاعه لا إلى كهف فيه فوق الماء كما قال ، وخاض بعض المفسرين فى تعيين صاحب هذا الاقتراح ، فالسّدى يقول هو (يهوذا) وقتادة وابن إسحاق يقولان هو رابيل ، ومجاهد يقول هو شمعون ، إلى غير ذلك ولم نجد سندًا لواحد من هؤلاء المفسرين ، فلذا لانستطيع تعيينه ، وإنما لم يذكر واحد منهم باسمه فى الآية سترًا على المسىء ، وكل واحد منهم لم يخل من الإساءة ، ولكن مراتبها تتفاوت .

والمعنى : قال قائل منهم عز عليه قتل أخيه بلا ذنب جناه ، لاتقتلوا يوسف قتلا مباشرًا - ولا تطرحوه فى أرض يتعرض فيها للموت ، ولكن ألقوه فى قاع البئر المعروفة لنا بقلة مائها ، فإن فعلتم ذلك يلتقطه حيًّا بعض الجماعات السيارة فى الصحراء حين يدلون بدلائهم فيها ليستقوا منها ، فيتعلق بها فيبعدوه عن بلادنا إلى حيث يجد رزقه ويبقى حيًّا .

(إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) :

أى إن كنتم مصرين على إبعاده عن أبيه ليخلو لكم وجهه ، فاعملوا بمشورتى ، ليتحقق لكم مرادكم ، ويبقى أخونا حيًّا فلا نأثم بقتله .

---

(١) نقل القرطبى عن وهب بن منبه أن هذا الجب كان على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب - عليه السلام - والله أعلم .

(قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(يرْتَع) : أصل الرتع أن تأكل وتشرب ما تشاء فى خصب وسعة ، وذكر الراغب أنه حقيقة فى أكل البهائم ، ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير ا هـ .

والمراد به هنا نشاطه فى الأكل المستتبع لحسن نموه ، ولذا قرنوه باللعب ، فإنه يساعد على ذلك .

(لَيَحْزُنُنِى) : بفتح الياء وقرئ بضمها . وكلاهما بمعنى يجعلنى حزيناً .

التفسير

١١ - (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) :

بعد أن وافق إخوة يوسف على ما عرضه عليهم أحدهم بإلقاء يوسف فى غيابة الجب - بعد أن وافقوه على ذلك أخذوا فى أسباب تنفيذه ، ومهدوا لذلك بطلبهم من أبيهم أن يوافق على خروجه معهم ، إذ قالوا له استدراراً لعطفه ، واستجلاباً لقبوله ، وبثًّا للثقة فى قلبه : يا أبانا أى شىء يجعلك لاتأمنا على أخينا يوسف. وأنت أب لنا جميعًا ونحن إخوة شركاء فى الانتساب إليك بالبنوة ، وإنا جميعًا له لمخلصون نريد له الخير ونشفق عليه ، يريدون بذلك استنزاله عن رأيه فى حفظه منهم وتخوفه عليه

من كيدهم لما بدا له من حسدهم ليوسف.وتعبيرهم بقولهم لأبيهم : (يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ) الآية تؤذن بأنهم طلبوا قبل ذلك من أبيهم أن يخرج يوسف معهم ، فلم يوافق على ما طلبوه ، فقالوا هذه العبارة متعجبين من رفضه لطلبهم ، مع أنه أبوهم جميعًا وهم جميعًا أبناؤه ، وأنهم يريدون الخير ليوسف ويشفقون عليه ، ويؤكدون ذلك بما تضمنته جملة : (وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) من المؤكدات المختلفة[1] ، ولم يتركوا أباهم يفكر فيما عرضوه عليه وأشفقوا من أن لايجيبهم إلى ما طلبوه فلاحقوه بما يسد عليه باب الرفض، وذلك قولهم له فيما حكاه الله عنهم .

١٢ - (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) :

يريدون بذلك المقال أن يسدوا عليه باب التفكير فى رفض طلبهم ، حيث حددوا له فيه اليوم التالى لذهابه معهم ، وطلبوا ذلك منه طلب الواثق من الإجابة ، وعيَّنوا له الغرض الذى طلبوه من أجله ، وهو أن يرتع ويلعب معهم ، وكلاهما يحبه الأب لأطفاله ، ويحبه الأطفال لأنفسهم وأكَّدوا أنهم جميعًا له حافظون .

والمعنى أرسل معنا يوسف فى رحلة رياضية ، يأكل ما يشتهى فيها ، حيث يطيب الطعام فى الرحلة ، ويلعب ما يشاءُ من ألوان اللعب النافع لبدنه وروحه ، كالاستباق والاصطياد وألعاب الفروسية ، (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وما نظن أنك تخيب رجاءنا أو تشك فينا بعد الذى شرحناه لك .

فلما انتهوا من التماسهم أجابهم أبوهم بما حكاه الله بقوله سبحانه :

١٣ - (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) :

طوى يعقوب فى نفسه ما يشعر به من كيدهم ليوسف ، وقال معتذرًا مشفقًا عليه : إنى ليحزننى ويؤلمنى أن تذهبوا به ويكون بعيدًا عنى لشدة شفقتى عليه ، وقلة صبرى عنه ، وأخافُ أن يأكله الذئبُ ، وأنتم عنه غافلون .

---

(١) وهى «إن» و«اللام» فى قوله : « لناصحون » وتقديم لفظ «له» على «ناصحون» وكون الجملة اسمية .

ولم يصرح لهم بما يراه من سبب غفلتهم حتى لايتهمهم صراحة بالتقصير فى شأنه ، وقلة مبالاتهم به ، بل تركهم يحملونه على نحو اشتغالهم عنه بما خرجوا من أجله . وهو الرتع واللعب ، فأجابوه بما يفيد أنهم لن يغفلوا عنه ، ولن يشغلهم عن حفظه ما سيكونون فيه من الرتع واللعب ، لكى يطمئن عليه ويرسله معهم ، وقد حكى الله ذلك بقوله :

١٤ - (قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ) .

أى قالوا لأبيهم ليطمئنوه على يوسف إن خرج معهم: والله لئن أكله الذئب وهو معنا فى هذه الرحلة ونحن جماعة محيطون به يشد بعضنا بعضا ، لئن أكله الذئب ونحن كذلك إنا حينئذ لخاسرون سمعتنا وكرامتنا بين قومنا ، ونحن لانقبل على أنفسنا هذا الهوان .

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥))

المفردات :

(أجمعوا) : أى عزموا - يقال : أجمع الأمر وعليه أى عزم فيه .

التفسير

١٥ - (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَتِ الْجُبِّ ...) الآية .

تقدم بيان أن إخوة يوسف من أبيه تشاوروا فيما بينهم فى الطريقة التى يتخلصون بها من يوسف عليه السلام ، لأنه يستحوذ على معظم حب أبيه يعقوب ، وهم يريدونه لهم وحدهم ، وأنهم لذلك طرحوا اقتراحين لاختيار أحدهما ، (أولهما) أن يقتلوه قتلا مباشرا ، (وثانيهما) أن يلقوه فى مكان بعيد يصعب عليه فيه العودة إلى أبيه .

وذكرنا أن أحدهم نهاهم عن قتله ، واقترح عليهم أن يلقوه فى غيابة الجب ، وأنهم وافقوا على اقتراحه هذا وأخذوا فى تنفيذه ، فبدأوا يعتبون على أبيهم أنه لا يأمنهم على يوسف مع أنهم له ناصحون ، وطلبوا منه أن يرسله معهم إلى مراعيهم التى بها مواشيهم ،

حيث يرتع ويلعب - أى يتسع فى الطعام فيأكل ما يشاء ، ويلهو معهم ، وتعهدوا بأنهم له حافظون ، ولما أظهر لهم خوفه من إهمالهم له ، حتى يأكله الذئب وهم عنه غافلون أكدوا له أنهم سيحرسونه فهم عصبة وجماعة قوية ، فلن يستطيع أن يأكله منهم ، وأنه لو أكله منهم وهم كذلك خسروا سمعتهم وكرامتهم بين الناس ، لأنهم لم يستطيعوا أن يحفظوا أخاهم وهم عصبة ، فوافقهم على ذهابه معهم ، بعد كل هذه التوكيدات منهم .

وقد بينت هذه الآية ، أنهم نكثوا عهدهم مع أبيهم وفيما يلى معناها :

فلما ذهب إخوة يوسف به من عند أبيهم بعد ما زعموا له أنهم ليوسف ناصحون حافظون ، وقد أجمعوا فى قرارة نفوسهم أن يلقوه فى الجب الذى يجعله غائبا عن أعين طالبيه .. فلما ذهبوا به وهم على هذا الإجماع . نفذوا ما أجمعوا أمرهم عليه ، وألقوه فى غيابة الجب ، وخانوا أباهم ونكثوا معه عهدهم . وأوحى الله إلى يوسف عليه السلام ، وهو فى محنته هذه ، تبشيرا له بما يؤول أمره إليه ، وإيناسا له وإزالة لوحشته ، لتتخلصن مما أنت فيه يا يوسف من سوء الحال وضيق المجال ، ولتخبرن إخوتك بما فعلوه بك ، وهم لا يشعرون - وأنت تخبرهم - بأنك أنت يوسف الذى ألقوه فى غيابة الجب ، لأنك تحدثهم وأنت فى حال رفيعة المقدار جليلة الهيبة ، حيث تكون على أريكة الملك وهم فى ذلة الحاجة إليك ، وذلك ما سيحكيه الله مجملا بقوله فى هذه السورة : « قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ »

والمؤرخون يتحدثون عما فعله إخوته معه قبل إلقائه فى الجب من شتم ولطم وضرب حتى أوشكوا أن يقتلوه ، وأن قلوبهم لم ترق لاستغاثته بكل واحد منهم وبكائه من شدة قسوتهم ، بل نزعوا قميصه ، ليلطخوه بالدم بعد عودتهم إلى أبيهم بدونه ، وجعل يطلبه منهم ليتوارى به فلم يكترثوا بطلبه ، ثم دلوه فى البئر حتى بلغ نصفها فتركوه ليقع فى البئر ،

وأنهم كانوا يقولون له شامتين ، ادع الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر التي سجدت لك لتؤنسك في قاع هذا البئر ، إلى غير ذلك من التفاصيل البشعة .

وبما أن هذه التفاصيل لم تجد لها سندا ، فلهذا لا نستطيع الجزم بها وإن كنا لا نستبعدها ، فإن من أرادوا قتله ، لا يبعد عليهم أن يصنعوا ما هو دونه .

(وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(عِشَاءً): أول الظلام ، وقيل من المغرب إلى ثلث الليل ويسمى العتمة .

(مَتَاعَنَا) : ما نتمتع به من الثياب والطعام ونحوهما .

(بِمُؤْمِنٍ لَّنَا): بمصدق لنا فيما نقوله .

(سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا): أي سهلته لكم حتى ارتكبتموه .

التفسير

١٦ ، ١٧ ــ (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ . قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ) :

وبعد ما اقترفوا جريمتهم بإلقاء يوسف في غيابة البئر ، جاءوا أباهم ليلا يتصنعون البكاء ، وشرحوا له سبب بكائهم قائلين :

يا أبانا ذهبنا فى مرتعنا الذى كنا نرتع فيه ، ذهبنا نتسابق فى العدو والرمى ، وتركنا يوسف عند متاعنا وخصائصنا التى نتمتع بها من الثياب والأزواد وغيرهما حيث المكان أمين فى ظننا — فأكله الذئب فور تركنا يوسف، وقبل أن يمضى زمن يعتاد فيه التعهد والتفقد ، فنحن لم نقصر بعدم وضعه فى مكان أمين . ولم نغفل عن مراقبته ، بل تركناه فى مأمننا ، ومجتمع أمتعتنا التى نحرص عليها ، وعلى مرأى منا ، وما فارقناه إلا زمنًا يسيرًا ، وبيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان .

ولما كانوا يعرفون أن إفكهم هذا لايصدقه أبوهم قالوا عقب ذلك :

(وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) :

أى وما أنت بمصدق لنا فيما قلناه ولو كنا عندك صادقين[1] لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا ، غير واثق بقولنا ، وقد ذكر المفسرون والمؤرخون كلامًا كثيرًا فى هذا اللقاء الذى حدث بينهم وبين أبيهم ، ومن ذلك أنه لما سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟ أجرى فى الغنم شيء ؟ قالوا : لا ، قال : فأين يوسف ؟ قالوا : ذهبنا نستبق فأكله الذئب ، فبكى وصاح وقال : أين قميصه؟ فلما جاءوه به ألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئبًا أحلم من هذا ، أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه ، وقيل إنهم لما قالوا له أكله الذئب خر مغشيًّا عليه ، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ، وروى أن يهوذا لما رأى ذلك قال : ويل لنا من ديان يوم الدين ضيعنا أخانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السَّحَر ، إلى آخر ما قيل مما لم نجد له سندًا ، فلهذا لانستطيع القطع به .

(١) قال العلامة أبو السعود فى تعليقه على حرف (لو) فى قولهم « ولو كنا صادقين » قال : وكلمة (لو) فى أمثال هذه المواقع لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق من الحكم إثباتا ونفيا فى جميع الأحوال ، بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ، ليكون سواها أولى بالحكم وقد تقدم الكلام على مثله فى قوله تعالى فى سورة البقرة : « أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » اهـ

ويستفاد من الآية أن بكاء المرء لايدل على صدق مقاله ، فما أكثر البكاء المصنوع ، ويستفاد منها أيضًا أن الاستباق مشروع .

قال ابن العربي : المسابقة شرعة فى الشريعة ، وخصلة بديعة ، وعون على الحرب ، وقد فعلها النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه وبخيله ، وسابق عائشة على قدميه فسبقها ، فلما كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقته ، فقال لها : « هذه بتلك » .

وقد أجمع المسلمون على أن السبق لايجوز على وجه الرهان إلا فى الخف والحافر والنصل ، قال الشافعى : ماعدا هذه الثلاثة فالسبق فيها قمار اهـ .

والأصل فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لَا سَبْقَ إِلَّا فى نَصْلٍ أَوْ خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ » .

وقد زاد أبو البخْتَرِى القاضى كلمة « أو جناح » فى روايته لهذا الحديث ، يريد بزيادتها إرضاء الرشيد حيث كان يتسابق بالحمام فكشف الرشيد وضعه ، وأقصاه من مجلسه وامتنع العلماء من كتابة حديثه ، ووصموه بالوضع وتعمد الكذب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

١٨ – (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ..) :

أى وجاءوا بعد إخبارهم أباهم بأكل الذئب ليوسف ، جاءوا بقميصه ملوثًا بدم مزور مكذوب فى شأنه ، حيث زعموا أنه دم يوسف أثناء افتراس الذئب له ، يريدون أن يجعلوه برهانًا على صدقهم فيما زعموه من أكل الذئب له ، ولكنه لم يقتنع بأنَّ هذا الذى فوق القميص دم ولده يوسف وقال :

(... بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) :

أى ليس الأمر كما زعمتم من أكل الذئب له ، بل سهلت لكم أنفسكم الكارهة له أمرًا منكرًا فظيعًا نحوه لايعلمه إلا الله فصبر منى جميل ، لاتشوبه منى شكوى لغيره جل وعلا .

ولما كان الصبر الجميل الذى ألزم نفسه به، لايقوى عليه وهو رازح تحت خطبه الجسيم، فلهذا استعان عليه بربه قائلًا :

(وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) :

أى والله هو المطلوب منه العون لى على احتمال ما تقولونه فى شأن يوسف كذبًا .

واعلم أن الوصف فى اللغة ذكر الشىء بنعته، وهو قد يكون صدقًا، وقد يكون كذبًا، والمراد به هنا الثانى، كما فى قوله تعالى: « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ »[1] .

قال الآلوسى : بل قيل إن الصيغة غلبت فى ذلك ونحن نقول : إن من هذا الاستعمال قوله تعالى : «وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ »[2] .

روى ابن عباس وغيره أن يعقوب عليه السلام لما تأمل القميص فلم يجد فيه خرقًا ولا أثرًا استدل بذلك على كذبهم وقال لهم : متى كان الذئب حكيمًا، يأكل يوسف ولايخرق القميص؟

وروى عنه أيضًا أنه قال : كان الدم دم سخلة[3] ، وأن يعقوب لما نظر إلى القميص قال : كذبتم، لو كان الذئب أكله لخرق القميص .

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(سَيَّارَةٌ) : جماعة تسير . (وَارِدَهُمْ) : الوارد : هو الذى يرد الماء ليستقى منه، والضمير فى : (وَارِدَهُمْ) يعود على السيارة بحسب المعنى، أى وارد القوم الذين يسيرون، ولو رجع إلى السيارة بحسب اللفظ لقيل : واردها، وكلاهما جائز لغة .

(١) الصافات الآية : ١٨٠ (٢) النحل من الآية : ٦٢

(٣) السخلة : ولد الشاة .

(فَأَدْلَى دَلْوَهُ) : أى أرسلها إلى الجبِّ ليملأها ، وأما دلاها فمعناهُ جذبها ليخرجها . ذكره القاموس ، وحكاه القرطبى عن الأصمعى وغيره .

(وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً) :وأخفوه متاعًا للتجارة ، وسمى مال التجارة بضاعة ،لأنه بضعة من المال العام – أى قطعة منه .

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ) :أى باعوه بثمن مبخوس – أى منقوص من بخسه إذا نقصه .
(دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ) : أى دراهم قليلة . ومن هذا المعنى قوله تعالى فى شأن قلة أيام الصيام « أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ». (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) : أى من الذين لا يرغبون فيما بأيديهم .

التفسير

١٩ – (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ) :

أى وبعد إلقاء يوسف فى البئر وعودة إخوته إلى أبيهم جاءت جماعة من المسافرين إلى مصر ، ونزلوا قريبًا من هذه البئر التى ألقى فيها يوسف . فأرسلوا الذى يرد الماء لهم عادة ، ليستقى لهم من هذه البئر . فأرسل دلوه وأنزلها فى البئر ليملأها ماء ، وأمسك بحبلها ليجذبها به ، فتعلق يوسف بالحبل ، فثقلت الدلو على الوارد ، فأعانه على جذبها مساعدوه من الرفقة الذين جاءوا معه ليستقوا لقومهم .

(قَالَ يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ) :

قال هذا الوارد الذى يستقى للجماعة السيارة مستبشرا فرحا ، يابشرى هذا غلام كأنه نادى البشرى ، وقال لها أقبلى فهذا أوانك : حيث فاز بنعمة خرجت له فجأة من حيث لا يحتسب .

وظاهر الآية أنه قال : (يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ) قبل أن يخرج يوسف من البئر وبعد إدلاء الدلو ، ولعلها لما ثقلت عليه حين انتزاعه إياها ، خاطبه يوسف مستنجدا به لينقذه بإخراجه من غيابة الجب ، ويشبه أن يكون هذا هو المتبادر ، وإن كان يجوز أن يكون هذا القول بعد إخراجه إياه واطلاعه على حسنه والله تعالى أعلم .

(وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً) :

قلنا إن واردهم الذى ذهب ليستقى لهم كان معه بعض الرفقاء ليعينوه فى استخراج الماء وحمله إلى جماعتهم التى نزلت عن قرب من الجب ، ويدل لذلك قوله تعالى :

(وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةَ) :بضمير الجماعة ، كما تدل له طبيعة المهمة التى أرسل الوارد من أجلها ، فإنها تقتضى أن يقوم بها عدد منهم .

وبعد هذه المقدمة نقول : إن يوسف كان رائع الجمال ، وقد جاء فى حسنه قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث المعراج بصحيح مسلم ، « فإِذَا أنا بِيُوسُفَ إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِىَ شَطْرَ الحُسْنِ » ، فلما رآه وارد الماء ومرافقوه فى هذا الجمال عديم المثال (أَسَرُّوهُ بِضَاعَةً) : أى أخفوه متاعا للتجارة ، أى ــ أخفوه ــ عن باقى جماعتهم التى أرسلتهم لاستقاء الماء والمراد أنهم أخفوا أمره عنهم ، فلم يقولوا لهم إنهم أخرجوه من الجب حتى لايشاركوهم فى ثمنه إذا باعوه لتجار الرقيق بمصر ، بل قالوا لهم مايجعل الأمر فيه لهم ، كقولهم : إن أصحاب الماء أعطونا إياه لنبيعه لهم بمصر ونرد لهم الثمن ، ونقل القرطبي عن ابن عباس أنه قال : أسره إخوة يوسف بضاعة لما استخرج من الجب وذلك أنهم جاءوا فقالوا : بئسما صنعتم ، هذا عبد لنا أبقَ ، وقالوا ليوسف بالعبرانية : إما أن تقر لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء وإما أن نأخذك فنقتلك فقال : أنا أُقِرُّ لكم بالعبودية ، فباعوه منهم وقيل غير ذلك ــ والله أعلم .

(وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) :

هذه الجملة وعيد لإخوة يوسف على ماصنعوه بشأنه من تآمرهم على قتله ، ثم إبداله بإلقائه فى الجب ، وتعريضه للعبودية .

٢٠ ــ (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) :

كلمة (شرى) تستعمل تارة بمعنى اشترى وأخرى بمعنى باع ، فهى تستعمل فى الضدين

وهى هنا بمعنى باع ، أى وباعوه بثمن قليل ناقص عن القيمة التى تؤدى لأمثاله من الرقيق ، وكان البائعون فيه من الزاهدين الذين لا يرغبون فى بقائه معهم ، وسبب ذلك أنهم التقطوه ، والملتقط للشىء متهاون فيه لكونه لقطة ، ولخوفه أن يظهر له مستحق فينتزعه منه ، فلهذا باعوه بالوكس لأول مساوم ليتخلصوا منه .

قال العلامة أبو السعود : ويجوز أن يكون معنى « شروه » الخ اشتروه من إخوته - على ما حكى - وهم غير راغبين فى شرائه خشية ذهاب مالهم لما طنّ [1] فى آذانهم من الإباق ، أى لما سمعوه من إخوته من أنه عبدهم هرب منهم ، فهم لهذا تساهلوا فى ثمنه ، ليتعجلوا التخلص منه قبل أن يهرب منهم ، كما هرب من بائعيه الذين زعموا أنه عبدهم وأنهم مالكوه .

(وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾)

المفـردات :

(أَكْرِمِى مَثْوَاهُ) : أكرمى موضع ثَوَائِهِ أى إقامته - من ثوى بالمكان - أى أقام به -
(مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ) : أى جعلنا له فيها مكانًا ثابتًا .

(وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) : أى غالب على الأمر الذى يشاؤه ، فلا يستعصى عليه مراده ، أو معناه غالب على أمر يوسف ، فهو الذى يتولاه ويدبره ولا يكله إلى غيره .

(١) طن بالطاء أى تردد فى آذانهم .

التفسير

٢١ - (وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ من مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ) :

وبعد أن باعه الذين أخرجوه من البئر بثمن زهيد ، قال الذى اشتراه منهم من أهل مصر لامرأته : اجعلى محل ثوائه - أى محل إقامته- كريمًا حسنًا مرضيًا ، يريد من هذه العبارة تكليفها بإكرام يوسف على أبلغ وجه ، لأن إكرام محل إقامته بالعناية بشئونه ، يستلزم إكرامه هو ، فإن من قام بالعناية بمحل الضيف نظافة وفرشا ، فإنما يفعل ذلك لأجل الضيف ، فما ظنك بالعناية به هو شخصيًّا - فإنها تكون آكد وأعظم .

وهذا الذى اشتراه من أهل مصر هو عزيز مصر لقوله تعالى : « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ . . . . » .

قال الضحاك : العزيز : هو ملك مصر . وقال ابن عباس : هو وزيره قطفير .

(عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) :

وقد أوصى العزيز الذى اشترى يوسف امرأته بالعناية به والاهتمام بشأنه كله . وقال لها عسى أن ينفعنا فى قضاء مصالحنا إذا تدرَّب وعرف مجارى الأمور ، أو نتخذه لنا ولدًا ، فيكون شأنه منَّا شأن ولد الصلب . وإنما قال العزيز ذلك لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة .

أخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه وجماعة عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « أَفْرَسُ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ : العَزِيزُ حِينَ تَفَرَّسَ فى يُوسُفَ ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ :(أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)وَبِنْتُ شُعَيْبٍ حِينَ قالتْ لِأَبِيهَا فِى مُوسَى ،(يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ) وأَبو بَكْرٍ حِينَ اسْتَخْلَفَ عُمَرَ » .

قال ابن العربي تعليقًا على هذا الخبر : عجبًا للمفسرين فى اتفاقهم على جلب هذا الخبر ، وليس كذلك فيا نقلوه ، لأن الصّدّيق إنّما ولّى عمر بالتجربة فى الأعمال ، والمواظبة على الصحبة وطولها والاطلاع على ما شاهده منه من العلم والمنة ، وليس ذلك من طريق الفراسة ، وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البينة ـ على ما يأتى بيانه فى (القصص) وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة ، لأنه لم تكن معه علامة ظاهرة . ا هـ[1] .

وإنما قال العزيز : (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) لأنه كان حصورًا لا يولد له كما قال ابن العباس ، وابن إسحاق .

(وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) :

أى وكما أنقذناه من إخوته ومن الجب ، وجعلنا له مكانًا عظيمًا فى قلب العزيز الذى اشتراه ، حتى أمر امرأته دون سواها من خاصته بإكرام مثواه ، جعلنا له مكانة رفيعة فى أرض مصر ، حيث عرف فيها بأخلاقه الرفيعة ـ إلى جانب ما أضفاه العزيز عليه من البنوّة ، وما أعطاه الله إياه من الوجاهة ـ جعلنا له هذه المكانة فى الأرض ليترتب عليها ما جرى بينه وبين امرأة العزيز قبل أن يسجن ولنعلمه بعض تأويل الأحلام ، فتظهر براءته مما نسبته امرأة العزيز إليه ، وليؤدى ذلك إلى المرتبة العليا ، والرياسة العظمى كما سيأتى بيانه فى رؤيا السجينين ورؤيا ملك مصر ، وكما يشير إليه قوله تعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ) :

أى والله غالب على أى أمر يريده ، لا يحول أحد دون تحقيقه ، فإنه إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون ، ويدخل فى أمره تعالى شئون يوسف عليه السلام .

والضمير على هذا التأويل راجع فى كلمة (أمره) إلى الله تعالى ، وقيل :إنه عائد إلى يوسف ، أى والله غالب على أمر يوسف يدبره ويحوطه ولا يكله إلى غيره ، حتى لا يصل إليه كيد كائد .

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) : أى الأمر كله لله تعالى . فيزعمون أن لهم من الأمر شيئا « قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ »

(١) أنظر الآلوسى فى خبر ابن مسعود ص ١٨٥ جـ ١٢ طبعة منير ، والقرطبى ص ١٦٠ جـ ٩ طبعة دار الكتب فى تعليق ابن العربى .

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(بَلَغَ أَشُدَّهُ)[1] : استكمل قوته الجسدية والعقلية .

(آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) : أعطيناه حكمة وفقها فى الدين .

التفسير

٢٢ - (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ) :

علم من الآيات السابقة أن يوسف عليه السلام ، كان فى بيت عزيز مصر ، يعامل معاملة كريمة ، بوصية من العزيز ، وأنه عومل هذه المعاملة رغبة فى أن ينفعهم حينما يكتمل نموّه ، أو أن يكون لهم ولدًا ، لما كان يبدو عليه من مخايل الرشد والنجابة وأنه تعالى مكّن ليوسف فى أرض مصر بسبب مافطر عليه من هبات الله التى حببته إلى أهلها وما أسبغه عليه العزيز من العناية فى التربية ، وقد جاءت هذه الآية لتبين لنا طرفًا آخر من قصته ، وذلك حين جاوز مرحلة الصبا إلى مرحلة الشباب وبلوغ الأشد ، واختلف فى المراد بالحكم والعلم فى الآية ، فمن قال : إنه أوتى النبوة صبيًا ، وفسّر الآية بقوله : ولما بلغ أشده زدناه فهما وعلما ، فوق النبوة ، وقد حمله على ذلك قوله تعالى فى شأن يوسف قبل استخراجه من غيابة الجب : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ » .

(١) يرى سيبويه أن أشد جمع ، واحده شدة ، ويرى الكسائى أن مفرده شد ، وقال أبو عبيد لاواحد له من لفظه .

فالإيحاء هنا على رأيه هو إنزال الملك إليه بالوحى . ومن قال إن الإيحاء حينئذ كان إلهاما أو نحوه ، فسر الحكم بالنبوة ، والعلم بعلم الدين ، وإلى هذا ذهب ابن عباس حيث قال : الحكم النبوة ، والعلم الشريعة .

ومنهم من فسر الحكم بالحكمة ، وهى حبس النفس عن هواها ، وصونها عمَّا لا ينبغى ، وفسر العلم بالعلم النظرى ، ومنهم من فسر الحكمة والعلم بالحكم بين الناس وعلم مصالحهم وشئونهم ، فإن الناس كانوا إذا تحاكموا إلى العزيز ، أمره أن يحكم بينهم ، لما رأى من عقله وإصابته فى الرأى . ويقتضينا هذا الخلاف ، أن نفسر الآية الكريمة تفسيرًا يتفق مع ماسبقها وما يليها ، حيث يناسب المقام والمناخ الذى سيقت له ، ولا يمنع من قبول أى رأى من هذه الآراء فنقول :

ولما بلغ يوسف منتهى قواه الجسدية والعقلية ، وأصبح أهلا لتحمل أعباء الحياة والحكم بين الناس فى قضاياهم المختلفة ، وتوجيههم إلى الخير والبر والهدى . آتيناه حكمة فى القول ، وإصابة فى الحكم وعلمًا غزيرًا ، وبَصَرًا بالأمور . ومثل ذلك الجزاء الجميل ، نجزى كل من يحسن فى عمله .

(وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(وَرَاوَدَتْهُ) : المراودة : الرفق فى الطلب ، يقال فى الرجل راودها عن نفسها ، وفى المرأة ، راودته عن نفسه .

(وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ) : أحكمت إغلاقها . (هَيْتَ لَكَ) : هيت اسم فعل أمر بمعنى : أقبل وبادر ، واللام فى (لَكَ) للبيان – أى لك أقول هذا – كما فى هلم لك ، وقُرِىء : (هِئْتُ لَكَ) بكسر الهاء وبالهمز وضم التاء بمعنى تهيأت لك . فهو فعل ماض وفاعله .

(مَعَاذَ اللهِ) : أستجير بالله وأعوذ به معاذا مماتدعيننى إليه .

(إِنَّهُ رَبِّى) : إنه سيدى الذى ربانى .

(أَحْسَنَ مَثْوَاىَ) : أحسن إكرامى فى مثواى ومقامى عنده فلا أخونه

(هَمَّتْ بِهِ) : عزمت وأصرت على مخالطته .

(وَهَمَّ بِهَا) : شرع يدفعها عن نفسه .

(لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) : أى حجته التى منعته من الانتقام منها .

التفسير

٢٣ – (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) :

تحدثت الآيات السابقة عن شراء عزيز مصر ليوسف ، وأنه أمر زوجته دون سواها أن تكرمه وتعنى به لعله ينفعهم أو يتخذونه ولدًا ، وأنه بذلك وبما كان عليه من العقل والوجاهة وحسن المعاشرة مع الناس مكن الله له فى الأرض ، وأنه لمَّا بلغ أشده آتاه الله الحكمة والعلم . فاكتمل شبابه بالقوة والحكمة والعلم إلى جانب ما هو عليه من الجمال حتى بلغ شطر الحسن كما قال صلى الله عليه وسلم .

وكانت امرأة العزيز ترى هذا كله أمامها ، وتشعر فى نفسها أنه جدير بالإعجاب والحب ، فأُعجبت به وأحبته وراودته عن نفسه كما جاء فى هذه الآية الكريمة ، أى طلبت منه مخالطتها : وأصل المراودة الطلب برفق ولين . ومن هذه المادة يطلق الرائد على طالب الكلإ والماء ، وصيغة المفاعلة تقتضى حدوث الفعل من الجانبين كقاتل وضارب وصارع وغالب ، ولكنها قد تستعمل من جانب واحد كما فى مطالبة الدائن ومماطلة المدين ومداواة الطبيب وغير ذلك ، والمراودة هنا كذلك ، فإنها من زوجة العزيز ليوسف ، أما هو فقد استعصم – كما سيأتى بيانه – وكما يشير إليه قوله تعالى : (عَن نَّفْسِهِ) فإنه يشير إلى أنها تخادعه وتريد أن تجتذب منه مطلبها ، قال الزمخشرى : أى فعلت ما يفعله

المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده : يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ـ الخ اهـ .

والمعنى : واحتالت امرأة العزيز التي هو في بيتها حيث موضع التكريم والعناية ، احتالت عليه وطالبته برفق وخديعة ، أن يمكنها من نفسه فيخالطها مخالطة الرجل للمرأة ، وغلقت الأبواب التي توصل إليهما وأحكمت إغلاقها ، وقالت هيت لك[1] ـ أي أسرع[2] والطالب موجه لك ـ فكأنها تقول إرادتي كائنة لك .

وقد وقعت هذه المراودة من نفس يوسف موقع الإباء والرفض حيث قال لها : (. . . مَعَاذَ اللهِ) :

أي أعوذ بالله تعالى معاذا مما تريدين مني فهو أمر منكر هائل يستعاذ بالله للخلاص منه ومن سوء عاقبته ، وعلل رفضه لطلبها بما عسى أن يصرفها عنه ، ويدعوها إلى مراجعة نفسها والإقلاع عن خيانتها لزوجها ، مما سمعته منه من أنه لا يصح أن يخونه وقد أحسن إليه وذلك قوله لها .

(إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ) : أي إن الأمر والشأن الخطير الذي يمنعني من إجابتك هو سيدي الذي رباني وأحسن تعهدي ، حيث أمرك بإكرامي فكيف أسيء إليه بخيانته في حرمه .

واختار أبو حيان أن الضمير لله تعالى ، والمعنى على هذا إن الله تعالى خالقي أحسن مثواي بعطف قلب من أمرك بإكرامي : فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة ثم أيد يوسف امتناعه عن تلبية مطلبها وعلله بعلة أخرى فقال :

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) : أي إن الشأن في سنة الله في خلقه وعدالته هو أنه لا يفوز الظالمون في دنياهم وأخراهم ، أما دنياهم فيعاقبون فيها بالعلل والأسقام ، والذل بعد العز ، والفقر بعد الغنى ، وغير ذلك من الآفات وأما أخراهم فالجحيم والزمهرير ، ومن فاتته عقوبة الدنيا ، أدركته عقوبة الآخرة « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ »[3] .

---

(١) اللام في كلمة (لك) لتبيين من له الخطاب كما في (سقيا لك) .

(٢) وقيل إنه اسم فعل ماضي معناه تهيأت لك ، وبهذا التأويل وافقت قراءة مروية عن ابن عباس (هئت لك) بكسر الهاء وبالهمزة الساكنة وضم التاء .

(٣) سورة إبراهيم الآية : ٤٢

٢٤ ـ ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ :

حكت الآية السابقة موقف يوسف الحاسم أمام مراودة امرأة العزيز له وطلبها مخالطته ، وتهيئتها كل الأسباب لاجتذاب ميله ، وأولها تهيئة نفسها له ذاتا وثيابا وتغليقًا للأبواب وآخرها دعوة رقيقة له بقولها تهيأت لك ولم أتهيأ لغيرك ، ولابد أن هذه الدعوة التى حكاها القرآن هى إجمال كريم لدعوة مختلفة الأساليب تجيدها المرأة الوالهة ، ويعف القرآن الكريم عن التصريح بها ، وكان رد يوسف الحاسم عليها هو قوله لها :

﴿ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ :

ولقد ظن يوسف أن هذا الذى قاله لها سيجعلها ترجع عن موقفها الشائن نحو زوجها ونفسها ونحو ربيب نعمتهم ذى الأخلاق الفاضلة التى لاتسمح له بالخيانة لرب نعمته ، ولكنها لم ترعو عن غيها وانتهت إلى موقف آخر يتسم بالعزم والإصرار على تنفيذ جريمتها وهو ما حكته هذه الآية من قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ : ولكنه عليه السلام أصر على موقفه السلبى منها ، وعزم على وضع حد لتشبثها . فمانعها وهمَّ بإيذائها ، وفيما يلى معنى الآية على هذا التأويل الذى تطمئن له نفوسنا .

المعنى : ولقد همت امرأة العزيز بيوسف عليه السلام تجذبه إلى نفسها . وتوسعه لوما على موقفه منها مع أنها هى التى طلبته وراودته ، وأذلت له نفسها ، وهو فى نظرها عبد لها وهى سيدته ، ولكنه همَّ بها يدفعها عن نفسه وكاد يضربها لمزيد إصرارها على مخالطته . لولا أن رأى فى ضميره برهان ربه يصرفه عن ضربها ، لأنها آوته وأكرمته ، ولأنه لو ضربها لادعت أنه راودها ، ولما امتنعت من إجابته ضربها . لولا ذلك لضربها وانتقم منها لهذه الجريمة التى دبرتها له وهو منها برىء ومعصوم .

﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ :

أى فعلنا مثل ذلك التثبيت بالبرهان مع يوسف ـ عليه السلام ـ لنصرف عنه السوء . وهو ضرب من أكرمته وآوته ، ولنصرف عنه الفحشاء التى دعته إليها ـ وهى المخالطة ـ إنه من عبادنا الذين أخلصناهم لنا وهم آباؤه الذين أخلصهم ونقَّاهم

من شوائب النقص ، فقد قال الله تعالى فيهم « وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ »(١)

وفسرها بعض العلماء بقوله : ولقد همت به المرأة ضربا – لأنه أذلها وحطّم كبرياءها ، وهم بها دفاعا عن نفسه . ولكن ماقلناه أولى ، فإن حبها الشديد له وجذبها له من قميصه يمنع من أنها تفكر فى ضربه ، ولهذا نرجح ما قلناه قبل ذلك ، وقيل الهم منها عزم وإصرار على المعصية ، ومنه مجرد خطور بالبال بمقتضى الطبيعة البشرية مع الاعتصام بالتقوى . وسمى باسم الأول مشاكلة . ويدل لذلك أن الله تعالى مدحه بأنه من عباده المخلصين . ولا يكون ذلك إلا مع سلامة الإرادة وقوة الوازع المتمثل فى برهان ربه . وهذا ليس قادحا فى العصمة . فإنه تعالى هو العاصم وقد عصمه ببرهانه ، وهو الحجة التى أقامها الله فى نفسه على التحريم حين المراودة منها له ولجاجتها عليه وقوة البرهان وسلطانه على إرادة الأنبياء ينتهيان دائما إلى العصمة من دواعى البشرية المحرمة ، ولاشك أن الامتناع مع الخطور بالبال يدل على قوة الوازع وقوة الإرادة أكثر من الامتناع مع عدم وجوده – ومع جودة هذا الرأى فما قلناه أولاً هو أفضل الآراء . وهو ما وفقنا الله له . والله تعالى أعلم .

وقد ضربنا صفحا عما سطره بعض المفسرين من القصص الهابطة التى ذكرت فى تفسير الآية . وينبو قلمنا عن تسطيرها .

(١) سورة ص ، الآيات : ٤٥ – ٤٧

(وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا
لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ
أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ) أى تسابقا إليه ، كل يريد أن يصل إليه قبل الآخر : هى لتمنعه من الخروج وهو ليهرب منها .

(وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ) : أى قطعت قميصه من خلفه . والقد : القطع . وأكثر ما يستعمل فى القطع الطولى . أما القط فيستعمل فى القطع العرضى . . . قاله القرطبى وغيره .

(وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ) : ووجدا زوجها – عزيز مصر – عند الباب الذى تسابقا إليه ، وهو الباب الأخير الذى يؤدى إلى خارج ما غلقت أبوابه .

التفسير

٢٥ - (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ...) :

حكت الآيتان السابقتان الحب الشديد الذى أخرج امرأة العزيز عن الوقار ، وأذلَّها حتى هبطت إلى أن تراود يوسف ربيب نعمتها عن نفسه ، وتحكم إغلاق جميع الأبواب حتى تستحكم خلوتها به . ولا ينغص عليها فى مخالطتها له منغص ، ودعته برفق إلى قضاء لبانتها من مخالطته إياها ، وأنه أبى عليها هذه الجريمة التى تختان بها زوجها ، وتحمله على أن يشاركها فى هذه الخيانة مع أنه أحسن إيواءه وتربيته ، كما حكت أنه عليه السلام :

استعاذ بالله ولجأ إليه لكي ينقذه من هذا الإثم والظلم المبين ، وأنها قابلت هذا الامتناع الحازم من يوسف بمزيد من الهمة والإصرار وتحريضه على مخالطتها بمختلف الوسائل ، من جذب ولوم وأسى وغير ذلك ، وأنه لم يجد بدًّا من أن يهم بضربها لتكف عن غيها ، ثم تراجع عما همَّ به من إيذائها حين رأى فى قرارة نفسه وبإلهام من ربه ، رأى حجة الله وبرهانه على أن إيذاءها وهو يمنعها عن نفسه ، سوف تتخذه دليلا على أنه هو الذى طلب مضاجعتها ، فلما أبت عليه ضربها وآذاها ، فلهذا كف عنها .

وجاءت هذه الآية لتبين أن كليهما قد أسرع إلى الباب ، فأما يوسف فقد أسرع إليه ليتخلص من شَرَكَ هذه المرأة الوالهة وشرها ، وأما هى فقد أسرعت لتمنعه من الهرب وتحمله على الاستسلام إليها ، ولما سبقها هو إلى الباب جذبت قميصه من خلفه جذبة قوية ترتب عليها قطع القميص من خلفه ، حيث كانت تجذبه منه وعندما وصل الأمر بينهما إلى هذه الحال وجدا سيد المرأة - أى زوجها - عند الباب . الذى أراد يوسف الخروج منه - وكان قد فتح - حتى أصبحا وجها لوجه أمام العزيز لدى الباب ، ولم تصرح الآية بمن فتحه ، فهل فتحه العزيز لما وصل إليه خبر هذه الاحتياطات التى اتخذتها امرأته لمراودة يوسف ، أو فتحه حين وصلت إليه أصوات المشادة التى حصلت بينهما ، أو أن يوسف هو الذى سبق إليه وفتحه ، وصادف مجىء العزيز حينئذ ، وهذا هو الظاهر ، لأن المرأة كانت قد غلقت الأبواب من الداخل فلا تفتح إلا من الداخل ، والمراد من الباب هنا الباب الأخير الموصل إلى الخارج ، وهو الذى رأيا سيد المرأة عنده ، أما الأبواب الأخرى التى غلقتها فلابد من أن يوسف كان قد فتحها مسرعا قبل أن يصل إلى هذا الباب الأخير الذى أدركته عنده وشقت قميصه وهى تجذبه إليها حتى لا يفلت منها بعد أن وصل إليه ، ولما وجدت نفسها أمام زوجها فى هذه الحالة النكراء ، برَّأت نفسها ومكرت بيوسف بأخبث أسلوب ، وذلك ما حكاه الله تعالى بقوله :

(... قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى قالت امرأة العزيز لزوجها حين رآهما على هذه الحالة : ما جزاءُ هذا الذى دخل على مخدعى وأراد سوءًا بزوجك التى هى أهلك وعرضك الذى يهمك أمره ، ما جزاؤه سوى

أن يسجن ليمنع شره عن النساء ، أو عذاب شديد الإيلام ، حتى لا يعاود مثل هذه الإرادة الرعناء .

بهذه الحيلة أرادت أن تبعد التهمة عن نفسها وأن تهدد يوسف بمقدرتها على سجنه وتعذيبه طمعا فى أن يستجيب لها اضطرارا بعد أن فقدت الأمل فى أن يستجيب لها اختياراً لكن يوسف لم يأبه لتهديدها ـ كما سيتضح بعد من قوله : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » بعد قولها : « وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ » وسيأتى بيان ذلك .

٢٦ ـ (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ...) :

أى قال يوسف للعزيز دفاعا عن نفسه بعد أن اتهمته زوجته بأنه أراد اغتصابها : قال يوسف لم يحدث منى شىء مما تقوله ولكن الذى حدث أنها هى التى راودتنى على أن أنزل لها عن نفسى ولم أوافقها على ما طلبته منى . وبهذا حصل التعارض بين اتهامها ودفاعه ، واحتاج الفصل فى القضية إلى شاهد ، وذلك هو ما قصه الله تعالى بقوله :

(... وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) :

اختلف المفسرون فى هذا الشاهد ، فقيل : إنه طفل فى المهد شهد بما فصله الله بعد ، وكان من أهل امرأة العزيز ـ قال السهيلى ـ وهو الصحيح ـ للحديث الوارد فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله : « لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ » وذكر منهم شاهد يوسف .

وقال القشيرى أبو نصر : قيل كان صبيًّا فى المهد فى الدار وهو ابن خالتها .

وقيل : هو رجل حكيم ذو عقل كان العزيز يستشيره فى أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، وكان مع زوجها ، فقال : قد سمعت الاستباق والجلبة وراء الباب وشق القميص ، فلا يُدرَى أيكما قُدَّامُ صاحبه ، فإن كان شقُّ القميص من قُدَّامِه فأنتِ صادقة ، وإن كان من خلفه فهو صادق ، فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف .

ونسب هذا القول إلى الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد والسدى .

قال السدى : كان ابن عمها ، وروى عن ابن عباس وهو الصحيح فى الباب والله أعلم ا هـ . ذكره القرطبى .

وقال أبو جعفر النحاس : والأشبه بالمعنى – والله أعلم – أن يكون رجلا عاقلا حكيما شاوره فجاء بهذه الدلالة ، ولو كان طفلا لكانت شهادته ليوسف – صلى الله عليه وسلم – تغنى عن أن يأتى بدليل من العادة ، لأن كلام الطفل آية معجزة فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة .

ونحن نرى أن الذى قاله أبو جعفر النحاس هو الأجدر بالقبول فكلام الشاهد كلام رجل حكيم ذى بصر بالأمور ، وليس فى النص الكريم ما يدل على أنه طفل ، بل يوجد فى صحيح السنة ما يفيد حصر المتكلمين فى المهد فى ثلاثة ، وليس فيهم شاهد يوسف ، فقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه . أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لَم يَتكَلَّمْ فِي المَهْدِ إلا ثَلاَثَةٌ : عيسَى بنُ مَرْيَمَ ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ ، وَصَبىٌّ كَانَ يَرْضَعُ مِنْ أُمّهِ ، فَمَرَّ رَاكِبٌ كَانَ حَسَنَ الهَيْئَةِ ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا ، فَتَرَكَ الصَّبيُّ الثَّدْىَ وَقَال : اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِى مِثْلَهُ » .

وقد اعتبر الطيبى هذا الحديث يرد الحديث السابق المروى عن أحمد ، انظر الآلوسى جـ ١٢ والقرطبى جـ ٩ والله أعلم .

ويلاحظ أن هذا الكلام من القريب لا يعتبر شهادة ، لأنه لم ير شيئا مما حدث ؛ ولكنه لما كان يرشد إلى دليل الحكم ، أطلق عليه شهادة مجازا ، لأنه يشبهها فى التوصيل إلى الحكم الصحيح .

والمعنى : وأرشد مرشد حكيم من أهل امرأة العزيز إلى دليل الحكم ، بعد ما علم باتهامها ليوسف ، وبما قاله يوسف دفاعا عن نفسه ، وقد اشتبه الأمر واحتاج إلى مرجح فقال : إن كان قميص يوسف شق من قدامه ، فقد صدقت فى دعواها أنه أراد بها سوءًا فهو قرينة على أنه بادرها بالاعتداء ، فنازعته وأخذت بتلابيبه من قدامه ، وجعلا يتصارعان وهى ممسكة

بتلابيبه فشق القميص فى يدها من قدامه وهو يخلصه منها ، وهو حينئذ من الكاذبين فى دعواه أنها راودته عن نفسه فا متنع .

٢٧ – (وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

أى وإن كان قميصه شق من خلفه فقد كذبت فى دعواها أنه هو الذى أراد بها سوءًا ، وهو من الصادقين فى قوله : أنها هى التى راودته عن نفسه ، وأنه أسرع إلى الباب ليهرب منها ، ووجه دلالة شقه من الخلف على صدقه ، أنه يؤذن بأنها تبعته وجذبت ثوبه من الخلف لتمنعه من الهروب مما دعته إليه .

قال القرطبى فى المسألة الثالثة : فى هذا الموضوع مايفيد أن الحكم بالأمارات عند فقد الشهود يؤخذ به فى اللقطة وكثير من المواضع ، حتى قال مالك فى اللصوص : إذا وجدت أمتعة معهم فادعاها قوم وليست لهم بينة فإن الحاكم ينتظر بعض الوقت ، فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم .

وقال محمد فى متاع البيت إذا اختلف فيه الرجل والمرأة : إن ما كان للرجال فهو للرجل ، وما كان للنساء فهو للمرأة وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل .

وكان شريح وإياس بن معاوية يعملان العلامات فى الحكومات أى فى القضايا التى لا شهود فيها ، وأصل ذلك هذه الآية : ا هـ

(فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(مِن كَيْدِكُنَّ) : من احتيالكن ومكركن أيتها النساء .

(مِنَ الْخَاطِئِينَ) : من المذنبين المتعمدين : من خطىء المرءُ إذا تعمد الذنب ، ومضارعه يخطَأُ بوزن يأْثَم بفتح الثاء ومصدره الخطءُ بكسر الخاء بوزن الإثم .

التفسير

٢٨ - (فَلَمَا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) :

أى فلما رأى سيدها - أى زوجها - قميص يوسف شق من خلفه . قال لامرأته : إن اتهام يوسف بأَنه أراد بك سوءًا ناشىءٌ من كيدكن أيتها النسوة للرجال ، فأَنت التى راودتِه فلم يفعل ، وفرَّ منك فاجتذبتهِ إليكِ وأَنتِ كاذبة فى نسبة إرادة السوء إليه .

وقد أصاب العزيز فى الحكم بأَن كيد النساء عظيم ، لأَنه أشد تأْثيرًا فى النفس ولأَنه قد يورث من العار أَشد مما يورثه كيد الرجال ، ولتفرغهن لهذا الفن أَكثر منهم ، ولهذا كن أعظم وسائل الشيطان فى عصيان الله - تعالى - قال حكيم : « ما أَيس الشيطان من أحد إلا أَتاه من جهة النساء » .

ولهذا قال بعض العلماء : أَنا أخاف من النساء مالا أَخاف من الشيطان ، فإنه - تعالى - يقول فى حق الشيطان : « إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا » وقال فى حق النساء : « إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ » .

٢٩ - (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) :

بعد ما ظهرت براءة يوسف، وكيد المرأة، قال العزيز : يا يوسف أعرض عن هذا الإثم ولا تلتفت إليه، ولا تتحدث عنه، حتى لا تفتضح امرأتى بين الناس، واستغفرى أنتِ أيتها المرأة من ذنبك الذى صدر عنك فى حقى وحق يوسف إنك كنت من صنف الخاطئين الآثمين المتعمدين اقتراف الذنب، ولم يحدث منك عفوًا .

ويلاحظ أنه أمر امرأته بالاستغفار لذنبها، والاستغفار طلب الغفران، والتجاوز عن الذنب، وهذا يحتمل أنه يريد أن تطلب منه الصفح والمغفرة لما بدا منها، أو أن تطلب الغفران من الله - تعالى - إن كانوا يعتقدون أن لهم إلٰهًا أكبر من آلهتهم التى يعبدونها ، وأنهم يتقربون بعبادتهم إياها إليه كشأن عبدة الأوثان فى كل مكان، ولعله يشير إلى ذلك قول يوسف: « يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » .

(۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(نِسْوَةٌ) : جماعة من النساء لا واحد له من لفظه .

(امْرَأَةُ الْعَزِيزِ) : زوجته .

(تُرَاوِدُ فَتَاهَا) : تطالب فتاها بمضاجعتها وتخادعه عن نفسه .

(شَغَفَهَا حُبًّا) : شق حبه شغاف قلبها ، والشغاف حجاب القلب – والمراد أن حبه تمكن من قلبها .

(ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : بُعْد عن طريق الصواب والعفة بيِّن واضح .

(مُتَّكَئًا) : ما يتكأُ عليه من النمارق والوسائد .

(أَكْبَرْنَهُ) : أعظمنه وتهيَّبنه .

(حَاشَ لِلَّهِ) : تنزيهًا له عن صفات العجز والنقص ، والمراد التعجب من حسن يوسف .

التفسير

٣٠ – (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا) :

كان لمراودة امرأة العزيز ليوسف – عليه السَّلام – دوى هائل بين القصور ، فتناولتها الألسنةُ حتى قال نسوة من عقائل أشراف المدينة – عجبًا من هذه المرأة وانتقاصًا لها كيف تنزل امرأة عزيز مصر – وهى فى مكانها الرفيع – إلى هذا الحد الوضيع ، فتراود فتاها عن نفسه وتطالب غلامها بمخالطتها ، قد تمكن حبه من قلبها فملأه ولم يدع فيه مجالًا لسواه ، حتى كاد ينفطر من شدة الحب .

(إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

أى إنا لنعلمها فى بُعْدٍ واضح عن الصواب والعِفَّة والكرامة ، حيث سمحت لنفسها بالهبوط إلى هذا الدرك الأسفل ، بمراودتها لمملوك لها ، وأمرها نافذ فيه وكيف تجاوز حبها له أقصى الحدود ، حيث مزقت ثيابه حينما حاول الإفلات منها ، وكيف تفعل معه ذلك ولها زوج عظيم ، هو عزيز مصر ، إنها لخائنة ذليلة النفس .

٣١ – (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا) :

أى فحينما بلغ هذه المرأة ما قالته نسوة المدينة فى شأن عشقها ليوسف أرسلت إليهن تدعوهن إلى ضيافتها ، وهيأت لهن من النمارق والوسائد ما يتكئن عليه فى أثناء الطعام والشراب والحديث ، وأعطت كل واحدة منهن سكينًا لتقطع به ما يحتاج إلى القطع من

الطعام كاللحم والفاكهة ، وغرضها من ذلك ماسيقع من قطعهن لأيديهن من شدة انبهارهن من جماله ـ كما سيأتى بيانه ، وسمى اغتيابهن لها مكرًا لكونه خفية منها كمكر الماكر ـ وإن كان ظاهرًا لغيرها ، وكان المترفون فى الزمان الخالى يجلسون للطعام على الوسائد والنمارق ، فإذا انتهوا منه أتموا وقتهم فى الحديث وهم على وسائدهم جالسون ، ولا تزال هذه الطريقة متبعة فى ولائم العرب ملوكًا ورعايا ، وكذا فى بلاد كثيرة .

وفسر بعضهم « المتكأ » بالطعام ، أخذًا من قولهم اتكأنا عند فلان ـ أى طعمنا عنده ـ قال جميل :

فظللنــا بنعمـــة واتكأنا وشربنــا الحــلال من قُلَلِه

وقال مجاهد : (متكأً) : أى طعامًا يُحزُّ حزًّا ، كأن المعنى : يعتمد عليه بالسكين عند القطع لأن القاطع يتكىء على المقطوع بالسكين .

(وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ....) الآية .

كان الطعام بين أيدى هؤلاء النسوة المدعوات ، وكن مشغولات به أكلاً وتقطيعًا بالسكين ، ولم يكن يوسف حاضرًا ، فدعته قائلة : اخرج عليهن ، تريد بذلك أن يفاجئهن بجماله وهن ممسكات بالسكاكين ، ولم يكن يدرى ماذا تخبئه له هذه المرأة الماكرة ، فخرج عليهن فحينما رأينه فى جماله الفتَّان ، وحسنه الرائق الفائق ، عظَّمنه وتهيَّبن حسنه الرائع ، وجرحن أيديهن بما معهن من السكاكين ، لفرط دهشتهن ، وخروج الأمر عن منهاج الإرادة والاختيار ، حتى لم يشعرن بما فعلن ، (وَقُلْنَ) : تنزيهًا لله ـ تعالى ـ عن العجز عن خلق هذا الجمال المثالى ، (حَاشَ لِلَّهِ) وغرضهن من ذلك التعجب من قدرته ـ سبحانه ـ على خلقه ، وقلن أيضًا : (مَا هَذَا) الذى نراه (بَشَرًا) ، فما مثله فى الناس أحد ، (إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ) ، يردن بهذه العبارة وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال ، وهكذا جرت العادة فى تشبيه كل متناهٍ فى الحسن بالمَلَك ، كما جرت فى تشبيه كل متناهٍ فى القبح بالشيطان .

(قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(لُمْتُنَّنِى فِيهِ): عَيَّرتُنَّنِى فى الافتتان به . (رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ) : أى طلبت مخالطته وخادعتُه عن نفسه ليحقق لى ما أرجوه من ذاته . (فاسْتَعْصَمَ) : أى امتنع طالبا للعصمة مما دعوتُه إليه ، وبالغ فى ذلك كما تدل عليه السين والتاءُ كما فى استمسك واستجمع الرأى .

(مِنَ الصَّاغِرِينَ) : من الأذِلاَّء . (أَصْبُ إِلَيْهِنَّ) : أستجب إلى هواهن .

(مِنَ الْجَاهِلِينَ) : أى من أهل الجهالة ، والمراد منها هنا السفاهة وفقدان الحكمة والرشد.

(فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ) : منع أثره عنه فلم يحقق لهن ما أردنه منه بما حصنه به من قوة الثبات على العفَّة .

التفسير

بعد أن تحقق لامرأة العزيز ما أرادت من اطِّلاع النسوة على جمال « يوسُف » عليه السلام وتأثرهن به أكثر من تأثرها به ، حتى وصل أمر الدهشة بهن إلى أن فقدن الإرادة والاختيار ، فجرحن أيديهن تجريحا من غير وعى ، وكأنهن كن يقطعن الطعام الذى بين أيديهن ، بعد أن تحقق هذا كله ، وجهت امرأة العزيز الخطاب إلى أولئك النسوة ، مبينة لهن أنها لم تكن مختارة فيما طلبته منه من المخالطة ، لشدة سلطان

جماله عليها ، وصرحت لهن بما كانت تنكره أمام زوجها عزيز مصر ؛ فقالت إنها هى التى راودته عن نفسه فامتنع ، وذلك ما قصه الله ـ تعالى ـ بقوله :

٣٢ ـ (قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) :
وكلمة (فَذَٰلِكُنَّ): فيها إشارة (بذا) إلى يوسف ، وخطاب بحرف (كن) إلى النسوة .

والمعنى : قالت امرأة العزيز للنسوة اللاتى دعتهن لطعامها بعد أن فتنهن جمال يوسف : فذلك الذى فتنتن به وقطعتن أيديكن من أجله وقلتن إنه يشبه فى الحسن والجمال الملك الكريم ، هو يوسف الذى وجهتن إلىَّ الملام بسببه وقلتن عنى : « امْرَأَةُ العزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » : وقد ملأ حبُّه قلبها ، ونحن نراها من أجل ذلك فى ضلال واضح ، فلم يعد لَكنَّ بعد ذلك الذى حدث منكن بسبب جماله مايدعوكن لملامى ، وإنى أؤكد لكن بصراحة أننى أنا التى طلبته لمضاجعتى فامتنع وبذل أقصى الجهد فى الإباء والتحفظ الشديد ـ وبعد أن بسطت العذر لهن عما كان منها ، هددته بأسلوب الملوك وأهل القهر فى جملة من التأكيدات قائلة :

(وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ) :

أى ولئن أصرَّ يُوسُف على إبائه ولم يفعل ما آمره به من المضاجعة ، ليوضعن فى السجن ، وليكونن فيه من الأذلاء .

ومما سبق تعلم أن يوسف ـ عليه السَّلام ـ لم يتجه بشهوته البشرية نحوها ، فقد ظل سنين عديدة تحت رعايتها وإكرامها وبين يديها ، ولم يتجه إليها بنظرة خبيثة ولا بعبارةٍ نابية ، وذلك لكمال نفسه وطيب خلقه ، وإعداد الله إياه للنبوة التى تنتظره وقد تأكدت هذه العصمة الربانية وتجلت بأجلى مظاهرها ، حين دعته إلى مخالطتها وبذلت له من أساليب الإغراء ما بذلت ، لترفع بذلك عن نفسه الخشية منها وتهيب مقامها وتدفعه إلى الرغبة فيها والاجتراء عليها بعد أن أذلت له أنوثتها ، وأنه مع هذا الإغراء والتمكين التام ، امتنع وأبى قائلا : « مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ » فاستعاذ بالله ولجأ إليه ليعصمه منها ، ويحميه من شباكها ، وأكد هذا الامتناع بأنه لا يخون

سيده الذى اشتراه ورباه وأحسن مثواه ليثير بذلك وازع الأمانة فى نفسها نحو زوجها ، فلعله يستيقظ من سُباته فيكُفها عنه ، ولكنها أصرّت ، فذهب إلى الأبواب ليفتحها ويهرب منها ، فهمت به تمنعه وتجذبه إليها ، وهمّ بها يدفعها عن نفسه ويحاول أن يضربها لولا أن رأى فى نفسه حُجَّة ربِّه والهامه إياه أنه لو ضربها لاستخدمت هذا الضرب حجة لها على أنه هو الذى راودها عن نفسها ، ولما امتنعت ضربها ، فكف عن ضربها ، وتمت عصمة الله له ، وعند الباب الخارجى بوغتا معا بالعزيز فتتهمه المرأة بأنه أراد بها سوءًا ، ويكذبها قميصه الذى قُدَّ من دُبُرٍ ، ويقتنع العزيز ببراءته ويوصيه بأن يعرض عن هذا الأمر فلا يذيعه فى الناس ، ولكن نساءَ القصور يجدن دائما من يتطوع بإذاعة أخبارهن ،وهكذا كان الأمربالنسبة لامرأة العزيز مع يوسف فلما تسرب أمرها مع يوسف إلى نساءِ الأمراءِ وعبن عليها ما فعلته مع غلامها الذى ترفع عليها وقاومها ، أرادت أن تقطع ألسنتهن عن غيبتها والتشهير بها ، بإيقاعهن فى شرك هواه والافتتان به مثلها ، فأعدت لهن مأْدبة يُستعمل فى طعامها السكاكين ، وبينما هن يأْكلن والسكاكين فى أيديهن يقطعن بها الطعام ، أخرجت يوسف عليهن ففوجئن بجماله الفتان فجرحن أيديهن بالسكاكين من شدة الذهول الذى أصابهن من جماله وقلن إعجابا به : « مَا هَذَا بَشَرًا إنْ هَذَا إلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ » .

وكأَنهن بهذه العبارة يقلن لها أنت معذورة فيما فعلت معه لروعة جماله وقوة تأْثيره على النساءِ .

فلما ظفرت منهن بهذا الإقرار الذى يحمل معه الاعتراف بأَنها معذورة فيما صنعت ، أجترأَت على المصارحة بما لم تصرح به من قبل ، فقالت :

(فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) :

وبذلك التصريح كذبت نفسها فيما قالته لزوجها من أنه أراد بها سوءًا ، واعترفت بأَنها هى التى راودته وأنه هو الذى امتنع أشد الامتناع وجاهد فى سبيل التخلص منها

وزادت على ذلك أنها مصرة على تحقيق رغبتها فيه من المخالطة لا يصرفها عنها لوم العوازل ، ولا إعراض الحبيب فقالت مهددة له :

(وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ) :

ليعلم يوسف أنها ليست فى أمرها معه على خفية ولا خيفة من أحد ، فتضيق عليه الحيل ، ولكى ينصحه أولئك النسوة بموافقتها ، وإزاء هذا كله ماذا صنع يوسف عليه السلام – هذا ما يجيب عنه قوله تعالى :

٣٣ – (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ) :

أى قال يوسف بعد هذا التهديد والوعيد : يارب دخول السجن آثر عندى وأسهل وأهون من المخالطة التى يدعوننى إليها ، وإلا تصرف عنى كيدهن بتثبيتى على ما أنا عليه من العصمة والعفة ، وردعهن عنى ، أُجبهن إلى ما طلبنه منى بمقتضى الطبيعة البشرية ، وأكن بذلك من أهل الجهالة والسفه ، الذين لايعملون بما يعلمون ، فإن من لم يعنه الله على العفة والحصانة ، مع هذا الإغراء والقهر قد يخونه طبعه البشرى وجبلتُه ، وتتحكم فيه قوته الشهوية ، واعلم أن السجن فى ذاته ليس محبوبا ، كما أن إجابتها إلى ما طلبته كذلك ، فهى والسجن شرّان غير محبوبين له ، ولكن أهونهما وأقربهما إلى نفسه هو السجن ، ليتخلص به من الفاحشة الكبرى فلذا عبر فى جانبه بقوله :

(أَحَبُّ إِلَيَّ) : بمعنى أسهل علىَّ – على سبيل المجاز – وقد يقال إن أهون الشَّرين يحب أحيانا ، لأنه هو الوسيلة الوحيدة لتخليصه من شرٍّ أكبر وعلى أى حال فأفعل التفضيل على غير بابه .

ومما ينبغى التنبيه إليه أنه لم يرد فى النص الكريم أن النسوة المدعوات للمأدبة ، دعونه إلى الاستجابة لامرأة العزيز ، ولا إلى الفاحشة معهن ، فلهذا يحمل قوله تعالى : (مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) على أنهن لما تأثرن بجماله إلى درجة أنهن قطعن أيديهن دعونه إلى مطاوعتها ، بل ربما طلبن منه مثلما طلبت منه ، وقيل : إن ضمير جمع النسوة فى قوله : (مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)

إلخ راجع إلى امرأة العزيز إما للتعظيم لشأنها ، وإمّا للتعريض بدل التصريح ويرجح الرأى الأول قوله تعالى حكاية عن الملك : « قَالَ مَاخَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ » [1]

٣٤ - (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

أى فتفضل عليه ربه الذى يتولى تربيته وحمايته فاستجاب له دعاءه الذى تضمنه قوله : « وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ » ولهذا ثبته وأيأسهن من موافقته لهن فصرف بذلك كيدهن عنه ، إنه - تعالى - عظيم السمع والعلم فلا يخفى عليه حاله ولا حال غيره ، وهكذا يستجيب الله سبحانه لأهل الصدق فى دعائه والاستعاذة به من كل مكروه .

(ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(بَدَا لَهُمْ) : ظهر للعزيز وأهل مشورته .

(الْآيَات) : العلامات الدالة على براءته .

(أَعْصِرُ خَمْرًا) : أى أعصر عنبًا ، سمى باسم ما يؤول إليه لكونه المقصود .

(نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ) : أخبرنا بمآل ما رأيناه فى المنام .

التفسير

٣٥ - (ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ) :

أى ثم ظهر للعزيز وأهل مشورته من بعد ما رأوا العلامات الشاهدة ببراءة يوسف وانحراف امرأته والعلامات الدالة على أنها مصرة على مخالطته غير مكترثة بالفضيحة .

(١) من الآية ، ٥١

بدا لهم من بعد ذلك أن يسجنوا يوسف ـ عليه السلام ـ حتى زمن تنقطع فيه الإشاعة ويبدو للناس من سجنه أنه هو الذى أرادها بسوء فلهذا عوقب ، وليكون وجوده فى السجن حائلا بينها وبينه حتى لاتعود إلى مراودته .

تنبيه : لو أكره رجل على الزنى بالسجن فعليه الامتناع ولو سجن ، فإن فعل فهو آثم بالإجماع : انظر القرطبى فى تفسير الآية .

٣٦ ـ (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ) :

يطلق الفتى على الشاب ، من الفتاء وهو الشباب ، ويطلق أيضًا على العبد صغيرًا كان أو كبيرًا كما قاله الماوردى .

وكان الفتيان اللذان دخلا السجن بصحبة يوسف عبدين للعزيز ، أحدهما ساقيه ، والآخر صاحب طعامه وقيل :خبازه ، وروى بشأنهما روايات لا سند لها فلذا ضربنا صفحًا عنها والمعنى : ودخل السجن مع يوسف فتيان من عبيد الملك ورأى كل منهما فى نومه حلمًا أحس بحاجته إلى تأويله لتستريح نفسه ، فإن السجين كثير الخوف من المستقبل محتاج إلى الطمأنينة وقد اعتاد البشر من قديم على الاستعانة بالأحلام للكشف بها عن المجهول ، وإذا لم يستطع الحالم تأويل حلمه لجأ إلى من يحسنه ويشتهر بذلك ، وكان يوسف ـ عليه السلام ـ يخبر السجناء ببعض الغيوب ـ كما سيأتى بيانه ـ فلهذا أخبراه بحلميهما ، قال أحدهما : إنى أرى فى منامى أننى أعصر عنبًا ليتحول إلى خمر بعد حين ، وقال الآخر : إنى أرى فى منامى أننى أحمل فوق رأسى خبزًا تنقره الطير وتأكل منه ، ثم قالا له بعد أن عرضا عليه حلميهما.

(نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) :

أى أخبر كُلاًّ منّا بتأويل حلمه الذى عرضه عليك مفصلا : إنا نراك من الذين يحسنون تفسير الأحلام ، حيث إنك تعودت أن تفسر للسجناء أحلامهم قبل أن نرى حلمنا .

وتأويل الإحسان بذلك هو الأقرب إلى المقام ، حيث عرضا حلميهما عليه ، لأنهما جربا خبرته مع غيرهم فى تأويلها إلى درجة الإحسان .

ومن المفسرين من حمله على إحسان العلم ، وبه قال الفراء ، ومنهم من حمله على الإحسان فى المعاملة وذلك لأنه كان يعود المرضى ويداويهم ، ويساعد المحتاجين ويواسى السجناء وييسرى عنهم ويصبرهم .

وقيل: معناه من المحسنين إلينا إن فسرته لنا وأرحت قلوبنا .

واختلف فى رؤياهما فقيل إنها مصطنعة وليست حقيقية ، فعن ابن مسعود : قال أحد الفتيين لصاحبه : تعال حتى نجرب هذا الفتى العبرانى ، فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئًا ، قاله ابن مسعود .

وقيل: إنها صحيحة وهو الظاهر ، قال ابن عباس ومجاهد : كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها ، ولذلك صدق تأويلها .

(قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾)

التفسير

٣٧ - (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا) :

لما طلب السجينان من يوسف عليه السلام أن يعبر لهما حلميهما وقالا له : (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) أخبرهما بما يحقق صحة ما اعتقداه فيه من أنه ممن يحسنون تأويل الأحلام

تحدثاً بنعمة الله عليه ، وذلك أنه قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا أخبرتكما قبل حضوره إليكما بنوعه وأوصافه ، فقد كان من عادته ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قبل حضور الطعام إليهما ، يقول لهما : اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت ، فيجدانه كذلك بعد حضوره ، وأطلق التأويل على ذلك تشبيهًا له بتأويل الرؤيا ، فإنهما يشتركان فى الإخبار بالغيب .

ولما آنس منهما الثقة به وحسن الظن فيه ، حيث قالا له : « إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » أراد أن يفهمهما مصدر هذا الإحسان ، ومنشأ هذا العلم الذى تجلى به واستحق به صفة الإحسان ، فقال مخاطبًا إياهما مشيرًا إلى ما عنده من العلم .

(ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) :

أى ذلكما الذى عرفته من تأويل الرؤيا والإخبار بالمغيبات ، بعض ما علمنيه ربى بالوحى أو الإلهام من العلم ، فلست أخبركما به تكهنًا فما أنا بكاهن ، وقد علمنى ربى إياها لأنى تركت ملة قوم مشركين لايؤمنون بالله على الوجه الذى يليق بجلاله ، بل يشركون معه غيره ، وهم بالآخرة هم كافرون ، فلا يؤمنون بالبعث ولا بالنشور ولا بالثواب ولا بالعقاب ، والمراد من تركه للتهم أنه لم يدخلها أصلا ، ولهذا قال فى الآية التالية : « مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ » .

٣٨ ـ (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) :

أى تركت ملة الوثنيين من قومى ، حيث نشأت متبعًا ملة آبائى الذين أرسلهم الله لهداية الخلق إلى ملة التوحيد ، وهم إبراهيم ومن بعده ولده إسحق ، ثم حفيده يعقوب والد يوسف عليهم السلام .

(مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ) :

أى ماصح ولا استقام لنا معاشر الأنبياء ، أن نشرك بالله أى شىء من الكائنات العاقلة وغيرها ، فكلها مخلوقة لله وآيات شاهدات بوجود الله ووحدانيته ، فلا يصح أن نعبدها مع الله .

(ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) :

أى ذلك المنهج الذى سلكناه فى عقيدتنا ناشئ من فضل الله علينا ، حيث أيدنا بالنبوة وجعلنا أهلا لتبليغ رسالته إلى الناس ، وقيادتهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم ومن فضله على الناس أيضا ، حيث وفقنا لإرشادهم إلى توحيده ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله بتوحيده وإجابة المرسلين إلى العمل بما جاءهم به ، مع أنه تعالى أقام الأدلة والآيات فى الأنفس والآفاق على استحقاقه وحده للعبادة .

(يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(يَاصَاحِبَىِ السِّجْنِ) :المراد بهما الفتيان اللذان دخلا معه السجن ، ورأيا فى منامهما الحلمين وعرضاهما عليه ليعبرهما لهما .

(أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ) : متعددون لا ارتباط ولا اتفاق بينهم .

(القَهَّارُ) : الغالب الذى لا يدانى فى قهره ولايعارض فى مراده ، ولا يستعصى عليه جبار ولا يفوته مطلوب . (مِنْ سُلْطَانٍ) : من حجة .

(أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا) : أسماء اتخذتموها دون أن يكون لها مسميات على الحقيقة .

التفسير

٣٩ - (يَاصَاحِبَىِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) :

بين الله تعالى فيما سبق من الآيات أن يوسف لما دخل السجن صحبه فتيان وأنهما رأيا حلمين ، وطلبا من يوسف عليه السلام أن يعبرهما ، وأن يوسف قبل أن يعبرهما ذكر للسجينين المذكورين أنه اعتاد معهما أن يخبرهما بالغيب قبل حدوثه ، فكان لا يأتيهما طعام إلا أخبرهما بنوعه وحاله ووصفه قبل مجيئه ، حتى إذا جاءهما كان على وفق ما حدثهما به ، ثم بين لهما أن مصدر العلم بذلك هو الله ربه ، فهو الذى علمه إياه ، ولم يكن من باب الكهانة والتنجيم ، وأنه ترك ملة قومه المشركين ، فلم يشاركهم فى شركهم وكفرهم بالآخرة ، واتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وأنه لا يصح له ولا لأحد أن يشرك بالله شيئا ، وأن معرفة البشر بوحدانيته تعالى من فضل الله عليهم .

وجاءت هذه الآية لإقامة الدليل لصاحبى السجن على فساد الشرك ، وبيان أن الحكم فى أمر العباد ليس إلا لله تعالى ، وأنه جل وعلا أمر أن لا يعبد أحد سواه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك ، لإفسادهم فطرتهم وسوء اختيارهم ، وأنت ترى من عرض هذه المعانى لتلك الآيات ، أن يوسف عليه السلام - لم يتعجل إجابة صاحبى السجن بتفسير حلميهما كما طلبا ، بل بدأ يمارس معهما ما أعده الله له من النصح والإرشاد لعباده ، والهداية إلى توحيده وعبادته ، كما هو شأن آبائه المرسلين عليهم السلام . وكان يرجو بذلك أن يهديهما الله تعالى إلى الحق ، فمن اهتدى منهما كان من أهل النجاة والسعادة ، ومن نجا منهما كان داعيا لمن حوله من بطانة العزيز إلى توحيد الله تعالى ، وكأنه يقول لهما : عندى العلم بتأويل رؤياكما فأنتما تعلمان أنه لا يأتيكما طعام إلا أخبرتكما بتأويله قبل أن يحضر إليكما ، ولكن تعالوا فاسمعوا أولا ما يطهر عقيدتكما من الشرك ، ويهديكما إلى معرفة الواحد الديان قبل أن أعبر لكما رؤياكما ، ثم قص عليهما مصدر علمه بالتأويل ، وتحدث عن ملة إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وأنه لا يصح الإشراك بالله ، لأنه لو تعددت الآلهة وتفرقت لفسدت السموات والأرض ، وهذا المعنى الأخير هو الذى أشار إليه قوله تعالى حكاية عنه :

(يَاصَاحِبَىِ[1] السِّجْنِ ءأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ) :

والمراد بصاحبي السجن الفتيان اللذان دخلا السجن معاقبين معه : وناداهما بعنوان الصحبة له في السجن لأن السجن مدار الأشجان ، ودار الأحزان ، التي تصفو فيها مودة نزلائه فلهذا ناداهما بعنوان الصحبة له ، ليقبلا عليه ويقبلا منه ما ينصحهما به .

والمعنى : يارفيقى اللذين رافقاني وصحباني في السجن أخبراني : أأرباب شتى متفرقون لا ارتباط بينهم ولا اتفاق ، خير لهذا الكون ، أم الله المنفرد بالألوهية والخلق والإيجاد . الغالب لكل ما في السموات والأرض ، فلا يتعاصى عليه مقدور فيهما ، ولا يمتنع عليه أن يخلق غيرهما ، فكيف يعبد المشركون سواه ، مع أنه مخلوق لله ، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا

وبعد أن نبه يوسف صاحبي السجن إلى فساد تعدد الأرباب ، بين لهما سقوط منزلتها وفقدان أهليتها للربوبية فقال لهما كما يحكيه الله تعالى :

٤٠ ـ (مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ) :

الخطاب في قوله (مَا تَعْبُدُونَ) لصاحبي السجن وقومهما ، ولذا قال بعد ذلك (سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآباؤُكُم) بخطاب الجماعة أو المراد بالجمع مافوق الواحد ، ثم عطف عليهم آباءهم .

والمعنى : ما تعبدون ياقوم عزيز مصر إلا أسماء ليس لها مسميات في الحقيقة فكل ما عبدتموه وأطلقتم اسم الألوهية عليه لا يستحق الألوهية ، وتكون عبادتكم لتلك التي زعمتموها آلهة ، عبادة أسماء ليس لها مسميات في الواقع .

(مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) :

أي ما أنزل الله بألوهيتها من حجة تصحح ألوهيتها وتسوغ عبادتها .

(إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ) : ماالحكم في الألوهية وغيرها إلا لله سبحانه ، والله لم يحكم بها لأحد سواه ، لأنه لا إله غيره ، ولا يستحق الألوهية سواه فكل ما عداه عبده ومحتاج إليه ، فلهذا (أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) : وعقب هذا بقوله (ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ) .

(١) أصله يا صاحبين لى فى السجن فأضيف الصاحبان إلى السجن الذى هو ظرف لهما وموضع لصحبتهما ، ومن هذا الاستعمال قول العرب : يا سارق الليلة أهل الدار : أى ياسارقا فى هذه الليلة أهل الدار .

هكذا يحكى الله تعالى ما دار بين يوسف وصاحبيه فى السجن وخلاصته : أنه أعلمهما أن التى يعبدونها ويسمونها آلهة لا تصلح للألوهية ، وأنها أسماء بلا مسميات وألوهيتها دعوى بغير دليل ، وأن المستحق للألوهية هو الله وحده ، ولهذا لم يحكم بها لسواه ، بل أمر أن لا يعبدوا غيره ، وأخبر أن ذلك هو الدين المستقيم الذى أجمعت على استقامته وصحته الأدلة النقلية والعقلية ، ثم قال :

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

أى ولكن أكثرهم يجهلون أن ذلك هو الدين المستقيم دون سواه ، لأنهم لم يستعملوا عقولهم فى الاستدلال على الحق سبحانه بآياته .

وبعد أن بين يوسف عليه السلام لصاحبى السجن أن عبادة الله تعالى هى الحق ، وأنها خير لهما من عبادة الأرباب المتفرقين الذين ليس لهم من صفة الألوهية أدنى نصيب ، وأن الحكم لله وحده فى الكون كله ، فلا ألوهية لأحد سواه ، وأنه تعالى أمر أن لا يعبدوا إلا إياه ، وأن هذا هو الدين القيم — بعد أن بين لصاحبى السجن كل ذلك — شرع يعبر لهما ما رأياه فى النوم ويفسره لهما فقال :

(يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(فَيَسْقِى رَبَّهُ) : أى فيسقى سيده . (تَسْتَفْتِيانِ) : تطلبان الفتيا .

(عِندَ رَبِّكَ) : عند سيدك . (بِضْعَ سِنِينَ) : البضع ، العدد من الثلاث إلى التسع ، واشتهر أن يوسف مكث فى السجن سبع سنين .

التفسير

٤١ - (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ) :

كرر يوسف النداء هنا لصاحبي السجن بعد أن أطال الحديث معهما فى دعوتهما إلى الحق ، تنبيهًا على أنه سيدخل بهما موضوعًا آخر مغايرًا له ، وهو تعبير حلميهما الذى طلباه ، يقول يوسف: يا صاحبي فى السجن ، إليكما تعبير رؤيا كليكما ، أما أحدكما - وهو الذى رأى فى منامه أنه يعصر خمرًا - فإنه يعود إلى خدمة سيده الملك بعد أن يعفو عنه ويخرج من السجن ، وسيقوم على شرابه فيسقيه خمرًا ، وأما الآخر - وهو الذى رأى فى منامه أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل منه الطير - فإنه يصلب فتأكل الطير من رأسه ، ثم أغلق الباب دون التساؤل أو التضرر مما أفتاهما به فقال :

(قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) :

أى أتِمّ الأمر الذى كنتما تستفتيان فيه وأُحكِم ، ولم يعد فيه مجال للافتراض أو العدول عنه ، فهو إخبار موافق لما علمه ربه إياه وأرشده إليه ، وليس فيه حدس ولا تخمين ، والمراد بالأمر الذى فيه يستفتيان : ما رأياه من الرؤيين ، وليس المراد مآلهما الذى هو نجاة أحدهما وهلاك الآخر - كما قال العلامة أبو السعود - فكأنه قال - عبرت لكما رؤييكما وأنا واثق من صدق تعبيرهما .

٤٢ - (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) :

أى وقال يوسف للسجين الذى ظن نجاته من صاحبي السجن - وهو الذى رأى فى منامه أنه يعصر لسيده الملك خمرًا - وأفتاه بأنه سيعود إلى خدمته : قال يوسف لهذا السجين : اذكرنى عند سيدك الملك حين تعود إلى خدمته ، وحدثه عن تعبيرى لرؤياك ورؤيا صاحبك حتى تحقق أمرهما على ما أخبرتكما ، وأخبره أننى مظلوم حبست بلا ذنب ، لعله يخرجنى من السجن ، ويمحو هذا الظلم عنى .

وكان يوسف يرجو أن يسارع بإخبار الملك حين يعود إلى خدمته . وفاءً بعهده معه ، وإدراكا منه لما يقاسيه السجين فى السجن من العذاب النفسى ، والحرمان من الحرية ، فقد شاركه فى ذلك . ولكن الشيطان الذى يكره الوفاء بالعهد أنساه تذكير سيده الملك بأمر يوسف . حيث شغل قلبه بما استجد له من نعمة الحرية والعودة إلى العمل فى قصر الملك . وشواغل الخدمة المتتابعة لسيده . فمكث يوسف فى السجن بعد خروج صاحبه السجين بضع سنين – والبضع من الثلاث إلى التسع كما تقدم – ويقال إنه مكث فى السجن سبع سنين .

وأعاد بعض المفسرين الضمير فى قوله تعالى :(فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) إلى يوسف عليه السلام . أى فأنسى الشيطان يوسف ذكر ربه سبحانه . فلجأ إلى صاحبه السجين وقال له : اذكرنى عند ربك – أى سيدك الملك – فعاقبه الله بأن أبقاه فى السجن بضع سنين ، جزاءً له على تركه الاعتماد على الله تعالى . والميل فى طلب النجاة إلى عبد من عبيده . وكان عليه أن يشكو إلى الله ويستغيث به .

وأصحاب هذا القول اعتمدوا على أحاديث واهنة لا يصح الأخذ بها . ومايظن أحد من المنصفين وأهل التحقيق أن يوسف ترك الشكوى إلى الله . وهو الذى استعاذ بالله من خيانة العزيز الذى أحسن مثواه . وعف عن الحرام والإثم الذى كانت تدفعه إليه زوجته الخاطئة بشتى المغريات . وهو الذى دعا السجينين إلى توحيد الإله سبحانه وترك الأرباب المتفرقين ، الذين هم أسماء بلا مسميات . والحق ما قلناه أولا من أن الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو ساقى الملك . والدليل الحاسم على ذلك هو قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ » : أى وقال الذى نجا منهما وتذكر يوسف بعد مدة طويلة : الخ . كما أنه لا مجال لأن يتسلط الشيطان على نبى فينسيه ذكر ربه وهو يقول سبحانه : « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »[1] على أن الأخذ بالأسباب مشروع قال تعالى : « فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ »[2] .

(١) الإسراء ، من الآية: ٦٥ (٢) الملك ، من الآية: ١٥

(وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(عِجَافٌ): جمع عجفاء على غير قياس[1] والعجفاء الهزيلة . (الْمَلَأُ): الأشراف والمراد بهم هنا الكهان والحكماء . (أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ): فسروها لى وبينوا عاقبتها .

(أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ): أخلاط أحلام لاتؤول ، والأضغاث جمع ضغث ، يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ، وقد استعير للرؤيا الغامضة لفظ الأضغاث ، لأنها أخلاط من أحاديث العقل الباطن وخيالاته ومخاوفه وآلامه وآماله .

التفسير

٤٣ - (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ) :

بعد أن عبر يوسف الرؤيين وتحقق تأويله لهما ، حيث قتل الخباز وصلب ، وأخرج الساقى من السجن وأعيد إلى خدمة الملك ، بقى يوسف فى السجن ، ونسى الساقى أمره ، فساق الله سببًا يخرج به يوسف من السجن عزيزًا كريمًا ، وذلك أن ملك مصر رأى فى منامه رؤيا أزعجته ، فجمع كبار الكهنة والحكماء فى مملكته وقال لهم مستحضرًا للصورة التى شاهدها فى منامه : إنى أرى سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع بقرات فى غاية الهزال ، وأرى سبع سنبلات خضر قد امتلأت بالحب ولم تجف بعد ،

(١) القياس أن تجمع على عجف كحمراء وحمر .

وسبع سنبلات أُخر قد يبست وجف حبها ونضج ، وبعد أن قص هذه الرؤيا على حكمائه ومستشاريه من الكهنة ناداهم قائلا :

(يَـٰٓأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) :

أى يـأيها الرؤساء من الكهنة والحكماء فسروا لى رؤياى ، وبينوا لى حكمها ومآلها ، إن كنتم لجنس الرؤيا تعرفون تفسيرها ، حتى تستطيعوا أن تنتقلوا من الصور الرمزية المشاهدة فى المنام ، إلى صور وأمثلة لها فى حقائق الحياة ، وعَبْرُ الرؤيا مأخوذ من العبور وهو المجاوزة ، تقول عبرت النهر أى قطعته وجاوزته ، وكذلك يفعل مفسر الرؤيا ، فإنه يعبر بها من الخيال إلى الحقيقة ، أما تأويلها فمعناه بيان مآلها فى ظاهر الحياة ، وعبر الرؤيا وتعبيرها بمعنى واحد ، غير أن الأول لغة القرآن ، فهو أولى من الثانى ، وبعد أن سألهم إفتاءه فى رؤياه إن كانوا يستطيعون عبر الأحلام أظهروا عجزهم ،وذلك ما يحكيه الله تعالى بقوله :

٤٤ ـ (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ) :

أى قال الملأ من الكهان والحكماء : هذه الرؤيا أخلاط أحلام كأضغاث النبات المختلطة ، فلا تأويل لها عندنا ، يريدون بذلك أن يخرجوا رؤيا الملك من جنس الرؤى الصادقة التى يمكن تأويلها لأهل العلم ، وأن يجعلوها من جنس الأحلام الكاذبة ، التى لا يستطاع تأويلها ، ولهذا قالوا : (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ) ويجوز أن يكون هذا القول منهم اعترافًا بقصور علمهم عن تأويل الأحلام مطلقًا لأنهم ليسوا بنحارير[1] ـ كما قال أبو السعود ـ وإطلاق الأحلام على الكاذب منها والرؤى على الصادق منها عرف غالب ، وإن كان كلاهما عامًا فى الصادق والكاذب ، ولهذا قالوا أخلاط أحلام ، يريدون أنها ليست من الأحلام الواضحة التى يمكن تأويلها ويصدق مدلولها وقد سوى صاحب القاموس بينهما بقوله : الحلم بالضم وبضمتين الرؤيا .

(١) أى ليسوا علماء متعمقين فى تأويل الأحلام مع أن لها تأويلا .

(وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) : قرىء بضم همزة (أُمَّةٍ) وتشديد ميمها مفتوحة[1] . أى وتذكر بعد جماعة كثيرة من الزمن ، قال الأخفش : هو فى اللفظ واحد . وفى المعنى جمع : أ هـ . وكل جماعة كثيرة فهى أمة . (ٱلصِّدِّيقُ) : الكثير الصدق .

التفسير

٤٥ - (وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ) :

أى وبعد أن عرض الملك رؤياه على رهبانه وحكمائه . وعجزوا عن تأويلها قائلين «وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ» قال الذى نجا من صاحبى يوسف فى السجن ، والتحق بخدمة الملك ساقيًا له ، وقد تذكر يوسف وقدرته العظيمة على تأويل الرؤيا . وأنه أوصاه أن يذكره عند سيده لعله يخرجه من السجن لأنه مظلوم « وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا » للملك وأهل مجلسه : أنا أخبركم بتأويل حلم الملك بعد أن أعرفه من عليم بتأويل الأحلام فأرسلونى إليه لأسأله .

٤٦ - (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ) :

أى فأرسلوه إليه . فناداه نداءً يشتمل على الثقة بصدقه العظيم فى أمره كله ، وبخاصة فى تأويل الرؤيا حسبما جربه منه وشاهد أحواله . إذ قال له فى براعة استهلال : يا يوسف

(١) وقرئ (بعد أمة) بكسر الهمزة وتشديد الميم ، ومن معانيها . النعمة ورغادة العيش ، وقرئ (بعد أمه) بهمزة مفتوحة . وميم مفتوحة مخففة وهاء مهملة . أى بعد نسيان . ومنه قول الشاعر :

أمهت وكنت لا أنسى حديثا كذاك الدهر يودى بالعقول

أيها البليغ الصدق : أفتنا فى رؤيا سبع بقرات سمان . يأكلهن سبع بقرات شديدة الهزال وأفتنا فى سبع سنبلات خضر مليئة بالحب وسبع سنبلات أخر يابسات ناضجات الحب ، وبين لنا مآلها وحكمها فى عالم الشهادة .

وإنما قال ليوسف (أفتنا) بضمير الجمع مع أنه وحده هو المستفتى . للإشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له شأن فى أمور الناس . وأنه فى حكايتها سفير لغيره ، ولهذا ختم استفتاءه بقوله :

(لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) :

أى لكى أرجع إلى من بيدهم الأمر ليعلموا تأويلها ويعملوا بمقتضاه ، وليعلموا فضلك ومكانك العلمى العظيم مع ما أنت فيه من الحال ، فينتبهوا إليك ويخلصوك مما أنت فيه .

ولم يقل : لأرجع إلى الناس ليعلموا ، بل عبر بأسلوب الرجاء (لَعَلِّي أَرْجِعُ) الخ جريًا على نهج الأدب مع يوسف ، واحترازًا عن المجازفة بأسلوب اليقين ، لأنه لم يكن على يقين من رجوعه ، فربما اخترمته المنية قبل أن يعود إلى مجلس الملك ، كما أنه لم يكن على يقين من بقائهم حتى يعلمهم ، فإن العالم بذلك كله هو الله ـ تعالى ـ وحده .

(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(دَأَبًا) : مصدر دأب فى العمل ـ أى جدّ فيه . (سَبْعٌ شِدَادٌ) :سبع سنين صعاب على الناس . (مِمَّا تُحْصِنُونَ) :مما تدخرون من البذور . (يُغَاثُ النَّاسُ) : من الغيث أى يمطرون فى

وقت الحاجة ، يقال غِيثَتْ البلاد إذا مطرت فى وقت الحاجة ، ولذا يسمى المطر فى هذه الحالة غيثا ويصح أن يكون من الغوث ، يقال أغاثنا الله أى أمدنا برفع المكاره حين داهمتنا .

التفسـير

٤٧ - (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ) :

لما انتهى رسول الملك من إخبار يوسف برؤيا الملك التى أزعجته ، أول يوسف البقرات السمان والسنبلات الخضربسنين مخصبات ذات زروع وثماركثيرة ، وأول البقرات العجاف والسنبلات اليابسات بسنين مجدبة تؤكل فيها حبوب جافة مخزونة فى سنابل جافة ؛ ووصف الطريقة التى يجتازون بها أزمة المجاعة فى سبع سنين متتابعة ، فقال لسائله بعد إحساسه وإدراكه أن السائل هو الملك : تزرعون الأرض سبع سنين دائبين جادين غير متوانين ولا كسلين ، حتى تجود الأرض بأقصى خيراتها وأغزر ثمارها وحبها ، فتلك السنوات السبع ذات الزروع والثمار الغزير هى تأويل البقرات السبع السمان والسنابل الخضر اليانعات ، فما حصدتموه فى كل سنة فاتركوه واختزنوه فى سنابله ولا تجردوه لكى ينجو من أكل السوس ، إلا قليلا من حبها تعدونه للأكل كل عام فليس عليكم بأس من تجريده من سنابله .

فأنت تراه قد استدل على زراعة القمح سبع سنين دأبا بالسنبلات السبع الخضر فهى إشارة إلى السنوات السبع الخصيبة ، واستدل على تخزين القمح فى سنابله سبع سنين بالسنبلات السبع اليابسات ، واستدل على أن السنوات السبع الأخيرة ستكون جدباء وأنه يجب الاحتياط لها بتخزين الطعام ، استدل على ذلك بالبقرات السبع العجاف التى أكلت البقرات السبع السمان كما سيأتى بيانه ، ويبدو أن تخزين القمح فى سنابله لمدة طويلة تصل إلى سبع سنين لم يكن معروفًا لدى قدماء المصريين ، فقد كانوا يزرعون لكل عام ولا يحرمون من فيضان النيل سبع سنين متتابعة فلذا أرشدهم يوسف إلى هذه الطريقة المثلى فى التخزين لمدة طويلة ، ولا عجب فى أن يخبرهم بها

يوسف - عليه السلام - مع أنه لم يألف مثل ذلك ، فقد علمه ربه علومًا كثيرة ، وحسبك دليلا على ذلك قوله لصاحبي السجن : « ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي » .

وقد قال القرطبي تعليقًا على هذه الآية ما يلى :

هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال ، فكل ما تضمن تحصيل شىء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يفوت شيئًا منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة ، ولا خلاف فى أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ، ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ومراعاة ذلك فضل من الله - عز وجل - ورحمة رحم بها عباده من غير وجوب عليه الخ .

ثم شرع يوسف يبين بقية التأويل فقال :

٤٨ - (ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ) :

أى ثم يأتى من بعد السنين الخضراء التى تجدون وتتعبون فى الزرع فيها فتأكلون منه وتدخرون من حبه - يأتى من بعد ذلك - سبع سنين صعاب على الناس يأكلن ما قدمتم لهن من الحب المتروك فى سنابله إلا قليلا مما تدخرونه منها لبذور الزراعة ، وإسناد الأكل إليهن مع أن الآكلين هم الناس ، على سبيل المجاز كما فى قولهم : نهاره صائم ، وفى هذه الآية تأويل أكل البقرات السبع العجاف التى هى رمز للسنوات السبع الجدباء للبقرات السبع السمان التى هى رمز للسنوات السبع الخصبة .

٤٩ - (ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) :

أى ثم يأتى من بعد ماذكر من السنين الخصيبة والجدباء عام فيه يمطر الناس بالغيث الذى كانوا محرومين من تتابعه وغزارته سبع سنين ، وفيه يعصرون ما يقبل العصر من الثمار والحب وغيرهما ، كالعنب والزيتون والسمسم والقصب . وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع .

(وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(مَا بَالُ النِّسْوَةِ) : ماحالهن .

(ما خَطْبُكُنَّ) : ما شأنكن ، والخطب الأمر الذى يستحق أن يخاطب المرءُ فيه صاحبه .

(قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ) :تنزيها لله وتعجبًا من نزاهة يوسف .

(حَصْحَصَ الْحَقُّ) : وضح بعد خفاء ، وأصله بمعنى تبينت حصة الحق من حصة الباطل.

(لَايَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ) : أى لا ينفذه ولا يوصله إلى غايته .

التفسير

٥٠ - (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ مَابَالُ النِّسْوةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) :

بعد أن سمع رسول الملك من يوسف تأويل الرؤيا عاد وأخبره بما سمعه من يوسف ، ويبدو أنه حدثه بعلمه وفضله وخلقه وأنه قد حُبس ظلمًا سنين كثيرة ، فعرف فضله على خاصته وكهّانه وأدرك أن حقه فى الحرية والكرامة ينبغى أن يرد إليه .

وقال : ائتونى بيوسف ، فلما جاءه الرسول يدعوه إلى لقاء الملك لم يشأ أن يجيبه إلى طلبه قبل أن تظهر براءته ، بل قال له : ارجع إلى سيدك فاسأله ماحال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ودعونه إلى الفحشاء ، يريد بذلك أن يحقق الملك فى شأنهن معه ليعلم نزاهته مما نسبته إليه من مراودته إياهن .

وإنما لم يتعرض يوسف لامرأة العزيز مع أنها أصل البلاء ، محافظة على حقها ، وتفاديًا لمكرها . وأما النسوة فقد كان يطمع فى شهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ، لذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدى . ولم يصرح بمراودتهن له وقولهن أطع مولاتك ، واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله :

(إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) : مجاملة لهن . واحترازًا من خصومتهن له دفاعًا عن أنفسهن ، إذا سمعن أنه ينسبهن إلى الفساد .

٥١ ـ (قَالَ مَاخَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ) :

قال الملك لما جاءه الرسول بطلب يوسف أن يحقق مع النسوة : ماشأنكن حين راودتن يوسف وخادعتنّه عن نفسه بترغيبه فى إطاعة مولاته هل وجدتن فيه من سوء وريبة .

(قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ) .

أى قلن مجيبات للملك : « حَاشَ لِلَّهِ » أى تنزيها لله . يردن بذلك تبرئة يوسف والاعتراف بنظافته وعفته . ولذا عقبن هذه العبارة بما أردنه منها وهو قولهن :

(مَاعَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ) : مبالغة منهن فى نزاهة يوسف عن جنس السوء . فضلا عن الفحشاء .

(قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ) : مقرة بالحق فى مجلس التحقيق .

(الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ) : أى الآن فى هذا المجلس تبين الحق ووضح بعد خفاء ، أنا راودته عن نَّفْسِهِ

(وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) : فى تنزيه نفسه عن مراودته لى عن نفسى ، وهكذا يحق الله ـ تعالى ـ الحق على رؤوس الأشهاد . إظهارًا لكرامة الصادقين من عباده ، وبذلك تحقق ليوسف ما أراده من ظهور براءته ونزاهته قبل خروجه من السجن فى هذا المجلس الحافل ،

حتى يطمئن الناس إلى طهره يقينا ، ولا سيما العزيز الذى رباه ، ولذلك قال يوسف عقيب ذلك .

٥٢ - (ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ) :

أى ذلك الذى تقدم من البقاء فى السجن حتى يسأل الملك النسوة ، وتظهر براءتى مما نسبته امرأة العزيز إلىَّ ، ليعلم العزيز قبل خروجى من السجن علمًا صادرًا عن اعتراف زوجته - ليعلم - أنّى لم أخنه بالغيب وراء الأبواب المغلقة والستور المرخاة ، كما زعمت امرأته ، وليعلم أيضًا أن الله تعالى لا يُنَفِّذ كيد الخائنين ، ولا يوصله إلى السداد بل يبطله كما فعل بزوجته ولو كنت خائنًا له فيها لفضحنى ولم يهد كيدى كما فعل بها .

ويعلم مما تقدم من التأويل أن هذه الآية حكاية لما قاله يوسف - عليه السلام - تبريرًا لإصراره على إظهار براءته قبل خروجه من السجن ، حتى لا يحمل خروجه قبل ذلك على أنه من باب العفو عنه مكافأةً له على تأويل رؤياه ، ولعله قال مضمون هذه الآية : (ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ) الخ بعد أن عاد إليه رسول الملك وأخبره بما جرى فى مجلس التحقيق من ظهور براءته ، وعلى هذا التأويل يكون قوله تعالى : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى » .

حكاية لكلام يوسف بعد ما ظهرت براءته بإقرار النسوة أمام الملك وجلسائه .

وقيل إن الآيتين حكاية لكلام امرأة العزيز ، ومعنى هذه الآية على أنها حكاية لكلامها : ذلك الذى قلته عن يوسف وهو غائب عن هذا المجلس وحبيس فى السجن من أننى راودته عن نفسه ، ليعلم أنى لم أخنه ولم أكذب عليه فى حال غيبته عن هذا التحقيق ، بل قلت الحق الذى أنكرته عبر هذه السنين ، وليعلم أن الله لا يهدى كيد الخائنين .

وسيأتى بيان قوله تعالى « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ » على الوجهين المذكورين .

واعلم أن يوسف - عليه السلام - بلغ من النزاهة وكرم النفس مبلغًا عظيمًا وحسبك أنه لم يتعجل الخروج قبل أن تظهر براءته علنية على هذا النحو المشرف ، مع أنه

لبث فى السجن سنين كثيرة قال ابن عطية تعليقًا على ذلك :كان هذا الفعل من يوسف أناة وصبرًا ، وطلبًا لبراءة الساحة ، وذلك أنه خشى أن يخرج وينال من الملك مرتبة فيقول الناس : هذا هو الذى راود امرأة مولاه ، وقد صفح عنه الملك ، ويراه الناس أبدًا بتلك المنزلة ، فأراد أن يبين براءته ، ويحقق منزلته من العفة والخير ، ويخرج بعد شرف البراءة ليحظى من الملك بالمرتبة السنية على طهر وكرامة ، فلهذا قال للرسول : ارجع إلى ربك لينظر فى أمرى : هل سجنت بحق أو بظلم : ا هـ ملخصًا ولقد أعظم النبى – صلى الله عليه وسلم – مكانته من الصبر والنزاهة وعزة النفس والكرامة فقال :

« إنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكرِيمِ[1] يُوسُفُ بنُ يَعْقُوبَ بنِ إسْحٰقَ ابنِ ابْراهيمِ قال – وَلَوْ لَبِثْتُ فِى السِّجْنِ مَا لَبِثَ ثُمَّ جاءَنى الرَّسولُ أَجَبْتُ – ثم قرأ : « فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ».

الحديث : أخرجه الترمذى فى صحيحه – والحديث مروى فى الصحاح بعبارات متقاربة .

والنبىّ – صلى الله عليه وسلم – مع كونه يشير فى الحديث إلى مكانة يوسف من الصبر والنزاهة ، لكنه يومىءُ إلى أنه بالغ فى ذلك ، وأنه كان الأحوط أن يخرج حتى لا يعدل الملك عن إخراجه لأنه لم يجب طلبه بالحضور إليه ، ولأن هذه المرأة إن كانت زوجته أو زوجة وزيره فإن سؤال النسوة عنها سينتهى إلى فضيحتها ، فربما عدل عن سؤالهن لذلك ، وآثر إبقاءه فى السجن ، لا شتراطه للخروج شرطًا يؤدى تحقيقه إلى هذه الفضيحة ، فيظل مسجونًا ظلمًا .

وقال ابن عطية : فإن قيل : كيف مدح النبى – صلى الله عليه وسلم – يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج ، ثم يذهب بنفسه عن حالة مدح بها غيره ، فالوجه فى ذلك أن النبى – صلى الله عليه وسلم – إنما أخذ لنفسه وجهًا آخر له جهة من الجودة

(١) تكررت (ابن الكريم) ثلاث مرات .

يقول : لو كنت أنا لبادرت بالخروج . ثم حاولت بيان عذرى وبراءتى بعد ذلك . لأن هذه القصص والنوازل معرضة لأن يقتدى بها الناس إلى يوم القيامة . فأراد الرسول - صلى الله عليه وسلم - حمل الناس على الأحزم من الأمور حتى لاتضيع فرصة الخروج من السجن فى مثل ذلك . وتنصرف نفس مخرجه عنه . وإذا كان يوسف قد أمن ذلك بعلمه من الله ، فغيره من الناس لايأمن ذلك فالحالة التى ذهب النبى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه إليها حالة حزم . وما فعله يوسف عليه السلام صبر وجلد : انتهى ملخصًا .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
محمد حمدى السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية
٦٩٥-١٩٧٩-٢٥٠٠٤


Bibliotheca Alexandrina
0327281